مجلة جامعة ابن رشد

في هولندا

دورية علمية محكّمة تصدر فصليا

السعر 10 يورو **العدد السادس**



مجلة

جامعة ابن رشد في هولندا

دوريّة علمية محكَّمة تصدر فصليّا

عنوان المراسلة

Lorsweg 4, 3771 GH, Barneveld
The Netherlands
Website www.averroesuniversity.org
E-mail ibnrushdmag@averroesuniversity.org
Telefax: 0031342846411

رقم التسجيل في هولندا 08189752 - السجل الضريبي NL242123028B01

البحوث المنشورة يُجري تقويمها أساتذة متخصصون.

ثمن العدد 10 يورو أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي

الاشتراك السنوي	الأفراد	المؤسسات
لمدة سنة	60	80
لمدة سنتين	110	150
لمدة ثلاث سنوات	160	200

طبعت بمطابع مجلة كه وانة [القوس] الكوردستانية ومسجلة برقم

العدد السادس حزيران يونيو 2012

الفهرس

***   لوحتا الغلاف للفنانة التشكيلية الراحلة سلوى بشارة**

مفتتح

يصدر عددنا السادس في سقف زمني مقارب لموعده الأصل، ونحن هنا، نؤكد من جديد توجهنا إلى تبني أسماء أعلامنا في الفكر والاقتصاد والسياسة والإدارة والقانون وعلوم اللغة والتربية وغيرها من التخصصات العلمية، في محاولة منا تعزيز مبدأ احترام الإنسان باحثا كان أم مبدعا في أي حقل أو مجال معرفي يخدم قيم التقدم والتحديث. وها نحن اليوم نجدد اللقاء مع علم آخر من مفكرينا في مجال الاقتصاد وأسس رسم مسيرتنا سليمة بناءة وفاعلة مؤثرة في جهود إنسانية معاصرة مهمة. إن ملفنا الفصلي الجديد بمختلف مفرداته الاقتصادية الإدارية يندرج تحت اسم المفكر الاقتصادي العراقي الأستاذ إبراهيم كبة.. وإذ نعتذر عن تواضع حجم ما نقدمه في الملف تجاه مكان ومكانة هذا المفكر ومنجزه العلمي، فإننا نتطلع إلى انعقاد مؤتمر تخصصي تنظمه جامعتنا؛ ونحلم أن يكون منحصرا في جهود الأستاذ كبة ورؤاه التنويرية التخصصية المهمة..

أما عددنا هذا، المحتضن للتنوع في المشارب الفكرية وفي الحوارات بين معالجات بحثية مختلفة، فإنه ينتظر مثل الأعداد السابقة ملاحظاتكم الكريمة كيما يجري تقويم ما فاتنا أو ما سهونا عنه، بدءا من المؤشرات الشكلية وولوجا باتجاه العمق حيث المضامين والمداخلات وتوزيعها وتناسباتها.. فربما كان لتخصص مساحة أوسع ولكن هذا لم يكن مقصودا على حساب تخصصات أخرى.. ولكنه ربما جاء لحجم المساهمات من جهة وللأسبقية الزمنية ولبعض محددات أخرى فرضت هذا التسلسل... متطلعين معكم للتوسع بحجم دوريتنا وربما استقلت بعض التخصصات لتأخذ صيغة دورية متخصصة تصدر عن كليات جامعتنا، بما يوسع من فرص استيعاب الزخم البحثي الكبير الذي يردنا. أما الآن فإننا نعتذر لعدم تمكننا من استيعاب

بعض البحوث بخاصة ذات الحجم الكبير لأسباب تقنية بحتة. متمنين على زميلاتنا وزملائنا قبول اعتذارنا بالخصوص للظرف الخارج عن إرادتنا..

وبودنا أن نكاشف السيدات والسادة الأفاضل بشأن ما تعرضنا ونتعرض له من قرصنة ألكترونية وهجمات تخريبية ومن تعقيدات طاردتنا في كثير من تفاصيل عملنا.. الأمر الذي اضطرنا إلى إعادة جهدنا في تحضيرات العددين الأخيرين السادس والسابع.. ونحن نعد بتجاوز تلك العراقيل الطارئة ومواصلة العمل بداب للالتزام بالمراسلات الرسمية المنتظرة وبمواعيد الصدور وغيرها...

بالمقابل من هذه المشكلات والعقبات نهنئكم وجميع الباحثات والباحثين بصدور دوريتكم العلمية هذه بصيغتها مطبوعة ورقية، حيث أثمرت جهود مثابرة لتحقق تقدما ملموسا ومنجزا آخر ووعدا قطعناه على أنفسنا. لقد بات صدور مجلتنا العلمية المحكمة [ابن رشد] بصيغتين هما الطبعة الألكترونية والطبعة الورقية. وقد تأتى هذا بدعم مشكور وتفاعل مقدّر من مؤسسات ثقافية وبحثية على رأسها المعهد الكوردي للدراسات والبحوث ومؤسسة مجلة كه وانة ومطابعها..

إننا هنا نجدد شكرنا وتقديرنا لصبركم من جهة ولدأبكم في مواصلة إرسال بحوثكم العلمية، ومشاركاتكم المهمة أكاديميا.. ونؤكد مجددا كلمتنا قائلين: إننا معا وسويا نتقدم باتجاه تحقيق أفضل نتاجات البحث العلمي. وتحية العلم لكم جميعا..

رئيس التحرير

الأدب وعلوم اللغة

الرواية والمستقبل ،"رواية آدم الجديد" للروائي : قصي عسكر

د. عبدالرحيم مراشدة

لغة السرد في الكتابة النسائية

الدكتور خالد بوزياني

مصطلح العدول والانزياح عند اللسانيين العرب

الدكتور سلام عبد الله محمود عاشور

تفاعل الكتابي والأيقوني في الرواية

محمد العنوز

الرواية والمستقبل، "رواية آدم الجديد" للروائي: قصي عسكر

الدكتور عبدالرحيم مراشدة
المملكة الأردنية الهاشمية جامعة جدارا قسم اللغة العربية

ملخص البحث

يحاول هذا البحث تسليط الضوء على رواية عربية حديثة أخذت بعين الاعتبار تحولات الرواية العربية ، وتمكنها من استيعاب التحولات في النصوص الروائية العالمية ، من حيث أنها قادرة على تناول موضوعات تتعالق مع منتجات الحضارة الإنسانية ، ولم تتمركز حول موضوعات تقليدية وواقعية اعتيادية ، وهذا بالطبع ناجم عن وعي المبدعين العرب بما أصابل كتابة الرواية في العالم ، من حيث راح يفيد من التقنيات الحديثة والمنتج الإنساني العالمي ، ومن هنا جاءت فكرة هذه الرواية في سعيها لإثبات مكانتها على خريطة الرواية العربية ، من جهة ، وللحاق بالأدب العالمي .

الباحث الحالي وجد في هذه الرواية صورة جيدة لحضور البعد الإنساني والاستشرافي لمسيرته الحياتية في هذا الوجود ، ويرى أنها تمكنت – الرواية – من التعامل بوعي لافت مع التقدم التقني والحضاري للإنسان بحيث أصبحت هذه الأشياء موضوعاً له ما يبرره ، لا سيما وأن الروائي وضع نصب عينيه أثر الثورة الصناعية والتقنية والاتصالات على وجود الإنسان ، وبالتالي تبين أن هناك زحف هائل يسير باتجاه تحجيم إنسانية الإنسان، ومن هنا تبد الموضوعات المثارة في الرواية لها أبعاد فكرية وفلسفي وأيديولوجية تصب في مصلحت الإنسان الكوني على هذا الكوكب ، ولهذا حاول الباحث تسليط الضوء على التحليل الوصفي والموضوعي لمنتج الرواية وما تعتمله من أفكار وفنيات .

وقد بدا للباحث الحالي ، وهذا ما شجعه على تناول هذا العمل ، أن الروائي يتمثل الصراع الدائر بين الحضارات ، ومدى خطر هذا الصراع على الوجود الإنساني ، ومن هنا راح يلفت الانتباه إلى إمكانية وجود إنسان يعيد آليات التفكير فيما هو عليه الآن ، ويسعى في الوقت نفسه إى تأسيس فكرة التقارب بين الجنس البشري الواحد ، لتأسيس حضارة كونية إيجابية لهذا المخلوق (آدم) ، ومن هذه الزاوية كانت الشخصية المحورية هي (آدم الجديد) ممثلاً لإنسان المستقبل /الحلم ، والشخصية الثانوية المساندة لها هي (الطبيب) ، في محاولة لتوكيد المعالجات وتوظيف القدرات لخلق عالم يخلو من الشر ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

الباحـث

Summary of research is marked by: (The novel and the future - a novel model for the new Adam)

Tries of this research shed light on the novel modern Arab took into account the shifts of the Arabic novel, and enable it to accommodate changes in the texts feature the world, from where it is able to address topics wioverlap a text the products of human civilization, not based on topics traditional and realistic routine, and this of course caused by awareness of innovators including Osabl writing the novel in the world, in terms of the claimed benefits of modern technology and global human product, and here came the idea of this novel in its quest to establish its position on the map of the Arabic novel, on the one hand, and catch up with world literature.

Researcher current found in this novel a good image for the presence of the human dimension and prospective of his life in this existence, and finds that it was able - the novel - to deal consciously noticeable with the technical progress and civilization of man, so are these things a subject is justified, especially since the novelist sets his mind to the impact of the industrial revolution, technical and communication on human existence, and thus show that there is creeping a massive march towards the curb human rights, and here shown the issues raised in the novel has the dimensions of intellectual, philosophical and ideological are in human universal on the planet, so try a researcher to shed light on the descriptive analysis and objective product and novel ideas and techniques.

It seemed to the researcher present, and this is what encouraged him to take up this work, the novel is the conflict between civilizations, and the extent of the danger of this conflict on the human existence, and are claimed to draw attention to the possibility of a human being back mechanisms reflect on what it is now, and seeks at the

same time E. establishing the idea of convergence between the human race one, to establish a universal civilization positive this creature (Adam), and this angle was the central character is (the new Adam) a representative of the human future / dream, and personal secondary support them is (the doctor), in an attempt to confirm treatment and employment capacity to create a world free from evil as much as possible to do that.

مدخل :

تدور فكرة الرواية حول طبيب غربي أمريكي ، وهو يحاول تقديم خدمة للإنسانية عن طريق اكتشاف علمي طبي مذهل ، وذلك عندما يقدم مشروعاً علمياً وعمليا لتجميع إنسان بشري ، غير ملوث بالقتل والفساد والعنف الإنساني ، غنسان منتج من ضحايا بشرية وقعت ضحية للموت العبثي ، أو للموت في الحروب التي افتعلها الإنسان ، فيقوم بتجميع خلايا مخية وبعض عينات جسدية من أشخاص ماتوا ، أو حديثي الموت ، وينتمون إلى حضارات ومجتمعات إنسانية متعددة ، فيجمع مثلاً هذه الخلايا من شاب عربي قتل في السبعينيات ، وشاب أرجنتيني انتحر قبل ذلك في الخمسينيات من القرن الماضي ، ورجل دنماركي قتل في حرب رمضان التي دارت بين العرب واليهود ، ومن يهودي دنماركي مراسل صحفي قتل في فيتنام ، ومن شاب صيني قتل أثناء المظاهرات التي اجتاحت بكين ...الخ ، ويصل الطبيب إلى إنتاج إنسان بشري مجموع من بشر متعددين في الأعراق والحضارات ، تحقيقا لمشروع حلمي في رأسه ينقذ الإنسانية من الشرور ، وليرث العالم والكون فيما بعد.

مفهوم رواية المستقبل :

الاستشراف ،أمر مهم عند البحث في مكنونات الأشياء ، وفيما يمكن أن تكون عليه ، من سمات الإبداع الذي يسعى إلى التجاوز والتخطي ، والرواية من العوالم القابلة للبحث والاستشراف عندما تسعى في مكوناتها ، وفي وجهات النظر البانية لها إلى إعادة مفهوم وصياغة للعالم والوجود والحياة ، من وجهة نظر منشئ النص ، وعندما يعيد الروائي صياغة الوجود متوسلاً استباق الواقع ، لا بد وأن ينهل من مرجعيات تتكئ في الأساس على الخيال وما يمكن أن يصل إليه من تصورات ، وهذا يحتاج إلى سعة أفق ، ودراية ودربة في معارف مختلفة ، والمسقبلية في الرواية

تصب باتجاه استشراف المستقبل ، وتجاوزالحاضر ، تتــخيل وقائع خارقة للعادة ، ومن الصعب تمثلها واقعيا ، لكن ممكن للمتلقين أن يتـــمثلوها حلماً ، وهذا بحد ذاته تحــفيز للذاكــرة البشرية في أن تنســلخ من الواقــع وتترحل عبر رؤى متعددة يعطيــها مجالا للكشف والتلذذ في آن ، حيث القراءة مع المتعة اكثر إنتاجية من القراءة بدون متعة ، مع الأخذ بعين الاعتبارأهمية اقتران النص بالابعاد الدلالية والفكرية الت تنهض به.

المبدع عندما يمضي في مشروعه الكتابي للكتابة عن ما وراء الواقع هو في الحقيقة يقف إلى جانب التنبؤ ، وبالتالي يذهب إلى الانسلاخ عن المألوف ، وفي هذا اختراق لما هو كائن ومحاولة للعبور إلى أفضية يتخيلها ويبنيها في المخيلة ، وله أن يرتد للماضي أو يعبر إلى المستقبل ، والرواية التي بين أيدينا تمضي في سياقاتها إلى اختراق الحاضر والقذف بنا إلى المستقبل ، وقد عرف تاريخ النقد الحديث مثل هذه التصورات ، والكتابات التي سعت غلى استكناه المستقبل ، والإفادة منه في الكتابة الإبداعية ، ما أمكن ، وكلنا يعرف حضور النبوءات ، ومحاولات الإنسان الحثيثة لمعرفة ما يمكن أن يجري في المستقبل ، ومنذ قديم الزمان ، ولعل مسرحية (أوديب ملكاً) لسوفوكليس من الأمثلة المهمة على هذا التوجه الإنساني ، والتفات المبدع إلى هذه الأشياء .

العصر الحديث كان حافلا بمعطيات ومنتجات إبداعية تاخذ بعين الاعتبار هذه المسائل ، وعليه كان بعض الكتاب الحداثيين يلتفتون لمنتج الخيال المستقبلي ، وذهبوا إلى الإفاة منه ما امكن لشحن نصوصهم بأفكار وآفاق جديدة ومختلفة ، ومن هؤلاء(الحركة المستقبلية) التي ظهرت مع إطلالة القرن العشرين ، حيث اختراق العادي والمــألوف غدا امراً مهما درج عليه (المستقبليون) ، لغة ومضموناً ، إضافة إلى التفاتاتهم باتجاه التحولات الحضارية في الصناعة والعلوم ، ومثل هذا أيضا أفاد منه الشكلانيون الروس ، فهذا (شكلوفسكي في حواره عن مفهوم الشكلانية يذطر بأن من معانيها (تطبيق النموذج التكنولوجي على الانتاج الفني الإنساني) (1) ومن هنا كان دور الخيال ، وتوظيف منتجاته يشيع في كتاباتهم ، ولعل الحدس أيضا أخذ مساحة واضحة في نــصوصهم ،وكانت أعمالهم تمهد بطريــقة أو بأخــرى للكــتابة الأوتمــاتيكية عند (الدادائيين) و (السورياليين) ،ونسوق ذلك لان النص الذي بين أيدينا تنسل إليه مرجعيات مستــقاة من هذه الــعوالم وصولا لعــالم الغرائــبي والعجائبي واستثــماره في الأدب .

يصف (مارينيتي) ، مؤسس المستقبلية مع غيره ، الإبداع الحدسي وكأنه كتابة أوتوماتيكية تقريباً ، ويمثل على هذه بالقول :يبدو أن اليد التي

تكتب تنفصل عنالجسد ، وتأخذ بالابتعاد المستقل عن الدماغ ..(2)بهذه المؤسسات الفكرية راح المبدعو المستقبليون يحركون الساحة باتجاه الانفلات من العادي والمألوف في الكتابات ، وكسروا حدة النمطية والذائقة التقليدية .
ثم إن ماريتيني أفاد من منتجات الحرب والعذابات التي تمحور حولها كثير من الكتاب، لا سيما ما ظهر على أيدي الرومانسية، فحاول الاختلاف عما هو سائد ، لا سيما بعد مقالته التي يظهر من عنوانها مدى اختلافه عن الآخرين حيث عنونها (العظمة الجبرية والميكانيكية وحساسية الأرقام) المنشورة عام 1924 في مجلة (لاسيربا) حيث قال ، وهو الذي انخرط في الحرب جنديا كذلك ، في مقاطع منها : " إن حرارة قطعة من الحديدوالخشب هي الآن اكثر إثارة لنا من ابتسامات امرأة ودموعها ...ثم كيف أن فوهة بندقية مشعة ومناضلة ، اتلفتها حرارةالشمس والاطلاق السريع تكون أكثر لفتا للنظر من منظر الناس المعذبين الذين هم في طريقهم إلى الموت "(3)

السؤال الذي يمكن طرحه الآن : لماذا الرواية ، ولماذا المستقبل ؟ لعل الإجابة تكون للوهلة الأولى جدلية إلى حد بعيد ، لكن لنبدأ من كون الرواية الأكثر امتصاصاً ، أو قدرة على تحميلها مكنونات متفرقة ومتعددة ، لا يمكن أن يكون في الأجناس الأخرى ، ولهذا تغدو المساحة التي يتحرك فيها المبدع أكثر رحابة وسعة ، وقد وصفها - الرواية - أحد النقاد الحداثيين (إم .فورستر) في حديثه في مقدمة كتابه (أركان الرواية) ، بأنها : الجنس الأكثر رطوبة وامتصاصاً للأجناس اللأخرى .

قصي عسكر ، بوصفه روائياً ، ذهب إلى استثمار معطيات الحروب الإنسانية بشكل عام والعربية بشكل خاص ، فبدأ من الحرب العالمية مرورا بحروب العرب المتتالية مع الهجمات الاستعمارية ، وانتهاء بالحروب الحديثة ، ولكن لم يصف ويتحرك ضمن أفضية رومانسية تمتلئ بالعذابات والبكائيات ، وإنما ذهب إلى استنتاج العبرمما كان وما يمكن أن يكون ، وقدم خطابا رؤيويا ، من خلال سروده وشخوصه ، التي تنطوي على أبعاد رمزية لافتة من خلال استثمار عنصر الخيال والكتابة من الحلم ، ومن حيث اتجاهاته إلى دمج الواقع باللا واقع ، ليترحل بمتلقيه إلى آفاق جديدة ، تحمله على المقارنة والقراءة الفاحصة والناقدة . فمرجعية الروائي كانت مشبعة بما أنتجه فكر التيار المستقبلي وما صدر عن مرجعيات الغرائبية والعجائبية . ولهذا كان لنصوصه نكهة أخرى ، تستدعي التفكر والتأمل .

تقوم هذه الرواية ، في بنياتها الشكلية ، على اعتماد تقسيم العمل إلى عشرلوحات مرقمة ترقيماً عددياً ، بحيث يكون هناك ترابط عضوي بين اللوحات ، وإن كان لا يبدو للوهلة الأولى ، وهذا يحيل إلى مسألة اهتم بها النقد الحديث ، وأخذها بعين الاعتبار المبدعون ، وأعني هنا الوحدة العضوية

للنص ، إذ يتكون الوعي للمنتج الإبداعي ومضموناته ورؤاه بعد القراءة الكلية للعمل ، وأية قراءة جزئية ، وفق هذا المنهج تضر بالنص وتثلب البعد الاستراتيجي له .

ويلفت الانتباه أن الرواية التي اخترناها لتكون موضوعاً لمقاربتنا هذه ، تقع ضمن كتاب أسماه المؤلف : (روايات وقصص من الخيال العلمي) (4) ولم يكتف بهذا ، وراح يضيف كلمة باللغة الانكليزية (Fiction) ، هي غالبا ما تشير إلى الخيال ومنتجاته ، وهذا الكتاب لا يتجاوز في مجموعه مئة وخمسين ورقة ، من القطاع المتوسط ، وهنا يقف المتلقي بإزاء ما أسماه المؤلف روايات ، وقصص ، والسؤال : كم رواية وكم قصة تضمن هذا الكتاب ، والإجابة بسيطة ، هي ثلاث روايات و سبع قصص ، ومثل هذه المعطيات تشي بمسألة نقدية لافتة ، وهي حجم الروايات التي كتبت هنا ، حيث الرواية الكلاسيكية غالبا ما كانت تقدم بأحجام كبيرة ، وقد تكون أكثر من مجلد، والقصة حسب تعريف (إم فورستر Forstar) (5) لا تزيد عن خمسين ألف كلمة ، وفي العصر الحديث ، لا سيما بعد الثورة التي حدثت في كتابة الرواية ، خاصة على يد أصحاب مدرسة الرواية الجديدة من أمثال : ألن روب غرييه و(ناتالي ساروت N.Saroot)..الخ ، والأمر هنا تجاوز المتعارف عليه ، وقلة من العرب هم الذين ساروا على هذا المنوال ، ولعل من أوائلهم الباحث والروائي والقاص (أحــمد الزعبي) فــي رواية (وراء الــضبع) (6) و(العنة) (7) وأربع روايات نشرت في كتابين ، في كل كتاب روايتان وهما (صم بكم عمي واالشاعر) (8) و(لعنات شاكر ونعاس فارس)(9) ، ومثله هنا يفعل الروائي والقاص (قصي عسكر) ، موضوع هذه الدراسة، لكن الذي أضافه الأخير هو أن يضيف إلى الروايات ال الثلاثة القصص ، وتبقى هذه المسألة قابلة للنقاش ، فيما يتعلق بتعريفات الرواية والقصة ، ومكوناتها ، وما مدى الشريط الزماني والمكاني لها إلى غير ذلك .

ما الــتبرير المــقنع لمثل هؤلاء الروائيين وكتاب القصة ؟ في ظل إمكانيات طباعيه متاحة ، كما نعلم جميعا ، وما التبرير إلى إضافة جنس الرواية إلى جنس القصة في كتاب واحد ؟ من قراءة متأنية لما سلف ، يبدو أن مثل هذه الأعمال تكون ، غالباً ، من باب التجريب ، ومحاولة منهم (من الكتّاب هنا) إثبات أن لا ضابط للحجم الكمي للمساحة الورقية/النصية لتحديد كل جنس وضبطه ضبطاً صارماً ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فيما يتعلق بالمؤلف الذي جمع الرواية إلى القصة ، ربما يشير إلى أن الجنس الروائي تحول عن جنس القصة ، أو هو يشترك معه في بعض السمات والمكونات ، وبالتالي لامانع من الدمج بينهما في كتاب واحد ، كما لو أنهما من جنس واحد ، ثم لعل الموضوع فرض على صاحبه الجمع بين الرواية

القصيرة والقصة القصيرة لانتسابهما إلى جنس عام هو روايات الخيال العلمي ، أو الأدب الغرائبي والعجائبي .. ، ومع ذلك يبقى عملاً تجريبيا قابلا للنقاش .

لماذا يذهب الإنسان ، إلى العجيب والغريب ، وغلى عالم الخرافة والأسطورة ... ولماذا يتوسل المبدع بها ،لا يمكن أن يكون هذا الأمر عبثياً ، الإنسان عندما يقع في مزلق لا يجد له حلاً ، ويتعارض مع المفهومات التي يمكن أن تقيم له حلاً ، يحاول اللجوء إلى أية بدائل أخرى ، تحافظ على توازنه مع الوجود والكون ، وتعيد له الثقة بالذات ن والاستمرارية فيم فهم الوجود والحياة والعالم ، " يتفق منظرو السرد أن الالتجاء إلى الرؤية الفنتستيكية يصبح ضرورة من ضروريات التقنية الأدبية عندما يفلت الراهن من قبضة الفكر ، أي يصبح مستعصياً على المفاهيم الجاهزة التي تعودت المسك به . في هذه الحالة تصبح الرؤية الفنتستيكية الأدبية هي الأقدر على قول الالتباس ، وترجمة ما لغز من الواقع في راهنيته " (10) ، وقضية أخرى يمكن أن تضاف إلى هذا الفهم الذي يتسرب من التراث الإنساني القديم ، ومنذ وجوده ، حيث كانت تشيع الخرافة والأسطورة في عصور الإنسان الأولى ، نقول يمكن أن نضيف لهذا أن المبدعين الحداثيين أعادوا الاعتبار للأسطورة والغرائبي والعجائبي محاولة منهم لشحن النص الإبداعي بعطيات اكثر ثراء وتفيد في انتاج وعي مختلف ، من حيث العبور للخيال ، من جهة ، وبعث التأمل والتفكر فيما وراء النص من جهة أخرى ، والرواية التي بين أيدينا تفعل هذا .

إن الأدب الغرائبي والعجائبي ضارب في القدم ، منذ وعي الإنسان للخارق ، وغير المألوف ، والذي يجافي المنطق ، وعالم الخرافة والأسطورة ...الخ ، مثل هذه الأشياء التي يستثمرها الكتاب والمبدعون تحيل إلى عالم من الخيال يشحن القصة أوالرواية بمعطيات مهمة ، ومثل هذه الأسلوبية " تخلق حضوراً لشئ نسميه الجو العجائبي، واللغة العجائبية ... وكلها تتطلب التأويل ما دام الأدب بطبيعته معطى للتأويل على الدوام " (10). أما فرويد فيرى في هذه المسألة : أن الشعور عند القراءة بأن الأمر غريب فيمكن " اعتباره حالة خاصة لشعور الغرائبية الذي يحوي في الوقت نفسه اضطراباً للإدراك المميز للوضع وبداية الشعور بفقدان الشخصية " (11) فهذا الاضطراب يكون في صالح النص ، إذ يحمل المتلقي على التأمل والتفكير ، وبالتالي ممارسة فعل التأويل.

تبدو هذه الأعمال ، وبهــذه الكيفــية تحملنا على مناقشة بعض المسائل التي لا يمكن تجاوزها بســهولة ، ومنها إلى أي مدى يحتفظ العمل الفني الإبداعي بمكوناته وعناصره البانــية له ، إذا ما تم التـــلاعب بقــضية

الشكل ، وبقضية اختزال المضمونات ، وهنا يمكن إبداء الرأي ؛ فأي اختزال للشكل والمضمون يستدعي البحث عن بدائل مهمة لإنجاز العمل بكيفية لا تخل بالحد الأدنى من السمات الإبداعية الواجب توافرها في العمل الأدبي ، والاختزال يقود بالضرورة – عندما نتعامل مع رواية – إلى البحث عن بدائل أخرى تعويضية عما تم اختزاله ، فإذا كانت الرواية التقليدية ، كما نعلم ، تحتمل التفاصيل ، وتحتمل تعدد الشخصيات والأحداث ، وتوسيع دائرة الزمان والمكان ، فإن الأمر هنا لا يحتمل التفاصيل الزائدة وهذا يستدعي تكثيف اللغة من جهة ، وتكثيف شعرية النص من جهة أخرى ، كما يمكن شطب وإلغاء بعض التفاصيل التي يمكن لها أن تزيد وتمدد النص ،وبهذا تكون فنيات العمل مهمة عند محاولة كتابة رواية قصيرة أو قصة قصيرة جداً، والمزلق الخطير هنا أن لا يحتفظ الروائي والقاص بالمكونات الرئيسة الواجب توافرها في العمل ، وأن لا يتكلم بلغة مباشرة ومسهبة ... الخ ، سيحتاج إلى استثمار كل كلمة في موقعها وكل بياض يتنزّل عليه الحرف والكلمة . ويكون نجاح الروائي والقاص وفشله متعلق بمدى قدرته على الاحتفاظ بالفنيات رغم قصر الشريط الزماني والمكاني ، وعدد الصفحات الورقية التي يكتب عليها .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ضرورة الالتفات إلى أهمية القارئ ودوره في النص ، إذ لا معنى للنص من غير قارئ ، فهذا يستدعي أن يكون الروائي واعياً لمسألة التلقي ، فإذا كتان عالماً بالعبء الذي يتحمله من نتيجة التكثيف ، وعبء اختزال المرجعيات التي سيوظفها في العمل ، فكذلك الأمر بالنسبة للمتلقين ، حيث مثل هذه الأعمال تتطلب قارئاً له مرجعيات ترقى لمستوى العمل المدروس ، وهذا حقيقة ، يدعم وجهة النظر التي تقول أن من استراتيجيات النصوص الحديثة الرفع من سوية التفكير للمتلقين ، بحيث يقترب ، أو يساوي هذا التفكي، مستوى تفكير منشئ النص .

الباحث الحالي ، سيختار نموذجاً واحداً للتعامل مع هذا الكتاب ، يراه يعطي صورة واضحة لما يرمي إليه في هذه المقاربة البحثية ، وقد اختار الرواية الأولى الموسومة (آدم الجديد) . قصي عسكر عندما كتب الرواية التي نتكلم عليها ، يدرك تماماً ويعي العصر الذي يعيش فيه والتحولات الإنسانية التي أصابت الكون ، مع أنه جرب الكتابة في الروايات الطويلة ، نسبياً . وإذا قلنا لماذا تظهر مثل هذه النصوص الروائية القصيرة والخيالية والتي تبدو أنها متجاوزة لزمنها ، أو تحاول أن تتجاوز ، يمكن القول : إن طبيعة التحولات الحضارية والمعاصرة ، لا سيما ما يتعلق بالتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ... الخ . كل ذلك يميل إلى الاختزال والتكثيف في الأشياء ، فنجد الوجبة السريعة ، والسيارة الاقتصادية الصغيرة

، والآلات الدقيقة ، إلى غير ذلك ، وهذا النمط الحضاري يبدو أنه أصاب بالعدوى الأجناس الأدبية بوصفها منتج إنساني ، فـظهر عبر الزمن الـحديث : (الرواية القصيرة والقصة القصيرة جداً والقصة الومضة ، والقصيدة القصيرة والقصيدة الومضة كذلك ، وقصيدة التفعيلة ، وقصيدة النثر ، والكتب القصيرة وما إلى ذلك) ، فكأن روح العصر تتطلب مثل هذا ، حيث القيمة الزمنية عند الإنسان أخذت مفهومات مختلفة عما كانت عليه سابقاً ، فانشغالات الإنسان الزائدة لم تتح له زمنا كافيا للقراءة والجلوس التراخي ... الخ ، صارت الأشياء القصيرة المختزلة والمكثفة مطلب إنساني .

وفق هذه المعايير ، وربما غيرها، بدا أن مثل هذه الأعمال ، وبهذه الكثافة والقصر مبررة إلى حد واضح .قصي عسكر الروائي /القاص يعيش هذه الحضارة الغربية ،المتقدمة جداً ، خاصة بعد انتقاله للإقامة في بريطانيا ، وتفاعل مع الحضارة الـغربية ومنتجاتها ، وفي الوقت نفـسه نجد أنه ينـتمي إلى حــضارة ضاربة في القـدم والعراقة ، حضارة الشرق ، وخاصة بلاد الرافدين ، وبهذا تتعدد لديه الأنساق الثقافية التي تشرب منها ، وفي هذا العمل يكون من الطبــيعي انعكاس هذه المعــطيات في تفكيره اللغوي والكتابي . فهو مثلا عندما يحاول الاستناد إلى الخيال وتوظيفه بوصفه من الأبعاد المهمة لإنتاج الإبداع ، فإنه يتوسل بأقصى ما توصل إليه الخيال العلمي الغربي والواقع الحضاري في الغرب ، وهذا ناتج عن مدى اطلاعه واحتكاكه بالثقافات الأخرى ، ويكون الأمر له أهمية أكثر عندما يدمج هذه المعارف والمرجعيات بثقافته ومعارفه الشرقية .

نقول ذلك لأن موضوع الرواية التي اخترناها هنا (آدم الجديد) تقوم على فكرة الخيال العلمي وعلى الغرائبي والعجائبي وعلى معطيات سنقع عليها ، ما أمكن إلى ذلك سبيلا ، وبما يخدم الفكرة التي نسعى إليها، وتحيل إلى مرجعيات وحضارات مختلفة .

منذ البداية يقف القارئ أمام عنوان إشكالــي ، يكســر لديه أفق التــوقع والانتظــار حسب تعبير (آيزر وياوس) ، فالأمر القار مرجعياً في ذهن القارئ هو (آدم) الذي يعرفه وقرأ عنه في الديانات السماوية الثلاث وفي التاريخ والتراث الإنساني ، والذي هو ضمن سجله الإنساني والكـوني ، أما القــول ب (آدم الجـديد) سيــحيل التفكير إلى مواصفات مخـتلفة عن (آدم) مختلف ، وسيغير اتجاه التفكير، ثم من المتوقع أن يتساءل المتلقي ، ماهي تركيبة هذا المخلوق ؟ وما الجديد فيه ؟ وإلى أي مدى يكون الاختلاف ؟ وما الفائدة من ذلك ؟ وسيضع النص أمام المتلقي مهمة الكشف عن هذا المخلوق ، وستأخذه شهية القراءة المنتجة منذ الوهلة الأولى لمتعة النص – حسب تعبير رولان بارت ، في كتابه الشهير(لذة النص) . المعلومة الأولية هي أن آدم

هو أب للبشر ، لجنس الإنسان في الوجود ، وهو الذي يسكن الكون ويتعامل معه ويؤثر ويتأثر فيه ، والمعلومة المولدة هي على خلاف ذلك ، وتستدعي الكشف والإبانة ، واستخلاص العبر.

القراءة منذ العنوان ، بوصفه عتبة نصية ، تحيل إلى أن الروائي يريد التــشكيك في هذه المعلومة ، أو التحول والانحراف عنها ، بدليل أنه استبدله ب (آدم الجديد) ، هو يود محو وإلغاء آدم القديــم ، او البناء عليه ، واللعب في مكوناته التي نعرفها ، وبعثه بصــورة أخرى ، وهذا يشي بنية المؤلف في إلغاء الإنسان الحالي في الوجود والعالم . ثم إن الإسناد هنا في الجــملة ، إسناد الجِّـــدة إلى (آدم) ، يتضمن إثارة دلالات جديدة ومختلفة عما نعرفه عن آدم الواقعي ، والمرئي للعالم ، والذي يعيش في هذا الكون ، فكأني بالروائي يريد أن يقدم حكاية آدم للقارئ ، لكنها ليس آدم الذي عرفه ، وإنما (آدم) الذي سيعرفه ، مع أنه يعرف آدم القديم ، وله خبرة فيه ، وفي مكوناته وسلوكاته وتفكيره ، ولهذا يحاول التغيير والتعديل ، وصولاً غلى آدم آخر ، ومن هنا يدخل منشئ النص إلى قاعدة تأسيسية لعمله، يتمكن من العبور إلى عالمين في آن ، : عالم (آدم) الذي نعرفه وعالم (آدم) الذي نريد أن نعرفه ، الأول هو الذي كان ويكون ، والثاني هو الذي يمكن أن يكون .

هذا المنحى لا يمكن أن يمضي ، ولا يترسخ في ذاكرة المتلقي المنتظر ، والمتوقع ، إلا عبر توسلات وغمكانيات يراها الروائي ، ومن هنا ينطلق من الخيال العلمي تحديدا ، لتبرير وجود آدم المختلف والجديد ، والذي يريد له أن يكون . وبهذا الوصف يكون قد أعطى لنفسه مشروعية الكتابة الروائية ، فيجد فضاءاً رحباً للكلام والسرد ، وللبناء الشكلي والمضموني لروايته .

الروائي عندما أراد أن تكون الشخصية المركزية (آدم) في روايته ، يشير إلى جنس آدم ، وبهذا أراد أن يكون الموضوع إنسانياً وليس فردياً أو ذاتياً ، ولا يصب في خدمة شريحة معينة وبسيطة من الناس ، ومن هنا نجد التبرير لغياب المسميات التقليدية للذوات الإنسانية ، فهو لم ينعته باسم عادي ومالوف ، ودليلنا على هذا أنه جعل (آدم الجديد) يتكون من ذوات متعددة ، ومن أجساد مختلفة كذلك ، فهو وفق هذا التصور مجمل أسماء في إسم واحد ، ولا يليق بهذا المجمل إلا جامع الجنس البشري ، والذي يعني الذات والمجموع في آن ، وهو (آدم) هنا .

المطالعة المتأنية للرواية تشيرإلى أن هناك مشروعاً يفكر فيه (البرفسور- الطبيب) ، هذا الذي سيمثل الشخصية الملازمة للشخصية المركزية ، والتي ترافق الشخصية المركزية غالبية الوقت ، الطبيب ن في الرواية ، لديه مشروع بحثي ضخم ، ولديه حلم تجميع بقايا أجساد زبقايا خلايا بشرية ،فيها بقايا حياة ، بعد إصابتها بحوادث ناتجة عن فعل إنساني

على الأغلب ، في إشارة خفية لما يفعله الإنسان بالإنسان ، مثل الحروب وحوادث السير ...الخ ، وصولاً إلى إنتاج إنسان من بقايا حيوات متفرقة تنتمي إلى حضارات وعوالم مختلفة في الوجود الإنساني ، فها هي الشخصية المرافقة للشخصية المركزية المريض الذي قام بتجميعه وصار محلاً لتجربته ومشروعه يذكر:" إن علاقتي بك تمتد إلى زمن بعيد ، فهذا الجسد الذي يحمله آدم ، أنت ، جسدك الذي شككت فيه ، يتألف من أعضاء أخذت من عشرات الأشخاص ، أناس ماتوا بحوادث مختلفة ، أنسجة حية ، إن جزءا مثل اليد تجمّع من عشرة أشخاص أو أكثر ، كذلك الأمعاء والمعدة والكبد ، حتى تجمع لدي جسد كامل يمكن أن أركبه في شخص واحد " (12) وهذا يلفت انتباه المتلقي أننا إزاء تكوين إنساني مختلف ، وفيه سمات لا تنتمي لفئة بشرية بعينها .

الطبيب ، كما سلف له حلم / مشروع بحثي ، مشروع يستقي عناصره من آخر ما استجد من تقنيات وتجارب علمية في العالم ، في علم الطب والتشريح والخلايا ، والأنسجة، وينطوي على صناعة تكوين بشري له مواصفات شمولية ، بحيث يتشرب من عناصر ذائبة في الجنس البشري ، رغم اختلاف الأعراق والألوان والمشارب ، بحيث يمثل الإنسانية جمعاء ، لم يكن الروائي هو الأول في حلمه هذا ، من حيث انجاز رواية عالمية وتطمح لتحقيق سبق تقني روائي عالمي ، فقد حاول غيره أيضاً ، وإن كان يطمح غيره إلى توجيه خطاب معين ، فلكل رواية خطابها ، لكن المشترك هو خلق عنصر بشري يسبق زمنه ويحقق أقصى قدر ممكن من المعرفة والعدالة والخير ، فقد ذهب مثلاً (صبحي فحماوي في روايته الموسومة (الاسكندرية 2050) (13) إلى مثل هذا ، فجعل الشخصية المركزية تحلم بميلاد غنسان أخضر ، يتجاوز بأفعاله وسلوكياته كل ما هو مألوف ، وصولاً ، أيضا ، لخلق عالم إنساني مختلف يمتلئ بالحياة والأمن وخدمة الإنسانية جمعاء ، ويستقي الفحماوي كذلك بعض مرجعياته من علوم الطب الحديث .

الروائي قصي عسكر لم يكتف بهذه الرواية ، فقد حاول أيضاً اللعب على عنصر الزمن ، إضافة لصناعة شخصية تماثل إنسان المستقبل المرجو ، إذ عمد في إحدى قصصه في هذا الكتاب الضام لروايات وقصص أن يقدم لنا قصة قصيرة موضوعها الأساس الزمن وهي الموسومة (قصة من عام 2784) (14) ، لكأني بالروائيين والمبدعين الذين يتوسلون بعنصر الزمن لتقديمه بكيفيات مختلفة عن الاعتيادي والمألوف ، يحاولون الخروج على زمنهم ، وفي الوقت نفسه يقدمون تجريبات مختلفة محاولة منهم للتقدم بمستوى الرواية ويحاولون الإسهام في التحولات المعاصرة لمسيرة الرواية العربية ، على أقل تقدير .

السؤال الذي يزداد حـضوراً في الذاكرة عند تلقــي هذه الرواية هو : ما الهدف من القفـز على الإنسان الحالي ، والبحث عن إنسان آخر ؟ الطـبيب العالم بهذا الفعل لا يقصد أن يجـمع بقايا الأشـلاء التي يــمكن أن يستخلص منها بعض الأنسجة الحية قبل انتهـائها تماماً ، ولو كان الأمر كـذلك لظـهرت العبثية وتسـلطت على مجريات الأحداث ، ولا يسعى للترقية والحصول على جائزة عالمية ، وإن كان هذا مضمراً ، يبقى ثانوياً ، الأمر الذي يزداد ظهوراً وتسلطاً ، ويبدو أن له قيمة سامية هو السعي إلى إعادة صياغة الإنسان ، وإعادة الصياغة تثير إشكالية استهلاك الإنسان السابق ، بحث أصبح وكأنه غير ذي جدوى ولا فائدة منه ترجى ، أو أنه تعطل وازداد خرابه ، أو بدت عدم فاعليته وقدرته على أن يعمر الكون ويسير فيه ، ومن هنا يجري البحث عن استبداله والخلاص منه، أو على أقل تقدير شحنه بمكونات تجعله أكثر فاعلية ، ليليق بالكون والوجود والحياة .

ما ذهبنا إليه يمكن أن نصل إليه من خلال سياقات مختلفة في الرواية ، ومنها الحوار الذي يـجري بين البـروفسور – الطبيب – والمخلوق الخيالي – الإنسان الجديد/آدم الجديد – هذا الطبيب الذي يعي أنه أمام مخـلوق شمولي وهو من مجمل شخوص كانوا بأسماء حقيقية ويعيشون في الواقع ويسهمون في الوجود ومنهم (بلْ وموشـــيه و خالد ...الخ) ، وفي الوقت نفسه هم من حضارات وثقافات ومرجعيات مختلفة ، وكلهم يحضرون في هذا الجسد الممدد على السرير في المتـستشفى ، وهاهوالكـــلام يجري على لســان المريض : " أنت أنا ، هو أنا ، مسلم مسيـحي بــوذي ..." (15) ، وفي إحـــدى زيارات الطبيــب له راح ينـــاديه مخــاطباً : " .. موشي ..بل .. كارل.. خالد .. ناموا .." (16) . ويرد على لسان الراوي موضحاً تشظي الشخصية وأنها كلٌ في واحد: "كان ذلك حين دخل البرفسور الغرفةالخاصة بالمريض ، هبت بوجهه احتجاجات واختلطت أصوات ولغات ، كل واحد من هذا الواحد الشاخص أمامه على السرير يحاول أن يثقب الزمن ليعرف حقيقة الوقت الذي ولد فيه "(17). إن ثقب الزمن هنا يشير إلى محاولة العبور في الزمن والخروج منه في آن ، ومن ثم القفز إلى زمن خارج الزمن الذي تعيشه الشخصيات المتمثلة في الشخصية الجديدة (آدم) ، العتراض محاولة أخرى لفهم الحياة التي لم تعد مفهومة ، اعتراض على ما يجري ، ومن هنا يظهر التوتر والنزق في الحوار بين الشخصية (آدم الجديد) والطبيب .

الدراسة المتأنية لتحولات الشخصية المركزية داخل الرواية تظهر مدى تركيز الروائي على خلق شخصية يسند إليها وظائف فيها أبعاد غرائبية وعجائبية ، لكنها تنطوي على رمزية هادفة ، وهذا ما يثري العمل ويحسب

للروائي ، يتبين هذا عندما نجد المكونات الجسدية والروحية الذائبة في المخلوق الجديد تعود في أصولها التكوينية إلى الحضارات التالية : العربية الإسلامية الشرقية ، وأخـذت اسم خالد ، والحـضارة الغربية المـتمثلة بالرجل (بلُ)، و(موشيه) ، الذي يشير إلى حضارة اليهود ، و(شوان) الذي يمثل الحضارة الصينية وآخـر بوذي يمثل الحضارة الهـندية ...والطـبيب عندما يحاول التحدث والحوار إلى (آدم) المركب من عدة حضارات وأشخاص ، يحاول أن ينـظم الحديث مع الكل المذاب في واحد ، ولحل هذه الإشكالية التواصلية مع المريض ، يقدم الحديث عبر جهاز كمبـيوتر ، حديث جداً ، يرتبط بالشخصية بأسلاك، وموجـود على سرير المريض ، وعبر هذا الجـهاز، وعبر تقنيات أخرى واختراعات حديثة يعمل بكل جهده – الطبيب- على دمج شظايا الأجساد والأنسجة ،ودمجها علمياً في جسد واحد وروح واحدة .

المتلقي لمثل هذه الشخصيات عبر الرواية ، سيحيل كلامه وأفكاره إلى مرجعيات خيالية، وحلمية ، وغرائبية في الوقت نفسه ، ويبدو أن الروائي تمكن من توظيف هذا المنحى في روايته وذلك لإنجاز أمرين : الأول إنجاز عنصرالخيال وما يمكن أن ينطوي عليه من التشويق لدى القارئ ، إذ أن الانحراف السياقي يؤسس إلى تمـل الحالة المثارة في النـص وتخــيلها ، وبالتالي يسعى إلى كشفها وبكشفها ينتج لذة النص ، والآخر يبدو أن هذا الأمر يقود إلى إثراء عنصر الرمز ، وهي قضية مشروعة ومطلوبة في الـنصوص الحديثة ، بعيدا عن المـباشرة التي هي من سمــات النـثر العادي والخطابات التواصلية ، وهذا ليس من سمة الإبداع .

الغرائبية والعجائبية تزيد النص الروائي اكتنازاً ومتعة ، إذا ما أُحسن استثمارها ،عمقاً ودلالة ، والقص الحداثي يعني عند الناقد (مالكلم برادبري) : " التحليل والتأمل والهروب والخيال إطلاق العنان للأحلام "(18) . وهي " الفن الذي حوّل الواقع إلى خيال نسبي ... وهو يصور عوالم تكتنفها المخاطر والكوابيس والموت " (19)على حد تعبير الباحث نفسه .

الربط بين الواقع والخيال هنا يبلغا أوجه ، فالروائي يأخذ بعض اللقطات من الأفعال الإنسانية السلبية ويركز الضوء عليها ، ويحاول تقديمــها روائــياً من خلال حكاية ســيرة الإنســان في الوجود ، فهو يحـكي على لســان الشخصيات حكاية ممارسات سلبية اقترفها الإنسان بنـفسه وتؤدي إلى تدميره ، وبالتالي فهو يدينــها ، ومن خلال هذا التنـاول من الواقع لا يقدمه الروائي إلا بعد أن يختلق له تركيبة أسلوبية مناسبة ، أبرزها التوسل بالخيال والغرائبية ، ولكنه لم يوغل في الخيال كثيراً ، وإن حصرها بالخيال العلمي ، وكلمة العلمي تقرب المفاهيم وتجعلها أكثر قابلــية للتـصديق ، ولو في

الزمن القادم ، فالذي يبدو خيالاً اليوم ، ويدهش علمياً يصبح اعتيادياً بعد تداوله واكتشافه ، فصعود الإنسان على القمر كان محض خيال ، والكلام عليه قبل زمن وقبل اكتشافه كان لوناً من العبث ، لكنه أصبح حقيقة ، الأدب لا يقدم حقائق ، ولكنه يقدم إمكانيات ، وخيالات ممكنة التخيل والتأمل ، ويمكن الربط بين منتجاتها عبر الخيال ، وهذا أمر ملازم للإبداع ، ومن التوسلات الواقعية عند الروائي ، هي أخذه بعض الأحداث من حروب وحوادث سير .. الخ ، وهذه ممكنة الوقوع والمشاهدة في الواقع ، أما لملمة الأشلاء وجمعها بعد تفريقها وخلطها ، وبعثها من جديد ، فهو ضرب من الخيال العلمي البعيد.

هنا لا بد من استحضار الآية الكريمة ، التي تمثل مناجاة إبراهيم عليه السلام للحق سبحانه ، ليريه كيف يبعث الميت ، فنقرأ الآية ((وإذ **قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيّ الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أبعة من الطير فصرهن إليك ثيم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم))** (20) فقصة إبراهيم عليه السلام تمثل النص الأول الذي يحكي قصة تجميع إبراهيم عليه السلام لأشلاء الطير وضمها وخلطها ثم ينظر كيف تعود من جديد خلقاً حياً ، لعل الروائي هنا في حكايته لهذه القصة يتقاطع نصياً ، وإن بشكل غير مباشر ، على طريقة التناص المضمر مع هذه الآية ، فتبدو الآية وكأنها المرجعية الأولى والعميقة لهذا اللون من الكتابة الإبداعية ، حيث المرجعية الثقافية الإسلامية ممكن أن تترسب وتتسرب في منتجه الإبداعي ، ويمكن أن يفيد منها الروائي في أنتاج أعمال اكثراً لفتا للانتباه ، والتناص هنا مفيد في إثراء العمل ، حيث التقاطعات النصية تحمل المتلقين على المقاربة والمقارنة والخروج بوجهات نظر مختلفة ، وتستدعي شحذ التفكير للتعمق في ما وراء النص ، وما يثيره من دلالات .

الروائي أفاد من متناصات متعددة ، من العلوم والطب وعلم الإحياء والأدب ... لإنجاز هذا النص الخيالي العلمي الهادف . والتناص من الوسائل التي تحمل المتلقي على استحضار الماضي والواقع ، ليأخذ العبرة ويقارن ويستشرف المستقبل ، وقد نجح الروائي في اختياراته لمثل هذه الشخصية (آدم الجديد) لما أضفى عليها من أبعاد نفسية وجسمية وجسدية تخدم الهدف من النص.

الدمج بين الأشلاء في الآية الكريمة إعجازي ، والروائي هنا يقدم لنا دمجاً علمياً ، ولو أنه خياليا جداً ، لكنه متخيل الحدوث ، إبداعيا على الأقل ، الهدف وفق ما يبدو من حركة الشخوص والأحداث بالكيفية التي قدمتها الرواية هو محاربة الشر، وجعل عنصر الخير هو الأكثر وجوداً في الحياة ،

وقد سعى كثير من الكتاب عبر نصوصهم الروائية والقصصية والمسرحية إلى مثل هذا ، لا سيما المسرح الذي من أهم أهدافه واستراتيجياته التوكيد على عنصر (التطهير) ، وتقنياً حاول الروائي مسرحة الأحداث ، حيث يمكن مشاهدة جسد مسجى على سرير في مستشفى ما ويمكن تمثيل ذلك على خشبة المسرح ، كما أن اعتماد تقنية شاهد العيان تدعم هذه الرؤيا وتعمقها ، إضافة إلى كثافة الحوار في الرواية ، بين الجسد المسجى – المريض – مع كل من الطبيب وأخته وزوجته وكل من يزوره ، أو حتى من يهمس لهم ويبدو وكأنه يتحدث إلى نفسه ، عبر تقنية تيار الوعي والاسترجاع المسموع لدى الزائرين له . وهنا يتداخل الواقعي مع الغرائبي ، والمنطقي المعقول مع اللامعقول ، كل ذلك ليؤسس لرمز مهم ودلالات تتفتح بالتدريج أما المتلقين بفاعلية القراءة وتكرارها.

صياغة الإنسان صياغة للعالم :

إن توكيد الروائي ، على لسان الشخوص ، ومن خلال نسج خيوط الرواية بهذه الكيفية يشير إلى هدف أسمى يسعى إليه منشئ النص ، ويمكن تمثيله بالمقولة لتالية (إن إعادة صياغة الإنسان تمثل إعادة صياغة للعالم) ، فالإنسان ، حقيقة ، هو مركز العالم والوجود والحياة ، وأي خلل في الإنسان يعني الخلل في والوجود والحياة ، لأن الوجود مخلوق لخدمة الموجود ، وعلى حد تعبير أحد الصوفيين الفلاسفة – التوحيدي – فإن الإنسان هو المركز عند قوله (يا هذا – يعني الإنسان – أنت معنى الكون كله) .

تتخذ الرواية نكهتها الخاصة ، والمؤثرة ، عندما نجد أنها تحاول التمركز حول دعم وجود الإنسان بشكل سوي ومعقول في الوجود ، ولها نجد الروائي يتمرك على إثارة الخلل الكامن في صراع الحضارات ، متخذا من النص الروائي سبيلا لذلك ، ومستنداً لمرجعيات ثقافية وعلمية يعيشها الإنسان . " التقدم العلمي والتكنولوجي نفسه ، الذي لا سابق له والذي وحد العالم بإلغاء المسافات ، قد احتوى المسافة داخل القوة التي تمتلكها الإنسانية لتدمير ذاتها بواسطة السلاح الذري . والحقيقة أن الإنسانية في الوقت الحاضر تجد نفسها في وضع يتحتم عليها فيه لا إرادياً الاختيار بين أن تبيد ذاتها – تنتهي- أو ان تتعلم كيف تعيش كما لو أنها تشكل عائلة واحدة " (21) ، ويبدو أن الرواية ومنتجها ، ووجهة النظر التي يطرحها الروائي في النص اروائي تميل لصالح الاتجاه الثاني عند (توينبي) ، ومن هنا بدأ العالم يعي بطريقة أو اخرى في أفكار ما بعد الحداثة ما تطرحه العولمة والتي تدعو في بعض توجهاتها إلى أن يكون العالم قرية واحدة ، ومجتمع واحد ، ويضيف الروائي فيما يبثه من أفكار متجاوزاً ذلك إلى أن يصبح الإنسان له قيمة وجودية

يستشعرها ويحافظ عليها بعيداً عن الصراعات والقتل والموت ، وفي العمق ينادي إلى إنسانية تخلو من الحروب والمناحرات ، ويحاول أن يوجه الإنسان إلى ضرورة التحاور والتعاون لخدمة الإنسانية بعامة ، بحيث تتحقق العدالة الاجتماعية والفكرية ، وإعطاء الحق له في ممارسة أفعاله بحرية وأمان في العالم ، وهذا بالطبع مطلب ومسعى نبيل يتمناه كل إنسان يمتلك الإحساس بقيمة الإنسان في وجوده.

لقد تمكن الروائي من نقل كثير من الوقائع السلبية ، وركز عليها وقدمها بثوب إبداعي يلفت الانتباه ، ليشير إلى بواطن الخلل ويلفت إليه ، ولهذا دمج هذا المعطى في إشكالية المشروع الحلمي للطبيب ، وهذا يتماهى مع المشروع الذهني للكاتب ، الذي يحلم بتطهير العالم من الحروب والشرور وما إلى غير ذلك ، ويتجلى هذا من خلال السياقات النصية الواردة في الرواية . إنه في هذا العمل بصدد إعادة الاعتبار للإنسان والحياة والوجود كما يمكن أن تكون خالية من التلوث والخلل ، فهو يريد على أقل تقدير أن يعقد مصالحة بين الإنسان والحياة ، لتسير بشكل صحيح ، ومن هنا عمل على تذويب الحضارات في ذاكرة المريض لتغدو حضارة واحدة ، والعالم المقسم لعوالم ليصبح عالماً واحداً ، والأجناس البشري المتعددة الأعراق لتصبح جنساً واحداً .

وهذا الذي نذهب إليه يسنده النص الوارد على لسان الراوي : " هذا الجسد الحي يتسلم أكثر من أمر ، اللوحة الألكترونية تسجل اضطراباً وفصلاً للجمل المتداخلة ، بين العبري والصيني والعربي والإسباني والانكليزي ...الخ) الرواية ص 51 ، هذا التداخل في الجمل و الارتباك في الحديث ، كان لافتاً لأن الجسد في طور التكوين ويعاني للوصول إلى الجسد المثال المطلوب ، وهو أمر طبيعي ، ولوحة لتحكم تحاول ضبطه وتصحيح مساره في الوجود ، ليعتاد على الطريقة الجديدة والخلق الجديد ، وبالتالي ليتغير سلوكه وفعاليته ومنتجاته في الكون .

وفي موقع آخريقول الطبيب مخاطبا آدم :"عزيزي بل ...شارل ...أسماء مألوفة ، مع أنك تدرك جيداً أنك تنتمي إلى أرومة واحدة هي الجنس البشري المتمثل بالرمز آدم ، لذلك كله أرجو أن تدع لي حرية الاختيار في أني أخاطبك بهذا الاسم الذي يرمز إلى تلاقي أكثر من حضارة ، ويدل على أصل واحد عنه انحدر الجنس البشري الذي بدأ ينسى أصوله ، ولا بد من صدمة تعيده إلى جذوره الأولى " (22).

النظر لهذا النص على لسان الراوي يبدو أنه يشكل رابطاً جيداً للوصول للمرموزات والدلالات التي تختفي وراء السياق ، حتى أن الراوي على لسان الشخصية ينزلق بلسانه ليعطي مفتاحاً ، فها هو يقول " إنك تنتمي إلى أرومة

واحدة هي الجنس البشري المتمثل بالرمز آدم ... ويتابع أخاطبك بهذا الاسم الذي يرمز إلى تلاقي أكثر من حضارة"(23) ، كما سبق ، إذا (آدم) رمز يبنيه المؤلف ويقدمه ليشكل تحريفاً للواقع ، ويعطي مجالا للتفكير والتأمل في منتجات هذا الرمز . وفي السياق نجد إشارة إلى أن هذا المخلوق الجديد بدأ ينسى أصوله ، وهذا مطلب من مطالب البرفسور للوصول إلى جنس بشري مختلف وعالم مختلف ، ونسيان الأصول هنا محاولة للبدء بأصول جديدة لها تفكيرها وممارساتها ، وغير ملوثة بالشرور الناجمة عن الصراعات والحروب ، ونسيان الأصول يعني النجاح للفكرة الأساس التي من أجلها تم تجميع الشظايا والخلايا والأنسجة ، وما كان لمثل هذه الموضوعات في النصوص الأدبية ، وغير الأدبية أن تطرق لو أن العلم الحديث ، وعلوم التشريح والأنسجة والجينات ، التي راحت تتقدم في العالم زودتنا بمرجعيات مهمة تحمل خيالنا على التأمل والتفكير والإبداع . إذ تشكل مثل هذه العلوم مرجعية مهمة في ذاكرة الروائي من جهة ، وفي ذاكرة المتلقين ، من جهة أخرى ، لحمل القارئين على التأمل الإيجابي ، وحملهم على توقع ما يمكن أن يكون لو ذهنياً ، وفي ذلك إنتاج للذة الكشف ، وللوصول إلى أقصى درجة ممكنة من إجراء مقاربات تجاه المقرؤ .

والرمز قد يقود كذلك إلى محاولة مريرة ومتعبة لإعادة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، مهما كانت جذوره وأصوله ، ومهما كانت ديانته وعرقه ، وهذا المطلب يقع في باب الحلم لتحقيق العدالة والتوازن ، وإعادة الاعتبار إلى الإنسان في صفائه ونقائه . ويبقى السؤال مفتوحاً حول إمكانية تحقيق ذلك.

التشظي وفعل النص

كثير هم المبدعون الذين مارسوا المسخ على شخصياتهم ، وحاولوا التجريب في هذا الاتجاه عند كتاباتهم في الرواية والقصة والمسرح ولن ننسى (كافكا) مثلا في رواياته ،ومنها (الصرصور) (24) وسارترفي (الغثيان) (25) ومن العرب جبرا ابراهيم جبرا في روايته (الغرف الأخرى) (26) وسليم بركات في روايته (فقهاء الظلام) (27) ، فالمتلقي لمثل هذه الروايات سيجد شخصيات لا واقعية ، بل غير معقولة، وليس غريباً أن يفيد الكتاب العرب مما يشيع من مرجعيات في العالم ، وفي التراث الأسطوري والتاريخي القديم والحديث ، لكن اللافت هنا أن مثل هذه التجريبات إن لم تكن واعية ستوقع الكاتب في مزالق .

وهذه الرواية التي اخترناها نموذجاً تسجل عبوراً لهذا النوع من الكتابات ، فهي ليست من النوع الغرائبي والعجائبي الذي تحدثنا عليه ، وإنما قد تسير أيضا باتجاه أدب اللا معقول ، حيث الشخصية المتجمعة من أشلاء متناثرة ، وتم جمعها من مساحات جغرافية شاسعة ، من أركان العالم ، لا يعقل أن تكوِّن جسداً بشريا وروحاً بشريا إلا في عالم الخيال واللامعقول ، لا سيما عندما تحاور وتشعر ويعاد إليها الذاكرة بشكل متدرج ، وتتحاور مع ذواتها التي تتشكل منها، إضافة إلى حوارها مع الآخرين ، إذا لماذا اللامعقول هنا؟

إن أدب اللا معقول راح يتسرب إلى الأدب بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وبعد ما أصاب العالم من دمار وتشوه وتشظي في الفكر والحياة ، وفقد الإنسان الثقة بنفسه وبالعالم ، ومن هنا راحت التفكيرات والأنفس تنقسم على نفسها ، وأصاب التشظي الفكر الإنساني غالباً ، لما أصابه من عجز عن استيعاب ما يجري . بنتيجة ذلك " راح الأدباء يتساءلون عن معنى وجودهم ، ويبحثون في معقولية الحياة ولا معقوليتها ، ويهاجمون العلم الذي أورثهم هذا الحال "(28) . ويمكن القول هنا أنه لا ضير من استخدام مثل هذه الأساليب لدى الكتاب للتعبير عن توجهاتهم ونظرتهم للكون والحياة والناس ، سيما وأن الرواية هي الأكثر اقتراباً من نقل حال الإنسان وانخراطه في عالم الوجود والحياة ، " ولا ضير من توظيف وسائل غي مفهومة في سبيل التعبير عن اندهاشهم وحيرتهم ، وأحياناً يأسهم ، إذ أن كل كاتب من هؤلاء الكتاب يسعى للتعبير عن رؤاه الذاتية للعالم " (29) . وقد اجتهد كتاب اللامعقول في اختراع أساليب سردية ودرامية تثير الدهشة وتصب في خدمة الأدب من هذا الباب ، الذي ينفتح على إثراء مضمونات النص الروائي ما أمكن.

لا يجد القارئ كبير عناء في اكتشاف أن الشخصيات هنا ، لاسيما المركزية يمكن أن تنتمي إلى مرتكزات اللامعقول ، حيث اختارها المبدع بعناية لافتة ، إذ لا يعقل أن يكون اللحم المتناثر بنتيجة شظايا قنبلة ، أو تدمير قوي أو حادث دهس من شاحنة قابلا بسهولة أن يتجمع ويعاد بناؤه ، ولو كان هذا جائز ، لما كان من الممكن تجميع الشظايا من العالم ، ومن مساحات على مدار الكرة الأرضية ، لأجساد متنوعة في الخلايا والأنسجة ، وهي مختلفة في أحماضها وتنوعها ، لا يمكن إلا في التصور الحلمي والخيالي ، ولم يكتف مبدع هذه الشخصية لملمة الشظايا ، وإنما راح يدرس إمكانية اجتماع واتفاق الحالات النفسية والفكرية والمرجعيات لكل الأجساد السابقة على صناعة هذه الشخصية ودمجها لتخدم الفكرة ، فمرجعيات الصيني غير مرجعيات البوذي وغير مرجعيات العربي المسلم وغير

مرجعيات اليهودي ...الخ ، وهذه العملية يراد لها تأسيس تقني أسلوبي معين ، ليدخل المتلقي إلى الموضوع دون إرباك وبقابلية قرائية معينة ، بحيث يتماشى مع العمل وصولاً لأهدافه النصية المتوقعة .

هذا التوجه الأسلوبي أضحى وسيلة للتعبير عن قضايا عالمية وإنسانية في آن ، ويمكن من خلال ذلك أن نقبل اعتراض (آدم الجديد/الشخصية المستقبلية) على ما يحدث في العالم وفي الإنسانية ، ويكون مخلوقاً له إمكانيات مختلفة وخارقة يمكن بوساطتها إحداث التغييرات الجوهرية في هذا العالم الذي أصابه العطب بفعل آدم القديم الذي بات مستهلكاً وعفناً ، بحيث وصل إلى نهاية العالم ونهاية الذات . يقول آدم الجديد في الرد على أسئلة محاوره : " العالم كله مفاجأة ، كم يموت يومياً وكم يحيا ؟ " (30) . يقول هذا والعالم حوله مشوش ، مرتبك ، وجسده في طور التشكل والاندماج ، فماذا بعد أن يكتمل ؟ ويتحدث الراوي بعد أن تصمت الأصوات حول السرير :" تهدأ الأصوات ، لحظة صمت مطبق ، (شوان) يستعيد ذكرى التظاهرة الدموية ، تشوش تداعيات على خاطر (بل) الذي كان يصوب النار على الأحراج ، وخالد يغتنمها فرصة ليطعن صدر نسمة بخنجر ، أما (كارل) فقد سطع في ذاكرته صوت نسمة وتحفزت كوامنه وأحاسيسه الشهوانية حين لمح باطن ركبتها ... الأمر الذي جعل كتفيّ الجسد الواحد ترتعشان بإيعاز تقززي من خاطر سريع غاضب لخالد " (31).

الكلام الذي يرد على لسان الراوي هنا يعبر عن حزم دلالية لافتة ، فهو ابتداء يسترجع ماضي الشخصيات المدمجة في الشخصية الجديدة والمستقبلية آدم ، واستثارة عوالم الشخصيات قبل التجميع تضع المتلقي في مواجهة مقارنات متضادة ، بين ما كان وما هو كائن ويكون . النص السابق يحيل إلى ما ينطق من باطن الشخصية العميق القديم ويتحدث عن ثلاثة شخصيات في شخصية واحدة ، وهي بالتأكيد أكثر من ثلاث شخصيات لكن الروائي ركز على ثلاث منها فقط ، الأولى ما تخمّر ، وما زال يسري في الشظايا والأنسجة المستخلصة من الضحية التي لاقت حتفها في مظاهرات للمطالبة بالديمقراطية والعدالة في الصين في تاريخ سابق ، والثانية الشخصية التي لقيت حتفها في قتل إنسان في الحراج في غابة ، بشكل عبثي ، والثالثة حاول الراوي التركيز على مسألة طعن الأخت لقاء الشرف ، إضافة إلى مسألة البعد الشهواني لأنثى غير الزوجة ... الكل ضحايا لممارسات إنسانية خاطئة ويمكن معالجتها بأساليب غير القتل ، وهنا يبرر إطالة فترة وجود المريض على سرير الاستشفاء ، وصولا إلا شفاء الشخصية الشمولية وتخليصها من رواسب الماضي بوصفها إنسان هذا الوجود الذي كان ملوثاً ، ثم في الوقت نفسه يشعر المتلقي بفعل النقد والإدانة لما كان يحدث مع

الشخصيات في تاريخها الماضي ، وتبدو القفلة لهذه الفقرة مبررة والتي تشير إلى حالة الامتعاض ، فهذه التصرفات المتناقضة وغير الحميدة تثير (التقزز والرعشة الاعتراضية) التي لا تحتمل رؤية هذه الأفعال ، وبالتالي فإنسان المستقبل لن يقبل بمثل هذه الممارسات الخاطئة التي تشوّهخ وجه العالم ، وتخل بالتوازن الإنسانية ، وتعبث به وتدمره .

ويصل النقد مداه ، عندما تشعر الشخصية المسجاة على السرير بلحظة الانفصام والتشظي والجنون ، فها هي تقول " هل أنا مصاب بانفصام الشخصية ؟ " (32) ثم وعلى تقنية المنولوج الداخلي في حواره مع ذاته يقول : " لا .. إنه انفصام بعد انفصام ... لكن كيف يمكن أن أكتب بالعربية وأنا أتحدث الصينية فقط ؟ " (33) . وفي مكان آخر من الرواية ، نقف على الحوار التالي بين (آدم المستقبل) وأخته نسمة – هي أخت من الماضي تتسرب من بقايا الجزء المقتطع من شظايا خالد الذي مات في حرب الغفران 1973 ، وضمّ إلى هذا الجسد - حيث نجد في السياق التالي على لسان السارد ، في كلامه علىالشخصية المركزية :" كان يتذكر آخر لحظاته ، لاكاد ينفرد بنفسه ، والآخرون ليسوا دخلاء على صفوه ، لم يكونوا جحيماً ، بل هو اكثر من واحد ، يعيش في مناطق مختلفة متباينة ... " (34). كيف سيدرك كله في هذا المجموع من مجمل بشر ومجمل أعضاء ومجمل خلايا وأنسجة؟ هذا يدخل في صميم اللامعقول ، ولا يتسنى لنا إدراك ذلك إلا بمعرفتنا بمرجعيات الأدب الخيالي في هذ1ا السياق، والإدراك الكلي لن يكون ، إلا بتوسل الروائي بتبرير يورده على لسان الشخوص ، ويجعل العلم وسيلة لتخليصه من هذه الإشكالية ، فيتحدث في الرواية عن تقنيات العلم الخارق ، ويزود المريض ، إلى جانب السرير بجهاز خاص ومبتكر ، يسهم هذا الجهاز في إحداث عملية التجميع للكل المذاب في الواحد ، على المستويين الفيزيائي والنفسي ، وهذا يتطلب مزيد من الإجراءات ومزيل من التصورات ، عند منشئ النص ومتلقيه .

التشظي هنا يصيب جسد الإنسان والحياة معاً ، وعندما يصاب الإنسان في دواخله ، إضافة لعوالمه الخارجية يكون الأمر أكثر تعقيداً ، فالانفصام السابق ناتج عن تراكمات لوقائع متفاوتة ، لكنها جميعاً ، وفق الانتقاء القصدي في النص ، يقود للموت والتدمير والهلاك ، ولهذا كان كل جزء من الجسد الجديد والروح الجديدة إضافة للذاكرات المتجمعة الآن في ذاكرة واحدة ، ما زالت مصابة ببقايا من التلوث والشر القديمين ، وهذا ما أطال شريط الزمان المكثف في النص ، وشريط الخيال الذي يزداد انفتاحا عبر التذكر والتخيل ، حيث تجبر ذاكرة المتلقي للعودة لماضي كل شخصية قبل الدمج ، وتاريخها وتاريخ حضارتها ومرجعياتها ...الخ ، ومن ثم تحاول

الربط مع الوقائع الخيالية المتسربة من خلال لغة الرواية وأسلوبيتها إلى ذاكرة المتلقين .

الروائي من خلال هذا الربط الدقيق لكثير من التفصيل الملتقطة ، اعتماداً على اختيارات فنية تشكل ومضات مدهشة وتستدعي التفكر والتأمل ، كان يسعى إلى تنوير الذاكرة الإنسانية المعاصرة ، ولفت انتباهها للخلاص من المنزلق والانحدار الذي تنزلق فيه ، وبالتالي محاولة للأخذ بيد الإنسانية نحو الأفضل ، الروائي أحسن صنعاً هنا عندما سلط الضؤ على بواطن وكوامن الضعف في حضاراته ووجوده على هذه الدنيا ، فهو في هذا العمل الروائي ، ينتقد بفنية عالية الحروب والقتل الذي وصل مداه في الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، ولم يتعلم الإنسان مما أصابه ، بل ازداد شراسة في القتل والتدمير وصناعة الأسلحة التدميرية ، ومن هنا نراه يعرّج في الحديث من خلال التفاصيل المبثوثة هنا وهناك في الرواية ، على حرب 1948، والحرب الثلاثة على مصر عام 1956 ، وحرب 1968 ، وحرب 1973 ، وحرب فيتنام ...الخ.

هو يسلط الضوء على ما أنتجته السياسات السلبية للتفكير الإنساني في العالم ، التي أوصلت العالم لما أوصلته ، وهذا يدفع الإنسان إلى تغيير آليات التفكير والتعامل مع وجوده ومع الحياة والناس . والبحث عن علاج فعال يحفظ الأمن والاستقرار والعدالة والقيم النبيلة ، ولعل هذه الأخيرة تأخذ حيزاً لافتاً عند الروائي ، لما لها من أثير في انتماءاته الحضارية والفكرية ، فهو ابن الشرق وابن منطقة الديانات الثلاثة ، ويبحث دائماً عن تعزيز القيم والسلوكيات الإنسانية النبيلة ، ولهذا يستثمر ما يسمى بالقصة الإطار ، التي تنفتح على قصة أخرى ، وتتوالد منها ن وبذلك يبدو نصه أكثر كثافة عندما يتعامل مع القصص ذات الأبعاد الاجتماعية .

المثال على هذا البعد الاجتماعي ، تلك القصة التي أوردها في الرواية ، للشخصية الثانوية خالد ، التي تم إدماج بعض من جسدها وروحها وذكرياتها في شخصية (آدم المستقبل) . تحكي هذه القصة سيرة أخت خالد (نسمة) التي تسافر للدراسة خارج الوطن بعد قرار صعب من العائلة ، وبعدها تتعلق بشاب يصبح عشيقاً لها ، وبذلك تخرج على العادات والقيم الشرقية ، وتمارس حريتها بفرديتها دون الرجوع للعائلة ، ودون احترام – من وجهة نظر العائلة – لمبادئها وقيمها وديانتها ، ومن ثم يتم العلم بهذا الأمر ويتم التحريض على قتلها من الأب وحتى الأم – أم الضحية - تنساق وراء هذا الفعل وتقبل به ، ويتم طعنها من قبل الأخ بخنجر ، وهي القصة التي يعاد إبرازها وإظهارها على لسان (آدم) المستقبل باعتبارها رواسب من الماضي .يتم القتل تبعاً للأعراف القديمة والعشائرية ، ليسلم الشرف الرفيع من الأذى؟

مع أن الأخ خالد يمارس مثل هذه الأفعال ويزيد في بلاد الغربة ، ولا يحاسبه المجتمع ، بل يمار الصمت عليه والتبرير له ، وهنا تقفز صورة المرأة الشرقية ، والأنثى المظلومة والمضطهدة ، وذكورة الرجل ، والقمع الذي يمارس عليها اجتماعيا وفكرياً ، وما إلى ذلك من قضايا .

نشير إلى هذه الحادثة من خلال السياق الوارد على لسان خالد : " أخوتي طارق وموسى ورشاد وأخواتي تحمسوا كثيراً للمقترح – السفر سابقاً والآن باتوا يلومون أنفسهم يوم وافقت العائلة على سفر الأميرة للخارج من أجل الدراسة ، - أنا أحببتها ، أما قصة الخيانة فآخر ما توقعته منها ..." (35) وفي مكان آخر يرد السياق التالي : " قالت لي أمي بنغمة يائسة : أختك فعلتها ، قالتها وعيناها إلى الأرض .." (36) . وفي مكان آخر نجد السياق : " قالت لي أمي إن أختي خرجت ولم تعد لحد الآن ، كانت تحب رجلاً أجنبياً ، رفضنا زواجها منه ..." (37).

مثل هذه القصة في الرواية ، على أهميتها ، لم يفرد لها الروائي مساحة ورقية كبيرة ، وقد جاءت في ثنايا التفاصيل المكثفة على مدار النص الروائي ، وقد أحسن الروائي صنعاً في هذا التوجه ، لتبقى فنية العمل الخيالي والعلمي هي المتسلطة على النص ، وحتى يبتعد ما أمكن عن الوقوع في المباشرة التي تقود إلى الرواية التقليدية ، أو أي نمط من الروايات الأخرى ، وحتى يبقى النص ضمن الدائرة التي رسمت له في نمط الخيالي والعجائبي واللاواقعي ، كما سلف .

اللغة ورواية المستقبل :

كلنا يعلم بأن اللغة وعاء الفكر ، وهي المنتج الذي يقدم للمتلقين الرؤية التي يحاول ان يقدمها منشئ النص إلى متلقيه ، ومن اللغة واستبطان سياقاتها، ووقوفاً على كيفيات الاختيار يتمكن المتلقي من الكشف عن المكنونات المثارة في النص المكتبوب ، لكن السؤال الذي قد يظهر ونحن نعالج روايات تتوسل الخيال المغرق ، او تحاول استشراف عوالم وطقسيات لم يرتدها أحد من قبل ، وتقع في دائرة ما يمكن أن يكون ، هو إلى أي حد يمكن للمؤلف/الروائي هنا من التعامل مع اللغة ؟ وكيف له أن يقيم عالما مفترضاً خيالياً يجذب له المتلقين ، ومن ثم يدعوه للانخراط في أجواء العمل ومنتجه واهدافه ؟ فلكل عمل لغته واسلوبه ومكوناته الخاصة به ، وبها ومن خلالها يظهر البعد الإجناسي لها ، ويظهر التفاعل الذي يمكن أن تقود إليه.

اللغة الإبداعية تفعل فعلها عندما تستثمر الغرائبي والعجائبي ، فغدو على منشئ النص عبء التطويع مضاعفاً ، وسيرهقه البحث والكد ليجد ما يتناسب والعوالم التي يطمح باستحضارها ، ولا يمكن لهذا الاستثمار أن يكون مؤثراً

ومنتجاً إلا إذا كان الروائي هنا واعياً لمثل هذه المسائل المهمة التي تثيرها اللغة عند تحويلها إلى كلام ، وعندما يحاول التعبير عما يدور في الذهن ليحدث مقاربة تجاه العالم والحياة والوجود ، فمن المفهومات الشائعة عن العجائبي مثلا ضرورة وجود " بناء لغوي ، ولقاء بين المألوف واللامألوف ، بين أدوات طبيعية وأخرى فوق طبعية غيبية لإيجاد حالة من الزج بالواقعي بكل وضوحه الكاذب واوهامه المغلقة في المأزق – مأزق الكتابةهنا – " (38).

مثل هذه التوجهات كانت موجودة عبر تاريخنا وتراثنا القديم ، والنهل من المنبع الغرئبي والعجائبي كان لافتاً في أشعار الجاهليين ، وكانت الطقسيات الغرائبية والخرافية لها مساحة واضحة في حياة الأنسان القديم ، وانعكس هذا الأمر في سرود الإنسان وتعبيراته وسلوكاته ، فالمتتبع للمدونات التراثية في الماضي و للنصوص القديمة الأدبية خاصة ، سيجد حضوراً لعالم الجن والخرافة ، منها حضور (الهامة) والتطيُّر ، وعالم الجان ، والغول ، والتمائم ، غضافة لبعض الطقسيات والاناشيد المشبعة بالخرافة والتي قد تجد فيها مسحة دينية ، أو بحث عن مأزق وجودي كان يعيشه الإنسان ويستشعره على الأغلب في صراعه مع الحياة والكون ، ونضر أمثلة على هذا استثمار بعض الكتاب والشعراء هذا المنحى في نصوصهم ، فكثير من الشعراء كان يدعي وجود جان يرافقه أو يلقّنه الشعر ، مثل حسان بن ثابت الذي بلغ به الأمر أن سمّى شيطانه وافتخر بذلك (الشيسصبان) ، لكن التوظيف الكتابي الممنهج ، والإبداعي الراقي بلغ أوجه في كتابات ابن شهيد الأندلسي ، كما فعل في مؤلفه : (رسالة التوابع والزوابع) (39) الذي أدار أحداث شخوصه في وادي الجن ، الذي يعرفه العرب، وتكلموا عنه كثيراً عنه في نصوصهم ، وهو (وادي عبقر) .

ومثله فعل المعري في كتابه الشهير (رسالة الغفران) (40) ، وفيها سرود تنهل بشكل واضح من عالم الغريب والعجائبي ، حيث شخوصه تتحرك والأحداث التي اختارها وتصورها المعري ، في بعض مواقع هذه الرسالة وهي كثيرة ، في عالم الغيب ، عالم الجنة والنار ، وتم استحضارهما بطريقة إبداعية تلفت الانتباه ، حتى بلغ به الأمر أن أنشأ قصيدة على لسان الجان في هذه الرسالة (41) ، وقسم المبعين – الشعراء – في مراتب يسكنهم في مواقع معينه في الجنهة او النار ويدور على ألسنتها حوارات خيالية بكيفيات إبداعية راقية .

إن ما يهمنا هنا هي اللغة التي أفاد منها الكتاب عامة في صناعتهم لعوالم تختلف عن العوالم التي في الواقع ، القارئ مثلاً لرسالة الغفران يستشعر وجوده في عالم مختلف تماماً ، وفي الوقت نفسه يجد له مقارب في عالم

الواقع ، بمعنى جعل لسياقاته وتخيلاته خيط يربط بين الواقع والخيال ، وهنا تكمن الجمالية ، وشعر المتلقي بجزالة اللغة وفخامتها ، وكأنه مستلة من عالم غير العالم الذي اعتاد عليه ، فوقع على تركيبات جملية تحيل إلى تصورات خيالية خارقة ،للعادي والمألوف ، وهنا تمكن المعري مثلاً من تطويع اللغة لاحتضان العالم المفكر فيه ، والذي يطمح لأن يقدمه للمتلقين .

الرواية /القص ، عندما تأتي بمقاربة للعالم والإنسان ، فإنها تتمثل كوناً خاصاً بها ، وتتلبّس عباءة اللغة ، لتظهر بكيفية مميزة ولافتة ، اللغة هي الشكل الحاضن والصانع لما سيذوب فيها ، ويسعى الروائي والكاتب عندما ينخرط في مثل هذه الكتابات إلى التكيّف مع الوقائع وينسلّ عبر مرجعياته وثقافته لينهل من اللغة ما يتناسب مع ما يعتقده وينوي الكتابة فيه ، وعليه أن يكون بارعا في التحرك في مساحات الخيال لديه ، والنص سيكون فيما بعد انعكاسا لسعة خياله وقدرته على استحضار عوالم مختلفة يمكن أن يصورها ويرسمها بالكلمات .

قد يسأل سائل لماذا هذا الابتعاد عن اللغة المتداولة ن والخرق والاختراق للمساحات الللغوية المتاحة ، لماذا على الكاتب ان يخلق لغة تليق وترتفع لمستوىالخيال ؟ وبالنتيجـة لماذا (الفانتازيا) . أن تقول الواقع ، كما هو فهذا ليس من شرائط الإبداع ، ولا يقود إليه ، ولا يسجل لصالحه ، حيث الإبداع ينطوي في كمونه الداخلي ، وفي أعماقه على الخلق المختلف على غير مثال ، حيث " في أعماق الفانتازيافي القص الحديث ثمة شك بخصوص العالم الذي تنتمي إليه _ أهو هذا العالم أم عالم مغاير تماماً ؟ " (42) . المتلقي لعالم فانتازي يبدأ في التشكك في العالم الذي عرفه وتعايش معه ، ومن هنا يساوره الشك فيما هو عليه ، وبالتالي يبدأ في الترحل والتفكير في هذا الطارئ ، ويذهب إلى محاولة فهمه والتفاعل معه ، وقد يتقبله أو يرفضه ، وذلك بعد معاينته ، لكنه في أثناء معالجاته لهذا المعالم الجديد عليه ، ذهنياً ، غالبا ما يتقبله ويتصوره لأن المساحة التي يشتغل عليها ، أثناء القراءة هي مساحة حلمية ، غالبا .

اللغة عندما تتعامل مع المدهش والغريب تنفتح على آفاق أخرى ، جديدة مختلفة في آن ، وفي المقابل تبني تصورات تستحث اللآخر على العبور إلى الأعماق والتفكر ، وتحثه على تغيير مسار التفكير وآليات التعامل مع النص ، فهو في مثل هذه الحالة إزاء بناء تختلف معابره ، وتختلف طبيعة بنياته ، ويضفي على النفس إيقاعاً تتلذذ النفس باكتناه أبعاده وتصوره ورؤاه ، ومن هنا يصبح المتلقي قارئاً من نوع خاص ، لا سيما عندما يجد نفسه مجبراً على تعديل أفق القراءة لديه .

المستويات اللغوية في رواية (آدم الجديد)

يود الباحث الحالي أن يشير ابتداءً إلى أن الروائي تجنب استخدام العامية في نصه الروائي ، وبدلاً من هذا حاول تبسيط السياقات ما أمكن محاولة لمناسبة المقال للحال ، ولشعوره بأن الفصحى هي الأكثر وصولاً لأكبر قدر ممكن من الناس ، في العالم العربي على الأقل ، ليعطي موضوعه ونصوصه أكبر اهتمام ممكن من الناس ، ثم لشعوره بأنه يعيش في بلاد تتصف بالحضارة ، وينخرط في عالم يفترض أن يكون الأكثر تقدماً ، معرفياً وحضارياً ، إضافة لانتمائه لحضارة راقية لها جذورها ، فيبدو وكأنه في هذا الأمر يتسق مع نفسه ، بوصفه مثقفاً ، ومع المحيط الذي يعيش فيه وينتمي إليه ، وربما أخيراً لتجنب إشكالية الكتابة بالفصحى او العامية ، والجلية التي تدور حول هذه المسألة ، وعبر المستويات المختلفة يتجله البعد القيمي للغة في النص الإبداعي عامة ، والرواية خاصة ، إذ " لا تعتبر اللغة مجرد ألفاظ كما هو معروف لدى بعض الدراسات اللغوية ن لا سيما منها تلك التي تتبنىالرؤية التجريدية ، وغنما هي حقيقة ذات أبعاد نفسية وعقلية تحتضن كل ما يكتب بلسانها وتطبعه بطابعها " (43) .

وكثيرة هي الدراسات التي راحت تربط ، وتقيم علاقة بين اللغة والأبعاد السلوكية والنفسية للشخصيات في الرواية و القصة و الشعر، حيث اللغة عندما تتحول إلى كلام ، وتصبح نصاً ، تحتضن قدرا كبيرا من الدلالات التي تعكس حالة المبدع ، فهذا الباحث المسدي يفرد دراسة خاصة حول الشابي في هذا الاتجاه وأسماها (مع الشابي بين المقول الشعري والملفوظ النفسي) ويببين فيها المتقابلات الضاغطة من حصار الواقع الذي يتضافر فيه تسلط المستعمر وتردد الشعب على وعي الشاعر ، وحصار الزمن ، وكيف تجمع الماضي والحاضر على إحساس النفس ليدفع بها إلى رؤية المستقبل (44) ، ومثل هذا نجده في الرواية موضوع بحثنا هذا ، وكيف أن الحروب والانتكاسات الإنسانية وأزمة الإنسان ومزالقه المختلفة ، الفكرية والسياسية والاقتصادية ... كانت ضاغطة على نفسية الكاتب ، وعلى نفسية الشخصيات التي تم انتقاؤها وتوظيفها في هذا العمل ، بحي كانت اللغة تشكل معبراً هاماً لدراسة وفهم سلوكيات معينة لدى الشخصيات ، التي تقترب أو تبتعد من النماذج المعيشة في الواقع الإنساني .

1 - **اللغة الفصيحة ألأقرب إلى التداول** :

حاول الكاتب في هذه الرواية أن يستثمر مستويات لغوية مختلفة ، وفي هذا المستوى حاول الاقتراب من اللغة المتداولة لدى الناس ، لكنها ترتفع في مستواها عن اللغة المحكية ، وفي ذلك محاولة منه لإدخال المتلقين إلى النص

بسلاسة ويسر ، ودون الحاجة إلى الرجوع لمعاني كلمات ومرجعيات مرهقة للبحث عن الافكار التي يحاول بثها في النص . هي ليست مباشرة تماماً ، فيها بعض الإيحاء الشفيف القريب من التصور والتمثل .

إن توسلاته – المؤلف – بتقنيات السرد الحداثية أفادته كثيراً هنا ، ليجعل ذاكرةالمتلقي تتمركز حول الشخصيات المحكي عنها ، فجعل نفسه محايداً عندما استثمر ضمير الغائب ، وجعل الحديث على لسان الراوي بأنماطه المتعددة ، لكن الغالب كان استخدام (ضمير الغائب) ، ومثالنا على ذلك السياق التالي في تقديمه لتوصيفات تتعلق بالشخصية المركزية : " لم يعش في الصين ، بل عاش فيها ، ولم يزر الكاريبي ، لكنه ولد هناك ، شئ لا يطاق ن يدرك ما يقولون ، ويعرف نفسه ، ولا يدرك من هو ، لكن الوقت يخادعه أيضاً ..."(45). وعندما يتكلم على شخصية الطبيب المعالج للشخصية المركزية ، يقدم المؤلف الراوي بنمط ضمير الغائب أيضاً من خلالا السياق : " لم يكن يحب أن يستبق الأحداث قبل أن يمهد لمريضه القبول بالأمر الواقع ، من غير أن يُحدث له هزة عميقة ، أو إن كان ولا بد من الصدمة فلتكن وفق رأيه على مراحل ، ولكي يحقق هدفه في ضمان نجاح تجربته الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد من قبل ، فإنه كثّف اتصالاته بشخصيات كانت ذات علاقة بكل هؤلاء الذين تحدثوا إليه بكامل وعيهم "(46).

بدا السارد هنا بلغة بسيطة قريبة من اللغة الإخبارية والتي تنقل أحداثا ومشاهد ، وترسمها على الذاكرة من خلال الكلمات ، وقد تمكن الراوي هنا من استبطان وجهةنظر الطبيب وما يريد أن يقدمه في مشروعه ، وبلغة قريبة إلى المنطق والعلم ، وهي لغة قريبة هنا من لغة الطبيب المثقف ، والعالم النفسي الذي راح يقدم وجهة نظر المريض والناس من حوله ، وبدت اللغة حاضنة ، وواصفة لأبعاد الشخصية المختلفة .

اللغة بهذه الكيفيات الأسلوبية يمكن لها أن تكون حاضنة لأكبر قدر ممكن من المعارف ، المراد إيصالها بيسر وسهولة للآخرين ، ولأكبر شريحة ممكنة من الناس ، ويمكن لها أن تحتضن في الوقت نفسه إمكانيات لافتة ، لا سيما الأحداث التي يراد إحداث مقاربة لها ليتمثلها المتلقي باكبر قدر ممكن من السلاسة ، وتاخذه بتدرج ودون عناء لتمثل مشاهد يقدمها الراوي وتصبح جسر عبور له لتمثل ما وراء الواقع الذي سنتحدث عنها في اللغةالعلمية المستخدمة في النص.

إن اختيار المشفى مكاناً لبعض اشخصيات ، واقصد هنا على وجه الغالب ،الشخصية المركزية وما يحيط بها ، نجد ان عوالم الطب والاستشفاء ، وعوالم المريض والمعالج تفرض نمطاص محددا من القول ، ونمطاً من

الأفكار التي يمكن ان يودعها الروائي في لغته ، فيكون عليه التقاط بعض الكلمات والسياقات التي تهم لغة التداول في مثل هذه الأمكنة ، إضافة لما تستدعيه مثل هذه الأمكنة من طقسيات نفسية وروحية معينة ترافق الحالات المرضية .

من الطبيعي إذا أن نجد اللغة التواصلية ، الأقرب إلى التداول والمباشرة والبعيدة عن التعقيد، لتناسب الحالة والوضع ، لكن هذا يستدعي دربة خاصة ودراية معينة لنقل اللغة إلى مستويات دلالية أخرى عند الاستخدام ، وذلك لتخدم استراتيجية النص والهدف منه ، وطالما أن الحدث المركزي هو تجميع خلايا وجينات من اجساد مختلفة ، فهذا يستدعي وجود كلمات تشير إلى التجارب والعمليات الجراحية والأدوات ، إضافة للممرض الطبيب ...الخ ، يقع الآن العبء على المؤلف في كيفية استحضار سياقات تحمل المتلقين أثناء القراءة على تمثل الحالة من جهة ، وتقديم سياقات تحملهم على الترحل عبر الخيال في رحلة لما وراء الواقع ، وهذا يتناسب مع كون الرواية تبحث في موضوع علمي خارق للعادة ومدهش ، ويؤسس لرؤى فيما وراء الأشياء والعالم .

الطبيب عندما يتكلم إلى المريض على سرير المستشفى ، وهو مسجى بين الصحو والغياب ، تنفلت منه لغة مباشرة ، لغة فيها التخاطب الواضح وتبدو تواصلية ، لكنها في الوقت نفسه صادمة للقارئيين ن عندما يجدون أنفسهم في تخيل لما ينتجه كلام الطبيب ، فها هو يخاطب مريضه قائلاً: " إن علاقتي بك تمتد إلى زمن بعيد، فهذا الجسد الذي يحمله آدم أنت ، جسدك الذي شككت فيه يتألف من أعضاء أُخذت من عشرات الأشخاص ، أناس ماتوا بحوادث مختلفة ، أنسجة حية ، إن جزءا مثل اليد تجمع من عشرة أشخاص أو اكثر ، كذلك الأمعاء والمعدة والكبد ، حتى تجمع لدي جسد كامل يمكن أن أركبه في شخص واحد " (47) ، وفي مكان آخر نجد السياق التالي ، وهو يرد على لسان الراوي : " كأنّ ما حدث كان بالأمس فقط ، منذ يوم أو يومين على أكثر احتمال ، شهر أو سنة مدة الغيبوبة عن الوعي ، لا شيءفي المشفى يشير إلى التاريخ ما عدا الأرقام والسنوات في رأسه " (48) .

ويمكن أن نجد سياقاً آخر يحكي ويشير إلى الوجود في المستشفى وهو : " في هذه الأثناء – المعالجة – بدأ الدواء يسري في الجسد المضطرب " (49) .لا يمكن في مثل هذا الحوار ، أو في مثل هذه التعبيرات النصية أن تكون اللغة خيالية أو مشبعة بالصور الفنية والانحرافات السياقية ، هو يحاول إنسان بشري مريض ، ولغته لغة طبيب مثقف وعالم ، يحاول الطبيب أن

يذكر المريض بقدم العلاقة معه ، وهنا مع مجمل الأعضاء لديه ، ويخفي في طيات كلامه أنه يشير إلى قضية علمية نابعة من صميم عمله بوصفه جراحا وعالما في الأنسجة وتجميع الأعضاء ، والمتلقي عندما يتلقى هذه السياقات سيثور في ذهنه استحالة تجميع عشرات الأعضاء في يد او رجل أوالكبد ... فيبدأ بالاندهاش والتوسل بالخيال ليرى ما وراء الكلام ، وما يختفي وراءالسياق من معاني ، ليصل إلى نتيجة مؤداها أنه امام حالة لا واقعية وغريبة ومدهة ، ويفود لذلك كيفيات التجميع لهذا الجسد الغريب ... فلغة الطبيب على بساطتها تخفي في طياتها لغة حافلة بالمعاني وتحث على التفكير، وهي واضحة في سياق الحالة الراهنة للمريض ، وهو على سرير الشفاء في المشفى .

2 - اللغة العلمية :

تتضح بعض السياقات اللغوية وتظهر مشبعة بالكلمات المختارة والمنتقاة من المعجم اللغوي العلمي ، وطبيعة الموضوع هي التي غالبا ما تفرض معجما بعينه على الكاتب ، إضافة للعصر الذي يعيش فيه ، ثم اننا نظيف هنا حساسية الكاتب ليس للواقع المعاصر الذي يعيشه ، وإنما ذهب إلى تمثل المستقبل واستشرافه ، ومن هنا راح يتوسل بلغة تتفق والحالة هذه ، من حيث أنه راح يتوقع ما يمكن أن يكون من أبحاث وتجارب واختراعات ، وبناء على ذلك ذهب إلى توقع لغة معينة تناسب الزمن الاستباقي ، فتخيل في ذهنيته وذاكرته معجماً لغويا رافداً ، ويمكن له أن يغطي الإمكانيات التي يمكن استثمارها في الرواية ، شكلاً ومضموناً .

ولشعور المؤلف بضغط التسارع الزمني ، وإمكانيةالكتابة من المستقبل ، والذهاب إليه ، قام بإفراد لوحة كاملة ، تبدو كأنها مما يسمى قصة الإطار وإن جاءت شبه معزولة عن الرواية ، وقام بتسميتها(قصة من عام 2784) (50)، وبهذا أراد أن يزج بمتلقيه إى أزمنة قادمة ، وينتشله أو يخلصه من الزمن الآني والواقعي ، وطبيعي أن تكون الأحداث والشخوص واللغة هنا مختلفة ومتنوعة . ثم أن السارد يحاول أن يشعر المتلقي بأن الشخصية المركزية والشخوص الآخرين هم في أجواء علمية ، ويتعاملون في طقسيات خاضعة لتجارب العلمية ، ومن هنا تكون لغتهم وسلوكياتهم وفق هذه المقاييس ، ففي إحدى الحوارات يذكر السارد مخاطبا المريض بقوله : " عزيزي آدم المستقبل ... آدم الجديد... إنك لن تفهمني مالم تقبل الوضع الجديد الذي وضعك فيه العلم الحديث المتطور ، المنبثق من حضارة أفقها خالد وكارل ، ومسميات أخرى تعايشت وامتزجت دون أن تنصهر تماما، فجاء دور العلم ليجعلها تذوب مع بعضها ، وتكوِّن كتلة واحدة يصعب الفصل

بينها ، إني كما تعرف البروفيسور (ج . حونسون) أمريكي من أصل بريطاني ، املك أكبر مشـفى في (نيويورك) ، وآخر في (هونـج كونج) ، وثالثا ضخماً في لندن" (51).

الكلام السابق يحيل دون كبير عناء إلى عوالم حضارية لافتة ، وإلى أن (البروفيسور) الطبيب من الشخصيات العلمية الكبيرة والذي يستثمر عن طريق علمه وأمواله ، ولهذا يمتلك المشافي في دول متقدمة حضارياً وفكرياً ، ولينقل لنا مدى إمكانياته وتقدمه في علوم الطب بشكل عام ، والجراحة والأنسجة بشكل خاص ، هذا السياق اللغوي ينطوي على معلومات إخبارية ، وتنقل لنا أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الطبيب والمريض والأجواء التي تسير فيها الاحداث ، ومن هنا لم يكن في الكلام الحواري إلا البعد التواصلي بأسلوب علمي ومباشر يخلو من التصويرات الفنية والإيغال في الغموض ، وما إلى ذلك ، فكلمات مثل (آدم الجديد) مثلاً تحيل إلى وجود تدخل في بنية هذا الإنسان وتكوينه ليكون بمواصفات تقنية وخلقية مختلفة عن آدم الذي نعرفه – القديم - ، ثم أن الوصف له با (آدم المستقبل) ، يبدو منه أنه قد يكون ، أو تم تكوينه بإرادة قصدية لزمان آخر ولمكان آخر ليس واقعياً ولا معاصراً ، بل تم تجهيزه لوظائف ومهام مستقبلية ، وفقاً لمسيرة العلم ، اللغة هنا تقفز بك إلى عالم آخر سيكون ، وتحثك على الانفلات من العالم الكائن ، وهذا بالطبع من استراتيجيات النص المتجاوز والمتخطي ، فنياً وموضوعياً .

هذه اللغة تفرز أسلوباً يتلطف في تناول الواقع ، ويسحب المتلقي بهدؤ إلى عوالم افتراضية ويعاود نفسه للتفكر واستخراج العبر بعد أن يغيب في البحث عن الدلالات الكامنة في سياقات النص ، الغرابة هنا على حد تعبير حازم القرطاجني " لا تعني الشئ الذي لم تره العيون ولم تسمعه الآذان ؛ إنها على العكس متعلقة بشئ معروف ومألوف ، إلا أنه منسي ومدفون في أعماق النفس " (52).

ثم ما يلفت الانتباه في اللغة العلمية هنا أنها تقدم على صيغة إعلامية خبرية ، وهي أقرب في بعض المواقع إلى اللغة الصحفية ، ويمكن أن نجد تبريراً لهذه المسألة كون الحدث الذي يتعامل معه الكاتب غريباً ، ويريد أن يقدم خبراً عنه ، وتصوراً مشفوعاً برؤية علمية ما ليؤسس لبعد إقناعي يقود المتلقي علمياً ومنطقياً وبسلاسة للأحداث الغريبة التي ستقع ، قبل انزلاقه إلى لغة أخرى تجعله – المتلقي – يفارق القول ، بهذا الأسلوب المتوسل بمثل هذه اللغة ، يكون الخطاب السردي الذي يقدم الحكاية أكثر توافقاً مع جنس القص والرواية ، كونها حريصة أسلوبياً على تقديم مشاهد معينة يمكن تصورها في ذاكرة المتلقين .

يصبح الخبر المقدم في هذا البعد اللغوي الإجرائي والتقني للنص الروائي بمثابة الفن الذي يحتاج إلى دربة خاصة ، وقد التفت لمثل هذه المسائل الفنية غير ناقد ، في القديم والحديث ؛ فهذا محمد مشبال يذكر : " لاحتظ أكثر من باحث معاصر أن فن الخبر شهد مع الجاحظ (- 255هـ) عناية بالوظيفة الأدبية ؛ تجلّى ذلك في الهيمنة الواضحة لمكونات الخطاب السردي على حساب الحكاية أو محتوىالخبر ، كالتركيز على الوصف الداخلي والخارجي ، والحوار، والمكان، والزمان ، وغيرها من المكونات والسمات التي ينتقل بها الخبر من وظيفة الإعلام وتوصيل المعرفة إلى وظيفة الإمتاع والتخييل وتشكييل معان إنسانية وعلمية وخلقية " (53) .

اللغة بهذه الكيفية تحتضن ممكنات القول بأكبر قدر ممكن من العطاء ، وتكون موافقة لمقتضى الحال ، وتنسل الأحداث والأقوال إلى داخلها فتكون اكثر طواعية للذوبان في سياقاتها التي تنبني لخدمة دلالات معينة يريدها منشئ النص . وقد كان توظيف مثل هذه اللغة العلمية والقريبة من الإخبارية والمباشرة متوازناً ولم يغرق الكاتب فيجعلها تتسلط على مجمل النص ، فكان حريصا على توظيفها في المواقع المحددة التي يمكن أن تستخدم فيها .

3- اللغة المتشظية الخارجة عن المألوف:

القارئ لسياقات النص الروائي ، موضوع البحث ،سيقع على سياقات تبدو غير منطقية ، ولا تتسق مع الواقع ، وتثير إشكالية على مستوى المفهوم والدلالة ، لكن إذا ما تجاوز عتبات الحرف ، وتعمق في مكنوناتها ودلالاتها سيصل إلى المعاني المرادة والمقصودة لها . نحن نعلم ، عند اطلاعنا على المضمونات التي تثيرها الرواية اننا بصدد عوالم واأحداث تحاول الرواية أن تؤسس لها وتنجزها ، وهي ، في بعضها ، يقع في المتخيل السردي ، والحلمي ن والاستشرافي ، وتحيل إلى مسائل شائكة علمية وحضارية ، وتحاول في الوقت نفسه أن توظف الغرائبي والعجائبي واللامعقول ، كما سلف ، من هنا نفترض التعامل مع هكذا نصوص بآليات تفكير وتحليل مختلفة عن العادي والمألوف ، وسنجد لزاماً علينا البحث في ممكنات تحليلية وقرائية أخرى .

إن قراءة النص التالي من الرواية ، والذي يبدو غير متسق ، يفرض علينا البحث ما أمكن في ما يرمي إليه من دلالة ، وهذا النص على سبيل التمثيل نجده في الحوار :

" صباح الخير
جود مورننك
جود مون

شلوم شلومخا
بوينس دياس
تاوان تاوان
شوان... خالد... موشي... بل... أنا ...هؤلاء ... هو..هم..أنا..
كأن يديَّ ليستا هما، قدماي أيضاً ، لا ينكر أنه حقيقة موجودة ، بل شخص في أكثر من واحد، ولكن لم هو؟ اختلاط الأزمان ، قد يكون هناك خطأما – ماشهو لو يسيدير- " (54).

كما نجد النص التالي :

" ممرضة فاتنة حسناء تقف على رأسه – المريض - ، أمامها عربة لفطوره او غذائه ، وعلى بعد منها بضع ممرضات يحيينه :

هاو آر يو
فينت
كوماستاس دي سالوت
ني هاو ما ...
أنت موشي ... شمي موشي ..اسمي خالد .. ، والعام هو 1973 ، والدك يهودي ، يملك صحيفة البولتكن ، الصحيفة الأوسع انتشاراً في كوبنهاغن .. كنت على متن دبابة ترسل التقارير الصحفية ثم حدث انفجار هائل ، فكيف انتقلت إلى الصين ، ومظاهرات عام 1986.. هل العالم يعيش الان عام 1986 أم 1973وإلا كيف تكون كارلوس ...تداخلات أم تناسخ أرواح حل بك أيها الأمير "(55).

تبدو اللغة هنا والسياقات مرتبكة ، غير متسقة ، متشظية ، ومنالصعب إيجاد العلاقات المنطقية بينها ، لكن الذي سينقلها غلى المنطق والممكن هو العيش في داخل اللغة ، والبحث في أعماق النص متجاوزين المعاني السطحية لها.

الأمر ينجلي بعد قراءة العمل بكليته ، حيث التناول الجزئي سيُخلّ بالمعاني والمكونات ، ويجعلنا قاصرين عن اللحاق بالمعاني ، لكن عندما نعرف أن المتحدث هو الطبيب الجراح ، وصاحب الخبرة العالية في علم الجينات ، وأن المريض الذي يمثل الشخصية المركزية في هذا الحوار هو مجمل شخوص في شخص واحد ، ومجمّع من شظايا أجساد ، وخلايا المخ لديه انسجة تعود لأكثر من مخ بشري من مختلف الأقطار ...الخ .

سنجد بعد إعمال الفكر في هذه اللغة أن من الممكن ، خياليا ، أن يكون هذا ، فلسانه ليس لسانه الذي ينتمي لجنس أو عرق بعينه ، فهو : عربي ومسلمم ويهودي وصيني وهندي وامريكي وبريطاني ... ولهذا تكون لغته متشعبة ، مختلفة ، غير متسقة ، إضافة إلى لعبة السرد التي يبرع في

استخدامها الروائي هنا ، ويحاول استثمار طرائق السرد الحديثة ، لا سيما تلك التي تقوم على الإسترجاع ، وتيار الوعي ، وضمير الغائب وضمير المتكلم ، ومسرحةالأحداث عن طرق استخدام تقنية شاهد العيان التي ترد على لسان الراوي أحيانا، كل هذا وربما غيره يحملنا بعد قراءة العمل على تمثل هذه الحالة ، وبالتالي الموازنة بين مقولاتها وسرودها ، وما تعنيه في مرجعية الشخصية المتكلمة من جهة ، ومرجعية وثقافة الروائي من جهة أخرى ، وهذا يملي علينا ، بوصفنا قارئين حزم دلالية كبيرة ، يصير من الأجدى البحث في مكنوناتها الداخلية .

الحضارة التي نعيش وتحولاتها تفرز لغات ، وسلوكيات ، وطرائق تفكير ، ثم إن التقدم التقني والصناعي ، وما عاشته الشخصية ، ويعيشه الإنسان ، من انفلات لكثير من القيم والمعايير التقليدية القديمة ، ثم إن الصناعات والآلات والريبوتات ... خلقت وتخلق أنماطاً بشرية لها ميول وتفكيرات تختلف ويمكن أن تختلف باستمرار تبعاً للتحوالت العلمية المتسارعة والهائلة ، مثل هذه الرواية ، وغيرها من الروايات التي تختط المنهج نفسه ، تحاول عبر اللغة أن تقدم مدى أثر العولمة والتقدم الحضاري والصناعي على الإنسان خاصة ، ومن هنا يبرز الحلم لدى المثقفين والمفكرين والفلاسفة ...الخ بأن يخلصوا العالم مما يعلق به من شوائب تجلبها الحضارة العبثية غير المنظمة ، التي لا تأخذ بعين الاعتبار قيمة الإنسان ووجوده في هذا الكون ، بمعنى هناك رؤية مرعبة لما يمكن أن يكون عليه الكون في القادم من العصور ، اللغة المشحونة بالدلالات هنا تحاول أن تنقل للمتلقين مثل هذا الشعور ، وتحث على التفكير في أيجاد المخلص من المزلق الحضاري الخطير الذي يهدد الإنسانية .

يقول محمد مشبال " أما العلم فهو الذي صيّر أمور الحياة بهذا الشكل ، بحيث أصبح الإنسان لا يساوي شيئاً يذكر داخل حلزونيته " (56) . ويبلغ الأسى مداه عندما يتساءل مفكر آخر ، عن مصير الإنسان ، إن بقي أسيراً للآلة والتقنية والحضارة المتسارعة بهذه الكيفية السلبية ، فيقول : " هل نحن دمي صنعت في جهاز محاكاة إلكتروني ، بينما نصنع نحن بدورنا دمى اخرى ؟ " (57) . التشظي ، وعدميةالاتساق النسقي في الكلام ناجم عن وضع المتكلم ، الشخصية هنا ، المريض في النصين السابقين عندما ينطلق على لسانه سياقات من هذا القبيل تكعس وجوده ومفهوماته وسلوكاته في هذا الحياة ، فإذا كان نتاج تجميع شبه آلي ، وضمن تجريبات وتقنينات يمارسها طبيب عليه باسم الحضارة والتقدم العلمي ، فإنه يصير إنسانا مشوهاً، وبالتالي ستكون اللغة الواردة على لسانه مشوهة هي الأخرى ، لكن ما يشفع للروائي في هذا العمل أنه لا يترك الحضارة ،ولا رأي الطبيب هو الفيصل ،

وإنما يبث وجهة نظره ، والخطاب الذي يريد التأسيس له ، من خلال سياقات أخرى تظهر حرصه على خلق إنسان مختلف ، نقي من الشوائب والتلوثات الحضارية السلبية .

اللغة غير النسقية هنا إذا جاءت لتقدم خدمة لمعان كثيرة تقف خلف السياق ، إنه نوع من تطهير العالم وتنقيته ، فغير الممكن يصبح ممكناً ، علىمستوىالحلم والخيال ، على أقل تقدير، ولم يكتف الروائي بتقديم هذا المستوى اللغوي على لسان الشخوص ، بل حاول أن يظهر في مواقع أخرى من الرواية مدى تشظي الذات الإنسانية في واقعها ، ومدى التمزق الذي تعانيه من جراء ما يجري في العالم من تخريب .

إن فعل التشظي يبلغ مداه عندما تصرخ الشخصية (آدم الجديد) في ذاته والآخرين : " كفى أهو حلم أم يقظة ؟ " (58) ، فيظهر أنه يتمزق ويعيش متشظياً بين حالتين : الواقع واللاواقع ، الصحو والحلم ، لذا يبقى أسيراً للتوتر والقلق والتأزم ، تماما كما هو حال الإنسان في الوجود أما ما يجري من قضايا في العالم ويصعب عليه فهم ما يجري ،فيرتد لذاته أويصرخ أو يمارس أية أفعال قد لاتليق به بوصفه إنساناً .

3 - **لغة التقارير والمذكرات** :

يمكن أن نصف أساليب الكتابة لهذين النوعين من الكتابة بالبساطة والمباشرة ، ويبدو الهدف منهما إيصال المعلومة المستقاة من وقائع مختلفة أو أحداث بيسر وسهولة ، وبالتالي تكون اللغة الحاضنة لهما قريبة التناول ما أمكن ، وأقرب إلى المنطق والعلم ، وبعيدة عن الخيال .

يعرف بعض الدارسين التقرير بأنه : " ضرب من ضروب الكتابة الوظيفية يتضمن قدراً من الحقائق والمعلومات حول موضوع معين ، أو شخص معين ، أو حالة معينة ، بناء على طلب محدد ، أو نفقاً لغرض مقصود " (59). وهذا ما تتصف به اللوحات النهائية للرواية ، موضوع بحثنا هنا ، مما سنبينه بعد قليل . أما المذكرات ، فهي إضافة لما ذكر تنطوي على الرصد الزمني للأحداث والوقائع وتسجيلها بشكل متدرج ، لتنقل ماضي الحدث أو الشخصية ، ويمكن معاودة ما فيها فيما بعد ، كي لا تتعرض للضياع والتلف والنسيان ، وفي الوقت نفسه تعطي تصوراً معيناً عن حياة شخصية معينة أو واقعه معينة عبر تاريخها . وقد حاول غير باحث إحداث مقاربة تعريفية لليوميات والتمذكرات عند قوله : " هي الكتابات التي ندون فيها الأحداث التي جرت معنا و أثرت فينا و على محيطنا في الماضي البعيد أو القريب. أي أننا نستذكر ماضينا و من ثم نكتبها. نحنُ لا نكتب في مذكراتنا ما نعيشها الآن، بل ما عشناها فيما مضى من أحداث مؤثرة، مثل الحروب و

الصراعات و العمليات و المواقف المؤثرة أو حتى التقاءنا بشخصيات كبيرة أو مراحل مهمة من حياتنا " (60) .

تبدأ اللوحات من (8- 10) في نهايات الرواية بتغيير مسارات السرد ، ويصبح تدخل الكاتب لافتاً فيها ، وإن كان الحديث على لسان الراوي بأنماطه المختلفة ، ولكن سيطر في اللوحة الثامنة مثلاً على مجمل المحكي فيها تقنية الراوي بضمير المتكلم ، وهنا لا يحتاج إلى سبر أغوار الشخصية بقدر ما يقدم الراوي معلومات ، ثم لا يحتاج إلى تسريع السرد زمنياً ولا الدخول في متاهات التقنيات الاخرى التي تستدعي الاسترجاع وتيار الوعي ..إلخ ، ومثال ذلك يمكن أن نقسم اللوحات ، أسلوبياً ، إلى نوعين ، اللوحة الثامنة اتخذت شكل الرسالة/المذكرة ، بينما اتخذت اللوحتان (التاسعة والعاشرة) نمط المذكرة والتقرير ، وهذا ما سنبينه تالياً .

لوحة الرسالة /المذكرة :

نجد العتبةالأولى الاستهلالية للوحة تبدأ بالـسياق : "عزيزي آدم المـستقبل .. آدم الـجديد .."(61) ، ومباشرة بعد ذلك يبدأ الكلام على لسان الراوي بضمير المتكلم : "إنك تعرف نفسك بعدة اسماء : خالد ، موشي ، بل ، كارل ، اسماء طويلة ومألوفة ، مع أنك تدرك جيداً أنك تنتمي إلى أرومة واحدة هي الجنس البشري ، المتمثل بالرمز آدم ، لذلك كله أرجو أن تدع لي حرية الاختيار ، في أن أخاطبك بهذا الاسم الذي يرمز إلى تلاقي أكثر من حضارة ، ويدل على أصل واحد انحدر منه العرق البشري " (62) ، وتتجسد هنا شخصية الطبيب المعالج في الراوي ، فيبدو الكلام صادراً من صاحب المشروع الذي يحلم بصنع إنسان له مواصفات خاصة تليق وتنسجم مع متطلبات المستقبل الإنساني . هذا الحوار يلفت الانتباه في مسائل عدة ، لعل من أهمها : أن الطبيب يريد ان يعطي رسالة للمخلوق الجديد (آدم) الذي ابتناه من خلايا واجساد وذاكرات متعددة ، يطمح في أنها تختزل جنس آدم منذ اليوم حتى ميلاد آدم وخلقه الأول ، ولهذا جعله رمزاً حسب ما ورد على لسانه قبل قليل ، ثم الرسالة التي يوجهها إلى هذا المسمى (آدم) والمسجى على السرير ، وهو في مرحلة الاستشفاء ، ويلاحظ عليه بوادر النجاح والمعافاه ، التي راحت تلوح في الأفق ، وهذا يعني نجاح التجربة – تجربة الطبيب – وبالتالي نجاح الحلم ، الذي سيقود الأمن والسعادة والرخاء للبشرية ، وينطوي فيها رسالة إلى البشرية جمعاء فيما يمكن أن تكون عليه في القادم من الأيام ، ثم يلفت الانتباه ، ان الراوي يريد سلب حرية الاختيار من المريض في التسمية ، وربما في أشياء أخرى ، وهنا يبدو أن الطبيب يريد أن يكيّف الشخصية وفق مسارات محددة لا يكون فيها إلا الخير والأمن والسلامة للبشرية ، وبالتالي يحاول إنجاز مخلوق يخلو من الشر ، ويكون

الهدف الاستراتيجي للنص هنا متحققا ، وهو التطهير ،حسب التعبير المسرحي .

المشهد الذي يتقدم هنا ، يفيد مثل هذا التوجه ، ويلفت انتباه الدارس الحالي لهذه الرواية أيضاً ، أن الرسالة الشفوية التي يبدأ إنجازها في سياقات هذه اللوحة تلقى إلقاء على المعني بالرسالة ، وفي الوقت نفسه لا يتكلم ، او يرد من يتوجه إليه الرسالة ، وهذا يعني استسلام الشخصية – المريض هنا – لإرادة وتعليمات توجه إليه عبر الرسالة من محدثه ، وتبدو النوايا الخيرة عبر السياقات الشفوية المرسلة ، ولعل هذا ما يبرر تقبل المريض لما يتلى عليه في الرسالة ، إضافة لكون حالته المرضية في هذه المرحلة قد لاتساعده على الرد .

الرسالة نفسها تتحول عبر منتجها السياقي ، إلى رسالة تتضمن مذكرات وأحداث سابقة ، يحاول المتحدث أن يذكر بها السامع ، ويلفت انتباهه لها ، ليستثير فيه غريزة التعاطف والقبول ، من جهة ، ولكي يطمئن لما يمكن ان يكون عليه جسده وذاكرته بعد أن يبدأ عبور العالم ، بشكل جديد /حديث ، ويكون له آليات تفكير وتعامل مع العالم لم يعتد عليها .

تحاول الرسالة أن توضح ل (آدم) الجديد أن عليه أن ينسلخ ما أمكن مما كان ، والعبور فيما يكون ، والتهيؤ للمرحلة القادمة ، ومن هنا يكون التبرير لحضور ماضي الشخصية المتوافرة الآن والمتجمعة من كيانا متعددة ، فها هو يذكر له عبر الرسالة ما يلي : " اسمك الجديد الذي أمنحك إياه – يعني آدم الجديد- وأظنك ستحبه بمرور الزمن ، سوف يحف لغز زمن غامض واضح ، تعاني منه ، لأنك لا تعيش بصفتك بل عام 1966 ، أو فرانس المنتحر في عام 1956 ، ، أو في أي عام آخر ، كما تتصور ذلك عام 1976 ، نحن الآن نعيش عام 1995 ، بالضبط في اليوم الأول من الشهر الرابع ، إنك لن تفهمني ما لم تقبل الوضع الجديد الذي وضعك فيه العلم الحديث المتطور " (63) ، وبالطبع هذا الزمن الأخير يشير إلى الشريط الزمني الذي ينغلق على نهايات الرواية الزمانية .

مجرد ذكر هذه التواريخ عبر الرسالة الشفوية الملقاة على المريض ، يقف المتلقي على ماضي الشخصية ، فيتداخل ، وفق هذه الأسلوبية ، جنس المذكرة مع جنس الرسالة ، وتتشابك المفهومات لاإنتاج نص متداخل يخدم مسار الرواية التي نحن بصددها . ولم يكتف منشئ النص بذلك بل يدفع بسياقات أخرى تفيد وتذكر بماضي الشخصية ، موضوع خطاب الرسالة ، وها هو النص والكلام على لسان الطبيب ينفتح على السياق التالي ، الذي يؤيد ما ذهبنا إليه : " إن علاقتي بك تمتد إلى زمن بعيد ، فهذا الجسد الذي يحمله آدم أنت جسدك الذي ككت فيه ، يتألف من أعضاء أخذت من عشرات

الأشخاص ...سوف أبدأ معك من حيث تريد ، لكني أوضح لك أنك ستون عديم الفائدة كونك ميتاً ، فلم لا أبعث فيك الحياة بصيغة جديدة ، لأن كل الظروف ستكون في خدمتي .. زرت فيتنام خلال الحرب والصين ، وضعت خبرتي بأيدي الجميع من دون أن أفرق بين شيوعي أو رأس مالي ، عربي أو يهودي ، هدفي الوحيد أن أمزج العربي بالعبري والبو1ي مع المسيحي ، فسألت نفسي إن الإنسان المتعدد خلق حضارة واحدة ، فهل يمكنني أن أخلق إنسانا واحداً من مجمل حضارات؟ لم لا يكون هناك آدم جديد؟ "(64).

هذا السياق وغيره في الرسالة يبين تاريخ الشخصية (المريض) ويظهر ماضيها ، وفي الوقت نفسه يبين تاريخ الراوي الطبيب وماضيه ، وتندمج المعطيات معاً لإنتاج هدف أسمى للرواية ، يطمح إليه الراوي ، وقد يبدو هذا بعد دراسة وجهةالنظر في الرواية بكليتها ، أنه يمكن الوصول لفكر الروائي ، وكأني به يريد أن يقدم خطاباً مختلفاً للإنسانية ، ومشروعاً طموحاً ، فيه الدعوة إلى التغيير من الأفكار والسلوكيات والمفاهيم وآليات التعامل ، لفهم العالم من جديد وبطرائق تجلب له السعادة والخير . فتبدو الرواية انعكاس لشخصية الكاتب ، ويفوح منها تاريخ وسسيرةالذات الكاتبة ، وسيرورة الأحداث في هذا النص الروائي تقود إلى ما يظهر سرد لأحداث وظروف عاشتها الشخصية المركزية والشخصيات المرافقة والمساندة لها ، لكن البعد الفني فيها ، وانحيازها – نصيا- باتجاه اللامعقول ، والفانتازيا ، والغرائبية ، أنقذها من وصف السيرة الذاتية التقليدية ، فاللقطات التاريخية ، والمشاهد المختلفة ، قدمت بطرائق سردية متنوعة تشي بوجود مرموزات ودلالات أوسع من دلالات السيرة الذاتية ، ذلك أن " التعرّف إلى السيرة الذاتية لا يأتي بالنظر غلى المضمون بل إلى طرق بناء النص الروائي ، ومن النقاط التي يحددها النقاد للتعرفّف على السيرة الذاتية ، شكل التبيئير ، أو زاوية النظر – وجهةالنظر- والضمير المستعمل في السرد ، وذكر الميلاد ، وتفاصيل الأحوال الشخصية للشخصيات والموت وعلاقة المكونن الروائي إجمالا بالزمن والفضاء وغير ذلك " (65) . ووفق هذا المفهوم ، يجد الباحث التالي أن النص الروائي الذي بين أيدينا يقع في السيرة الذاتية وخارجها في الوقت نفسه ، بل كانت بعض مشاهد السيرة تشكل عبوراً لعوالم أخرى يقصد إليها النص ، وفي هذا منحى يلفت الانتباه لدى القارئين ، لتبدأ انشغالاته القرائية في الدلالات التي يمكن أن توجد خلف السياقات الفنية وغير الفنية .

أسلوب الرسالة ، بهذه الكيفية ، اختزل الكثير من الكلام ، ليعطي الروائي بهذا النهج ، أكبر قدر ممكن من ماضي الشخصية وحاضرها وما يمكن ان تكون عليه في المستقبل ، وبث في السياقات أبعاد رمزية تبدا باسم آدم وتمر عبر الأحداث في التواريخ سالفة الذكر وما تخللها من وقائع وظروف ،

وانتهاء بالخلق الجديد الذي يفرض ،أو يمكن أن يخلق معطيات جديدة ومختلفة للعالم والحياة ، وبالنتيجة يصبح من الممكن ، ولو خيالياً التنبؤ بوجود عالم جديد ، وحضارة جديدة ، خالية من القهر والظلم والشر ...الخ .

ثم إن الروائي عبر منتج هذه الرسالة قدم لنا ، بوصفنا متلقين ، بدايات ونهايات المسافة الزمنية الرحبة ، تلك التي حدث فيها انشغالات وأحداث ، لا تهم شريح معينة من الناس ، بل حاول أن يقدم أحداثا ومشاهد تؤثر في مساحر البشرية جمعاء ، فحرب 1956 ، وما تضمنه العدوان الثلاث على مصر، وما أعقبه ، له أثر واضح على مسار الاقتصاد العالمي وتحول القوى العظمى ، وارتباكاتها بعد إغلاق قناة السويس والصراعات الدموية وغير الدموية التي أفرزتها ، ثم حرب فيتنام الطويلة ، والتي استنزفت قدرات بشرية هائلة وضحايا ، وهزت العالم بمنتجاتها ، وخلخلت بنيات تفكير القوى العظمى ، كذلك فيما آلت إليه بعض مفهومات من سقوط وتراجع ، مثل الحرية ،والديمقراطية ، والعدالة ، الاجتماعية ،وحقوق الإنسان ..الخ ، فهد انهارت مفاهيم وصعدت أخرى ، وهنا يتضح مدى تداخل الفكر الأيديلوجي في بناء مثل هذه النصوص ، ومدى حضورها أثناء قراءة الرواية .

أما اللوحة التاسعة والعاشرة فقد سيطر عليها رؤية مختلفة ، وكانت أقرب إلى ضخ اكبر قدر ممكن من المعلومات عنالشخصية المركزية وظروفها وما كانت عليه في السابق ، وما يمكن أن تكون عليه في المستقبل ، وكان يبدو في سياق الحديث وجود كم من التعليمات والتوضيحات الواجب اتباعها مستقبلا ، ولعل هذا يقبل ، أو يمكن له أن يبرر كون المتكلم هو الطبيب المعالج الذي يتمثل دور الناصح والمرشد ، وهذا يمكن ان يكون جزءا من الوصفات العلاجية ، لكنها وصفات ، إضافة للوصفات المادية من حبوب وأدوية ...الخ ، تتخذ شكل المعالجات النفسية والروحية ، وصولاً لإعداد جسد وروح ضمن مواصفات معينة .

أما بالنسبة للوحتين (التاسعة والعاشرة) ، فإن العتبات السردية فيها ، والاستهلالات خاصة تشير إلى أسلوب المذكرات بشكل خالص ، وكأن المتلقي أمام مدونة نصية تستقي معلوماتها من مفكرة خاصة بالشخصية ، لكن هنا علينا أن نلتفت إلى أن هذه المفكرة هي تجميع لعوالم، ولشخوص ، ولأحداث ، متناثرة ومتشظية في حيوات مختلفة ، ودليلنا على هذا أن الشخصية المركزية ، آدم الجديد ، هو في الأساس تجميع لخلايا وشظايا من أجساد مختلفة ، وبهذا يكون لدينا في موضوعة المفكرة التي تسجل يوميات الطبيب ، وتصبح مدونة عن يوميات ما يحدث للمريض المسجى ، الخاضع للتعديل الخلقي ويتلقى العلاج اللازم ، وتصبح المعلومات اخباراً يزج بها الروائي هنا ، وتقدم لنا وجبة جاهزة على لسان الراوي ، هي عبارة عن

مكونات للشخصية المركزية ، التي هي في الحقيقة شخصيات قبل التجميع ، وبشكل أدق نحن أمام مفكرات في مفكرة واحدة ، وأمام إشكالية التأريخ لتواريخ مختلفة ، وأمام أزمنة وأفضية وأحداث وسلوكيات تتجمع عبر ماضي الشخصية /الشخصيات ، فالمعلومات التي نطلع عليها في هذه المفرة هي مجموع يذوب في فرد ، ومعلومات في كتاب (المفكرة) إن جاز التعبير ، وهذا يجعلنا على اشتباك – أثناء القراءة مع عوالم عدة وتواريخ عدة ، ومرجعيات عدة ...الخ.

تبدأ هاتان اللوحتان بتوزيعة نمطية للوحات داخلية أصغر ، ويتصدر كل لوحة مصغرة بتسجيل اليوم والتاريخ لأحداث وقعت في الماضي ، يختار أياماً بعينهاً من مجمل أيام ، بمعنى أن الروائي أسقط الأيام التي لا يريدها ، أو لاتعني له شيئاً في هذا المسار ، ولا تخدم النص ، فنجد مثلاً الافتتاحيات التالية (66)، ففي اللوحة المصغرة الأولى نجد : " أوراق من مفكرة (ج) الخميس 22مارس 1966 ، المكان فيتنام الجنوبية مشفى هانوي " وفي الثانية ننجد : (13 أكتوبر عام 1973 " وفي الثالثة " 12 أكتوبر 1976 " وفي الثالثة " 12 أكتوبر 1976 " ، وفي الرابعة "الأربعاء 2 نوفمبر 1986 " وفي الخامسة : " الجمعة 11 فبراير 1990 : المكان بوينس آيرس " وفي السادسة " الثلاثاء 4 يونيه 1996 " ، ثم تتسارع الأيام – اليوميات في المفكرة فنجد السابعة " الأربعاء 5يونيه" وفيها سطر واحد ، والثامنة وفيها سطر واحد وهي " الخميس 6 يونيه 1996 " ويختم باللوحة العاشرة " السبت 22يونيه 1996 " . المتلقي لهذه السياقات النصية يقف أمام مفكرة وكانه يقلب صفحاتها ، وتبدو مستلة من مفكرة الطبيب (ج) وهو الذي يدير السرد هنا ويقدم الأحداث بوصفه راوياً وبضمير المتكلم والغائب ، ويتراوح في الحديث عن ذاته وعن المريض ، وهما قطبا المسألة في المفكرة /اليوميات .

الروائي ، وبهذه العتبات النصية التي صدر بها اللوحات ، يقدم أحدوثات ، وأخبار ، ويوميات تم التركيز عليها ، وتسجل مفاصل زمانية ومكانية في حياة الشخصية التي يسلط عليها الضؤ ، والمراحل التي يمكن ان تقدم عوالم بعينها تفيد الناقد ، والمتلقي ، في الوقوف على الدلالات المثارة في النص الروائي ، لاسيما الجانب الذي يتعلق بتجربة الطبيب ، هذه التجربة التي تشكل تحولا ، عند نجاحها في مسار البشرية تجمعاء ، وبهذا يصبح النص الروائي هنا نصا متجاوزاً الإقليم والمنطقة ، والفئة ، وحتى الشعب والأمة ، تصبح الرواية بهذه المعالجات رواية عالمية بكل معنة الكلمة ، ومن هنا جاء التركيز ، موضوعياً ، على فترات النجاح ، والتحول على جسد وروح آدم الجديد ، واسلوب المذكرات واليوميات ، على مافيها من مزالق ،

قد تبعدها عن الفنية ، والانحرافات المتوقع تواجدها عند التعامل الفني مع نص إبداعي ، إلا أنها تمكنت – أسلوبية المذكرات – من إعطاء فكرة عامة ومهمة عن مسار الرواية ، وأصبحت جنساً مضافاً لجنس الرواية ، لتقدم خدمة في الموضوع ، والمتلقي حقيقة يشعر في قراءاته للوحات الأخيرة بهذا الإحساس ، وأجواء الابتعاد قليلا عن جو النص الروائي ، للوهلة الأولى ، لكنه سرعان ما يعاود عند استذكار ما قرأ من لوحات سابقة ، ويجد أنها يمكن أن تقدم شيئاً على مستوى الدلالة والرمز ، وتخدم استراتيجيات النص الروائي موضوع البحث .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما يتعداه ليبث الراوي عبر مسيرة السرد بعض الأفكار الأساسية والمهة في توجيه النص ، وصولاً إلا إنتاج وجهة نظر معينة ، وهي هنا تصب في وضع الإنسان بعامة على هذا الكوكب ، من حيث اختيار وقائع بعينها ، وتخيل وقائع أخرى يمكن أن تكون وتضاف إلى تاريخ الشخصية المركزية والشخصيات المحيطة بها ، الرواي عبر هذه الرؤيا ينسل من مرجعيات متعددة ، ومن ثقافات مختلفة لحضارات عدة ، ويحاول في الوقت نفسه أن يبثها بشكل لا يمكن أن تكون متطابقة في الواقع ، إنه يعيد – إن جاز التعبير – انتاج حضارة شاملة للإنسانية ، وعامة في إفادتها ، بعيداً عن التناقضات والاختلافات الفكرية والعقائدية ، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بوساطة التوسل بالخيال ، والفانتازيا ، والعبور إلى ما وراء الواقع ، استناداً على الغرائبية والعجائبية ، وفي هذا المنحى يشكل عبة ذوقية جاذبة ، لتحصيل المتعة واللذة في القراءة ، وبالتالي التفكر لإنتاج نص آخر على النص، وفي هذه الأساليب تأخذ الكتابة الإبداعية مداها في التوسع وإعادة انتاج الرؤى والأفكار لدىالآخرين .

إذا عرفنا أن من أهداف المسرح التطهير ، وتنقيةالنفس الإنسانية من الشرور والأضرار، لصالح الخير ، وإقامة العدل والحياة الكريمة للإنسان ، يغدو هدف مثل هذه الروايات سامياً ويثير معالجات إنسانية وكونية يُعتد بها ، وبهذا تبتعد عن أسلوب غسداء التعليمات والإرشادات التقليدية والفوقية ، إن مسرحة بعض المقاطع ، عبر تقديم مشاهد بعينها ، وبتقنية شاهد العيان المحايد ، تحيل إلى أن المشاهد القبل لمسرحةالحدث تكون أكثر تمثلاً في الذاكرة الإنسانية المتلقية ، وأكثر إثارة للتعاطف والتفاعل ، ومن هنا يصبح فعل التطهير حسب ارسطو وبعض المنظرين للعالم المسرحي ، اكثر أهمية ،" حيث يمثل المسرح النافذة الأولى التي حاول الغنسان من خلالها أن يعبر عن علاقته معالآخر ، وبالتالي فقد جاءت هذه الوظيفة للمسرح – التطهير- مؤثرة في سلوكيات الإنسان وما يمكن أن يتشربه من المشاهدات التي يمكن أن تبني له أفكارا وتهدم أخرى "(67).

إن دخول المشهد المسرحي هنا على النص الروائي يثري النص ، ويعطي دفعات قوية للأبعاد الفنية فيه ، ويصبح قابلا للتمثل ، ويحمل المتلقي على المقاربة بين ماكان وما يمكن أن يكون ، وفي الوقت نفسه سكتشف المتلقي عر مسار القراءة بواطن الخلل والنقص في مسار الحياة الإنسانية ، هنا ، في مجتمع الرواية ، على أقل تقدير ، وبالتالي يبدو المؤلف وكانه ينقل بعض النقود السلبية والإيجابية للكائن الإجتماعي ، ويحاول النهوض به لتجنب كل ما من شأنه أن يضربالحياة الإنسانية ، وفي ذلك أسمى آيات النبل الإنساني ، ويجسد بهذا فكرة التطهير التي سبقت الإشارة إليها.

***

الهوامش

1 - Uneversity press. Cornell,Russian, ametappoetcs Seteiner Peter.London 1983-p.44/45.

2 - مالكولم براد بري وجيمس ماكفرلن ، الحداثة ج1 ترجمة مؤيد حسن فوزي ص 237.

3 - الحداثة ص 240/239.

4 - عسكر (قصي) روايات وقصص من الخيال العلمي ، القاهرة ، دار شمس ،2010.

5 - فورستر (إم) ، أركان الرواية ، ترجمة موسى عاصي ، طرابلس/لبنان ، جروس برسال ضمن تعريفه للقصة والوراية في المقدمة.

6 - الزعبي (أحمد) ، وراء الضبع

7 - الزعبي (أحمد)، العنة ،

8 - الزعبي (أحمد) ، صم بكم عمي ،

9 - الزعبي (أحمد) ، لعنات شاكر ونعاس فارس ، ضمن الأعمال الكاملة ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2006 .

10 - ابن عرفة (عبدالعزيز) ، تبادل التقنيات والتيمات الروائية ، مجلة كتابات معاصرة ، المجلد 11، ع 43، 2001 ، ص 62.

11 - تودوروف (تزفتيان) ، مدخل إلىالأدب العجائبي ،القاهرة ، دار شرقيات ، 1994، ص88.

12 - رولان (دوروف) وفرانسواز بارو ، موسوعة علم النفس ، ترجمة فؤاد شاهين ، بيروت ، دار عويدات ، 1997 ، ص437.

13 - المصدر السابق ، ص437.

14 - عسكر (قصي) ، الرواية ، روايات وقصص من الخيال العلمي ،ص354.

15 - فحماوي (صبحي) ، الاسكندرية 2050 ، القاهرة ،

16 - عسكر (قصي) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ، ص111 وما بعدها.

17 - المصدر السابق ، ص42 .

18 - المصدر السابق ،ص42.

19 - الحداثة ج1 ص71.

20 - الحداثة ج1 ص71.

21 - البقرة : 260.
21 – توينبي (أرنولد) ، إيقاعية التاريخ والحضارة الواحدة ، ترجمة نبهان الهاشم ، مجلة كتابات معاصرة ، المجلد الأول ، ع 2 ، 1989.
22 - عسكر (قصي) ، روايات وقصص من الخيال العلمي، ص51.
23 - المصدر السابق، ص 53.
24 - كافكا ، الصرصور ،
25 - سارتر (جان بول) ، الغثيان ،
26 - جبرا (ابراهيم جبرا) ، الغرف الأخرى ،
27 - بركات (سليم) ، فقهاء الظلام
28 - زين الدين (نوال) ، اللامعقول والزمن المطلق في مسرح توفيق الحكيم ، القاهرة، الهيئة المصرية ، 1998،ص190.
29 - إسلين (مارتن) ، دراما اللامعقول ،ترجمة صدقي عبدالله حطاب ، الكويت ، وزارةالإرشاد، 1997 ، ص7.
30 - عسكر (قصي) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ،ص 41.
31 - المصدر السابق ، ص 42/41.
32 - المصدر السابق ، ص 20.
33 - المصدر السابق ، ص21..
34 - المصدر السابق ، ص18.
35 - المصدر السابق ،ص19.
36 - المصدر السابق ص 19.
37 - المصدر السابق ، ص18.
38 - حليفي (شعيبي) بنيات العجائبي في الرواية العربية ، مجلة فصول ، ع ، 1997، ص19/118.
39 - الأندلسي (ابن شهيد) ،رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، بيروت دار صادر، 1967.
40 - المعري (أبو العلاء) ، رسالة الغفران ، تحقيق محمد عزت نصرالله ، بيروت ، المكتبةالثقافية ،د.ت .
41 - المصدر السابق ن راجع مثلا القصيدة : ص 128 وما بعدها ، ومطلعها :
مكة أقوت من بني الدردبيس فما لجنيٍّ بها من حسيس
42 - آيتر(ت . ي) ، أدب الفانتازيا ، مدخل إلى الواقع ، ترجمة صبار السعدون ، بغداد ، دار المأمون ، 1989 ،ص13.
43 - بوخالفة (فتحي) ، لغة النقد الأدبي الحديث ، اربد ، عالم الكتب الحديث ، 2012، ص146.
44 - المسدي (عبدالسلام) قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، تونس، دار الجنوب ، 1984، ص58.
45 - قصي (عسكر) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ، ص10.
46 - المصدر السابق ، ص47.
47 - المصدر السابق ، ص 54.
48 - المصدر السابق ، ص 24.
49 - المصدر السابق ، ص 45.
50 - المصدر السابق ، ص 111 وما بعدها .

51 - المصدر السابق ، ص 53.
52 - القرطاجني (حازم) ، منهاج البلغاء ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، د.ت ، ص 90.
53 - مشبال (محمد) ، السرد العربي القديم والغرابة المتعلقة ، مجلةالراوي ، ع 22، 2010 ، ص28.
54 - قصي (عسكر) ،روايات وقصص من الخيال العلمي ، ص 9.
55 - المصدر السابق 10/9.
56 - مشبال (محمد) ، السرد العربي القديم والغرابة المتعلقة ، ص 61.
57 - غاينيو (جان) أدب الخيال العلمي ، ترجمة ميشال خوري ، دمشق ، دار طلاس ، 1990 ، ص 85.
58 - قصي (عسكر) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ، ص51.
59 - الشنطي (محمد صالح) ، فن التحرير العربي ، ضوابطه وأنماطه ، ط 8، حائل/السعودية، دار الأندلس ، 2010، ص169.
60 - جان (بولان) ،فن كتابة اليوميات ، صحيفة الحوار المتمدن ، العدد 2768، تاريخ 912010/13 .
61 - قصي (عسكر) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ، ص53.
62 - المصدر السابق ، ص 53.
63 - المصدر السابق ، ص 53 .
64 - المصدر السابق ، ص 55/54.
65 - سنفوفة (علال) ، بنية المحكي السير-ذاتي في رواية (وشم على الصدر) لعثمان سعدي، مجلة دراسات أدبية ، الجزائر ، ع 6 ، 2010، ص 53.
66 - قصي (عسكر) ، روايات وقصص من الخيال العلمي ، 58 وما بعدها .
67 - مراشدة (عبدالرحيم) وقاسم الحمد ، فن الكتابة والتعبير ، إربد ، منشورات جامعة جدارا، مكتبةالطلبة ، 1999، ص 47.

المصادر والمراجع

ابن عرفة (عبدالعزيز) ، تبادل التقنيات والتيمات الروائية ، مجلة كتابات معاصرة ، المجلد 11، ع 43، 2001 .
إسلين (مارتن) ، دراما اللامعقول ،ترجمة صدقي عبدالله حطاب ، الكويت ، وزارةالإرشاد، 1997.
الأندلسي (ابن شهيد) ،رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، بيروت دار صادر، 1967.
الزعبي (أحمد) ، لعنات شاكر ونعاس فارس ، ضمن الأعمال الكاملة ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2006 .
المسدي (عبدالسلام) قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، تونس، دار الجنوب ، 1984.

المعري (أبو العلاء) ، رسالة الغفران ، تحقيق محمد عزت نصرالله ، بيروت ، المكتبةالثقافية ،د.ت .
الهاشم ، مجلة كتابات معاصرة ، المجلد الأول ، ع 2 ، 1989.
آيتر(ت . ي) ، أدب الفانتازيا ، مدخل إلى الواقع ، ترجمة صبار السعدون ، بغداد ، دار المأمون ، 1989.
بوخالفة (فتحي) ، لغة النقد الأدبي الحديث ، اربد ، عالم الكتب الحديث ، 2012.
(تزفتيان) ، مدخل إلىالأدب العجائبي ،القاهرة ، دار شرقيات ، 1994.
توينبي (أرنولد) ، إيقاعية التاريخ والحضارة الواحدة ، ترجمة نبهان
حليفي (شعيبي) بنيات العجائبي في الرواية العربية ، مجلة فصول ، ع19 ، 1997.
رولان (دوروف) وفرانسواز بارو ، موسوعة علم النفس ، ترجمة فؤاد شاهين ، بيروت ، دار عويدات ، 1997.
زين الدين (نوال) ، اللامعقول والزمن المطلق في مسرح توفيق الحكيم ، القاهرة، الهيئة المصرية ، 1998.
عسكر (قصي) روايات وقصص من الخيال العلمي ، القاهرة ، دار شمس ،2010.
فورستر (إم) ، أركان الرواية ، ترجمة موسى عاصي ، طرابلس/لبنان .
فحماوي (صبحي) ، الاسكندرية 2050 ، القاهرة ،
مالكولم براد بري وجيمس ماكفرلن ، الحداثة ج1 ترجمة مؤيد حسن فوزي.

Uneversity press. Cornell,Russian, ametappoetcs Seteiner Peter.London 1983

لغة السرد في الكتابة النسائية

الدكتور خالد بوزياني
أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية جامعة عمار ثليجي ـ الأغواط ـ الجزائر

إن ثمة قراءات تفعل بنا فعل الكتابة وتوصلنا إلى حيث لا نتوقع (أحلام مستغانمي)

ملخص البحث:
تتمحور إشكالية الموضوع في مدى تحول اللغة في الرواية النسائية المعاصرة من مستوى الخطاب التواصلي الآني إلى لغة تحطم وتهدم وتتحول لتعطي شكلا جديدا للغوص في متاهات الذات والكشف عن المتناقضات النفسية والاجتماعية وهدم الموروث الثقافي المتمركز في سلطة ذكورية اللغة.

إن الموقف الخطابي هنا يستلزم وجود قواعد لعبة تفرضها ضرورة التعايش بين الأنا والآخر، فتصبح اللغة حينئذ غطاء يخفي وراءه حقائق قاسية أو ربما غير مناسبة في المواجهة بينهما وإن كان الموقف الخطابي يكشف ويعري الحقائق بين الكلمة والصمت.

إن هذه اللعبة التحاورية قلبت وحولت موازين المنطق في لغة الخطاب السردي بين ما نقوله أي ما تعنيه الكلمات ظاهريا ، وبين ما تعنيه الساردة بلغة إيحائية أي التأثير الذي تحاول متعمدة إحداثه في المتلقي من خلال إدراكه لهذا المقصد.

لقد استرجعت الساردة كل اختيارات استعمال الكلمات، من خلال جملة من التقابلات الضدية تتمحور في واقع مفعم بالصراعات، صراعات بين الرفض والقبول بين الثورة والاستسلام بين إثبات الذات وبين متاهات المجهول والنسيان، فتتحول اللغة إلى جسد والقراءة إلى لذة أو ما يطلق عليها (رولان بارث) لذة النص.

محاور البحث:

- سيميائية العنوان وأبعاده الإيحائية في فوضى الحواس
- تحولات اللغة من مستوى التخاطب الآني إلى مستوى اللغة الشعرية
- لذة النص وعناق الكلمات قراءة في ثنائية النص والجسد في فوضى الحواس

الكلمات المفتاحية للبحث:
القراءة ـ التلقي ـ النص ـ الإيحاء ـ الانزياح ـ العتبات النصية ـ السيميائية

1 - سيميائية العنوان وأبعاده الإيحائية في فوضى الحواس:

لقد أصبح الخطاب الروائي المعاصر منظومة فكرية وجمالية متكاملة، ينفذ من خلالها الكتاب إلى تشريح الواقع بأدوات فنية تتيح لهم معرفة ما يجري حولهم من تطورات إيديولوجية وسياسية واجتماعية.
إن قراءة معمقة لفوضى الحواس تجعلنا ندرك أن الكاتبة تتمتع بمعرفة واسعة بتلك الطرحات النظرية التي اهتمت بالتقنيات المعاصرة في الكتابة الروائية، فطبقتها بطريقة عجيبة.
وهنا لا أريد في هذه البحث أن أتكلم عن الجانب النظري حول العتبات النصية وما كتب في ذلك من أطروحات وبحوث ودراسات في البلاد الغربية والعربية، ولكن دراستي تدخل في حيز الدراسات التطبيقية البحتة، والتي أردت من خلالها أن أبحث في رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي عن علاقة العنوان كأول عتبة للنص بالأبعاد الدلالية داخل المتن الروائي.
وهنا أجدني أطرح جملة من الأسئلة اللازمة والملحة في مثل هذه الدراسة، فما دلالة الحواس بمجمل الأحداث الروائية التي قدمتها إلينا الساردة؟ وإلى ما تحيلنا مدلولات لفظة "فوضى" وهل الانفعالات والأحاسيس والمشاعر يحكمها سلطان المنطق؟ أم أن السياقات والمواقف المعقدة هي التي فرضت على الحواس ترتيبها الخاص؟
إن الساردة كما قالت لم تجهد نفسها كثيرا في العثور على عنوان الرواية"[1] ولو أنها بحثت عن عنوان آخر لروايتها لما وفقت في ذلك، فالعنوان متغلغل في أحشاء المتن الروائي ومتصل به ودلالاته متواترة فيه بشكل يشدنا ضمنيا إلى أول عتبة فيه.
وبقراءة أولية لعنوان الرواية نشعر في تتبعنا لعبارة فوضى الحواس نوع من العنف الممارس على القارئ بحيث يشده إلى التطلع بالقوة على فوضوية هذه الحواس.
إن تواتر العنوان بهذه الطريقة الانزياحية يخرق المنطق والمعقول من خلال ما تحمله هذه العتبة من علامات تكشف عن طبيعة الصراع بين الانفعالات الشهوانية وبين الرغبة في اكتشاف الذات، عبر العتبات النصية وما تحمله من مفارقات سيميائية عجيبة، توحي بدلالات تنأى بالنص من مستوى التبليغ

---

[1] ـ أحلام مستغانمي رواية فوضى الحواس دار الآداب الطبعة العاشرة بيروت 2000 ص 27

إلى مستوى تتمتع فيه السادرة بلذة عناق النص بحواس لا تعرف سوى ترتيبها الخاص.
يقول (رولان بارث) R.Barthes :"لذة النص هي تلك اللحظة التي يتبع فيها جسدي أفكاره الخاصة، لأن جسدي لا يملك الأفكار نفسها التي أملكها"[2]
فمنذ الوهلة الأولى تربط الساردة بين العنوان وبين أحداث الرواية مستعملة عبارة "ألغام الحواس" تقول:"يريد أن يربي حبا وسط ألغام الحواس"[3]، وهذه دلالة على أن هذه الحواس ستنفجر بمجرد الاقتراب منها أو لمسها ولو بحذر.
وبواسطة هذا الاستعمال الاستعاري للعبارة تفك الساردة الأحداث من منطقية العقل المتحكم في الحواس لتتحرر بعد ذلك وتنطلق لتصنع عالمها الخاص، هو الذي كما قالت "بنظرة خلع عنها عقلها".[4]
إن الساردة وفي حركة سريعة تصور لنا تفاعل كل حواسها في بوتقة معقدة ومتشابكة بكلمات قليلة وعبارات مقتضبة وهي تتحدث عن الذي أقود فيها هذه الحواس ابتداء بالحواس الخمس إلى كل أنواع الانفعالات المأساوية والشهوانية والشاعرية قائلة:
ـ"هو الذي يعرف كيف يلامس أنثى" [5] دلالة على حاسة اللمس.
ـ"تمتطي إليه جنونها وتدري للرغبة صهيل داخلي"والصهيل صوت مسموع وإن كان صراخا داخليا.
ـ"هو رجل الوقت سهوا، حبه حالة ضوئية في عتمة الحواس" دلالة على الحاسة البصرية
ـ"هو رجل العطر ليلا" دلالة على حاسة الشم.
ـ"هو الذي يخلع عنها عقلها ويلبسها شفتيه"صورة تتعلق بحاسة ذوقية .
وهكذا تتفاعل الحواس فيما بينها لتصنع عالما داخليا يلامس اللامعقول وينفذ عبر الذاكرة فيدمج الحاضر بالماضي ويحطم منطقية الزمان والمكان ويدمج الأنا بالآخر وتتحول الكلمات إلى جسد والقلب إلى مطفأة للسجائر، ويتحول الرجل إلى زمن، فهو رجل الوقت ليلا وسيد الوقت ليلا ورجل الوقت سهوا[6].

1-Roland Barthes ; Le plaisir du texte édition du seuil ;1973 Paris page 27

3. المصدر نفسه ص 9

[4]ـ المصدر نفسه ص 9

[5]. المصدر نفسه ص 3

[6]. المصدر نفسه ص10-11

وفي فوضوية هذه الحواس تتقاطع جملة من الخطابات التاريخية والسياسية والاجتماعية فيدمج الماضي بما يحمله من رموز الثورة التحريرية بالحاضر بآلام ومآسي الشعب الجزائري في العشرية السوداء. كل هذا يظهر من خلال الإهداء كعتبة ثانية والذي كتبت فيه الروائية قائلة :إلى محمد بوضياف,,,رئيسا وشهيدا,
وإلى سليمان عميرات الذي مات بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روحه..
وإلى رجال نوفمبر..."[7].

2 ـ تحولات اللغة في الخطاب الروائي النسائي

لقد كانت المرأة في معظم الخطاب الروائي العربي مجرد دمية تحركها أصابع الكتابة الذكورية، مسلوبة الإرادة بدون وعي ولا شعور، خاضعة إلى قرارات أملتها عليها ظروف قاهرة، مستسلمة إلى مصير فرضته عليها قوة الأشياء وسلطة المواقف التي وجدت المرأة نفسها مقحمة فيها بدون مبررات ولا اعتبارات لأسباب وجودها.

من هنا يمكننا أن نطرح جملة من التساؤلات حول اعتبارات وجود الكتابة النسائية ومشروعيتها الفنية كنمط جديد في الكتابة الروائية المعاصرة، وإذا كان الأمر كذلك فعلى أي مستوى من المستويات يمكننا التوصل إلى هذا النمط الجديد؟

لا يمكننا اعتبار المحتوى أساسا للبحث عن هذا النمط في الكتابة الروائية، كون المضامين والمحتويات تتحدد في القصة التي هي بدورها ملفوظ موضوعي، فعلى مستوى الشكل إذن تتدرج المشروعية الفنية للكتابة النسائية.

وهنا أشير إلى أن البحث في هذا المستوى يأخذ حيزا كبيرا ومكثفا من الدراسة والبحث لذا سأتناول قضية واحدة منه فيما يتعلق بتحولات اللغة في الخطاب الروائي النسائي.

فعل السارد واغتصاب الكلمة:

إن التجربة الفنية لا تعترف بالصدف فهي تخبئ لنا ما ليس في الحسبان، فالإنسان كما يرى (غاستون باشلار) يمتلك مقدرة نفسانية عظيمة تتجلى في إنتاجية التخيل[8] هذا التخيل الذي يؤدي إلى طمس المعالم التي تفصل بين ما هو ذاتي وبين ما هو موضوعي، فالشخصيات الروائية ما هي إلا نماذج اجتماعية تتحرك في عالم لا يختلف بكثير عن العالم الذي نعيش فيه إنها

---

7 – ينظر إهداء الكاتبة

[8]. ينظر غاستون باشلار ،شاعرية أحلام اليقظة ترجمة جورج سعد الطبعة الثانية المؤسسة الجامعية للنشر بيروت لبنان 1993 ص51

شخصيات تتحرك وتنفعل وتصارع من أجل إثبات الذات إنها وجدت لتواجه مصيرها بنفسها، غير أن هذا المصير في الكتابة الذكورية هو بيد السارد يفعل به ما يشاء ويرسم له الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكه بل ويجعل شخصياته تقول ما يشاء، وهنا نلاحظ أول تمرد ضمني في الكتابة النسائية على هذه الطريقة تقول الساردة:"قبل هذه التجربة لم أكن أتوقع، أن تكون الرواية اغتصابا لغويا يرغم فيه الروائي أبطاله على قول ما يشاء هو، فيأخذ منهم عنوة كل الاعترافات والأقوال التي يريدها لأسباب أنانية غامضة، لا يعرفها هو نفسه، ثم يلقي بهم على ورق، متعبين مشوهين، دون أن يتساءل، تراهم حقا كانوا سيقولون ذلك الكلام، لو أنه منحهم فرصة الحياة خارج كتابه؟"[9]
لقد فتحت الساردة شكلا جديدا في التعامل مع شخصياتها فهي لا تحركها ولا توجهها ولا تدفع بها إلى الخطأ، لقد اندهشت لما قرأت قصتها مرة ثانية وثالثة ولكنها لم يحدث يوما أن تعرفت إلى رجل يشبه هذا الرجل ولا إلى امرأة تشبهها هي إنها تنطق بعكس ما كانت ستقوله الساردة وتتصرف بعكس ما كانت هي ستفعله.[10]

تقابل الأنا والآخر وتحولات اللغة:
إن مقاربة الأنا بالآخر تفترض وجود علاقات يحكمها الموقف الخطابي ويحدد شروطها أيضا، ففي الكتابة الذكورية يتجسد الأنا في الرجل والآخر في المرأة، والعكس في الكتابة النسائية، ويتحدد الخطاب الموقفي[11] هنا بمدى فهم الأنا للآخر وفهم الآخر للأنا، وليس ذلك فحسب بل لا بد أن يعرف كل منهما الفكرة التي يحملها كل واحد منهما على الآخر.
إن إقامة جسر من العلاقات للفهم لا يقوم إلا بواسطة الكلمات، فالكلمات وحدها هي التي تغوص في عمق الذات لتكشف كيانها وأفكارها ورؤيتها لما يجري حولها لتكتشف الساردة بعد ذلك أن تلك الكلمات، ما كانت لغة الآخر فحسب بل كانت أيضا فلسفته في الحياة.[12]
لقد حاولت الساردة أن تشرّح شخصية الآخر عن طريق تشريح الكلمات عندما تصبح الكلمات هي السبيل الوحيد لذلك، لقد" كان هو رجل اللغة

[9] . أحلام مستغانمي رواية فوضى الحواس دار الآداب الطبعة العاشرة بيروت 2000 ص28
[10] . المرجع نفسه ص26

[11] . voir; Jean Dubois; Dictionaire de linguistique Matière Situation

[12] . الرواية ص20

القاطعة كانت جمله تقتصر على كلمات، تتراوح بين "طبعا" و"حتما" و"دوما" و"قطعا"... أحيانا كان يبدو لها طاغية يلهو بمقصلة اللغة. كان رجلا مأخوذا بالكلمات القاطعة والمواقف الحاسمة. وكانت هي امرأة تجلس على أرجوحة (ربما).فكيف للغة أن تسعهما معا؟"[13]

إن اللغة في إطارها التخاطبي أثناء وضعيات خاصة تفتقد كثيرا من عناصر الوضوح ليختفي كل طرف وراء الكلمات فجملة :كيف أنت تحيل الساردة إلى جملة ثانية يفرضها الموقف الخطابي بقوة وهي: كيف أنت من دوني أنا؟[14] لتشير بذلك إلى تحول الخطاب من مجرد تواصل حميمي إلى صراع فاتر خفي يتدحرج بين الكلام والصمت "كانت تفاضل بين جواب وآخر عندما تنبهت إلى أن جلستهما قد أصبحت فجأة معركة عاطفية صامتة تدار بأسلحة لغوية منتقاة بعناية فائقة"[15].

إن الصمت هنا نوع من اللغة ألم يقولوا إن الصمت علامة الرضا؟ لقد حولت الساردة هذا الصمت الوديع المكلل بالرضا والقبول إلى عنف قاهر تسترد به سلطة الكلمة. تقول الساردة:"الصمت لا يزعجني وإنما أكره الرجال الذين في صمتهم المطبق يشبهون أولئك الذين يغلقون قمصانهم من الزر الأول حتى الزر الأخير كباب كثير الأقفال والمفاتيح بنية إقناعك بأهميتهم"[16]

إن هذا التحول في استرداد حق الكلمة كان من أساسيات الكاتبة النسائية، وعلى حد تعبير الكاتبة (أوديل أزناف Odile Cazenave):"إن سياق الكتابة وأخذ الكلمة قد تغير فالمرأة أقدمت على الكتابة بقوة[17]". وهنا بدأت الكتابة النسائية تشق طريقها نحو تجسيد شكل جديد فقد أصبحت الآن المرأة الكاتبة تعبر عن أفكارها وآرائها وطموحاتها دون أن تكون للكتابة الذكورية وصاية عليها، بل أكثر من ذلك أصبح للكتابة النسائية موقع تتحكم فيه باللغة تقول الساردة:"وهذا الرجل الذي كان يصر على الصمت وأصر أنا على

---

[13] . المرجع نفسه ص[18] . 20

[14] . المرجع نفسه ص 20

[15] . المرجع نفسه ص 21

[16] . المرجع نفسه ص 35

[17] - voir;Odile Cazenave Vingt ans après Mariama Bâ, nouvelles écritures au féminin
http://www.arts.uwa.edu.au/AFLIT/OdileCazenaveAC.html

استنطاقه ..ها قد جعلته ينطق أخيرا يقول كلاما أردته أنا، فهل هزمته حقا؟"[18].

لعبة المحادثة وتحول اللغة في الحوار بين الأنا والآخر:

إن الموقف الخطابي هنا يستلزم وجود قواعد لعبة تفرضها ضرورة التعايش بين الأنا والآخر، فتصبح اللغة حينئذ غطاء يخفي وراءه حقائق قاسية أو ربما غير مناسبة في المواجهة بينهما فالرجل كما تقول الساردة :"هو الذي تنطبق عليه دوما مقولة (أوسكار وايلد) خلق الإنسان اللغة ليخفي بها مشاعره"[19] وإن كان الموقف يكشف ويعري الحقائق بين الكلمة والصمت"مازال كلما تحدث تكسوه اللغة ويعريه الصمت بين الجمل"[20].

إن هذه اللعبة التحاورية قلبت وحوّلت موازين المنطق في الخطاب بين ما نقوله أي ما تعنيه الكلمات ظاهريا وغالبا ما يقع تحت طائلة ما يمكن شرحه وفق شروط الحقيقة، وبين ما نعنيه نحن أي التأثير الذي نحاول متعمدين إحداثه في المتلقي من خلال إدراكه لهذا المقصد. إن الحدث الكلامي من الوجهة التداولية يفترض حسب (غرايس Grice) أربع قواعد تتحكم في هذا المبدأ[21]:

1 ـ قاعدتا كيف للخبر:

أ ـ لا نقل ما نعتقده خطأ.

ب ـ لا نقل ما يعوزنا في البرهان الكافي.

2 ـ قاعدتا كم للخبر:

أ ـ لتكن إفادتنا للمتلقي على قدر حاجته.

ب ـ لا نجعل إسهامنا أكثر إخبارا مما هو مطلوب.

3 ـ قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال:

ـ وهي أن نجعل إسهامنا على صلة مباشرة بالموضوع.

4 ـ مبدأ الأسلوب / الكيفية:

ـ أن نكون واضحين في : ـ تجنب الإبهام ـ تجنب اللبس ـ الاختصار ـ الانتظام.

---

18 . الرواية ص 32

19 . المرجع نفسه ص 11

20 . المرجع نفسه ص 11

21 . عن مجلة اللغة والأدب لقسم اللغة العربية جامعة الجزائر عدد 17 جانفي 2006 ص 17

إن المنطق الذي يفرضه الموقف والأداء الكلامي ـ حسب التداوليين ـ حولته الساردة إلى منطق آخر فرضته قوة الأشياء وسلطة المواقف، منطق تتحول فيه القواعد المنطقية إلى قواعد لغة تهدم وتحطم من أجل قلب موازين التحكم في اللغة والحوار بل وامتلاك اللغة كلها. تقول الساردة:"يومها حفظَت الدرس جيدا وحاولت أن تخلق لغة جديدة على قياسه، لغة دون علامات استفهام تلك اللعبة تناسبها تماما هي المرأة التي تقف على حافة الشك ويحلو لها أن تجيب ((ربما)) حتى عندما تعني ((نعم))،و((قد)) عندما تقصد((لن))".[22]
إن الدور اللغوي الذي كان ذلك الرجل يتقمصه في استعماله للغة القاطعة التي تتراوح بين "طبعا" و"حتما" و"دوما" و"قطعا" تقمصته الساردة فأصبحت هي صاحبة اللغة القاطعة[23].
لقد استرجعت الساردة كل اختيارات استعمال الكلمات فتحكمها في طريقة الحوار جعلها تستقصي المجهول من خلال بطل روايتها. هذا البطل الذي يحمل سمات شخصية خالد بن طبال أحد أبطال روايتها الأولى تقول:"استوقفني حاملا ذلك الكتاب، قال مازحا وهو يمدني به يبدو لي الآن أيضا أنني أتطابق مع خالد في تلك الرواية."[24]
وبهذا تصبح الكتابة النسائية في مجال الخطاب الروائي نمطا جديدا على مستوى تحول اللغة من الاستعمال الخطابي الحيادي إلى مستوى التحكم في مسار الرواية عبر تلك الكلمات التي تستكشف المجهول للوصول إلى استقصاء متاهات الذات والبحث عن حقائق الأشياء بين المعقول واللامعقول.

الإيحائية في اللغة السردية:

لقد حولت الساردة اللغة من نمطها السردي المتموقع في المطابقة إلى لغة شاعرية بفضل التعبير الاستعاري المكثف لتصل إلى أقصى حدود الإيحاء، إن نصوصا من قبيل " **كخطى راقص على أرصفة الشغف تحت مطر السماء كانت الأقدام الحافية تنقل لنا إيقاعها العشقي منتعلة خفة شهوتنا**"[25] وكذلك "**لقد وفرنا لهم أعمارا لن ينفقوها في أوهامنا**"[26] أو عبارة "**سأنتظر موت**

---

[22]. الرواية ص 18

[23]. المرجع نفسه ص72

[24]. المرجع نفسه ص185

[25]-الرواية ص287

[26]- الرواية ص 303

الأوهام حولك"[27] وعبارة **"لا يمكن أن نخرج من عتبة الحبر لندخل عتبة الليل"**[28] كلها عبارات شعرية بعيدة كل البعد عن الدرجة الصفر:

الدرجة الصفر	اللغة السردية	اللغة الشعرية
المطابقة		الإيحاء

إن انفعالات الساردة تتسارع في بضع كلمات وقليل من العبارات لتتمازج بين الانفعالات الشهوانية والانفعالات الشاعرية في مقطع سردي شاعري تقول:

" في بهو الحزن الفاخر تعلمي الاختفاء ليلا بالألم ... كضيف مفاجئ.
هو ألم فقط.. فلا تستعدي له كما لو كان دمعك الأول.
متأخر هذا البكاء، لحزن جاء سابقا لأوانه، كوداع
فالوقت وداع .
يقول الحب ألو "نعم".
وتجيب الحياة:ألو. "لا". والملح يتسرب عبر خط الهاتف يجتاحنا بين استبداد الذاكرة وحياء الوعود تتابع الأشياء رحلتها.. دوننا"[29].

وفي وصف مشهد مقتل سائق سيارة زوجها العسكري الذي كان يقلها لمشاهدة مدينة قسنطينة من الجسر المعلق، وبينما هي تتأمل المشاهد حتى سمعت طلقات النار مدوية المكان تقول الساردة:**"فجأة خطفتني من أفكاري طلقات نارية كانت على مقربة مني.وهزني دويها بقوة مباغتة،حتى لكأن رصاصها اخترقني"**[30]. وهنا أيضا تتدخل الاستعارة لمشهد احتضار السائق**"شعرت بأنني أقبل يد الموت، الموت الذي سيأخذه، والذي ينتظر الآن فقط بأدب، أن أرفع شفتي عنه ليسحبه ويمضي به"**[31] ونلاحظ هنا عبارة **أقبل يد الموت** وهي استعارة يكتنفها غموض على مستوى تفكيك المدلول الأول لكن عند تفكيكنا للمدلول الثاني وبفضل اللجوء إلى السياق

27– الرواية ص 160

28–الرواية ص 161

29. المصدر نفسه ص 330

30. فوضى الحواس ص109

31. المرجع نفسه ص 112

نتوصل إلى أن هناك انفعال قوي وشعور جارف انتابا الساردة في تلك اللحظة فكانت الاستعارة الوسيلة الوحيدة للتعبير على هذا الوقع العاطفي، والموقف نفسه يتكرر في وصف أرملة الكاتب الطاهر جعوط وهي تجهش بالبكاء تقول الساردة:

"لقد أصبحت في لحظة امرأة لا أعرفها حولتها الفجيعة إلى امرأة أمية، بطقوس حزن بدائية وبنحيب مفاجئ مزق الصمت حولها..أهكذا ماتت الخنساء وهي تبكي أخاها؟ ولِمَ هي تبكي هكذا على كل قبر تصادفه خطاها، أفي كل قبر لها صخر؟"[32]،

لو حاولنا إعادة ترتيب هذا المقطع السردي لتحول إلى قصيدة نثرية بفعل التكثيف الاستعاري وبفعل تركيز الكاتبة على ما يطلق عليه (جان كوهن) اللغة الشعرية[33]:

لقد أصبحت في لحظة امرأة لا أعرفها
حولتها الفجيعة إلى امرأة أمية،
بطقوس حزن بدائية
وبنحيب مفاجئ مزق الصمت حولها..
أهكذا ماتت الخنساء وهي تبكي أخاها؟
ولِمَ هي تبكي هكذا على كل قبر تصادفه خطاها،
أفي كل قبر لها صخر؟

لقد حوّلت الساردة المقاطع السردية إلى قطعة شعرية وإن لم تكن بلا وزن ولا قافية قطعة شعرية قوامها الانفعال أو كما يطلق عليه جان كوهن (التمثيل العاطفي)"فمصدر اللغة الشعرية لا ينبغي البحث عنه في اختيار الكلمات وفي طريقة ضم بعضها إلى البعض الآخر لأجل تكوين جمل وعبارات ولا في الجرس والإيقاع والقافية والموسيقى ولكن في طريقة التمثيل"[34].

وعليه فإن الانفعال الذي يثيره هذا المقطع السردي يستحق بحق اسم شعر بالإمكان ترتيبه ضمن إحدى مقولات الحياة الانفعالية الفرح والحزن والخوف والأمل.[35]

---

32. المرجع نفسه ص 368-369

33. ينظر جان كوهن بنية اللغة الشعرية ترجمة محمد الولي ومحمد العمري الطبعة الأولى دار توبقال للنشر الدار البضاء المغرب1986 ص 11-12

34. المصدر نفسه ص 179

35. ينظر جان كوهن بنية اللغة الشعرية ص 197

وعلى هذا الأساس فإن طبيعة الانفعال الشاعري طبيعة خلاقة بسبب النشاط الحقيقي في تركيب المعاني التي يقوم بها فكر الإنسان وعلى حد تعبير (ببير غيرو)"إن ذهن المؤلف هو نوع من النظام الشمسي يجذب كل شيء إلى مداره"[36] ولذا قيل إن الفنان العبقري لا يبدع إلا في العذاب والشقاء[37].
وليس هذا وحسب بل إن الذكريات بدورها حركت في نفس الساردة تلك الانفعالات الشهوانية لتتبدد أمامها كل القوانين وسلطة المنطق والموروث تقول:"هي التي ضحك البحر لما رآها تبحر على زورق من ورق وترفع الكلمات أشرعة في وجه المنطق"[38] إنها الذات التي تبحث عن حبه تسكنه تلوح بشراعها في أمواج البحر العميق هي الذكريات التي مزقت ثوب الحقيقة هي تلك الذكريات التي حركت فيها الشهوة الأزلية وتستعمل الساردة هنا عبارة:"تفاحة الشهوة"[39] كإقونة دالة على الشهوة الغريزية التي أخرجت آدم وحواء من أبدية النعيم إلى جحيم الدنيا، إنها الرغبات الأبدية الجارفة كما تقول الساردة.[40]

3 ـ لذة النص وعناق الكلمات قراءة في ثنائية النص والجسد في فوضى الحواس:

لقد وقعت الساردة في حب بطلها خالد بن طوبال ذلك الكائن الحبري كما وقع (بغماليون) في حب تمثال صنعه بيده، ولا تخفي الساردة هذا الالتصاق بالنص وهي تقول:"إن شهوة الكتابة ولعبتها تغريك بأن تعيش الأشياء لا لمتعتها وإنما لمتعة كتابتها"[41] "إن مشكلة الكاتب أنه لا يقاوم أحيانا شهوة الخروج عن النص والتورط الأدبي مع الحياة حتى في سرير"[42]
"فأين العجب في أن يحب كاتب بطلا من أبطاله حتى يتوهم بدوره أنه موجود في الحياة وأنه حتما سيلتقي به يوما"[43],

---

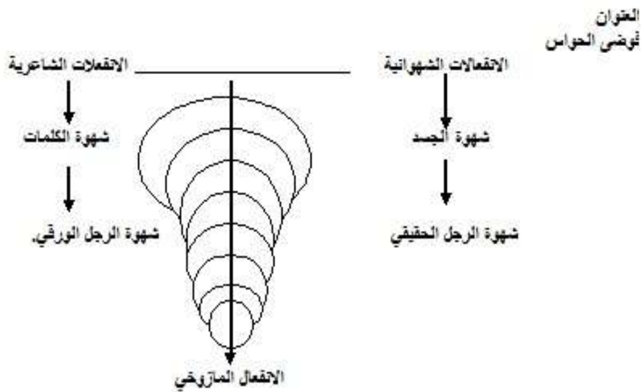
[36] . ميشال جوزيف شريمدليل الدراسات الأسلوبية ص 21
[37] المرجع نفسه
[38] . الرواية ص 329
[39] . المصدر نفسه ص 330
[40] . المصدر نفسه ص 43.
[41] – الرواية ص 308
[42] – الرواية ص 308
[43] – الرواية ص310

لقد كانت الساردة مشدودة إلى فكرة أوصلتها إلى عتبة الجنون عندما تذهب إلى موعد ضربه بطل في قصتها لامرأة أخرى[44].

الحواس بين الانفعالات الشهوانية والانفعلات الشاعرية:

التصفية الذاتية والانفعال المازوخي:

تتفاعل حواس الساردة في حركة حلزونية تبدأ بدائرة واسعة لتتقلص شيئا فشيئا إلى أن تنتهي نقطة صغيرة بانفعال مازوخي تتم فيه تصفية ذاتية للحواسautodestruction كما هو في هذا الشكل:



إن رواية فوضى الحواس هي عبارة عن التقاء مجموعة من الخطابات تتمثل في تجاربها في الكتابة عبر تفاعلات حواسها وانفعالاتها المختلفة حيث تتفاعل الحواس والعواطف لتنقل هذا الانفعال الشهواني من شهوة الجسد إلى شهوة الكلمات تقول الساردة:"هنالك أيضا تلك الكلمات التي لا لون لها، ذات الشفافية الفاضحة كامرأة خارجة توا من البحر".[45]وهنا تنتقل الساردة من شهوة الرجل الحقيقي إلى شهوة الرجل الورقي.

---

[44]-الرواية ص44

[45]. الرواية ص 32

تصفية الحواس وعودة المعقول:

إن مغامرة الحرية أو تلك التجربة الحلم التي عاشتها الساردة وهي تركض وراء حريتها تعيش نشوة الحب السعيد وتتنعم بدفء الحياة بطريقة رومانسية باريسية اصطدمت بجدار الشرعية لتعود من جديد إلى نقطة البداية إلى قسنطينة، قائلة:"الآن أترك عرش الحب خلفي.فالشرعية تناديني..وقسنطينة تنتظرني.والحياة التي استغفلتها وخرجت على قانونها تعيدني إلى بيت الطاعة، متوجة ببريق الذكريات"[46]

وهكذا تنهي الساردة قصتها بانفعال مازوخي يتم بتصفية ذاتية للحواس وهي منزوعة الشهوات. لم يبقى لها من تلك القصة سوى عطرا اختزنه جسدها.[47]

خاتمة:

يمكننا اعتبار رواية فوضى الحواس من الروايات التي استخدمت فيها أحلام مستغانمي تقنيات عالية على مستوى الكتابة النسائية المغاربية بصفة خاصة والرواية العربية بصفة عامة بواسطة التداخل النصي بين روايتيها فوضى الحواس وذاكرة الجسد وكان للعتبات النصية دور شاخص في دروب النصوص الروائية ومتاهات فصولها. فكل أحداثها مشدودة دلاليا بأول عتبة في النص ألا وهي العنوان وقد عرفت الكاتبة كيف تلف ذلك كله بخيوط عنكبوتية محكمة الوثاق.

---

[46]. الرواية ص 331

[47] . المصدر نفسه ص 372

بيبليوغرافيا:
1 - أحلام مستغانمي رواية فوضى الحواس دار الآداب الطبعة العاشرة بيروت 2000
2 ـ جان كوهن بنية اللغة الشعرية ترجمة محمد الولي ومحمد العمري الطبعة الأولى دار توبقال للنشر الدار البضاء المغرب1986
3 غاستون باشلار ،شاعرية أحلام اليقظة ترجمة جورج سعد الطبعة الثانية المؤسسة الجامعية للنشر بيروت لبنان 1993

4 ـ ميشال جوزيف شريم دليل الدراسات الأسلوبية
5ـ مجلة اللغة والأدب لقسم اللغة العربية جامعة الجزائر عدد 17 جانفي 2006

6- Roland Barthes ; Le plaisir du texte édition du seuil ;1973 Paris
7- Jean Dubois; Dictionaire de linguistique Matière Situation
8-Odile Cazenave Vingt ans après Mariama Bâ, nouvelles écritures au féminin
http://www.arts.uwa.edu.au/AFLIT/OdileCazenaveAC.html

مصطلح العدول والانزياح عند اللسانيين العرب

الدكتور سـلام عبد الله محمود عاشور

أستاذ مشارك في النحو العربي والصرف
جامعة الأقصى / غزة كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية

ملخص

يعرض هذا البحث لتأصيل هذين المصطلحين لغة واصطلاحاً لمعرفة الاستعمال الصحيح لهما، ومدى اتصال أيٍّ منهما بالحضارة العربية الأصيلة، ولقد عدل كثيرٌ من الباحثين عن الأصل، واتبعوا ما يستجد من الغرب بلا تنقيب في إرثنا الحضاري عن مصطلح من المصطلحات يعادل ويوازي المصطلح الغربي، أو أغمضوا العين عما في حضارتنا.

ويعرض لما يلاقيه الباحثون من عقبات ومشاكل عند تطبيقه كمصطلح غربي على اللغة العربية، كما ويعرض لبعض الأمثلة توضحه؛ ليستنير الباحثون ويحاولوا وضع الأمر في نصابه.

Abstract

Language deviation and avoidance in Arabic stylistics.

This research explores the origin of these terms of their professional and linguistic use in order to use them properly in addition to identifying their connection to traditional Arab civilization. Many researchers deviated from the traditional and followed Western neologisms without examining our cultural heritage, which have similar terms to Western ones.

The paper explores some obstacles and problems when applying western terms to Arabic, while presenting some examples showing how they differ and which ones are better, in order to enlighten researchers and make them use them properly.

مقدمة:

يحرص كثير من النقاد واللغويين على استعمال مصطلح الانزياح في تعاملهم مع النصوص العربية عند تحليلها، وبيان ما بها من مواضع الجمال والإبداع الذي قدمه المُلقي للمتلقي في نص ما، فهل هذا المصطلح أفضل من غيره مما وجد في الثقافة العربية الأصيلةً؟ هذا البحث يحاول وضع إجابة عن هذا السؤال، ويفاضل بين هذين المصطلحين.

وليس معنى هذا أنَّ على العلماء تحميلَ مدلول المصطلح التراثي هذا مدلولات حديثة، وشحنه بطاقات معرفية جديدة، ليست منه بسبب؛ لكي يقوم بعبء التعبير عن المفهوم المعاصر، الذي يحتاجه اللسانيون. فهل عجزت العربية عن وضع مصطلح لما يريدونه؟ أم أنَّ هناك من ينبهر بالمصطلحات الغربية فيذهب إلى ترجمتها ترجمة حرفية، ويفضِّلها على العربية بدلاً من البحث والتنقيب في لغتنا، لكي يتضح ذلك ما علينا إلاَّ أنْ نوضح معنى هذا المصطلح وما دار حوله من خلاف ومشاكل، والفرق بينه وبين المصطلح العربي الأصيل وهو العدول، فما دلالتهما في اللغة والاصطلاح؟

ومما دفعني لبحث هذا الموضوع أنِّي لم أعثر على من تطرق لهذا الموضوع على حد علمي سوى الأستاذة سامية محصول، وقد فرقت بين الانزياح والانحراف فقط، وغلَّبت الانزياح على الانحراف لما في الأخير من إجبار، وأنَّ الانزياح فيه نوع من الفسحة والسعة على حد قولها، كما سيتضح من النقل عنها فيما بعد.

تمهيد

الانزياح لغة:

الانزياح في اللغة مصدر للفعل الخماسي: انزاح، وهو مطاوع الفعل الثلاثي زاح زيحاً، فتقول: "قسمته فانقسم، وكشفته فانكشف"(1)، والزيح معناه: "ذهاب الشيء، تقول: أزحت عِلَّته فزاحتْ تزيح زيحاً، قال الأعشى"(2):

هَنَأْنا فلم تَمْنُنْ علينا فأَصْبَحتْ رَخيَّةَ بالٍ قد أَزَحْنا هُزالَها

ومعناه ذهاب الشيء عن موضعه الذي كان مستقراً فيه، وقد بقي الشيء على ما كان عليه؛ أي زاحه من مكان إلى مكان آخر فقط، ولم يتغيَّر.

ومما يوضح ذلك قولهم: "أزاح الله العلل، وأزحت علته فيما يحتاج إليه، وزاحت علته وانزاحت، وهذا مما تنزاح به الشكوك من القلوب"(3)، وجاء في الصحاح: "زاح الشيء يزيح زيحاً؛ أي بعُد، وذهب، وأزاحه غيره"(4)

و يوضح ذلك ما جاء في لسان العرب: "زاحَ الشيءَ يَزيحُ زَيْحاً وزُيُوحاً وزَيُوحاً وزَيَحاناً، وانْزاحَ: ذهب وتباعد وأَزَحْتُه وأَزاحَه غيرُه. وفي التهذيب: الزَّيْحُ ذهابُ الشيء تقول: قد أَزَحْتُ علته فزاحتْ، وهي تَزيحُ ...، وفي حديث كعب بن مالك: "زاحَ عني الباطلُ"؛ أَي زال وذهب، وأَزاحَ الأَمرَ قضاه"(5)

فالانزياح مصدر للفعل المطاوع انزاح، للفعل زاح المتعدي، كما اتضح من النقول السابقة، فتقول: زاح الشاعر القاعدة فانزاحت؛ تباعدت عن موضعها؛ أي انتقلت فقط مع بقائها كما هي. وهذا ليس المطلوب من ذا المصطلح. وكذا عند ما تقول: انزاح الشاعر عن القاعدة انزياحاً، إلى أين؟ فليس الأديب أو المبدع هو الذي انزاح، وابتعد عنها، فكذلك هنا ليس هذا المعنى هو المطلوب من المصطلح.

الانزياح اصطلاحاً

معلوم أنَّ النص يتكون من "عمليات التأليف التي تشمل الوحدات الصغرى من حروف ولواحق وكلمات، والعمليات التي تتصل بمجموعات كبيرة من تلك الوحدات مثل الجمل والفقرات والفصول"(6)، والانزياح عند كثير من الغربيين الأسلوب نفسه، فقد عرفوا الأسلوب به إذ قالوا "إنَّ الأسلوب انزياح بالنسبة إلى القواعد"(7)، رغم أنَّ لديهم أربعة أنواع من الأسلوبية(8)

ويعرفه الدكتور منذر عياشي بأنَّه نوعان: "إما خروج على الاستعمال المألوف للغة، وإما خروج على النظام اللغوي نفسه،...- ثم قال- وهو يبدو في كلا الحالين كما يمكن أنْ نلاحظ، وكأنَّه كسر للمعيار، وهو لا يتم إلا بقصدٍ من الكاتب أو المتكلم"(9)

أو كما قال بير جيرو: "إنَّ شبكة العلاقات هذه خاصة بلغة النص، وهي تختلف قليلاً أو كثيراً عن شبكة العلاقات في اللغة العامة، هذه الانزياحات تشكل قيماً أسلوبية هي مصدر نشوء الآثار الخاصة"(10)

وذهبوا تارة أخرى إلى أنَّ "الانزياح اللساني يتناسب مع بعض الانحراف عن القاعدة وذلك على مستوى آخر: المزاج، الوسط الاجتماعي، الثقافة، إلى آخره"(11)

وذهبوا أيضاً إلى أنَّه "قوة تتحول إلى فعل على حسب قدرة المتكلم وإبداعاته الأدائية"(12)، وبناء على هذا التعريف "انبثقت اتجاهات مختلفة تتجادل حول مجالات البحث الأسلوبي"(13)

فتراهم يقولون تارة: الأسلوب الانزياح، وتارة يشكل الانزياح قيماً أسلوبية، ومع ذلك فهم مختلفون في معنى الأسلوب كثيراً، فهم يقولون: "إنَّ

الأسلوب هو الرجل...، إنَّ الأسلوب مفهوم عائم فهو وجه بسيط للملفوظ تارة، وهو فن واعٍ من فنون الكاتب تارة أخرى، وهو تعبير يصدر عن طبيعة الإنسان تارة ثالثة"(14)

وذكر بعضهم أنَّ الانزياح يمكن أنْ يكون من طبيعتين: "خرق للمعيار النحوي من جهة، وتقييد أو تضييق لهذا المعيار بالاستعانة بقواعد إضافية من جهة ثانية"(15)، وقد ذكر بعض العلماء أنَّ الأسلوب محيرٌ متعدد التعريفات وذكر له ستة تعريفات(16)، ورفض أنْ يكون الأسلوب هو "النمط المخصوص من الأداء اللغوي الذي يركز على الانحراف عن الاستخدام المألوف فذلك ليس على سبيل الحصر"(17)، كما عدد غيره ثمانية تعريفات(18)، وهما هنا يسميان الانزياح انحرافاً، وهو يقوم عند الدكتور رجاء على استخدام المادة اللغوية بما "يتجاوز نمطية تركيباتها التقليدية، فإنَّ الأسلوب المعطى يكتسب فعالية تكسير سكونية البناء النحوي في نسقه المتسم بجهامة ثابتة، ورتابة نظامه"(19)، لاحظ أنَّه يجعله في النحو فقط.

وعدد د. عبد السلام المسدي أيضاً عدداً من التعريفات للأسلوب قد لا يفيد ذكرها هنا لعدم تكرارها(20)، بينما عرف الانزياح بأنَّه "الاستعمال النفعي للظاهرة اللسانية؛ مختارين في ذلك تسمية الشيء بوظيفته العملية وغائيته الواعية"(21)، وذكر عدداً من تعريفات الغربيين، منها أنَّه: الابتعاد عن الاستعمال المألوف فتوقِع في نظام اللغة اضطراباً. أو أنَّه مفارقات تلاحَظ بين نظام التركيب اللغوي للخطاب الأدبي. أو أنَّه لحن مبرر. أو أنَّه انزياح عن النمط التعبيري المتواضع عليه(22)، ويلاحظ عليه أنَّه مرة يسميه انزياحاً، ومرة يقول: إنَّه انحراف. وعرَّفه آخر بأنَّه :"دراسة للإبداع الفردي وتصنيف للظواهر الناجمة عنه، وتتبع للملامح المنبثقة منه"(23)

وهذا مما جعل البعض يقول: "شعر الغربيون بصعوبة تحديد الأسلوب، فقال لامار: الأسلوب أصعب ملكات الإنسان تحديداً"(24)، ويرى بعضهم أنَّ هناك علاقة بين البلاغة والأسلوبية لما لكل واحدة منهما من دور في صنع الرسالة المرسلة للمتلقي "فالأسلوبية تركز على المجال التطبيقي المحدد، والبلاغة على النظري المجرد، ثم لا تلبث هذه العلاقة أنْ تنحل في مستوى أشمل منهما يبتلعهما معاً، وهو الذي يفتحه علم النص بطبيعته الكلية"(25)

فلا تعرف لهم تعريفاً واضحاً اقتنعوا به، فقد خلطوا بين الأسلوب والانزياح، فمنهم من جعله إيَّاه، ومنهم من جعله سوى ذلك مما ذكر، رغم أنَّ الانزياح ما هو إلا أداة لغوية يجنح إليها المبدع لرسم الصورة التي يريد إيصالها للمتلقي ليثيره ويفيده.

ولكنَّ بعضنا سار سيرهم وتفيء ظلهم، فتركوا الواضح الجلي الذي لا يحتاج إلى تأويل أو تحميله أكثر مما يدل عليه، ولا يخفى ما في الانزياح من انزياح عن دلالته اللغوية الأصلية، واتبعوا ما تُرجم عن الثقافة الغربية.

ومفهوم الانزياح قد وفد من ترجمة بعض المصطلحات الأجنبية إذ "إنَّ هذا المصطلح قد عُرف بالفرنسية على أنَّه écart ، وبالإنجليزية على أنَّه deviation، وبالألمانية abweichung، وقد اختلفت تسميات هذا المصطلح في النقد الغربي، وذلك باختلاف النقاد الذين تعاملوا معه، فقد عدَّه بول فاليري: تجاوزاً، وبارت يسميه: فضيحة، وتودوروف يدعوه: شذوذاً، وجان كوهن يطلق عليه تسمية: انتهاك، وتيري يسميه: كسراً، وأراجون يدعوه: جنوناً.

والانزياح يمكن أنْ نصطلح عليه بعبارة التجاوز أو نسميه بلفظة عربية استعملها البلاغيون في سياق محدد وهي عبارة العدول، وفي الدراسات العربية هناك عدة مصطلحات لمفهوم الانزياح أهمها: الإزاحة (الانزياح)– العدول- الانحراف- كسر المألوف - الانتهاك - الخرق - التغريب - الأصالة – المفارقة"(26)

فهو مصطلح وافد من الدراسات الأسلوبية واللسانية الغربية المعاصرة، التي تحاول تحديد الواقع اللغوي الذي يُعدُّ بمثابة الأصل، أمَّا العدول فهو خروج عنه، واهتمت تلك الأبحاث والدراسات بظاهرة العدول؛ لأنهم عدُّوه ركناً أساسياً في بناء جماليات النص الأدبي، بوصفه حدثاً لغوياً يبدو في تشكيل النص وصياغته، ويبتعد عن نظام اللغة المألوف والمستعمل قليلاً أو كثيراً، ويعدل بأسلوب الخطاب عن سنن اللغة وقواعدها الأساسية، فيُحدِث في النص عدولاً يمكِّنه من إمتاع المتلقي وإفادته وإثارته، وتنبيه السامع ولفت انتباهه، إذ ينطلق العدول من لحظة التوتر التي يعيشها المبدع؛ ليخلق التفاعل و الانسجام مع النص المخاطَبِ به.

وكلما تصرف المبدع في اللغة وهياكلها من دلالة، أو صيغ تركيبية عُدَّ عدولاً، و هناك مَنْ فرَّق بين مصطلح انحراف و مصطلح انزياح فذهب إلى أنَّ "كلمة انحراف déviation تُعدُّ مرادفاً لكلمة انزياح écart على أنَّ الانحراف لا يخلو أيضاً من دلالة أخلاقية سلبية، فإنَّه مفروض بقوة التداول والشيوع، لذلك يظل إلى جانب الانزياح يتنازعان المفهوم، وإذا كان ولابد من مفاضلة بينهما، فإنَّ الانزياح في تقديرنا هو الأمثل والأفضل، كما أنَّ كلمة انحراف مقرونة بالإجبار في الزمان والمكان والكيفية، عكس الانزياح المقرونة بحرية الاختيار للزمان والمكان والكيفية، وهو ما يتفق مع مبدأ الاختيار في الأسلوبية"(27)

وهذا التفضيل للانزياح على الانحراف، وإنْ كان موضوعياً، فهو ليس بجيد، فقد حصرت الظاهرة بين المصطلحين فقط، رغم أنَّها فيما سبق ذكرت أكثر من مصطلح لهذه الظاهرة، والأفضل لنا جميعاً أنْ نستعمل مصطلح عدول لما فيه من دقة متناهية في التعبير عن هذا المعنى المراد، وليس عيباً أو تخلفاً أنْ نستخدمه، وهي لم تلاحظ ما في معنى الانزياح من انزياحٍ عن المعنى المطلوب فمعناه اللغوي لا يستقيم كثيراً مع معنى العدول عن القواعد المستخدمة في اللغة، كما سبق توضيحه من أنَّه زيح الشيء عن موضعه، مع بقائه على حاله، ولم يتغيَّر، لكن المقصود منه أنَّ المبدع قد عدل عن استخدام المستعمَل في اللغة الموافِق لقوانينها وقواعدها إلى شيء لا نظير له فيها لهدف في نفسه؛ لإخراج النص في أحسن صورة يتلقاها المتلقي؛ أي أنَّه غيَّر القواعد والقوانين وعدل عنها، ولم يزحها من مكانها إلى جانب آخر، كما يعطيه المعنى اللغوي للانزياح، كما أنَّها ألمحت إلى مصطلح العدول الذي استعمله القدماء في سياق محدد كما ذكرت في حديثها عن المفاضلة بين الانحراف والانزياح، ولم تفضله عليهما.

ولقد نظَّر كوهن للانزياح، وجعل له نظرية "تقوم على مجموعة من الثنائيات هي استراتيجية الشعرية البنيوية، تهيمن على كتابيه "بنية اللغة الشعرية" و"اللغة الرفيعة" ومن بين هذه الثنائيات ثنائية (المعيار/ الانزياح) وثنائية (الدلالة التصريحية/ الدلالة الحافة) وأشار كوهن عندما حدد المعيار إلى اللغة المستعملة العادية، ويراها تتجسد في النثر، فلغة النثر لغة طبيعية، ولغة الشعر لغة فنية مصنوعة، ويندرج ضمن النثر أنماط عديدة منها النثر الروائي، والنثر الصحفي والنثر العلمي، وقد اتجه مباشرة إلى الكاتب الأقل اهتماماً بالأغراض الجمالية وهو العالم، مع أنَّ الانزياح لا ينعدم عنده تماماً ولكنه قليل جداً"(28)

و مما سبق يمكن القول إنَّ مفهوم العدول هو استعمال المبدع اللغة من مفرداتٍ وتراكيبَ وصورٍ استعمالاً يخرجها عمّا هو معتاد ومألوف بحيث يحقق المبدع ما يصبو إليه من تفرُّدٍ وإبداع وجذب للمتلقِّين.

فهو عدول لغوي قائم على استحضار المبدع غيرَ المتوقع من التعبير لغايات جمالية وفنية في تصور المتلقي وذهنه.

أما الأسلوب فيمكن تعريفه بأنَّه استخدام المبدع لوسائل لغوية للغة ما، لإيصال المتلقي للشغف برسالته أو نصِّه.

من أنواع الانزياح ومجالاته:

يمكن أنْ يكون للانزياح ثلاثة أقسام: الانزياح الإسناديّ, والانزياح الدِّلاليّ, والانزياح التركيبيّ .أما الانزياح الإسنادي: وهو ما أسند اسم إلى اسم أو ما ينزل منزلته(الجملة الاسمية). وإسناد فعلي، وهو ما أسند فيه فعل

إلى اسم (الجملة الفعلية). أما الانزياح الدِّلالي: فيُعنَى بدلالة اللفظ في المعجم، وما طرأ عليه من تطور دلالي، ويرى كوهن أنَّه "مجموع التأليفات المتحققة لكلمة ما"(29). أما القسم الثالث: الانزياح التركيبي فيتمثل في التقديم والتأخير والحذف والالتفات والاستعارة والمجاز والتشبيه وغيرها من وسائل تكوين أسلوب النص.

وقد ذكرت الأستاذة سامية محصول أنَّ الانزياح يتجلى في مستويات عدة أهمها:

انزياح على مستوى الحروف؛ أي وضع حرف مكان حرف.
انزياح على مستوى الألفاظ؛ أي وضع لفظ مكان لفظ.
انزياح بالحذف؛ أي حذف حرف، لفظ، جملة، بيت شعري.
انزياح على مستوى التعابير؛ أي وضع تعبير آخر غير شائع مكان تعبير شائع.
انزياح على أنماط التبليغ ووسائله؛ أي من التصريح إلى التلميح، تورية، تبليغ بتذكير بواسطة الربط.
انزياح على مستوى بناء النص؛ أي مثل الخروج عن معايير بناء رواية، أو بناء مسرحية.
انزياح على مستوى الأفكار؛ أي استعمال فكرة في غير موضعها، أو عرض فكرة للوصول إلى أخرى.
انزياح على مستوى استعمال الشواهد والأمثلة.
انزياح على مستوى توظيف المصادر السابقة؛ أي شعر، قصص، شخصيات أعلام، أخبار، التراث، القيم.
انزياح على مستوى توظيف الأهداف.
انزياح على المستوى الدلالي، التركيبي، الصرفي، الصوتي، المعجمي.

وقد يظن البعض أنَّ الانزياح يمس التعابير والتراكيب فقط، بل إنَّه يتعداها حتى في الصور والأفكار والمعاني، والأكثر من ذلك حتى على مستوى الحروف فما بالنا بالمستويات الأخرى؟(30)

ويلاحظ أنَّها قد جمعت بين المستوى الدلالي والنحوي والصرفي والصوتي مع المعجمي في الدلالي، وهذا غير سليم؛ لأنَّ النحو والصرف والصوتيات شيء آخر غير الدلالة، والأفضل صرفها إلى مستويات أخرى.

وكذلك وضعت حذف الحرف، و اللفظ، والجملة، وبيت شعري وغيره من الحذف، ومعلوم أنَّ الحذف أنواع، منه ما يدخل في النحو وما يدخل في الصرف وما يدخل في غيره من علوم اللغة، كما تركت التضمين الذي يمكن أنْ يكون صرفياً نحو: جعل المتعدي لازماً أو العكس، ويمكن أن يُعدَّ لغوياً أيضاً؛ لأنَّه إشراب كلمة معنى كلمة أخرى(31)، فتعدُّ من هذا النوع أو ذاك،

وحينئذٍ يدخل الانزياح الأول والثاني مما ذكرتْ فيه، كما يلاحظ أنَّها غفلت عن معنى اللفظ اللغوي، وهو معلوم أنَّه كل ما لفظ من الفم من كلمات أو غيره.

وذكر بعضهم أنَّ الانزياح قد ورد عند الأدباء العرب، وقسمه إلى:

1-انزياح عنصر من العناصر المكونة للنص عن مقصود عنصر سبق له مما يؤدي إلى قطع التتابع الدلالي، وكسر السياق، وتمزيق التناغم الداخلي.

2-انزياح النص عن وحدته المنطقية، واحتواؤه على المتناقضين.

3- مخالفة النص لنفسه وانزياح العبارة فيه عن غاية المتكلم.

4- انزياح النص عن الشفرة اللغوية المتعارف عليها.(32)

وجمع بعضهم أنواعه في:

1 - انزياح في التركيب(العلاقة بين الدلائل)

2 - وفي التداول(العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقي)

3 - وفي الدلالة(العلاقة بين الدليل والواقع)(33)

وقد جمع الدكتور سعد مصلوح الأنواع وعددها في:

التغيرات الشكلية، التغيرات الصوتية، التغيرات الصرفية، التغيرات التركيبية التغيرات الدلالية، التغيرات فيما فوق الجملة.(34) وربما كان هذا من أفضل التصورات له جمعاً واختصاراً.

ويشتق د.المسدي من تعريفه السابق للانزياح قواعد له فيقول: "اكتشفنا له قواعد تأسيسية تتجاوز المنظور الأسلوبي الضيق...، وصورة ذلك أنَّنا قد نبسط فرضية عمل نعتبر بها أنَّ الظاهرةَ اللغوية في ذاتها مصبٌّ جدولين، ونقطة تقاطع محورين: أولهما: الجدول النفعي...، وثانيهما: الجدول العارض، وهو الجدول المخدوم إذ محوره وضع اللغة الطارئ"(35)

بلا شك في أنَّ تراثنا كان يحتوي على مثل هذه اللمحات، وإنْ كان ليس مطلوباً منه الإحاطة بكل ما هو جديد حتى لا يتحمل ما في عصره و العصر الحديث، إذ إنَّ "الإحاطة ليست مطلوبة من أي تراث"(36)، فمفهوم "نقادنا القدماء للبلاغة قد ارتبط بالأسلوب ارتباطاً وثيقاً خاصة في المرحلة التي بدأ يُنظَّر فيها إلى البلاغة كوصف للكلام إذا امتاز بخصائص وسمات معينة"(37)، فلو نظرنا إلى تعريف بعض الأنواع البلاغية لاستقينا ذلك منها فعلى سبيل المثال: الالتفات هو التعبير "عن معنى بطريق من الطرق الثلاث التي هي التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عن ذلك المعنى بطريق آخر من الطرق الثلاث، بشرط أنْ يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع"(38)

وكما هو واضح في تعريف الأسلوب الحكيم فهو: "تلقي المخاطب بغير ما يترقبه إمَّا بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإمَّا حمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد"(39)

فائدة الانزياح

معلوم أنَّ مفردات اللغة موجودة كمواد أولية يتداولها الإنسان العادي والمبدع في أمور حياتهم المعيشية على حدٍ سواء، وهنا تكون اللغة معبرة عن حاجيات الإنسان المتواضعة والضرورية، لا إبداع فيها، ولا يلتفت لها المتلقي كثيراً إلا بما يساعده على تلبية هذا الطلب أو ذاك؛ لأنَّها من مألوف القول، فلا يثير في المتلقي أي إحساس؛ لأنه يجري بحسب الإلف و العادة اللغوية، وهنا يمكن القول: إنَّ الكلام الجميل لا يمكن أنْ يستمر "جامداً ضمن قواعد القواعديين...، فإذا كان الكلام تعبيراً عن الإنسان فإنَّه يتطور مع الإنسان ومع العادات، ومع مثاليات الأمة التي يعبر عنها"(40)، فالعدول يمنح اللغة الأدبية توهجاً وتألقاً، ويجعلها لغة خاصة تختلف عن اللغة العادية، وذلك بما للعدول من تأثير جمالي، وبعدٍ إيحائي.

لذا فإنَّ التجدد عند الإنسان يتابعه تجدد في اللغة وبراعة في أساليب بيانها، فالكلمات في النص الأدبي عند المبدع تختلف كثيراً أو قليلاً من ناحية وضعها في أنساق متسقة كمنظومة دلالية تتميز بأشياء عدة منها: تفجير المواقف بابتعادها عن القوانين اللغوية، فهذا الاختيار في كلمات اللغة يكون مخالفاً لما اعتادت عليه الناس، وعدولاً عنه، حتى يُحدِث الصدمة المطلوبة، ويُسهم في لفت انتباه المتلقي، ومن ثَمَّ التأثير فيه، وتوصيل الرسالة التي يريدها المبدع. وقد يكون منها: الاقتصاد والدقة في رسم الصورة المراد إيصالها في حقول دلالية جديدة حتى يحيل المبدع المتلقي بتحويلاته لهذه الكلمات عن المعنى الأصلي لها إلى معنى يثيره ويثريه، ويُحدَث رَدَّةَ فعل مفاجئة، غير متوقعة، وهنا تبرز المتعة الحقيقية للمتلقي في البحث عن الاختلاف بين ما سمع أو قرأ وبين قوانين اللغة، كما تبرز القدرة الإبداعية للملقي.

إنَّ الهدف من دعوة الأسلوبيين إلى العدول، هو التماس وجه يبدو فيه المعنى أكثر ملاءمة، ويكون الكلم أقل خضوعاً لسلطان التأويلات والتوهمات التي لا تحتملها طبيعة اللغة العربية. وبذا وبغيره "يكون التعبير الإبداعي أكثر أثراً في النفس وأداة للتطهير عبر ما يستعمله من أساليب يخص بُنى النسيج اللغوي صورة وإيقاعاً ومفردات، وذلك ببث حيوية مخصبة في الحياة الجميلة الهادئة الزاهية في أعراق تلك العلاقات التي يُزيل عنها رتابتها وينفض نمطيتها بعد أنْ فقدت اللغة مجازها اللصيق بها في نشأتها الأولى"(41)

وتظهر القوة الدلالية للعدول إذْ إنَّ بناءه اللغوي يُبنى على محطتين متعاقبتين هما: خلق العدول وعرضه من المبدع، ثم نفي العدول من المتلقي، أو إنَّه يشمل لحظتين في تركيبه "فاللحظة الأولى تكمن في أنَّ المؤلف يصنع انحرافاً ما، فإنَّ اللحظة الثانية تتمثل في أنَّ القارئ يحصر هذا الانحراف، وليس هذا الحصر شيئاً

آخر سوى التصويب الذاتي"(42)، ويلاحظ هنا أنَّه يسمي العدول انحرافاً، ويذهب إلى أنَّه لا بد للمتلقي من أنْ يعيد النص إلى تركيبه الأصلي وفق قوانين اللغة المعلومة لديه.

فالأسلوبيون يدْعُون للعدول؛ لأنَّه يميز لغة كل مبدع عن سواه، ويرى بعضهم أنَّه يهدمها؛ لأنَّ "ما يتغير هو معجم اللغة نظراً لأرتباط اللغة بنشاط الإنسان الإنتاجي في كل مجالات عمله دون استثناء، أمَّا نظام القواعد فلا يتغير إلاَّ ببطء شديد نحو تحسين القواعد وأحكامها مجدداً، من هنا فإنَّ كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة على أنْ لا يُفهم الانتقاء أنَّه انتقاء من أشياء جاهزة، بل هو خلق خاص"(43)، وهذا غير سديد؛ لأنَّ العدول كما سيتضح فيما بعد هو هدم للنص في مرحلة من مراحله، وليس الأمر متعلقاً بالمعجم فقط، بل يتناول المعجم وغيره من قوانين اللغة.

فالمبدع الحاذق هو الذي يُسخِّر إمكانات اللغة، ويتلاعب بتراكيبها، ومفرداتها وقوانينها التركيبية، والمعجمية، والصوتية، والصرفية، والبلاغية، مما يمنح نصه خصوصية تجعله يتميز عن غيره من النصوص الأدبية لغيره.

ولا شك في أنَّ المبدع يرتكز على بعض الأشياء في اللغة عندما يعدل عن قوانينها فيعوض القارئ عن هذا العدول في بعض استخداماته، فهو يستخدم "التقاليد والانحرافات معاً، غير أنَّ التقاليد منتظمة والانحرافات موضوعة عشوائية، والتقاليد لا تدهشنا والانحرافات مفاجئة لنا، مما يجعل التقاليد ترفع نسبة التوقع، وتؤدي إلى إشباعها، والانحرافات تخفضها وتؤدي إلى المفاجأة"(44)؛ أي وكأنَّه يقوم بعملية هدم لبعض القوانين - التقاليد - وإبقاء بعضها لتساعد القارئ على إعادة بناء النص في ذهنه مرة أخرى حسب مقدرته وثقافته اللغوية.

وبعضهم ذهب إلى أنَّ اللغة قاصرة والمبدع قاصر عن انجاز ما يريده المبدع، والعدول(الانزياح) يسد هذا القصور منهما، فهو "احتيال الإنسان على اللغة، وعلى نفسه لسدِّ قصوره وقصورها معاً"(45)، والقصور هنا ليس قصوراً في المعنى أو عطاء اللغة، وإنَّما في توصيل مشاعر المبدع للمتلقي.

من صعوبات العدول (الانزياح)

هناك مجموعة من الإشكالات التي يواجهها مصطلح العدول (الانزياح) عند نقله أو ترجمته من الانكليزية والفرنسية إلى العربية، وما يتصل بذلك من صعوبات تتعلق باللفظ التراثي واللفظ الحداثي، ذكرها بعضهم متسائلاً: "هل نُحمِّل أم نترجم المصطلح الذي يُفترض أنَّه يحمل بأمانة معالم المفهوم الغربي الحديث الذي يغدو عالمياً على الأغلب، وبذلك يصبح الاقتراب من روح المفهوم أكثر دقة في الدراسات النقدية الحديثة؟(46)

وهناك صعوبات عند تطبيقه على الأدب، قال بعضهم: إنَّه يجب عدم المبالغة في إحداث الانحراف الشعري لإنتاج الدلالات, مما يسقطه في وحل الغموض، ونرجع في ذلك إلى رأي د. رجاء عيد حيث يقول: "إذ ليس كل ما يدخل في باب الانزياح عن القواعد محققاً قيمة فنية، فاللغة في أصولها ومكونتها الأساسية تمثل المستند الذي يتكئ عليه المبدع أو الناطق بتلك اللغة، فإذا ما انحرف عن أصولها لابد أنْ يحسب حسابه لكي لا ينقض ذلك الأساس"(47)

وهناك بعض المآخذ عليه منها: "عدم تحديدها للمعيار تحديداً مباشراً دقيقاً. وإهمالها لمقولتي الكاتب والقارئ. وعدم أخذها بعين الاعتبار لاحتمال وجود انزياحات غير ذات أثر أسلوبي"(48)

فإذا كان هذا العدول (الانزياح) أو (الانحراف) عن طرائق اللغة وسننها، يجعلنا نصل بفهمنا قبل الآخرين إلى ما يُراد منَّا فهو جيد، وإذا كان يجعلنا نتفادى مشكلة أو عائقاً، فهو حسن، وإذا كان لصنع مفاجأة للمتلقي، فهو جميل، أمَّا إذا كان العدول عن القوانين والقواعد يجعلنا نهوي في الهاوية، أو يعرِّض فهمنا للخطر أو عدم الدِّقة، فلا فائدة منه، بل يدخل في عبثية الكلام أو التحذلق، ولا طائل وراء ذلك.

إنَّ العدول (الانزياح) قد يؤدي إلى غموض الرسالة وإضعاف بنيتها، وهذا يعني أنَّه كلما عمد المبدع إلى تعميق العدول (الانزياح) ازداد انفصاله عن جمهوره (المتلقي)، وذكر د. عبد السلام عدداً من المطاعن، قد يقع فيها المبدع، منها: صعوبة تحديد النمط العادي في التعبير. وأنَّ مفهوم الاستعمال نسبي، ولا يُمكِّن الدارس من مقياس موضوعي صحيح. وأنَّه يكاد يقصر قيمته الوظائفية على العناصر الجزئية في الكلام.(49)

وهناك بعض الملاحظات على العدول (الانزياح) ذهب إليها الدكتور صلاح فضل كالاعتراضات منها: أنَّ فكرة القاعدة اللغوية التي تحدد مستوى الانحراف لم تعد تعتمد على الاستعمال بتنوعه الشديد، وإنَّما أخذت ترتكز على مجموعة محدودة، وثابتة من القواعد الإجرائية.

وأنَّ البلاغيين البنيويين يضعون موضع الشك والتساؤل قدرة هذه الإجراءات البلاغية على اقتناص دلالة الشعر الكلية.
وأنَّ الواقعة الأدبية لا تتحمل التفكيك، وأنَّ جوهرها يكمن في طابعها الكلي الذي لا يقبل التجزئة، فإنَّ كل إجراء تحليلي سيكون مقضياً عليه مسبقاً بالإخفاق.(50)

فضلاً عما سبق فإنَّ الدكتور صلاح فضل يطرح تساؤلات حول مشاكل التحديد الإجرائي للأسلوب كانحراف، ونلخصها في أنَّه :

من النصوص لا يكون بها أي انزياح عن قاعدة ما معينة.
هناك صعوبة في تحديد القاعدة والانزياح بدقة علمية.
يتعرف على الانزياح بلا تتبع للخواص النوعية للانزياح.
هناك عدم تطابق بين الانزياحات والأسلوبية فهناك انزياحات لا يترتب عليها تأثير أسلوبي.
تتركز الدراسة على علاقة الظاهرة اللغوية في النصوص بالقاعدة المنشقة عنها.
لا تصلح نظرية الانزياح أنْ تطبق على مؤلفين يكتبون بأسلوب عادي.
التركيز على الانزياح وإهمال الملامح الأخرى للنص المدروس، مما يؤدي إلى قصور في نتائج الدراسة(51)

وقد ذكر أنَّ هناك نوعين من الأخطاء تقع عند تطبيق هذه النظرية على النصوص القديمة: خطأ الإضافة عندما نضيف انطباعاتنا على النص القديم ونُحمِّله ما ليس فيه. والثاني خطأ النقص فالقيم الأسلوبية القديمة لا يمكن التعرف عليها بسهولة(52)

كما أنَّ مشكلة رصد الأسلوب على مستوى العدول له عوائق أخرى إجرائية
متمثلة في الناقد أصلاً، والمنظِّر له، فمن أين لهما أنْ يرصدا كل المعايير المختلفة من حيث المكان ومن حيث الزمان؟ أضف إلى هذا أنَّه في جهة واحدة من اللغة الواحدة نجد آلاف المعايير، فمَنْ ذا الذي يرصد كل المعايير، ومن ذا الذي يحكم بأنَّ هذا معيارٌ، وهذا خروجٌ عنه، فقد يكون هذا العدول أو ذاك هو المعيار، ولكن ناقده يجهله فيضعه في العدول، وأنَّ كل مبدع يحتاج إلى دراسة لعدوله، فما كان عدولاً عند واحد منهم قد يكون معياراً عند غيره.

وبعضهم يصطلح على العدول اصطلاحاً آخر غير ما ذكر، فقد ذكر أنَّ علم الأسلوب انتفع عندما أدراك "أنَّ اللغة نظام وبنية ذات علاقات داخلية، وذلك بإنشاء المقابلة بين العبارة القياسية والانحراف أو (الترخص)"(53)، وهو يسميه انحرافاً، ثم يعدل عنه إلى مصطلح الترخص؛ لأنَّه ممن مهَّد لدراسة الترخص في العربية.

وهناك من أدرج بعض ما جاء فيه عدولٌ عن القواعد والقوانين للغة سواء أكانت صوتية أو صرفية تحت مصطلح آخر هو الازدواج، وفضَّله على مصطلح المحاذاة الذي درج عليه بعض العلماء، مثل ما نقله السيوطي عن ابن فارس إذ إنَّه قال: "ومن سنن العرب المحاذاة، وذلك أنْ تجعل كلاماً ما بحذاء كلام، فيؤتى به على وزنه لفظاً، وإنْ كانا مختلفين فيقولون: الغدايا والعشايا، فقالوا الغدايا لانضمامها إلى العشايا"(54)، وغدوة لا تجمع على الغدايا جمع تكسير، وإنما تجمع على الغدوات(55)، وقد أدرج فيه د. مصاروة على سبيل المثال قول الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء اللواتي كن ينتظرن الجنازة: "ارجِعْنَ مأزوراتٍ غيرَ مأجوراتٍ"(56)، قال: "و الأصل أنَّ كلمة مأزورات من الوزر وهو غير مهموز، فكان القياس يقضي أنْ يقال: ارجعن موزورات، لكن اقتران هذا اللفظ بلفظ مهموز وهو مأجورات صيَّره مهموزاً مثله لاسيما أنهما اتفقا وزناً وقافية"(57)، فتلاحظ أنَّ بعض العلماء العرب لم يرقه مصطلح الانزياح أو الانحراف.

العدول لغة:

العُدُولُ والعَدْلُ مصدر الفعل الثلاثي عدل، "والعدل أن تعدل الشيء عن وجهه فتميله، عدلته عن كذا، وعدلتُ أنا عن الطريق، ...، عدلتُ الدابة إلى كذا؛ أي: عطفتُها فانعدلتْ، ...، ويقال: الطريق يُعدَلُ إلى مكان كذا، فإذا قالوا يَنعَدلُ في مكان كذا أرادوا الاعوجاج"(58)

وله معانٍ عدة منها النظير والشرك والسوء والفداء...، ولكنه فيما سبق واضح أنه يدلّ على أنَّ أيَّ ميل أو بُعدٍ عن الأصل الحقيقي للشيء، يُسمَّى عدْلاً أو عُدُولاً، ويعضد ذلك ما يأتي أيضاً.

فيقال: "عدَلتُه عن طريقِه وعدلتُ الدابةَ إلى طريقها: عطفتها، وهذا الطريق يعدِل إلى مكان كذا. وفي حديث عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملتُ عدَلوني كما يُعدَلُ السهمُ"(59)

ويقال: "عَدَلَ عن الشيء يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً: حاد، وعن الطريق جار وعَدَلَ إليه، عُدُولاً رجع، وما لَه مَعْدِلٌ ولا مَعْدولٌ: أَي مَصْرِفٌ، وعَدَلَ الطريقُ مال، ويقال: أَخَذَ الرجلُ في مَعْدِل الحق، ومَعْدِل الباطل: أَي في طريقه ومَذْهَبه. ويقال: انْظُروا إِلى سُوء مَعادِله، ومذموم مَداخِله: أَي إِلى سوء مَذَاهِبه ومَسالِكه، ...، وفي الحديث "لا تُعْدَل سارِحتُكم"(60)؛أَي لا تُصْرَف ماشيتكم وتُمال عن المَرْعى، والعَدْل أَنْ تَعْدِل الشيءَ عن وجهه، تقول: عَدَلْت فلاناً عن طريقه، وعَدَلْتُ الدابَّةَ إِلى موضع كذا، فإِذا أَراد الاعْوِجاجَ نفسَه قيل: هو يَنْعَدِل، أَي يَعْوَجُّ وانْعَدَل عنه وعادَلَ: اعْوَجَّ...، عَدَلَ عَنِّي يَعْدِلُ عُدُولاً لا يميل به عن طريقه المَيْلُ... ومنه قول المرأَة

للحَجَّاج إنَّك لقاسطٌ عادِلٌ، قال الأَحمر: عَدَلَ الكافرُ بربِّه عَدْلاً وعُدُولاً إذا سَوَّى به غيرَه فعبَدَهُ"(61)، ومما يأتي بمعناه "الازْوِرارُ عن الشيء: العدولُ عنه"(62)

فالعدول مصدر للفعل عدل اللازم، كما اتضح من النقول السابقة، إذ تقول: عدل المبدع عن القاعدة؛ أي تركها، وعدل عنها إلى أسلوبٍ آخر؛ لأداء المعنى الأفضل في رأيه، وليس كذلك الانزياح، كما سبق.

اصطلاحاً:

وفي الاصطلاح هو خروج عن المألوف من قواعد اللغة العادية وقوانينها وخرقها، أو خرق توقع المتلقي من النص؛ أيّ أنَّه تغييرٌ ما فيما كان ينتظره المُتلقِّي من المُلقي.

ولكي نضع أيدينا على المعنى الحقيق للعدول عند علماء العرب، وتاريخ استخدامه، ما علينا إلاَّ أنْ نُلقي نظرة - ولو سريعة- على ما جاء عندهم ، فقد ورد عند كثير منهم، على حدٍ سواء من النحاة والبلغاء والأدباء والنقاد وأصحاب كتب الإنشاء، كما يتضح من هذا العرض لبعض ما جاء مرتباً تاريخياً، حتى تتضح مراحل تطور هذا المصطلح، فابن جني ذكره مراتٍ عدةٍ، منها ما ورد عند حديثه عن حركة عين الجمع بالألف والتاء، نحو: غرفة وكسرة، وتغيير حركة العين فيهما، فقال: "أفلا تراهم كيف سوَّوا بين الفتحة والسكون في العدول عن الضمة، والكسرة إليهما"(63)

وعند حديثه عن معاني بعض الصيغ الصرفية، وكيف تتغير المعاني بتغير الصيغة المستخدمة، وذلك نحو "تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله، وذلك فعال في معنى فعيل؛ نحو: طوال؛ فهو أبلغ معنى من طويل وعراض؛ فإنَّه أبلغ معنى من عريض. وكذلك: خفاف من خفيف، وقلال من قليل، وسراع من سريع. ففعال - لعمري - وإنْ كانت أخت فعيل في باب الصفة، فإنَّ فعيلاً أخص بالباب من فعال؛ ألا تراه أشدَّ انقياداً منه؛ تقول: جميل ولا تقول: جمال، وبطيء ولا تقول: بطاء، وشديد ولا تقول: شداد، ولحم غريض ولا يقال: غراض. فلما كانت فعيل هي الباب المطرد وأريدت المبالغة، عدلت إلى فعال"(64) وغيرها كثير جداً.

وقد ورد عند الأدباء أيضاً وشراح الأدب على نحو ما جاء من قول بعضهم في تأويل ما يقوله الشاعر: "وإذا كان كذلك لا يجوز العدول عما قاله الشاعر إلى ما لم يقله"(65)

وكذلك عند أرباب البلاغة والبيان فقال بعضهم: "ولا نجيز العدول عنه، لأنَّ كلامنا إنَّما هو في فصاحة اللغة العربية"(66)

وعند بعض النحاة في حديثه عن إدغام المثلين أو المتقاربين، إذ قال: "وقد عدلوا في بعض ملاقي المثلين أو المتقاربين لإعواز الإدغام إلى الحذف، فقالوا في ظللت ومسست وأحسست: ظلت ومست وأحست"(67)

ومن أهل البلاغة من قال عند حديثه عن التقديم والتأخير: "ولا يكون في مقتضى الحال ما يدعو على العدول عنه كالمبتدأ المعرَّف فإنَّ أصله التقديم على الخبر نحو: زيد عارف، وكذي الحال المعرَّف فأصله التقديم على الحال، نحو: جاء زيد راكباً"(68)

ومن أهل النقد والبلاغة أيضاً من ورد عنده كثيراً، فقال: "ومن هذا النوع ألفاظٌ يُعْدَل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها، ولا يُسْتَفْتَى في ذلك إلاَّ الذوق السليم، وهذا موضع عجيب لا يُعْلَمُ كُنْه سِرِّه"(69)

وقال: "واعلم أيُّها المتوشح لمعرفة علم البيانِ أنَّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلاَّ لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلاَّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنَّه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً، وأغمضها طريقاً"(70)

ومن أهل البلاغة من قال: "أمَّا تركه فلنحو ما سبق في باب المسند إليه من تخييل العدول إلى أقوى الدليلين، ومن اختبار تنبُّه السامع عند قيام القرينة أو مقدار تنبُّهه"(71)

ومن أصحاب الموسوعات من قال: "الكنايات لها مواضع، فأحسنها العدول عن الكلام القبيح إلى ما يدل على معناه في لفظ أبهى منه . ومن ذلك أنْ يعظِّم الرجل فلا يدعى باسمه ويكنى بكنيته ، أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه"(72)

ومن النحاة المتأخرين قال في اختلاف الحركات: "خلافاً لمن زعم أنَّ الفتح في نحو: غرفات إنَّما هو على أنَّه جمع غرف، ورُدَّ بأنَّ العدول إلى الفتح تخفيفاً أسهل من ادِّعاء جمع الجمع، ورده السيرافي بقولهم: "ثلاث غُرَفات" – بالفتح"(73)

ومن أصحاب كتب الإنشاء والمطولات من ذكره في نصائحه لكتَّاب الوزراء وذوي السلطان فقال: "إلاَّ أنْ يكون الخبر مما يوجب الأدب العدول عن لفظه الخاص به، والإخبار عنه بألفاظٍ تؤدي معناه، ولا يهجم على المخبر بما يسوء سماعه"(74)

ومن النحاة من ذكره عند حديثه عن العلامة الأصلية للبناء، فقال: "الأصل في البناء سواء كان في حرف أو في غيره أنْ يكون بالسكون؛ لأنَّه أخف، فلا يعدل عنه إلاَّ بسبب يقتضي العدول"(75)

ومن الأدباء والبلغاء من قال في حديثه عن العدول عن مقتضى الحال أو الظاهر، فقال :"إنَّ العدول عن مقتضى الظاهر من غير نكتة تقتضيه خروج عن تطبيق الكلام لمقتضى الحال"(76)

ومن أصحاب المطولات من ذكره فقال: "إذا أراد العدول عن لفظ فرس قال: جواد أو ساع أو صافن، أو العدول عن رمح قال: قناة أو صعدة أو يزني أو غير ذلك، أو العدول عن لفظ صارم قال: حسام أو لهذم أو غير ذلك"(77)

ومن أصحاب تعريف المصطلحات مَن قال في تعريفه: "العدول عن التصريح باب من البلاغة وإنْ أورث تطويلاً"(78)

ومن النحاة من ذكره في حديثه عن جواز عدم التثنية في المثنى، فقال: "وإنْ امتنع العدول عن التثنية إليه إلَّا لنكتة كقصد التكثير في: أعطيتك مائة ومائة، وكفصل ظاهر في نحو: رجل قصير، ورجل طويل"(79)

ومنهم من ذكره عند حديثه عن ترخيم المنادى المؤنث بالتاء المربوطة على لغة من لا ينتظر قال: "وقد يؤدِّي بعض الصور السالفة إلى اللبس، فيجب العدول عنه إلى ما لا لبس فيه"(80)

ولا يفوتنا ما يطلق عليه النحاة سبباً لمنع الاسم أو الصفة من الصرف وهو العدل فقد جاء اسم المفعول منه عند سيبويه نقلاً عن الخليل عند حديثه عن منع زحل من الصرف فقال: "وزحل معدول في حالة، إذا أردت اسم الكوكب فلا ينصرف" ثم قال: "وسألته عن جمع وكتع، فقال: هما معرفة بمنزلة كلهم، وهما معدولتان عن جمع جمعاء وجمع كتعاء، وهما منصرفان في النكرة"(81)، معلوم أنَّه يقصد الخليل في قوله: وسألته.

من هذا العرض السريع تجد أنَّ علماء العربية قد أدركوا ما للعدول من قيمة أدبية ولغوية وأدركوا أيضاً احتياج المُلقي للعدول أحياناً. وأنَّ مصطلح العدول قد ورد على لسان كثير من العلماء الذين احتاجوا له في معرض حديثهم عن العدول عن القوانين والقواعد المقررة للغة العربية، ويلاحظ أنَّ ابن جني قد أكثر من ذكره وهو أول من استخدمه فيما ورد من أقوال سابقة، ثم جاء مَن بعده واستخدموه الاستخدام نفسه. وتجد أنَّ المصطلح لم يختفِ من كتابات الأدباء أو النحاة أو غيرهم من أرباب القلم العربي، كما تجد أنَّ القرن السابع كان المصطلح فيه أكثر وروداً في المؤلفات من غيره من القرون التي عاشتها الثقافة العربية. كما تجد أنَّه قد استخدم من القرن الرابع الهجري إلى القرن الرابع عشر؛ أي أنَّ هناك من يستخدمه وإنْ كان بقلة نسبة لمن يؤلفون في هذا العصر.

وانظر إلى تقدير العلماء القدماء لهذه الظاهرة واعتدادهم بها؛ إذ يقول رائدهم في وصف مرتكب هذا العدول: "متى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخراق الأصول بها، فاعلم أنَّ ذلك على ما

جَشِمه منه، وإنْ دلَّ من وجه على جَوره وتعسفه، فإنَّه من وجه آخر مؤذِن بصياله وتخمطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته. بل مثله في ذلك عندي مثل مجرى الجموح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام"(82)

ويعزز هذا الرأي ما جاء في كتاب الانصاف في مسائل الخلاف عند تعليقه على قول سيبويه: "واعلم أنَّ ناساً من العرب يغلطون فيقولون: إنَّهم أجمعون ذاهبون، وإنَّك وزيدٌ ذاهبان؛ وذاك أنَّ معناه معنى الابتداء، فيُرى أنَّه قال: هم"(83)، فقد ذهب سيبويه إلى أنَّه غلط من بعض العرب، كما ترى، بينما ذهب الأنباري إلى أنَّ هذا وقع "لأنَّ العربي يتكلم بالكلمة اذا استهواه ضرب من الغلط فيعدل عن قياس كلامه، كما قالوا: ما أغفله عنك شيئاً!"(84)، فتعليق الأنباري يؤدي إلى التوسع في العدول، وأنَّ العرب كانوا يعدلون عن القوانين والقواعد في كلامهم، وقد تنبه قديماً العلماء لهذه الظاهرة ونظَّروا لها، كما تبين فيما سبق.

بل إنَّ بعض المواضع من العدول قد أصبحت أصلاً لا يُسمح بالرجوع عنه، فمثلاً الفعل قال، أصله: قول، كما هو معلوم، قد فتحت الواو وما قبلها مفتوح فقلبت ألفاً، فهي معدولة عن الأصل لكن لا يقول أحد: قول فلانٌ كذا، على الأصل، فهنا يعدُّ خطأ إذا عدنا إلى الواو، ولزمنا أنْ نلتزم بالعدول لأنَّه أصبح أصلاً، فلا تبقى الواو في ماضيه أو اسم الفاعل منه، بينما غيره نحو صيد وعور فتبقى لأنه لم يعدل عنها إلى الألف فتبقى كما تبقى في الماضي(85)

ورغم أنَّ نقادنا قد توصلوا إلى أنَّ "المبدع يتصرف بوجوه النحو طبقاً لمبدأ الاختيار والانتقاء الذي يمليه عليه المعنى أو الغرض المقصود، وهذا الذي نص عليه عبد القاهر الجرجاني –هنا- لا يختلف كثيراً عما نبَّه عليه النقاد الغربيون من حيث إنَّ طاقة الإبداع أو الإنشاء إنَّما تكمن في قدرة المتحدث على اختراق الأنماط المعجمية والنحوية للغة"(86)

إلاَّ أننَّي لم أعثر على مَنْ استخدم مصطلح العدول من أول بحثه إلى آخره سوى القلائل منهم الدكتور فريد حيدر، حيث تحدَّث عن العدول الصوتي والعدول الصرفي والعدول الدلالي النحوي(التضمين) والعدول الدلالي(87)، ومنهم الدكتور المتولي الأشرم حيث تحدث عن العدول عن الأصل في أبنية الكلم من إبدال وغيره مما يحدث في المصادر وما يشتق منها والنسب والتصغير وغيره(88)، وكذلك الدكتور أحمد الليثي حيث تحدث عن بعض مظاهر العدول في القرآن الكريم نحو ما يحدث من عدول من لفظ إلى لفظ ومن حرف إلى حرف وغيرها(89)

من أمثلة الانزياح:

يمكن القول إنَّ ما جاء فيما سبق قد يُغني عن كثير من الأمثلة، لكنَّ الأمر قد يحتاج إلى بعضها، فقد علم مما سبق أنَّ علماء العربية عدُّوا ما يحدث من نقل من وزن إلى وزن عدولاً، فإذا قلت: هذا شيءٌ مهم، فقد عدلت عن الأصل، وهو أنْ تقول: هذا شيء هام، فقد عدلت من اسم الفاعل للثلاثي إلى الرباعي، وهكذا.

وقد يكون العدول في المعنى، كما جاء العدول في "قول القبعثري للحجاج لمَّا توعَّده بقوله: لأحملنَّك على الأدهم مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب؛ أي مَن كان على هذه الصفة من السلطان وبسطة اليد، ولم يقصد أنْ يجعل أحداً مثله، وكذلك حكم غيره إذا سلك به هذا المسلك فقيل: غيري يفعل ذاك على معنى أني لا أفعله فقط من غير إرادة التعريض بإنسان"(90)

أو كما جاء في تعريف الكناية فقد ذكروا أنَّها "ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم، كما تقول: فلان طويل النجاد؛ لينتقل منه إلى طول القامة، وفلانة نؤوم الضحى؛ لينتقل منه إلى كونها مخدومة غير محتاجة إلى إصلاح المهمات بنفسها"(91)

ما سبب ترك مصطلح العدول؟

ما الذي دفع المحدثين للأخذ بمصطلح الانزياح وترك العدول المستخدم عند العرب قديماً وحديثاً ؟ ربَّما كان لكلمة ما آثارٌ في النفس ووقع في العقل، فذهب الباحثون لاستخدامها، فإذا كانت الكلمة "مجموعة من المقاطع المكونة من حروف وحركات والمؤلفة بنظام مناسب يسمح بتكرارها صوتياً"(92)، يمكن للمستخدم أنْ يترك غيرها ويتعلق بها.

فشكْلُ الكلمة يساهم - سواء "قصيراً كان أم طويلاً- في إعطائها كذلك قيمة أسلوبية، وذلك حسن تناغمها مع معانيها"(93)

على ما سبق إذا كانت الكلمة سهلة في مخرج حروفها يعطيها ذلك رونقاً من الفصاحة وخلواً من البشاعة، وتعقيد التركيب وحسن البيان مما يجعل السامع يتلقاها بشغف وتقبُّل، وكلمة العدول لا تخلو من ذلك، إلا أنَّنا وجدنا الكثير من العلماء يتجنب هذه اللفظة ويجنح إلى كلمة الانزياح، فهل كلمة الانزياح استهوتهم فاستعملوها رغم ما فيها من بُعدٍ دلالي عن المقصود، كما اتضح سابقاً، كما أنَّ القدماء لم يستخدموها وأحسنوا في اختيارهم لمصطلح العدول لما لها من دلالة ولما لها من صفات الفصاحة.

فكلمة عدول تتكوَّن من أربعة أحرف، وهي مصدر للفعل عدل الثلاثي، وتتكوَّن من العين والدال والواو واللام، وهي- بلا شك- أحرف مجهورةٌ كلها(94)؛ أي أنَّ خروج هذه الأحرف يحدث "ذبذبة الوترين الصوتيين في

الحنجرة"(95)، وهي أيضاً سهلة المخرج فالعين والدال من متقاربي المخرج(96)، وبينهما الواو تسهل خروجهما بما تعطيه من الطول(97) وهي مجهورة مع باقي أحرف العلة أيضاً(98)، وفي آخره حرف شديد هو الدال(99)، وباقي أحرفه بين الشدة والرخاوة(100)، وهذا مما يسهل النطق بها ويعطيها تناغماً وسهولة وليونة وسرعة في الاستخدام، مما يجعلها أفضل من غيرها.

أما كلمة انزياح فتتكون من ستة أحرف من الفعل الخماسي انزاح مطاوع الفعل زاح كما مرَّ، وهذه الأحرف مجهورة عدا الحاء مهموسة(101)، وأغلب أحرفها متوسط بين الشدة والرخاوة(102)، كما أنَّها قريبة المخارج من النون إلى الزاي المتقاربين في طرف اللسان(103)، إلى الياء والألف الهوائية، ثم مرَّة أخرى يعود اللسان إلى الحاء الحلقية(104)، مما يجعل حركة اللسان أكثر في الفم، وتحتاج إلى جهد واضح في إخراجها. هذا وما تقدم من فرق في المعنى يدلك على أنَّ اختيار القدماء لمصطلح العدول، كان موفقاً أكثر من اختيار المحدثين لمصطلح الانزياح.

أهم النتائج

تنبَّه علماؤنا القدماء لهذه الظاهرة قبل الغرب بكثير، وهو عندهم إجباري كما في قال، ونحوه، واختياري فيما غير ذلك.

مصطلح العدول كان مُستخدَماً عند القدماء بالمعنى نفسه الذي استخدم فيه مصطلح الانزياح حديثاً.

مصطلح الانزياح مترجم عن بعض اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية.

مصطلح العدول بدأ استخدامه فيما تبيَّن من البحث في القرن الرابع الهجري حتى العصر الحديث، وقد استخدم الخليل وسيبويه اسم المفعول منه للمعنى نفسه.

معنى العدول أدق بكثير من معنى الانزياح للمعنى المقصود عند اللسانيين العرب.

مصطلح العدول كان أكثر وروداً في القرن السابع في المؤلفات من غيره من القرون التي عاشتها الثقافة العربية.

يطلق بعض المحدثين على هذه الظاهر مصطلح الانحراف أو الترخص أو الازدواج أو غير ذلك.

هذه الظاهرة برمتها تحفها المخاطر والمشاكل والعوائق كما تبين في البحث.

العدول أسهل في اللفظ والاستخدام من الانزياح.

يُفضَّلُ للباحثين أنْ يعودوا لمصطلح العدول حفاظاً على دقة المعنى، وعلى أصالة المصطلح وسهولته في البحث، واحتراماً لجهود علمائنا القدماء.

فهرس الهوامش:

1)ابن عقيل، عبد الرحمن،المساعد على تسهيل الفوائد، تحقيق د.محمد كامل بركات، دار المدني، جدة،1984م 605/2

2) الفراهيدي، الخليل بن أحمد, العين، تحقيق د. مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار الهلال, بيروت, د ت 276/3(زيح)، والبيت في ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، دار صادر، بيروت، ب ت. ص 307

3)الزمخشري، محمود، أساس البلاغة،تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت،1998م 1/ 428

4) الجوهري، إسماعيل، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر،بيروت،1998م ، 332/1

5) ابن منظور المصري، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ب ت 470/2والحديث في صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الفجر للتراث،القاهرة،2005م 204/3، رقم 4418

6)علم الأسلوب والنظرية البنائية د. صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة 2007م،548/2

7)جيرو، بير، الأسلوبية، ترجمة د. منذر عياشي، مركز الإنماء، حلب،1994م ص 134

8)المرجع السابق ص75

9)عياشي، د. منذر، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،1990م ص 81

10)جيرو، بير، الأسلوبية ص129

11) المرجع السابق ص 84

12)عيد، د. رجاء، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الاسكندرية،1993م ص 44

13) جيرو، بير، الأسلوبية 44

14) المرجع السابق ص: 47،111

15) بليث، هنريش، البلاغة والأسلوبية، ترجمة وتعليق د. محمد العمري،أفريقياالشرق،المغرب،1999م ص57

16)البحث الأسلوبي معاصرة وتراث ص14،83

17) المرجع السابق ص 151

18) مقالات في الأسلوبية، ص 35 وما بعدها

19)البحث الأسلوبي معاصرة وتراث ص 229

20)المسدي، د. عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، د. ت ص65،67،68،69

21) المرجع السابق 98

22) المرجع السابق 101،102،103

23) فضل، د. صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1996م ص231

24) في الأسلوب الأدبي، د. علي أبو ملحم، المكتبة العصرية، بيروت، ب ت ص5

25) بلاغة الخطاب وعلم النص 248،249

26) محصول، سامية، الانزياح في الدراسات الأسلوبية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للدراسات والبحوث، الجزائر، العدد الخامس، فيفري 2010م elcheyekhe.blogspot.com

27) المرجع السابق

28) جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص 194،بتصرف.

29)المرجع السابق ص194
30) الانزياح في الدراسات الأسلوبية، سامية محصول elcheyekhe.blogspot.com
31) ابن هشام، عبد الله، مغني اللبيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،1991م 791/2
32) مقالات في الأسلوبية ص80،81
33) البلاغة والأسلوبية ص66
34) مصلوح، د. سعد، في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة،1993م ص28-34
35) الأسلوبية والأسلوب ص 105
36) البلاغة والأسلوبية، د. يوسف ص 164
37) عبابنة، د. سامي محمد ، التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة للتراث النقدي، عالم الكتب الحديثة،أربد،2007م ص89
38) أبو العدوس، د. يوسف، البلاغة والأسلوبية ،الأهلية للنشر، الأردن،1999م ص 76
39) البلاغة والأسلوبية، د. يوسف ص79
40) جيرو، بير، الأسلوبية ص 38
41) عيد، رجاء، ، لغة الشعر، منشأة المعارف الإسكندرية،1985م ص .114
42) بلاغة الخطاب وعلم النص 254
43) الأسعد، محمد، مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م ص 40
44) بلاغة الخطاب وعلم النص 257
45) الأسلوبية والأسلوب ص106
46)فضل، د. صلاح ،علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1998م ص 33
47) البحث الأسلوبي معاصرة وتراث ص188
48) البلاغة والأسلوبية ص58
49) الأسلوبية والأسلوب ص 104
50) بلاغة الخطاب وعلم النص 259،260
51) فضل، د. صلاح، علم الأسلوب والنظرية البنائية، دار الكتاب المصري، القاهرة 2007م 200/1،201
52) علم الأسلوب والنظرية البنائية ص 195
53) حسان، د. تمام، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب،القاهرة،2006م ص 144
54) السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وغيره، دار الحرم للتراث، القاهرة، د ت 339/1
55) ابن منظور المصري، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ب ت (غدا) 116/15
56)القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة، د ت رقم 1578، 502/1،503
57)مصاروة، د. جزاء، ظاهرة الازدواج في العربية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، الأردن، مجلد 1 عدد 1 2005م ص 17
58)العين للخليل 39/2،40)، والصحاح 1314/2)
59)أساس البلاغة 638/1،والذهبي، شمس الدين محمد ،سير أعلام النبلاء، الشيخ شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت،1993م 372/2، وزاد في العين، وسير أعلام النبلاء: "في الثقاف".
60) الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، غريب الحديث، تخريج وتعليق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت،1985م 473/1
61)لسان العرب (عدل)122/9
62)الصحاح (زور) 551/1

63)ابن جني، عثمان، الخصائص، تحقيق محمد النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،1999م 60/1
64) المرجع السابق270/2
65)شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، أحمد بن محمد، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت،1991م 256/1
66) سر الفصاحة لابن سنان ، دار الكتب العلمية،بيروت،1982م 110/1
67)الزمخشري، محمود جار الله، المفصل في صنعة الإعراب، قدم له د. محمد السعيدي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1990م ص 476
68) السكاكي، يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت،1987م 236/1
69) أثير الدين، نصرالله بن محمد، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، بيروت،1990م 277/1
70) المثل السائر، لأثير الدين 12/2
71)الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، 1993م 103/2
72) النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2004 م ط 1 194/3
73) المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي،2008م 1373/3
74)القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، د ت 220/9
75) الجَوجَري، محمد شمس الدين، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق د.نواف بن جزاء الحارثي، البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، 2004م268/1
76) العباسي، عبد الرحيم، معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، علم الكتب،بيروت،1947م 1/ 180
77) المقري، أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1997م 565/3
78) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق عدنان درويش و محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م 1 /1066
79) الخضري حاشيته على ابن عقيل، تحقيق تركي المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت،1998م 79/1
80) حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، 1996م 100/4
81) سيبويه،عمرو،الكتاب،تحقيق عبد السلام هارون،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،1968م 224/3
82)الخصائص 394/2
83) الكتاب سيبويه 155/2
84)الأنباري،أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار إحياء التراث، القاهرة، د ت 190/1
85) المفصل للزمخشري ص 447
86) الأسلوبية ونظرية النص، د.إبراهيم خليل،المؤسسة العربيةللدراسات والنشر، بيروت،1997م ص 42
87) شعر أبي القاسم الشابي دراسة أسلوبية، فريد د.حيدر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،2002م ص9-38
88) الخطيب القزويني، إيضاح في علوم البلاغة، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1998م 66/1
89) الأشرم، د. المتولي، العدول عن الأصل في أبنية الكلم، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة،2003م ص 11 وما بعدها

90) الليثي، د. أحمد، الاتجاه العدولي في القرآن،2003م، مؤتمر العربية وقرن من الدرس النحوي، دار العلوم جامعة القاهرة، ص 353-.399
91) المصباح في المعاني والبيان والبديع، ابن الناظم، بدر الدين،تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت،2001م ص 185
92) بلاغة الخطاب وعلم النص 251
93) جيرو، بير، الأسلوبية ص 64
94) أنيس، د.إبراهيم، الأصوات اللغوية، دار الطباعة الحديثة، مصر،1979م ص 21
95)الأصوات اللغوية ص20، وانظر ابن جني،عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق د.حسن هنداوي،دار القلم، دمشق،7985م (321)،(229)، (189)، (573)
96) الأصوات اللغوية د. أنيس 46
97) المرجع السابق 154
98)عبد التواب، د. رمضان، المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي،القاهرة،1982م ص 91
99) الأصوات اللغوية د. أنيس 48
100) المرجع السابق 64،88
101) المرجع السابق 88
102) المرجع السابق 66،76،88
103) المرجع السابق 76،66
104) المرجع السابق 87

مصادر البحث ومراجعه:

1. ابن الناظم، بدر الدين،المصباح في المعاني والبيان والبديع، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م
2. ابن جني،عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق د.حسن هنداوي،دار القلم، دمشق،1985م
3. ابن جني،عثمان،الخصائص، تحقيق محمد النجار،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،1999م
4. ابن عقيل،عبدالرحمن،المساعدعلى تسهيل الفوائد، تحقيق د.محمد كامل بركات، دار المدني، جدة،1984م
5. ابن منظور المصري، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ب ت
6. ابن هشام، عبد الله، مغني اللبيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،1991م
7. أبو العدوس، د. يوسف، البلاغة والأسلوبية ،الأهلية للنشر، الأردن،1999م
8. أبو ملحم، د. علي ،في الأسلوب الأدبي، المكتبة العصرية،بيروت،ب ت
9. أثير الدين، نصرالله بن محمد، المثل السائر،تحقيق محمد محيي الدين،المكتبة العصرية، بيروت،1990م
10. الأسعد، محمد، مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م
11. الأشرم، د. المتولي، العدول عن الأصل في أبنية الكلم، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة،2003م
12. الأعشى، ميمون بن قيس،دار صادر،بيروت،ب ت.
13. الأنباري،أبو البركات، الانصاف في مسائل الخلاف،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار إحياء التراث، القاهرة، د ت
14. أنيس، د.إبراهيم، الأصوات اللغوية، دار الطباعة الحديثة، مصر،1979م

15. البخاري،محمد بن إسماعيل، الصحيح، دار الفجر للتراث،القاهرة،2005م
16. بليث، هنريش، البلاغة والأسلوبية ترجمة وتعليق د. محمد العمري،أفريقيا الشرق،المغرب،1999م
17. الجَوجَري، محمد شمس الدين، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق د.نواف بن جزاء الحارثي، البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، 2004م
18. الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، غريب الحديث ، تخريج وتعليق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م
19. الجوهري،اسماعيل،تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر،بيروت،1998م
20. جيرو، بير، الأسلوبية، ترجمة د. منذر عياشي، مركز الإنماء، حلب،1994م
21. حسان، د. تمام،مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب،القاهرة،2006م
22. حسن، عباس،النحو الوافي،دارالمعارف، القاهرة، 1996م
23. حيدر، د. فريد ، شعر أبي القاسم الشابي دراسة أسلوبية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،2002م
24. الخضري حاشيته على ابن عقيل،تحقيق تركي المصطفى،دار الكتب العلمية، بيروت،1998م
25. الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، 1993م
26. الخطيب،القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة،تحقيق الشيخ بهيج غزاوي،دارإحياء العلوم، بيروت، 1998م
27. الخفاجي، عبد الله ابن سنان، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية،بيروت،1982م
28. خليل ، د.إبراهيم، الأسلوبية ونظرية النص ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1997م
29. الذهبي، شمس الدين محمد ، سير أعلام النبلاء، الشيخ شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة،بيروت،1993م
30. الزمخشري، محمود جار الله، المفصل في صنعة الإعراب، قدم له د. محمد السعيدي، دار إحياء العلوم،بيروت، 1990م
31. الزمخشري،محمود،أساس البلاغة، تحقيق باسل عيون السود،دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م
32. السكاكي،يوسف، مفتاح العلوم،تحقيق نعيم زرزور،دار الكتب العلمية، بيروت،1987م
33. سيبويه،عمرو،الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،1968م
34. السيوطي، جلال الدين،المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وغيره،دار الحرم للتراث،القاهرة، د ت
35. عبابنة، د. سامي محمد ، التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة للتراث النقدي، عالم الكتب الحديثة،أربد،2007م
36. العباسي،عبدالرحيم، معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، علم الكتب،بيروت،1947م
37. عبد التواب،د.رمضان،المدخل إلى علم اللغة،مكتبة الخانجي،القاهرة،1982م

38. عياشي،د. منذر،مقالات في الأسلوبية،اتحاد الكتاب العرب،دمشق،1990م
39. عيد، رجاء، ، لغة الشعر، منشأة المعارف الإسكندرية،1985م
40. عيد،د. رجاء، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث،منشأة المعارف، الاسكندرية،1993م
41. الفراهيدي،الخليل بن أحمد,العين، تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي،دار الهلال,بيروت,د ت
42. فضل، د. صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1996م
43. فضل، د. صلاح، علم الأسلوب والنظرية البنائية، دار الكتاب المصري، القاهرة 2007م
44. فضل،د. صلاح ،علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1998م
45. القزويني،محمد بن يزيد،سنن ابن ماجة،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،د ت
46. القلقشندي، أحمد بن علي،صبح الأعشى،وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريةالعامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، د ت
47. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق عدنان درويش و محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م
48. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986م
49. الليثي، د. أحمد، الاتجاه العدولي في القرآن،2003م، مؤتمر العربية وقرن من الدرس النحوي، دار العلوم جامعة القاهرة.
50. محصول ، سامية ، الانزياح في الدراسات الأسلوبية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للدراسات والبحوث، الجزائر، العدد الخامس، فيفري 2010م elcheyekhe.blogspot.com
51. المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن،توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك،تحقيق د.عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي،2008م
52. المرزوقي،أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة ،تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت،1991م
53. المسدي، د. عبد السلام،الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، د. ت
54. مصاروة، د. جزاء،ظاهرة الازدواج في العربية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها،الأردن،مجلد 1 عدد 1 2005م
55. مصلوح، د. سعد، في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة،1993م
56. المقري، أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1997م
57. النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004 م ط 1

تفاعل الكتابي والأيقوني في الرواية

محمد العنوز

مقدمة

يندرج هذا العمل ضمن إطار للتحليل يهم دراسة النص الروائي، متخذا له نموذجا مخصوصا هو الرواية المغربية، من خلال رواية **"سيرك عمار"**[48]، للمؤلف «**سعيد علوش**»، الذي تعد نصوصه مختلفة باختلاف طرقها في التدليل، وأنماطها في الاشتغال، من حيث إواليات البناء، وكيفيات تنظيم المعطيات النصية، والاستفادة من التقنيات البصرية في التعامل مع شعرية الكتابة.

انطلاقا من أهمية النص المدروس، يمكن بلورة الإشكالية العامة كالآتي:**هل يتكامل الكتابي والأيقوني[49] في رواية "سيرك عمار" أم ينفصلان ؟**

تعتبر مفاهيم السيميائيات البصرية (Sémiotique Visuelle) مثل: اللوحة والإطار والتصوير والنظرة المرسومة والكاريكاتير والتيبوغرافيا... إلخ أهم ركائز المنهج "السيميائي البصري"، مما دفع بنا إلى البحث في سيرورات التدليل، مادام اعتماد هذه المفاهيم يمكن من تحديد سيميوز "النص الأيقوني" (Iconotexte)، وطبيعة اشتغاله في هذا النوع من النصوص التي تمزج بين المرئي والمكتوب.

يطرح النص الأيقوني إشكالية حقيقية تتمثل في طبيعة العلاقة التي تربط المرئي بالمكتوب، هل هي علاقة تكاملية/تفاعلية؟ أم علاقة غير تكاملية/انفصالية؟ سنحاول في هذا المقال الإجابة عن هذا الإشكال من خلال البحث عن عناصر التدليل داخل النص الأيقوني.

---

* ذ. باحث في السيميائيات والأدب الرقمي بالكلية المتعددة التخصصات،ص.ب.512 بوتلامين الرشيدية–المغرب.

(1) سعيد، علوش. سيرك عمار، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2008.

(49) يقصد بالأيقون(icône) حسب شارل ساندرس بيرس بكونه علامة محددة من خلال علاقات التشابه بينه وبين ما يحيل إليه في العالم الخارجي، وهو مخالف في الوقت نفسه للمؤشر الذي يميز بواسطة علاقات التجاور الطبيعية ، وللرمز المؤسس على التعاقد الاجتماعي انظر:

- GREMAS (AJ), COURTES (J). Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, T1, Ed. Hachette, Paris, 1979, P.177.

- تحديد مفهوم النص الأيقوني.

يتفق معظم المشتغلين بمفهوم النص الأيقوني (نذكر منهم ألان مونتادان (**Alain Montandon**) وليليان لوفيل (**Liliane Louvel**) ... ، أن استخدامه يرجع إلى ميشيل نرليش (**Michael Nerlish**) ، الذي وضعه في برلين سنة 1985، وتم بعد ذلك بمدة قصيرة التواضع عليه في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ثم تطور ليصبح مكونا رئيسا يدخل ضمن اللغة النقدية للروايتين الفرنسية والإسبانية ...إلخ). [50].

أدى تطور هذا المفهوم إلى إدماجه ضمن المصطلحات السيميائية، ليهم بالأساس التعالق اللفظي-البصري (**Verbale-Visuel**)، داخل النص المكتوب، ويعد نتاج تعاون بين التشكيليين والفوتوغرافيين والكتاب، وغالبا ما نلفي أن من أبرز الذين يكتبون بطريقة يتناغم فيها البصري باللفظي نجدهم فنانين تشكيليين يمزجون بين الكتابة الخطية والرسم الآني.

سبقت هذا المفهوم ممهدات كانت سندا رئيسا لولادته نذكر منها:

- العمل الفني (**L'œuvre d'art**)، ويرتبط بالتشكيل عموما، وكان يعد بؤرة اندماج البصري باللفظي.

- الرواية - الصورة (**Le roman-photo**) وتهم بالأساس تلك الروايات التي سادت في القرن التاسع عشر الميلادي بالخصوص، حيث كانت تدمج في الغالب صورا تعد نواة معنوية تدور حولها أحداث الرواية.

-"الكاليغرام"(**Calligramme**) يرتبط بالشعر خاصة مع "غيوم أبولينير" (**Guillaume Apollinaire**) ، ويخص المقاطع الشعرية المكتوبة على شكل صورة (أنظر قصائد "المطر"و"القلب" و"الطائر" **لأبولينير**)، لقد كانت هذه الأشكال السيميائية، اللبنات الأولى لظهور النص الأيقوني.

وتشير ليليان لوفيل إلى "**أن النقد بصفة عامة والنقد الأنجلوساكسوني بصفة خاصة، قد استعمل مجموعة من الاستعارات التي استقاها من الفنون البصرية، شكلت النص الأيقوني منها: البصري (Pittoresque) واستعارات فضائية مثل: "بنية " (Structure)، "إطار"(Cadre)، "دائرية"(Circulaire)،"انفتاح" (Ouverture)**

---

[3] **MONTANDON Alain. Préface, In Signe/Texte/Image, Césura Lyon, Ed, Meyzieu, 1990, P.7.**

"لون" (Couleur)، "نسيج" (Texture)، "صورة" (Image)، تدخل ضمن التقابل بين الصورة والنص "[51].

إن ما يبرز حضور البصري في النقد هو الإحالة إلى الفنون البصرية داخل النص، ولعل هذا ما جعل رينهارد كريجر يرى أن **" تاريخ موضوع النص الأيقوني ليس بعيدا عن تاريخ الأدب، إنه مرتبط بتاريخ الفنون البصرية"[52].**

يمكن من خلال النص الأيقوني أن نتحدث عن شعرية للكتابة داخل أداتيتها البصرية، إننا بصدد التواجد المزدوج لنمطين من التعبير يحرص كل واحد منهما على خصوصيته المتفردة.**"إننا نرى كما أننا نقرأ، وهذا يكون بطريقة ضمنية، فالنص يفترض تمازجا بين الصورة والنص بمعنى أنه يضع بعين الاعتبار الصورة في نمط سردي مخصوص"[53].**

تفرض خصوصية النص الأيقوني الحفاظ على المسافة بين اللفظي والصورة، مادام يشكلان كيانين لا يمكن أن يعبرا عن نفس الشيء. ويرجع الاهتمام بدمج هذين النسقين السيميائيين، من منظور نص أيقوني إلى فضاء الكتابة ومرئية العلامات المكونة للنص.

ينهل النص الأيقوني في نهاية التحليل من العناصر المكونة للنسقين معا، أي اللفظي والبصري، يكونان سيميوزا (Sémiosis) تدليليا باعتبارهما تابعان لنفس النموذج، " **فالنص المقروء في كلا الحالين يشكل صورة أو أيقونة دلالية"[54].**

نجد من حيث التدليل أن النص الأيقوني يرتبط باشتغال نسقين سيميائيين مختلفين، إذ تشتغل المعطيات البصرية في النص اللفظي بكيفية تحترم من خلالها خصوصيتها، وترتبط هذه الآليات البصرية أيضا بالطبيعة البصرية للنص، مما يجعل التساؤل حول طبيعة تشييد الدلالة أمرا واردا، هذا ما نصطلح عليه بالتدليل (Signification) ، أي كيف يقول النص ما يقوله استنادا إلى تكامل النص الأيقوني.

---

(4) LOUVEL Liliane. Nuances du Pictural, In Poétique, N° 117, 2001, P. 180.

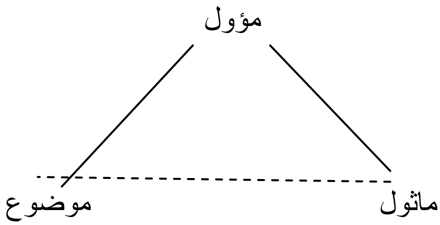
(5) KRUGER Reinhard. L'écriture et la conquête de l'espace plastique, comment le texte est devenu image, In Signe/Texte/Image, op.cit,1990 , P.14.

(6) DIETERLE Bernard. Problèmes de l'iconotexte narratif, In Signe/ Texte/Image, op.cit, 1990, P.101.

(54) **عبد المسيح ماري تريز. التمثيل الثقافي بين المرئي والمكتوب، المجلس الأعلى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002، ص 15.**

1- ما سيرورات التدليل؟

إن التساؤل حول المعنى، عن طبيعته، وعن شروط إنتاجه، في علاقته بالنص، هو تساؤل عن طبيعة التدليل نفسه، أي الكيفية التي يأتي بها المعنى، مادام النص يشتغل بوصفه سيميوزا، ويقصد به السيرورة التي يشتغل من خلالها شيء ما بوصفه علامة، يستدعي ذلك ثلاثة عناصر ينظر إليها بوصفها تخوما: ماثول (Représentant) يحيل على موضوع (Objet) عبر مؤول(Interprétant) وفق الخطاطة الآتية:



فالماثول كما يعرفه بورس (Peirce) "**شيء يعوض شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة، إنه يخلق عند شخص ما علامة موازية أو علامة أكثر تطورا، إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء هو موضوعها**"(55).

أما الموضوع فهو ("ما يقوم الماثول بتمثيله سواء كان هذا الموضوع واقعيا أو متخيلا أو قابلا للتخيل أو غير قابل للتخيل.

أما المؤول فيشكل عنصر التوسط الإلزامي، ويجعل من إحالة الماثول على الموضوع أمرا ممكنا")(56).

إن سيرورة (Processus) التدليل إذن، تعتمد على مجموعة من الأدوات التي تسهم في إنتاج المعنى، والقذف به نحو ساحة التداول، أي الخروج من الوجود بالقوة في العالم الممكن، إلى الوجود بالفعل عبر المعطيات النصية، من حدود الإمكان إلى التحقق عبر تجليه في آليات اشتغال له مخصوصة. انطلاقا من ذلك، وبالنظر إلى التعالق اللفظي – البصري، لا يمكن مفصلة هذين النسقين السيميائيين في تحديد أنماط الدلالة، إلا عن طريق

---

(55) PEIRCE (Charles, S). Ecrits sur le signe rassembles, traduits et commentés par Gérard Deledalle, Ed, Seuil, Paris, 1978, P.121.
(56) Ibid, P. 122.

التدليل أي الكيفية التي يشتغل من خلالها النص الأيقوني بوصفه سيرورة للدلالة.

يرتكز النص الأيقوني في التدليل على مجموعة من الآليات البصرية نذكر منها:

- **معمار النص** (Archi texte): الذي ينتظم نصا أيقونيا باعتباره لوحة، تشتغل عبر مجموعة من العلامات البصرية.

- **عين النص**(L'oeil de texte): تشتغل الصورة اعتمادا على العنصر السابق، بوصفها الكوة التي نطل من خلالها على المعطيات النصية، بوصفها نماذج بصرية، تهم تركيب الفضاء البصري والتيبوغرافيا المميزة للنص.

2- إواليات التدليل.

1.2- معمار النص.

1.1.2- المعمار بين الحد والوظيفة.

يخضع معمار النص من حيث تحديده، وطريقته في التدليل و الاشتغال إلى الجهاز النظري الذي يروم دراسة النص، أي مختلف المفاهيم الإجرائية التي تحدد المنهج الذي تتبناه النظرية بوصفها جهازا واصفا، له كفايته المخصوصة وطريقته في الاستدلال عموما.

يختلف معمار النص من هذا المنظور باختلاف الإطار النظري الذي يستند إليه في التحليل، وبالتالي فهو من جهة النص الأيقوني تركيبا للنص ينظر إليه بوصفه لوحة، تنتظم فيه المعطيات البصرية بشكل يجعل من اندماج النسق اللفظي والنسق البصري أمرا ممكنا. " **يشكل النص أيضا فضاء تلتقي فيه الكلمة المكتوبة والصورة المرئية**" (57)

يتم التمييز نصا أيقونيا بين عنصرين يشكلان معمار النص:

أ -**الغلاف**: حيث ينظر إليه بوصفه لوحة (Tableau) تشتغل باعتبارها صفحة تتميز عن الصفحات المشكلة للنص المتن بطابعها الدلالي الأيقوني، وبتنظيم العلامات البصرية بكيفية تجعلها تجذر (Ancrage) المتن النصي بأكمله، وتبرز كيف يأتي المعنى إليه.

ب - **النص/اللوحة**: (Texte/Tableau) يشكل المتن النصي برمته، وطريقة تنظيم اللوحتين المشكلين لفضاء الصفحات اليسرى والصفحات اليمنى بصريا، حيث تعد لوحات تشكل محفلا لاندماج اللساني في البصري.

---

(57) **عبد المسيح ماري تريز. التمثيل الثقافي بين المرئي والمكتوب ،مرجع سابق،2002، ص 26.**

2.1.2- نمطا تدليل معمار النص.

1.2.1.2الغلاف والدلالة الأيقونية:

أ- التشكيل الأيقوني.

تضعنا واجهة رواية "**سيرك عمار**" أمام تنظيم تتفاعل فيه الأشياء بطريقة مخصوصة، في رأس الصفحة نلفي إسم المؤلف "**سعيد علوش**"، مكتوبا باللون البنفسجي وبخط مضغوط. وفي موقع محوري يوجد عنوان النص مكتوبا بنفس اللون، وبشكل بارز، وتملأ الصفحة صورة بهلوان يرتدي ثيابا بهلوانية ذات اللونين الأبيض والأسود، ويمسك بيده اليسرى حذاء رجله اليسرى التي حدد فوقها جنس هذا الإبداع "رواية" مكتوبة بخط أقل بروزا وبنفس اللون البنفسجي. توجد في أسفل الصفحة دار النشر "أبي رقراق" كتبت بطريقة عمودية، تمتزج فيها عدة ألوان تسمها (الأسود و الأزرق و الأخضر و الأصفر والبرتقالي).

هذا كل ما يقوله المؤول المباشر لهذا التشكيل الأيقوني، إننا فقط قمنا بالوقوف عند حدود ما تصفه هذه العلامات البصرية بطريقة مباشرة، عند المعنى التقريري وحسب. لكن هذا لا يسعف في استكناه دلالات الغلاف إلا باستدعاء مؤول دينامي، يجعل الانتقال من المعاني المباشرة إلى المعاني الإيحائية أمرا واردا، إذ نستدعي تجربة جانبية سابقة في الوجود والاشتغال عن ما هو متحقق نصيا، وهي الكفيلة بتناسل المعنى وطرحه لمتاهات التأويل.

ب – تأويل أيقونية الغلاف.

يوجد إسم المؤلف "**سعيد علوش**" في رأس صفحة الغلاف مكتوبا بخط مضغوط خارج الإطار الأبيض، لإبراز الخصوصية والتفرد، في حين يقع عنوان الرواية "سيرك عمار" مكتوبا بخط بارز وبلون بنفسجي وسط مساحة بيضاء، إنها تشير إلى الفضاء المفتوح واللامحدود، والمركب الإضافي "سيرك عمار" هو تساوق أيقوني يعني صاحب، فهو يستعمل للتعبير عن الملكية. وقد يفيد في النص تحقيق الملكية العائلية للسيرك، إن العنوان "**سيرك عمار**" بالنظر إلى جماعه كله يمكن أن يختزل في: سيرك آل عمار أو سيرك شجرة آل عمار.

يعد استعمال "**السيرك**" دالا أيقونيا يحيل إلى نمط في التفكير وطريقة في الرؤية إلى العالم، إن الأمر يتعلق بكون قيمي قديم، لكنه يتطور وفق الأدوات والآليات الموظفة في السيرك.

يوجد العنوان "**سيرك عمار**" في الوسط، تجذيرا للنص بأكمله، ف"**سيرك عمار**" عنوان مستلهم من الأبطال الرئيسيين للنص، يختزل عدة مشاهد في مركب إضافي واحد "**الإخوة عمار**"، فتشاكل العنوان الدلالي

وموقعه في وسط الإطار الأبيض يجعل العين تتجه نحوه مباشرة، مما يشير إلى كون **"سيرك عمار"** سيكون من أشهر السيركات ومركز اهتمام لدى الجمهور في العديد من بلدان العالم. **" لم يعد "سيرك الإخوة عمار" يبرمج لجولاته، بل أخذت الدعوات تتقاطر عليهم من كل حدب وصوب، عاد لبلجيكا مرات حقق فيها نجاحات على سيركات دولية عتيدة بما فيها السيرك الملكي البلجيكي ...."** ص 94.

يشغل الحيز الأكبر للإطار الأبيض كائن إنساني يرتدي ثيابا بهلوانية وهو ما يحيل على الدور الرئيس الذي يلعبه البهلوان في العروض التي يقدمها السيرك للجمهور، ذلك أن البهلوان هو القادر على ارتداء ملابس خارقة وغير مألوفة لدى عامة الناس، وأيضا القادر على القيام بحركات بهلوانية وأشياء أخرى تثير الدهشة والضحك لدى الجمهور، ومادام الحذاء الذي يحمله البهلوان بيده اليسرى جاءت فوقه كلمة سيرك، فقد تعني "ملجأ" للجمهور وملاذا له، فكما يرتدي الإنسان الحذاء وقاية له من الحر والأشواك، صار السيرك كذلك، يلجأ إليه من أجل الترفيه ونسيان مشاكل الحياة، كما أن كلمة "عمار" جاءت فوق صورة البهلوان إشارة إلى دوره في متن النص. أي أن البهلوان هو عمار نفسه.

توجد دار النشر أبي رقراق في أسفل الصفحة وخارج الإطار الأبيض، كتبت بشكل عمودي تمتزج فيها عدة ألوان، وهي إشارة إلى حاضن النص وناشره والحافظ لجميع حقوق نشره.

يقع تحديد جنس هذا الإبداع الأدبي "رواية" تحت العنوان وفوق رجل البهلوان، مما يجعل هذا الجنس فضاء تدور فيه كل أحداث السيرك، وهو إشارة أيضا إلى الغلابة والمقهورين... فكما أن السيرك متنفس لمختلف مشاكل إنسان هذا العصر، ربما يرى المؤلف الدور نفسه للرواية، حيث صارت أسهل الأجناس تعبيرا عن هموم الناس ومشاكلهم، كما أن الخلفية البيضاء للإطار تحيل إلى الأصل والبداية، بداية حياة وأحداث جديدة.

" هاهو أحمد عمار يتقمص دور كبير بهلوانات الغجر بلباسه المزركش يسير خلفه سعيد عمار، وقد ألصق حدبة نوتردام دوباري على كتفيه، يتبعه مصطفى عمار بوجه الأسيوي الأصفر، يتعثر بأذيال لباس الدايلالاما، يجمع كفيه أمام وجهه لتحية جمهور الغلابة ..." ص 125.

تحضر كل هذه العناصر السالفة الذكر، بوصفها صورا مساعدة لعنوان الرواية، ترتبط بالحياة اليومية للإنسان بكل تفاصيلها، ومدخلا ميسرا لفهم وقراءة العمل الروائي، فكل قراءة تنطلق بقراءة المكتوب والبصري للغلاف قبل القراءة الأولية لمتن النص.

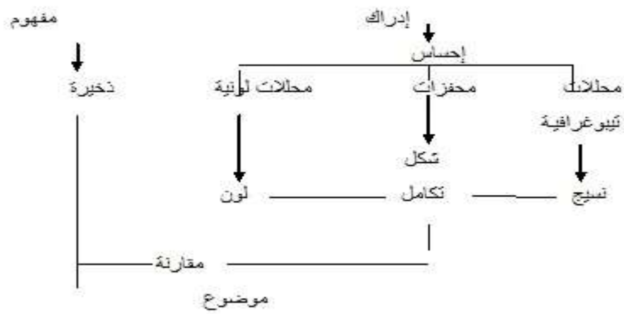
2.2.1.2- النص/ اللوحة

أ- تحديد المفهوم:

تتأسس العلاقة بين اللوحة والنص على قاعدة التبادل والقلب للسنن (Code) النصي،إذ يتم وصف اللوحة من خلال سنن متدرج للقراءة الخطية مما يخلق الحدث- اللوحة، يشير إلى إواليات الرسم دون الإحالة مباشرة على الرسم أو غيره.

توظف اللوحة على مستوى الشخصيات لأجل تجذير الوصف، حتى يصبح أشبه بالمرسوم، ويتم هذا من خلال "**إعادة إنتاج بعض الرسومات التشكيلية... التي تتضمن عنصرا حكائيا، حيث المسار الذي تقطعه العين يقدم السردية من خلال فضاءات تحرك قراءة الرسم، ويتم التمييز من خلاله بين فضاءين: الأول أيقوني و الآخر تشكيلي**"[58].

يتم هذا عن طريق التمييز بين العلامة الأيقونية (Signe Iconique) والعلامة التشكيلية(Signe plastique) ، حيث عندما نصف سيرورة الأيقونية نضع بدءا التجلي التشكيلي بين المحافل الطبيعية والمحافل الثقافية. ويندمج التشكيلي والأيقوني وفق الخطاطة التالية:



فالتشكيلي يضم: الألوان والنسيج والأشكال، أي كل ما هو اصطناعي يخضع لتوافقات ثقافية، أي ما يعود إلى الثقافي. أما الأيقوني،

([58]) GAUTHIER Robert. La chute ou de l'iconisme à la narrativité, In Langages et significations, lire et ensigner le texte et l' image, Ed, Université de Toulouse - le- Mirail, 1989, PP, 221. 222.

فيحيل إلى المعادلات الموضوعية كالجسد الإنساني والنظرة والوضعة (Pose)... إلخ ، أي كل ما تحبل به الطبيعة، ولا يتم التمييز بين التشكيلي والأيقوني إلا إجرائيا، وتقدم جماعة "مو" لهذا التمييز مثالا:("البقعة الزرقاء"، فعندما نكون أمامها نقول إننا بصدد علامة تشكيلية، أما عندما نقول إنها تمثيل للأزرق، فالأمر يتعلق بعلامة أيقونية) ، ولا يمكن الحديث عن علامة في حد ذاتها سواء كانت تشكيلية أم أيقونية، وإنما عن علامة بصرية تجمع بين البعدين، أي ما يعود إلى الذخيرة (Répertoire) أي الأيقوني وبين الاستعمال الاصطناعي أي التشكيلي.

ب – تدليل اللوحة.

تحضر إواليات الرسم في النص بأبعاد متعددة، كما تشير إليه الصور الآتية: **"تعودت الفنانة بوشعيبة البيضاوية الجلوس في الصفوف الأولى بقفطانها الأخضر، قفطان المليفة والفولار الشلحي الأصفر والشربيل الفاسي الأحمر، مما يثير الانتباه إلى الفنانة محبوبة الجماهير لحد أنها أصبحت جزءا من ديكور السيرك، وهي تعيط عيطاتها المرساوية"**. ص 214.

نلاحظ من خلال هذه الفقرة أنها مبأرة، تقع على المستوى التشكيلي أقرب إلى الوسط، حيث تتجه العين مباشرة نحوها، ثم تنزاح عبر الصفحة، كما أن مختلف الأشياء البسيطة الموصوفة تشبه عناصر اللوحة.

تنتمي التعابير في غالبيتها إلى مصطلحات الرسم من حيث التنضيد الجلي للمشاهد الجامدة،وهي التقنية نفسها الموجودة في الرسم مادام **"أن الرسم أكثر نجاعة من الكلمة "[59]**.

إذا أخذنا بعين الاعتبار الفصول المتعلقة بالصور البصرية (أولا: شجرة آل عمار. ثانيا: نساء سيرك عمار. ثالثا: خيمة آل عمار. رابعا: بهلوانات آل عمار. خامسا: حمان آل التيس. سادسا: متحف آل عمار.)، نجد حضور الرسم واضحا من خلال اللوحات الكثيرة بأشكالها التشكيلية المختلفة (كما في الصفحات: 451.305.277.229.138.). تشبه الصفحة ضمن الصفحة." **إن أسهل ما يمكن إظهاره في صفحة كتاب من بين جميع الأشياء الخارجية هو صفحة كتاب آخر، فجميع الكلمات وجميع عبارات نص متتابع... مع ما فيها من فضلات وعناوين جارية: (..) وهذا ما يحدث مثلا**

---

(59) VILLANT Pascal. Sémiotique des langages d'icônes, Ed, Honoré Champion, Paris, 1999, P.14.

في الرواية عندما نعيد التأثير الذي أحدثه إعلان ما أو كتابة ما رآها البطل فجأة " (60).

2.2-عين النص.

1.2.2- ضبط المفهوم.

تشكل الصورة عينا للنص بحضور نسقين سيميائيين، أي نسق لساني وآخر بصري، حيث وجود علاقة بين نسق خطي ونسق آني. إن التكامل بين العلامات البصرية والعلامات اللسانية هو ما يؤسس النص الأيقوني وبالتالي ف " **النص المكتوب يدرك بوصفه بنية من العلامات البصرية "**(61).

تولد الصورة النص، إذ من هذا التوليد يتحقق النص الأيقوني، يهم بالأساس التعريف بوظيفة الصورة فيه، إذ هي إعداد للرؤية ارتبطت بالتصوير المتعلق باللوحة، مما يجعل النص صورة انطلاقا من اشتغال مادته الخاصة المرتبطة بالحرف.

تتأثر العين الرائية بإعداد الفضاء، وتلوين إيقاع الأبيض والأسود وشكل الحروف والكتابة المائلة ووضع الأسماء وعلامات الترقيم، كل هذا " **يستلم من قبل العين التي ترى بمقدار العين التي تقرأ" (62).**

تملك العين خصائص الوجود في كل مكان وتدرك مجموعات فرعية وتقارنها وتكشف اختلافاتها وتشابهاتها. تدرك التشابهات بين القوالب الخطية، لكن تدرك أيضا اختلافاتها في المكان، إذا لم يكن لهذا الاختلاف دلالة، فمن الممكن إلغاؤه.

2.2.2- طرق اشتغال عين النص.

1.2.2.2- إعداد الصفحة.

يقصد بإعداد الصفحة (Mise en page) المستطيل الذي يميزها وكيفية إعداده من حيث الهوامش وتنظيم الصفحة وتأثيثها فضائيا: فهي في نص "سيرك عمار" مستطيل متلاحم الأجزاء ومقسم إلى فقرات توضحها بعض العناوين.

---

(14) بوتور ميشيل . بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى ، 1971، ص 128.

(61) **KRUGER Reinhard. L'écriture et la conquête de l'espace plastique, comment le texte est devenu image, In Signe/Texte/Image, op.cit, 1990,PP.22−23.**

(62) **ROUSSET Jean. Un espace visible, les jeux de l' image et du texte "In Espace de texte ,Ed,La Boconniére Bourdry –Nenchatel, 1990, P.336.**

يتم إعداد الصفحة بالنظر إلى مرئية النص، إننا أمام كيانين بصري موجه للقراءة، " **فمنذ "مالارميه" بدأنا نعرف المنابع المسماة بصرية، وإعداد الصفحة "**[63].

أصبحت الرؤية والقراءة بفضل إعداد الصفحة" **تحددان تجربة الفضاء، وتحددان في تلاقيهما مع العناصر التي يتضمنها الفضاء الأدبي الحديث، بوصفه ليس فضاء مقروءا يتأسس على علامات النص بل فضاءا بصريا"**[64].

بناء على ذلك، فنص "سيرك عمار" من القطع المتوسطة الكتابة أفقيا مطبوعة تحترم في أغلب صفحاتها الهامش ما عدا بداية الفصول ونهايتها، فإذا كانت الدراسات التي اهتمت بإعداد الصفحة (خاصة دراسة "ميشيل بوتور" المشار إليها سلفا) تميز بين نمطين يهمان شكلين مختلفين للكتابة:

- كتابة أفقية: حيث تطبع صفحة الكتاب بشكل عادي، إذ يتم الحفاظ على التحديدات المعروفة للهوامش ونمط تناوب الأسود والأبيض.
- كتابة عمودية: تنتظم من خلالها الكتابة بطريقة عمودية غالبا تحتل يمين الصفحة، حيث تترك هامش الوسط والأيسر يتجاوز مساحة البياض المخصص لهما عادة، كما قد تحتل الكتابة العمودية أحد جهتيها وتترك الأخرى بياضا.

فإن إعداد الصفحة ينتظم في نص "سيرك عمار" على النمط التقليدي الأفقي، الأفقر دلالة من صنوه العمودي الذي تكون له صبغة تمييزية وأيقونية، هذا لا يعني الخضوع التام للنمط التقليدي، بل نجد حضور النمط العمودي حينما يتعلق الأمر بالحوارات وببعض الأناشيد والمقطوعات الغنائية.

2.2.2.2- فضاء النص.

أ- حد فضاء النص.

يشكل فضاء النص(Espace de texte) لوحتين متقابلتين،حيث تنساب العين عبر الصفحتين في الآن نفسه، إحداهما في

---

(63) **REUTER Yves. Un Problème de Légitimité Culturelle romans photos, des Editions de Minuit, In Signe/Texte/Image, op.cit, 1990, P.16.**

(64) **ZWICKY Beatrix. L'Espace Pictural dans le récit fantastique d'un tableau invisible à un texte illisible, In Littérature et espace,Ed, PULIM, 2001, P.617.**

مواجهة الأخرى، يقيم الارتباط بين الصفحتين برزخا تنعدم فيه الرؤية، لذا فانتقال العين من اليمين إلى اليسار حسب ما تفرضه طبيعة اللغة العربية يجعلنا نترك الصفحة اليمنى للاهتمام بالصفحة اليسرى، إنها الصفحة المفضلة لاعتبارات أهمها: أنها تدون فيها أرقام الفصول ومطالعها كلها، يمكن تقابل الصفحتين من تطابق الواحدة على الأخرى، وعندما يكون النص مفتوحا تتساوق سطور الصفحة اليمنى مع نظيرتها اليسرى.

وتعد **"الصفحة الفضاء الأول للنص، المساحة البيضاء-السوداء أسود على أبيض ثم المصفوفات (colones) المطبوعة... حيث يقدم الفضاء للقراءة كما يقدم للرؤية أيضا"**[(65)].

يميز هينري كيري (Henri Quéré) بين ثلاثة أفضية طوبولوجية هامة : الأول يسميه (لوغوس (Logos) يهم تعيين المعنى المرتبط بترتيب العلامات المتمفصلة، والثاني يسميه الطوبوس (Topos) متعلق بالدلالات الظرفية، ومرتبط بتشكلات خطابية باعتبارها ميكرومحكي، والثالث يسميه البولموس (Polemes) متعلق بالحقل الفضائي الذي تتواجه فيه المضامين والقيم غير المترابطة، إنه نسق التوتر) [(66)].

نحن دائما في تساؤل حول فضاء النص،فالتشكيلية(Plasticité)والنسيج(texture)، والتصويرية(Picturalité) واللون والخط والأيقونية (Iconocité)والمحيط (Contour) وأبعاد الأشكال، دائما هناك سؤال حول فضاء النص.

ب- أنواع الفضاءات النصية.

يمكن أن نقسم نص "سيرك عمار" استنادا إلى ما سبق، إلى فضاءات أهمها:

- الفضاء الذي يحيل إلى صفحة بيضاء ويكون مميزا الانتقال من فصل إلى فصل آخر، نسجل حضور اللون الأبيض، وغياب اللون الأسود، إنه يؤشر للأمل والبداية والتجدد، واللون الأبيض لون اللالون، واللون الأميري إنه الأصل للفضاء النصي، يحيل بشكل مباشر إلى تسريع في الزمن والأحداث. يحفز القارئ لملء الفراغ الأبيض، يشركه في إنتاج النص، إنه

---

(65) ROUSSET Jean. Un Espace visible, les jeux de l'image et du texte In Escape du texte, op. cit, 1990 , P.35.

(66) QUERE Henri. le sens du sens, essai sur l'espace littéraire In Espace du texte,Ed. La Boconnière Bourday-Nenchatel. 1990, PP.65-66.

يريح العين الرائية والعين القارئة، بعدما تتعب في التنقل عبر سطور الفصول باستثناء(6-8 -10) من الفصل الأول، (13- 14- 16) من الفصل الثاني، (19- 22- 23) من الفصل الثالث، (25- 30- 31- 32- 34- 36- 37) من الفصل الرابع، حيث نجد غياب الصفحة البيضاء مما يجعل الانتقال من فصل لآخر يتبع مسارا متعبا، فالعين تنتقل بين اللوحتين بكيفية غير مريحة، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الفارق بين الفصول، إذ نجد أنفسنا أمام نسقين مختلفين لكل واحد مميزاته الخاصة.

نلفي فصولا تحيل إلى تناسل أحداث عبر حبكة فنية أساسها القص (السرد) ، وفصول أخرى تتلوها تنتمي إلى نسق سيميائي تواصلي بالغ التفرد، يتميز بخصائص تشكيلية وبصرية مختلفة تماما عن الأولى (الصور)، مما يجعل من ضرورة حضور الفضاء الأبيض بمثابة جسر للعبور من نسق إلى آخر.

- إن الفضاء الذي يحيل إلى بداية كل فصل له خصوصيته، حيث نجد أنفسنا أمام فضاء يتكون من شقين، النصف الأعلى أبيض يتخلله رقم داخل الفصل مكتوب بالأرقام اللاتينية وبخط مضغوط، يستثير العين لتتجه نحوه إننا أمام شبه نقطة سوداء في فضاء أبيض.**"فكل شكل يولد من النقطة التي هي الشكل الأول، لكل تعبير بصري، ولادة أي شكل يكون في الوقت الذي تخرج فيه النقطة عن حدودها، عن توترها، عن طبيعتها، ويمكن أن تأخذ مسارا محددا، ومنه يولد الخط"**[(67)]. فخروج النقطة عن توترها واتخاذها لحدود معينة وأشكال بالغة التفرد، هو الذي يفرق بين أرقام الفصول بصريا وليس شيئا آخر.

أما الشق الثاني الأسفل فيتساوى فيه الأبيض والأسود، يشير الأسود إلى المكتوب، في حين يرتبط الأبيض - الذي هو الأصل - بما يتركه المكتوب من فراغات، وعلى العموم يفرض هذا النسق على العين أن تتخذ مسارا يتواءم مع الكتابة، التي لا تحافظ على آنية الفضاء، بل تنزاح إلى خطية اللغة. ومنه تكون العين الرائية تابعة للعين التي تقرأ.

- يوجد إلى جانب ذلك فضاء عادي، يشتغل فيه الأبيض والأسود، يميز جل صفحات النص، ويمكن أن نميز داخل هذا النوع بين ثلاثة أصناف رئيسة:

أ- صفحات تتخللها لوحات، وهي التي تتوسط (13/12) من الفصلين الأول والثاني، (15/14) من الفصل الثاني، (20/19، 22/21) من الفصل الثالث،

---

(67) KANDINSKY Wassily. Point et lignes sur plan, contribution à l'analyse des éléments de la peintures, Ed, Gallimard, Paris, 1991, P.17.

(24/23) من الفصلين الثالث والرابع ثم ما بعد (38) من الفصل الرابع أي حضور فضاء ضمن فضاء آخر.

ب- صفحات مبأرة سواء كان التبئير متعلقا بأسماء الأعلام أو الأحداث أو الواجهات، إلخ...، ولا غرابة في أن التبئير يشير إلى أهمية الشيء المبأر، **"(أيها الجنود الأشاوش) وأحياني الله حتى أخذت أسمع من نفس الراديو... (مات الكل)بصوت أحد المورو..."** ص291.

ج- صفحات تميز فضاءات مخصوصة تتميز بتيبوغرافية بالغة التفرد تشبه الكتابة العمودية، كما في الصفحات: 329 ،330 ،331 ،332...

"....
ينبعث صوت عذب
صوت المور الجميلة
وأبناء الحب
لذا كان فرحا
قويا ومقاتلا..." ص330.

3.2.2.2– التيبوغرافيا.

تتعلق التيبوغرافيا (Typographie) بالمزدوجتين ونقط الحذف، إذ تعتبر المزدوجتان شكلان تيبوغرافيان، لا يمكن أن ينفصلا، وترتبط دلالتهما بالجمع بينهما، فوجود هذه العلامة، يحيل إلى تأطير لكلمة أو جملة أو فقرة، وهي ذات قيمة مقصدية، تحيل إلى السخرية أحيانا:

" فان نكوك تشا " ص301.

يستعمل المؤلف المزدوجتان لأجل إعطاء حمولة دلالية للكلمات والتمييز بينها وبين الكلام الخارج عنها.

تلعب نقط الحذف باعتبارها تركيبا يجمع ثلاث نقط دورا رئيسا في التعبير عن عدم العزم وإشراك القارئ في إنتاج النص وملء الفراغات كما في المشهد الآتي: **" والأدهى من كل هذا أنها تنتظر مولودا منه فقد غادرتها العادة الشهرية منذ ثلاثة أسابيع أيها الجد الموقر..."** ص77.

تصبح نقط الحذف في بعض الأحيان أكثر من اللازم لتدل على الإخفاء: **" لا بد أن يخضع الرجل للتشريح الطبي و...و...سارع الموتاتشو للاتصال بالأهل والأقارب والحماة تمده بأرقام الهواتف...وهو يبلغ الفاجعة..."** ص 406.

تعد نقطة الاستفهام الدرجة الثانية من التواصل بين المؤلف والقارئ وبين الشخصيات. "**تسمح بوضع وجهة للتواصل من خلال طبيعتها النبرية والبصرية فتعبر عن المفترض و اللامعروف إن لها علاقة بالتخيل**"[68].

" وكم من خلدون لم يخلد عبرا ولا خبرا؟
وكم من حسن وازن تحول إلى ليون إفريقي؟
وكم وكم وكم لم يعرفه كيفه؟" ص 314.

تعبر نقطة التعجب "**عن حكم ورد فعل فردي وتعبير عن إحساس، تعد الدرجة الثالثة للتواصل، إنها تفرغ أحاسيس وتعيد ملء المشاعر انطلاقا مما يحضر وتترجم ما يجيش به القلب الإنساني وتصفه في كل الحالات"** [69].

" وككل فقيه بادره
- ألا تقرأ آية الكرسي!
فتلعثم وهو يرد مخدرا :
ما أنا بقارئ ما قرأت..." ص14

أما الفاصلة "**فهي التي تفصل بين الجمل وتميزها إذ تعبر عن نشاط يميل إلى المتواصل لا المتصل، وهي بخلاف نقطة النهاية التي تعد نهاية هذا النشاط"** [70].

تستعمل النقطتان التفسيريتان للتعبير عن وجهة نظر غير قابلة للتفكيك تؤدي معناها بناء على اندماجها :

" يطلق مصطفى عمار صيحته المعهودة:
- أين كنتم يا أبناء الحرامية " ص 217.

لا يقبل القوسان الفصل ويحيلان انطلاقا من هذا الاندماج، بناءا على مقصدية النص على إنتاج أثر معنى الازدراء:

"(أدوية طبيب مستعجلات طبيب القرن)
كانت مثار تنذر الأطفال، لاقت إعجابهم وخاصة آذان الخنازير) و(أظلاف السباع) و(أسماك مجنحة) " ص 156.

يمكن التمييز في الضغط على الحروف، بين الضغط على الكلمات أو الضغط على جمل أو الضغط على فقرات، إما بهدف إشهاري أو لإبراز

---

[68] GREPY Roseline. L'interprétation des signes dans l'écriture,T 3, Ed, Delachaune et Niestlé, 1992, P.172.
(23) Ibid, P.182.
(70) Ibid, P.13

قيمة الإسم المضغوط عليه، هذا النوع التيبوغرافي يهم بالأساس الصفحات الآتية :9 ،103 ، 135 ، 173 ، 209 ،227 ،261 ،303 ،427 .

تركيب

يتضح أن نص "سيرك عمار" اعتمد في تحقيق المعنى والقذف به إلى ساحة التداول مجموعة من الآليات التي تستند إلى تكامل اللفظي – البصري.كما أن النظر إلى النص من وجهة نظر تدليلية أبرزت أن السيرورات التي تشيد الدلالة قد اعتمدت على مجموعة من العناصر، التي جعلت من اعتبار النص الأيقوني سيميوزا أمرا واردا.

أبرز خصوصيته- نص سيرك عمار- في الوجود وتفرده في الاشتغال، مما يوضح بالأساس القدرة الكفائية التي يتمع بها النص نفسه في الاستجابة للمعطيات النص أيقونية، فكان إذن استثمار إجرائيته المفهومية يتساوق مع المعطيات النصية للمتن، شكل ذلك تجاوزا لها في شكلها الغفل أي قبل تمفصلها ومفهمتها، دون الإكتراث للتحقق النصي، باعتبارها أكسيولوجيات-علم القيم ويشمل البحث في قيم الأخلاق والدين وعلم الجمال-، ثم مقاربتها عبر تحولها إلى القيم التي يحب لبها النص لتنسل من وضعها الكموني إلى الوضع الفاعل داخله.

يبرز استثمار المفاهيم النص أيقونية في نص" سيرك عمار" مدى فعاليتها في اختبار كفايتها المنهجية والنظرية ثم تبيئتها في النصوص المغربية خاصة والعربية عامة، وسيفتح هذا آفاقا جمة أمام تجديد النظر في المقاربة التقليدية للرواية المغربية والعربية، باستثمار مفاهيم السميائيات البصرية المستندة إلى النص الأيقوني.

بيبليوغرافيا

- المراجع باللغة العربية:

- المتن:

- سعيد، علوش . سيرك عمار، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2008.

- المرجعان:

- بوتور ميشيل . بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى ، 1971 .
- عبد المسيح ماري تريز. التمثيل الثقافي بين المرئي والمكتوب، المجلس الأعلى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002.

المراجع باللغة الفرنسية:

-DIETERLE Bernard. Problèmes de l’iconotexte narratif, In Signe/Texte/Image, Césura Lyon, Ed. Meyzieu, 1990.
-GAUTHIER Robert. La chute ou de l'iconisme à la narrativité, In Langages et significations, lire et enseigner le texte et l' image, Ed. Université de Toulouse - le-Mirail, 1989.
-GREMAS AJ, COURTES J. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, T1, Ed. Hachette, Paris, 1979.
-GREPY Roseline. L’interprétation des signes dans l’écriture, T3, Ed. Delachaune et Niestlé, Paris, 1992.
-GROUPE µ . Traité du signe visuel, pour une rhétorique de l'image, Ed. Seuil. Paris, 1992.
-KANDINSKY Wassily . Point et lignes sur plan, contribution à l’analyse des éléments de la peintures, Ed. Gallimard, Paris, 1991.
-KRUGER Reinhard. L'écriture et la conquête de l'espace plastique, comment le texte est devenu image, In Signe/Texte/Image, Césura Lyon, Ed, Meyzieu, 1990
-LOUVEL Liliane. Nuances du Pictural, In Poétique, N° 117, 2001.

-MONTANDON Alain. Préface, In Signe/Texte/Image, Césura Lyon, Edition, Meyzieu, 1990.
-PEIRCE Charles, S. Ecrits sur le signe rassembles, traduits et commentés par Gérard Deledalle, Ed. Seuil, Paris, 1978.
-QUERE Henri. Le sens du sens, essai sur l'espace littéraire In Espace du texte,Ed. La Boconnière Bourday-Nenchatel, 1990.
-REUTER Yves. Un Problème de légitimité culturelle, les romans-photos , des Editions de Minuit, In Signe / Texte/ Image. Césura Lyon, Edition, Meyzieu, 1990.
-ROUSSET Jean. Un Espace visible, les jeux de l'image et du texte In Escape du texte,Ed. La Boconnière Bourday-Nenchatel, 1990.
-VILLANT Pascal. Sémiotique des langages d'icônes, Ed. Honoré Champion, Paris, 1999.
-ZWICKY Beatrix. L'Espace Pictural dans le récit fantastique d'un tableau invisible à un texte illisible, In Littérature et espace, Ed, PULIM, 2001.

الفلسفة

تحول التراث الأفلاطوني في الفلسفتين الشرقية (الإسلامية) والغربية

أ.د. صلاح الدين خليلوف
مدير المجمع العلمي (الشرق و الغرب)

تلخيص

يقوم المؤلف في المقال بتحليل مصير الفلسفة الأفلاطونية في الشرق والغرب واتجاهات تطورها الرئيسية بصورة مقارنة. ويشرح ان المشائيين في الفلسفة الاسلامية للقرون الوسطى لم ينشئوا مذاهبهم على أساس فلسفة أرسطو فحسب بل حاولوا الجمع بين رأيه ورأي أفلاطون والتوفيق بينهما. فيشير المقال الى امتداد التراث الأفلاطوني وتطويره بفضل آراء الفارابي.
أما الفلسفة الغربية فإنها أيضا تشهد تزايد ميول الرجوع الى التراث الأفلاطوني. على سبيل المثال يأتيالمؤلف في المقال على ذكر مذهب الوجود عند سارتر ويثبت بالأمثلة ان أفكار سارتر كأنها الرجوع الى رأي أفلاطون. فيظهر كيف تتكامل في واقع الأمرالأقطاب التي تضم أفلاطون والفارابي وسارتر التي تبدو غير متشابهة في الوهلة الأولى لتشكل مثلثا موحدا في الفضاء الفكري. وفي هذا السياق يتم تسليط الضوء على طريق التكامل المعقد الذي اجتازته الفكرةالأولى.

ABSTRACT

Transformation of Plato's Philosophy in the Western and Eastern (Islamic) Philosophical Thoughts

The present paper offers a comparative analysis of the influence of the philosophy of Plato on Eastern and Western philosophical thought. It argues that the Medieval Islamic school of Peripatetics has not based only on Aristotelian philosophy, but derived from their skillful ability to compromise the philosophy of Aristotle with that of Plato. From this point the paper demonstrates the continuing development of Plato's ideas in the Farabi's teaching.
The Plato's ideas were influential also in the Western philosophical heritage, which is illustrated in the article throughout analysis of these ideas in the teaching of Jean-Paul Sartre as being some kind of return to Plato's philosophy. Thus the philosophical thoughts of Plato, Farabi and Sartre, which at first may seem rather different from each other teachings, in reality are mutually complementary and formulate a single whole in the form of triangle on the sky of philosophical thought. The paper sheds light on the intricate evolution of the first ideas.

ماهية الفلسفة الأفلاطونية أكثر شرقية من فلسفة الفارابي. لأن الفارابي لم ينتفع من أفكار أفلاطون فحسب، بل استقى من آراء أرسطوطاليس، وتناول في تفكيره العلوم الطبيعية والموضوعات العلمية الطبيعية فضلا عن الموضوعات الدينية الفلسفية، واستوحى من الفكر الغربي. وأصبح الفارابي فيلسوفا تركيبيا الى حد كبير.

ليس من قبيل الصدفة أننا نفرق بين الغرب والشرق زمنيا ليس جغرافيا. وكذلك ليس من قبيل الصدفة ان نقول ان الشرق كان موجودا منذ الأول والغرب نشأ بعده[71]. كان فيثاغورث وسقراط وأفلاطون مشرقيين مثل زرادشت وكونفوتشيوس وبودا. ونبغ أرسطوطاليس فيما بعد وهو يسعى إلى تكوين نظام فلسفي مبني على مجموعة المعارف العلمية المكتسبة من دراسة عالم الحس. مع محاولة إنزال الفلسفة من السماء الى الأرض اتخذ أرسطوطاليس خطوة من الشرق نحو الغرب. لكنه هو الآخر ما كان يعني غربا، بل كان بواكير الغرب لا غير. استغرقت عملية الولادة والنمو ألفي عام لا أقل ولا أكثر واستطاع الغرب دخول المسرح كطرف مستقل الا في العهد الجديد. تلاه عهد انحطاط الشرق وانتصار الغرب.

نعم، كان الفارابي أكثر انحيازا للغرب من أفلاطون، كما كان الفارابي يجسد بروز الفكر الغربي مثلما فعل أرسطوطاليس. ان الفارابي الذي استوعب جل معارف عصره العلمية وقام بتصنيفها كان أقرب بكثير روحيا الى أرسطو. يكتب مؤرخ الفلسفة التركي محمود قايا عن الطبيعة التركيبية لمذهب الفارابي قائلا: "التعليم الفلسفي للفارابي يعد أساس الوجود معنويا والى جانب هذا يعتبر الهندسة والمنطق أيضا أساسا ويرتقي من العلوم الطبيعية الى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). ان الأفكار المستمدة من أفلاطون وأرسطو والأفلاطونية المحدثة والمتشابهة بالتوفيقية أحيانا، انما تكون في الحقيقة متضامنة ومتلازمة ضمن النظام المنطقي الشخصي للفارابي"[72]. وليس من الصدفة، كانوا يسمونه بـ"أرسطو الشرق" – لا أفلاطونه، بل أرسطو بالذات. وكذلك ليس من الصدفة ان ابن سينا العظيم اعترف بان أغراض كتاب "الميتافيزيقا" لأرسطو انفتحت عليه إلا بعد قراءته في شرح الفارابي. حيث أثر كتاباه "فلسفة أرسطوطاليس"[73] و "أغراض كتاب ما وراء الطبيعة للمعلم الأول أرسطو"[74] تأثيرا قويا على المسار التالي للفكر الفلسفي في العالم الاسلامي بأسره.

مع هذا، فلم يكن الفارابي بمنأى عن آراء أفلاطون أيضا ولا يمكن له ذلك. إذ أنهما مرتبطان بروح شرقية واحدة. من الطريف ان الفارابي نفسه

---

[71] *S.Xəlilov*. Şərq və Qərb: ümumbəşəri ideala doğru. B., 2004. – 624 səh.

[72] *Mahmut Kaya*. İslam filozoflarından felsefe metinleri. İstanbul, 2003, s. 108.

[73] *Аль-Фараби.* Философия Аристотеля. – Историко-философские трактаты. Алма-Ата, 1985, стр. 209-331.

[74] *Аль-Фараби.* О целях Аристотеля в «Метафизике». – Историко-философские трактаты. Алма-Ата, 1985, стр. 331-343.

قام بمقارنة أفلاطون وأرسطو (بالمناسبة، هذا أحد نماذج التحليل المقارن الأولى في تاريخ الفكر الفلسفي) وسعى الى التوفيق بينهما [75].

ويقول الباحث الإيراني مهدي أمين رضاوي ان الفارابي دافع "في مجال المنطق والأخلاق وما وراء الطبيعة عن أفكار أرسطو، لكنه أخذ بآراء أفلاطون في معالجة المشاكل الاجتماعية"[76]. بالتأكيد، لا يمكن الاتفاق مع هذا الرأي بشكل تام؛ بحيث لم يكن الفارابي مؤيدا لمجرد أفكار أرسطوطاليس في مسائل ما وراء الطبيعة فحسب، بل إنه استلهم من أفلاطون، لاسيما نظريته للمثل، كذلك الفكر الاسلامي. مع هذا فإن ارتباط سوسيالوجيا الفارابي بمذهب أفلاطون أمر لا يمكن الجدل فيه. ونظامي كنجوي، أغلب الظن، استلهم من الفارابي في أفكار "الملك العادل" والمجتمع العادل و"بلد السعداء". طور الفارابي فكر أفلاطون حول " الحاكم لا يصلح ولا يكون إلا فيلسوفاً" ليخلص إلى القول إن دراية المعارف الفلسفية وحتى رسالة النبوة هما أحد الشروط الضرورية للملك العادل. ودافع عن فكرة بناء المجتمع نفسه على أساس مبدأ العدل وقدم أوصاف المدن (البلاد) من هذه الناحية.

ان رؤية الفارابي في فلسفة أفلاطون تلفت دائما أنظار الباحثين. حتى في الفكر الفلسفي السوفييتي لم تبق هذه المسألة خارج الاهتمام. فكرس ج.ب.شايمحمدوفا جزءا من كتابه عن الفلسفة المكتوبة بالعربية لهذه المسألة بالذات[77]. وتعتقد الباحثة جولشاد ان شرح الفارابي لفلسفة أفلاطون يختلف اختلافا كبيرا عن شرح شراحها الآخرين. مثلا، يشرح الفارابي أنطالوجيا أفلاطون في سياق وحدة الوجود بالرغم من الجدل حول أحادية أو ثنائية مذهب أفلاطون[78].

بيراع الفارابي تصبح تصورات أفلاطون سهلة الفهم وواضحة كما نجد أفكار أرسطوطاليس أوضح وأفهم في شرح الفارابي. ويضفي الفارابي الى تراث أفلاطون نور عهده.

---

[75] *Farabi.* Eflatun ile Aristotelesin Görüşlerinin Uzlaştırılması. – Mahmut Kaya. İslam filozoflarından felsefe metinleri. İstanbul, 2003, s. 151-214. أو : *Аль-Фараби.* Об общности взглядов двух философов – Божественного Платона и Аристотеля. – Философские трактаты, Алма-Ата, 1970, стр. 39-105.

[76] *Мехти Аминразави*. Ал-Фараби. – Великие мыслители Востока. М. Крон-пресс. 1998, стр.568.

[77] *Г.Б.Шаймухамбетова*. Арабоязычная философия средневековья и классическая традиция. М., «Наука», 1979. стр. 52-98.

[78] نفس المصدر , ص.97 .

لننظر نحن أيضا الى أفلاطون في ضوء الفارابي.

يبرز أفلاطون عند الفارابي كمتصوف كمال الإنسان. ويبحث أفلاطون هذا عن سعادة الإنسان في علمه ومعنويته، لا في كمال وجهه وجسمه، وكثرة ثروته وعلو موقفه الاجتماعي. حسب الفارابي، يجد ما قيل من آراء اتباعه في كتابي "طبيعة الإنسان" أو"آلكيبياس الأولى"[79] لأفلاطون الكتاب الذي يرجع المؤلف فيه أصول ملوك الفرس من جهة وملوك آسيا الآخرين من جهة أخرى الى زيوس ويخطو خطوة أخرى نحو فكرة إله واحد عام للبشرية. فإن أفلاطون عند حديثه عن أحكم الناس وأعدلهم وأذكاهم وأشجعهم في العالم يذكر أتباع سحر زرادشت. والطريف انه يقدم زرادشت كابن هورموزد. (يرفع أفلاطون زرادشت الى منزلة "ابن الله" الشريفة ذلك الاعتقاد الذي انتشر حينذاك عن الإغريق كما رفِع إليها عيسى فيما بعد)[80].

يدرس أفلاطون للفارابي في كتاب "تيتيت" المعرفة ويعتبر المعرفة غاية الغايات للانسان. يقارن الفارابي أفلاطون مع بروتاجوراس ويأتي على ذكر كلام بروتاجوراس الذي يفيد ما معناه أن الانسان لا يمكنه الحصول على معرفة الأشياء ما حوله؛ انما هو يملك المعارف فطريا[81]". (في الواقع فإن بروتاجوراس عند الفارابي هو أفلاطون بالذات، لأن أفلاطون كان يعرب بلسان محاورين في مؤلفاته ليس فقط عن أفكارهم المعروفة له فحسب، بل عن آرائه هو أيضا). عند تحليله لهذه المسألة في "محاورة بروتاجوراس" يظهر أفلاطون بلسان محاور ان التعلم والدراسة لا تنفع ولا تؤدي الى المعارف الصحيحة. لكنه يعلن كردٍّ على هذا الرأي ان الدراسة هي للحصول على المعارف بالذات. ويواصل هذا في محاورة "مينون" أيضا[82].

من الطريف ان أفلاطون كان حينذاك يعالج مسألة المعارف ليس من منظور الإدراك وحسب بل من منظور الفضيلة والفائدة أيضا. تولدت هذه الرؤية من جديد في فلسفة البراغماتية بعد ألفين وثلاثمئة سنة، لكن بفرق أن أفلاطون كان يفرق بين كل ما هو مفيد وخير في الحقيقة وكل ما يعتبره الناس مفيدا وخيرا. لأن الرأي العام كان قد لا يعرب عن الضرورة والحقيقة، وكان يحدث هكذا أساسا، على حد تعبير أفلاطون. أما الفارابي فيعلق على

---

[79] *Аль-Фараби.* Историко-философские трактаты. Алма-Ата, 1985, стр. 108.

[80] *Платон*. Собрание сочинений в 4-х томах. Том 1, М., «Мысль», 1990, стр. 246.

[81] *Аль-Фараби.* Историко-философские трактаты, стр. 109.

[82] *Платон*. Собрание сочинений в 4-х томах. Том 1, М., «Мысль», 1990. Протагор (стр. 418-476. Менон (стр. 575-612); *Аль-Фараби.* Историко-философские трактаты, стр. 110-111.

هذا الموقف ويميز ما هو مفيد ونافع. حسب الفارابي فإن المفيد (الخير) قد يكون بالضرورة بينما النافع قد لا يكون دائما بالضرورة وأمرا إيجابيا[83].

وما يميز الفيلسوف بغيره من أصحاب الفن هو انه يظهر الخلاف بين كل ما هو مفيد شرطيا وكل ما هو مفيد بالضرورة. يتناول في محاورته "المأدبة" كشف المعارف الضرورية كأحد المهام الرئيسية للفلسفة. أما مرافق الفنون الأخرى فإن المعارف فيها شرطية. مثلا، على ما ذكر في محاورته "إيون"، بما أن المعارف المكتسبة من خلال الشِعر بعيدة عن الحقيقة فإنها ليست مفيدة وحتى تبعد عن الغاية.

أما الفارابي فيعطي الأولية لواجب الوجود، لا للمعارف بالضرورة. "الحكمة معرفة الوجود الحق والوجود الحق هو واجب الوجود بذاته. والحكيم هو من عنده علم الواجب بذاته بالكمال"[84].

من أوجه الاتفاق بين أفلاطون والفارابي في هذه المسألة هو إعطاء الأولية لما هو واجب وحقيقي. أما الافتراق فهو أن أفلاطون يقصد بالوجود الحق وواجب الوجود المثال (الفكرة) بينما الفارابي يريد به ألله. على ما يرى الفارابي، "فلا حكيم إلا الأول لأنه كامل المعرفة بذاته"[85]. "الواجب لذاته هو الغاية إذ كل شيء ينتهي إليه وكل غاية فهي خير فهو خير مطلق"[86]

يذكر الفارابي هنا لتبرير رأيه الآية الـ٤٢ "وإن إلى ربك المنتهى" من سورة النجم للقرآن الكريم. بينما أفلاطون ينتقل بسهولة الى مفهوم "المعرفة الضرورية" بسبب كون مفهوم "المثال" عنده أكثر متحركا، ويجعل الفلسفة سهلة المنال للبشر. لكن مع هذا، الفلسفة هي للناس المتوصلين الى الماهية الإلهية، ليس للأشخاص العاديين.

وأفلاطون يعتقد ان الضرورة مماثلة للفكرة (المثال). وإدراك كل شيء يعني إدراك مثال هذا الشيء[87]. بما أن المثال عديم المنال بالنسبة للناس العاديين فانهم يتحدثون ويطلقون أفكارهم عن الأشياء عادة منطلقين من التجربة الحسية. إن المعلومات التي تأتينا عن طريق الاحساس لا تعني الحقيقة بعد (والمعرفة أيضا). كان أفلاطون يعارض كل الشهوانية والتجربة ويقول ان الحقيقة تأتي إلا بسبب أسبقية معرفة النفس بالمثل. يعتقد أفلاطون أن

---

[83] *Аль-Фараби.* Историко-философские трактаты, стр. 116.

[84] *Аль-Фараби.* Естественно-научные трактаты. Алма-Ата, «Наука», 1987, стр. 286.

[85] نفس المصدر.

[86] نفس المصدر .

[87] Н.Е.Скорцов. Платон о сознании в борьбе с сенсуализмом и эмпиризмом. – Платон: Pro et contra. СПб.: 2001, стр. 278.

المعارف الحقيقية معلومة للإنسان أصلا من البداية بسبب خلود النفس. والإنسان أصلا يتذكر فقط ما هو كان معلوما له[88]. لذلك فلا يجب تركيز الفكر على الشيء، بل النفس (الروح).
بالطبع، يفسر أفلاطون امتلاك النفس (الروح) فطريا المعارفَ كحقيقة قائمة بذاتها مع الحياة السابقة للروح وإذا في الحقيقة نتاج التجربة الحسية الوهمية. فيواجه أفلاطون مفارقة لم يسبق ملاحظتها. إن أفلاطون الذي لا يبدي أهمية لدرجة ما لدور التجربة الحسية في حياة الإنسان المعاصر يضطر من جديد إلى تفسير المعارف الحقيقية كنتاج التجربة الحسية (الوهمية). والحال ان هذه المعارف تجد لها تفسيرا أحسن في سياق "عطاء الله" أو "القضاء والقَدَر" عند الانطلاق من وجهات نظر الفارابي وابن سينا وشهاب الدين السهروردي، قصارى القول، من موقف الفلسفة الإسلامية. هذه المعارف حقيقة لأن الخالق نفسه يوحيها. ان مثال كل مخلوق يملكه خالقه وحده. أما الناس فيحاولون في مجال دراسة المخلوق عن طريق التجربة الحسية اكتسابَ المثال (الفكرة) الذي يصاغ عليه المخلوق. فيتحرك الفكر من التجسيد المادي نحو المثل، أي يبدو وكأنه الى الوراء.
إن مقارنة التراث الأفلاطوني بمؤلفات الفلاسفة المسلمين الذين يتعاملونه تعاملا إبداعيا تسمح بتسليط الضوء على العديد من المسائل الحساسة التي لا تلفت في أول وهلة، إحداها مسألة مصدر الحقيقة.
والفلاسفة المسلمون ينعتون كثيرا ما كشف الحقيقة بالإشراق. الفكرة مصدر النور وكلما تبتعد عن المركز يبدأ النور يتلاشى. ويضعف إلى أقصى حد. لكنه لا ينقطع أبدا. إن هذه التصورات المتعلقة بالإنسان تستمد من الأفكار مثل "الإنسان أشرف المخلوقات" أو "الإنسان خليفة الله في الأرض". لكن نور عقل الإنسان محدود وينتهي في مكان ما. لا يمكن أن يكون العالم الذي يحتل الانسان مركز بنيانه لامتناهيا وغير محدود بالفعل وإن كان كذلك بالقوة أي بالإمكان. كما ورد في القرآن الكريم، إن علم الإنسان له حدود.
إن عقل الإنسان ولو لا يستطيع إنارة السماء اللامتناهي فهو يبدو من خارج كمركز منوَّر في هذا السماء. كأن العالم مجرة وكل إنسان نجمة فيها. أما أحد من بين جميع الناس - الأنا فيبرق من بين النجوم كلها كأنه شمس ويدعي على أن يكون مركزا للعالم.
هل الذي يحتل المركز هو الإنسان؟ أم يجتذب الإنسان الى المركز بكونه متصفا بصفة من صفات الله؟ كل نقطة للعالم مركز. إذ توجد آية الله في كل نقطة. نور العقل البشري يظل ممكنا الا بفضل النور الأول أصلا. الله

---

[88] *Платон*. Менон. Собрание сочинений в 4-х томах. Том 1, М., «Мысль», 1990, стр. 595.

وحده هو نور الأنوار الذي يضيء كل العالم (السهروردي). لكن الانوار الأخرى الخارجة من هذا النور تصبح مراكز نسبية لما حولها. فينبغي عدم النسيان أن هذه المراكز أو مصادر النور النسبية المستقلة هذه ليست مصدرا أصليا للنور في الحقيقة. والحديث هنا يجري حول فيض النور الثاني والثالث الى ما لا نهاية عن النور الأول. يكتب جيمس في كتابه "البراغماتية" حول مشكلة مماثلة قائلا إن بعض علماء النفس يعتبرون أن العقل (الوعي) يخرج من الدماغ كما يعتبر المسجون الذي يرى تسرب الضوء من القبة الزجاجية أن مصدر الضوء هو القبة، ليس الشمس. والحال أن الدماغ يكون هنا بمثابة أداة للتوزيع[89]. طبعا، فإن كل إنسان، ولو ظهر كمصدر النور ومركز العالم في السياق المعين، إنما هو في الواقع يبدو كمركز تركيز النور الذي يفيض عن الفكرة الإلهية فقط ويوزع النور فور الحصول عليه.

وحسب الاعتقاد المنتشر في الأفلاطونية المحدثة والهرمينيوطقية وفلسفة القرون الوسطى، إن الله موجود في كل نقطة للعالم، والعالم الباقي موجود حوله كفضاء لانهائي. كان أفلاطون يشبه في محاورته "تيماوس" الكون بموجود حي يتكون من الروح. حسب هذا الاعتقاد، فإن هذا الموجود الحي الملحوظ - السماء العملاق والجميل والكامل هو الله المحسوس في الواقع[90]. هنا يضع أفلاطون أسس وحدة الوجود الى جانب إشارته إلى الوحدانية التي كانت قليلة الانتشار* في اليونان وقتذاك.

وليس من باب الصدفة ان أغوسطين كان يعتقد أن أفلاطون كان على علم بمذهب موسى وذلك بعد أن يرى آراءه تتناغم كثيرا مع الإنجيل في بعض الأحيان. بحيث جاء في كتاب موسى أن الله يسمى نفسه برجاء موسى بيهوه، بكلمة أخرى، "موجودات"[91]. يكتب الباحث الروسي أ.و.آخوتين مقتبسا من الوصف الثالث من أصل ٢٤ وصفا لله ورد في "كتاب الأربعة والعشرين فيلسوفا" فيما يتعلق بهذه الفكرة المنتشرة في فلسفة الغرب للقرون

---

[89] *Джемс*. Прагматизм. М., 1910. – Бах: *А.Г.Спиркин*. Сознание и самосознание. М., Политиздат, 1972, стр.34.

[90] *Платон*. Сочинения в трех томах. Т-3, ч-1, М., 1971, стр. 541.

*يعتبر كسينوفان أول ممثل كبير للوحدانية في اليونان القديم. لكن هذه التصورات ما كانت تشمل الرأي العام فيها. ويمكن وصف الوحدانية بالنبوة بالكاد في هذه الفترة بسبب ارتباط مواضيع مؤلفات هوميروس بتصورات تعدد الآلهة.

[91] *Августин*. О граде Божием. ВЫЫЫ. 11. – أنظر: *А.В.Ахутин*. Понятие «природа» в античности и в Новое время. М., «Наука», 1988, стр. 25.

الوسطى: "الله كل في كل أجزائه"[92]. ثم يتم التأكيد في الاقتباس المأخوذ من أفلوطين (Plotin, Ennead III, 7.3) ان كل الموجودات تستمد وجودها من الواحد[93]. (بالمناسبة هذا الفكر يتناغم كثيرا ومذهب "توسع الكون" و"الانفجار الكبير" لعلم الفزياء الفلكية وعلم نشأة الكون المعاصرين.)

لكن في الواقع، أفلوطين بعيد عن فكرة توحد بين الله والموجودات[94]. حسب رأيه، في القمة يأتي الواحد الأول، وعنه يفيض العقل، وعن العقل تفيض النفس. حسب الفلسفة الشرقية، الأجسام (الكائنات) تفيض عن النفس بدورها. تتوسط بين العالم المحسوس والله مرتبتان على الأقل وهما عالم النفس وعالم العقل. والله لا يتمثل في أحداث وأشياء العالم المحسوس مباشرة، بل عن طريق المثل التي يحملها. ويحوي الله كل العالم، وإذن لا موجود بدون مثال. ويمتاز كل شيء أو حادث بدرجة هذه الفكرة (المثال)، لا بما إذا يملكه. وفي المصطلح الإشراقي هذا يدل على درجة الإشراق بهذا المعنى. لا يوجد في العالم المحسوس نور مطلق كما تنعدم الظلمة المطلقة فيه. بكلمة أخرى، إن العالم الذي نسكنه لا يحوي أقطاب الطريق المؤدي من انعدام الفكرة الى الفكرة، ومن الظلمة الى النور. بل هو في الوسط تقريبا.

إن كون الفكرة أمْ تمثيلها المادي وجودا حقا كان من المسائل المركزية للفلسفة طوال القرون.

فكيف يمكن فهم كون الفكرة وجودا؟

يضرب أفلاطون مثلا في الجزء العاشر من كتابه "الجمهورية" ليشرح موقفه ويقول ان لكل شيء ٣ مستويات للوجود. قد يكون للمنضدة أو السرير الذي صنعه النجار صوره الأخرى غيره. أي يرسم المصور في البداية شيئا صنعه النجار، إنما يحاكي شكله على الأقل. وهذا تقليد أو محاكاة.

فعلى أية صورة يصنع النجار المنضدة أو السرير، أو أية صورة يحاكيها؟ إذ أن كل النجارين يصنعون الأسرة في الأماكن المختلفة والأزمنة المختلفة فوراء كثرة الأسرة صفة مشتركة للسرير فيصنعها جميع النجارين على شكل ما وهذا أيضا محاكاة.

لكن محاكاة ماذا؟ وأفلاطون يعتقد وجود السرير (المثالي) الأول في صميم الطبيعة خارج إرادة النجارين، الذي خلقه الإله (الله).

من الطريف ان أفلاطون يتحدث هنا عن إله واحد على اختلاف تصورات تعدد الآلهة السائدة في الفكر اليوناني حينذاك. وهذا الصانع يصنع

---

[92] *А.В.Ахутин.* Понятие «природа» в античности и в Новое время. М., «Наука», 1988, стр. 63.

[93] نفس المصدر .

[94] *Плотин*. Избранные трактаты. Мн., М., 2002, стр.3.

جميع الأشياء الأخرى، كل ما هو موجود في السماء أو في الأرض من جملتهم كل الآلهة[95].

يؤكد أفلاطون محاوره على ان صورة السرير التي رسمها المصور ليست سريرا حقيقيا (جوهرا) بل هي مظهر السرير، كما كان هذا في السرير الذي صنعه النجار إنما هو أيضا صورة ومظهر السرير الأول الطبيعي الذي خلقه الإله (الله). فما الذي يصنعه الناس هو محاكاة ما هو أول وحقيقي. فتكون هنا ثلاث أسرة: السرير (المثالي) القائم بذاته الذي خلقه الإله. ثانيا السرير الذي صنعه النجار وثالثا السرير الذي رسمه المصور. فهكذا يبين أفلاطون ثلاثة صانعين مختلفين لـثلاثة أسرة: الرسام والنجار والإله مشيرا الى ثلاث درجات مختلفة للوجود: الوجود الحق (الطبيعي) ومحاكاته ومحاكاة المحاكاة[96].

إن العلاقة بين عالم المثل وعالم الحس من جهة، بين المحسوسات وظواهرها المتجسدة من جهة أخرى توصف كمحاكاة، حسب رأي أفلاطون. كيف تصل الفكرة التي تعتبر كالوجود الأول والوجود الطبيعي إلى الناس المقلِّدين (المحاكين) (نموذج النجار في هذا السياق)؛ هل تصل مباشرة أم ضمنيا (غير مباشرة)، أو إلى أية درجة تكون الصورة التي رسمها المصور مماثلة للسرير الذي صنعه النجار؟ وما أشبه ذلك من الأسئلة لا يجيب أفلاطون عليها. والفيلسوف يهتم فقط بما هو أول (سابق)، وما هو بعده وما هو حقيقة وما هو مظهر. لكن الجوانب الأخرى للمسألة المتعلقة بـ"الأنا" للإنسان، و"الذاتية"، من الطريف، طرحت بعد مرور عدة قرون في سياق الفينومينولوجيا والوجودية. مثلا، لا يكتفي جان بول سارتر في كتابه "الخيالي: علم نفس الخيال الظاهراتي" بمعالجة مسألة الفرق بين الجسم نفسه وصورته الفوتوغرافية، بين الإنسان وصورته معالجة انطولوجية فيقوم بمقارنة الأحداث الذاتية المعينة. والحق أن سارتر لا يضرب مثالا السرير الجامد، بل الإنسان المعين وهو بيير [97] فهذه الفردانية والخصوصية بدورها تغير الوضع. يصعب علينا المقارنة بين مثال الإنسان (القائم بذاته) الذي خلقه الله وأفراد الإنسان الذين صنعوا من قبل الآخرين كمحاكاة له. إذ لا يمكن الأسطى (النجار) أن يصنع إنسانا ولا حيوانا ويمكن اعتبار الأبوين خالق الإنسان شرطيا. أما الوالدان فلا يحاكيان فكرة ما بصورة واعية وذلك على

---

[95] *Платон*. Собрание сочинений в 4-х томах. Том 3, М., «Мысль», 1994, стр. 390.

[96] نفس المصدر، ص. 391

[97] *Жан-Поль Сартр*. Воображаемое. Феноменологическая психология воображения. Санкт-Петербург, «Наука», 2001, стр. 53.

اختلاف النجار، والإنسان غير قادر على التوصل الى تحقيق أية فكرة (مثال) للإنسان الجديد الصنع. بالطبع، يحمل كل إنسان فكرة الإنسان العامة. لكن حسب ما يصف أفلاطون فإن أفراد الإنسان الواجب اعتبارهم كمحاكاة لهذا المثال خلقوا بدورهم من قبل الله أيضا. أي يلزم الاعتبار ان للناس خالقان على اختلاف كل الموجودات الأخرى.

إن النجار المذكور في المثال الذي ضربه أفلاطون فيما أعلاه يؤخذ كصانع (خالق) الأسرة الموجودة في عالم الحس. لا يعتبر أفلاطون الأسرة المختلفة وجودا حقيقيا بسبب أنها ليست مثال السرير نفسه، بل صورته أو محاكاته. لكن إذا اعترف أفلاطون "صياغة" كل سرير على حدة على مثال السرير الأول لكانت المسألة قد تبدو مغايرة تماما. في هذه الحالة تبرز مسألة وجود خالقين لكل سرير، ليس خالقا واحدا، بالأحرى، تظهر مسألة نقل الموجود الأول في هذا العالم إلى عالم الحس عن طريق المقلِّد. أي أن عالم الأحداث والأشياء هذا الذي نسميه عالم الحس، في الواقع، موطن المثل. فيتم مجرد استنساخ مثال وتوزيعه في جميع الأشياء التي تشترك فيه.

لنتصور المشكلة في منظور جديد نفترض نحاتا يصنع تمثال السرير، بدلا من رسام يصور صورته. وكل تمثال يصبح نفس السرير اذا اختيرت المقاييس والمواد اللازمة له. هكذا، في هذه الحالة، تتحد مرحلتا المحاكاة الثانية والثالثة في مرحلة واحدة. إذا قبلنا وجود المثل كوجود طبيعي وفقا لما قاله أفلاطون، وليست كنموذج فريد من نوعه، في المحسوسات والأشياء بالذات، ووجودها في أذهان الناس الذين يقومون باستنساخها وتوزيعها والذين يكونون كوسيط في هذا العمل، فتبرز المشكلة في شكل مغاير بكثير.

يستند أبو ترخان عند حديثه عن نسبة الوحدة والكثرة الى القرآن الكريم لتبرير فكرة تجلى المثال الأول في الأشياء المختلفة. يقال في الآية ٥٠ من سورة طه على لسان موسى " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى". إن طبيعة الله وخلقه تتصور كروح أو مثال، لأنها ليست جسمانية. ولا شك أن الحديث هنا يدور عن "الشكل" و"الصورة" بالمعنى الأرسطي، أي عن "المثال" (الفكرة)، إذ أنه لا يصح الحديث هنا عن "صورة" الله و"شكله" في المعنى المستقيم. والله يوحي الأشياء بآية أي مثال مميز (نفخ الروح الى جسم الإنسان من هذا القبيل). و"الطريق المستقيم" (الهدى) اللاحق لكل شيءٍ مبرمجٌ في هذا المثال بالذات. أما "الهداية" فإنها في الواقع، هي "القضاء والقَدَر".

في هذه الحالة، يكون المثال المماثل لفرد بيير مثال فردي له، لا مثال الإنسان بشكل عام. أي يشمل هذا المثال الجوانب التي يتصف بها بيير بالذات ويمتاز بها من الناس الآخرين، والمصير الفردي لبيير. وينتقل مثال "الكل"

الى مثال "الجزء". وتتصف بهذه الصفة الكائنات التي يمكن التعبير عنها بأسماء العَلم، والتي تكسب الفردية معنى مستقلا. أي انها تملك المثل الفردية (مثلا، مثال بيير) الى جانب المثال العام (مثال الإنسان).

نقصد هنا فقط المثالَ العامَ إذ أن "مصير" النباتات والحيوانات المقبل (نباتية النباتات وحيوانية الحيوانات) كُتب فيها عندما كانت في حالة الجنين. بحيث ينبت القمح من القمح، والتفاح من التفاح ويكون ولد (شبل) الأسد أسدا. يبقى النوع ثابتا أيا كان. ما هو مبرمج في الجنين ومنقول وراثيا هو الصفات الجوهرية (العامة) للنوع، أما الصفات الفردية فهي تتشكل تحت تأثير البيئة ويسمى بـالطفرة.

نحن الناس نعتقد أن النباتات والحيوانات لا تملك مصيرا فرديا. وماهيتها متضمنة في أنواعها. في هذا السياق ان كل القمح من نوع واحد هو القمح ولا حاجة ولا امكان للتمييز بينها. انعكست هذه الرؤية الالكترونية الموجودة في الفيزياء في مبدأ الالكترونات المتكافئة الشهير. (بيد أن الجزيئات الأولية تختلف أحيانا في تصرفاتها وتخرج عن مبدأ التكافؤ وفي هذه الحالة يعتبر العلماء هذه المسألة أمرا غير مفهوم. مثلا، ان أحداث تصرف بعض الالكترونات بشكل غير عادي في نفس الظروف أدت الى تعمق المناقشات والجدال حول قضية "الإرادة الإلكترونية" وتبقى هذه القضية معلقة حتى الآن لعلماء الفزياء) .

حسب التصور الأناني للإنسان، لا يمكن أن تعيش أية حبة من القمح حياتها الفردية. إذ يرتبط كل وجودها بقمحيتها. هنا مثال عام فقط. ولا يمكن الحديث هنا عن الحياة الفردية والمثال الفردي. ومثال القمحية أو مثال السرير فقط وجود. وهو وجود وماهية على السواء. يتطابق هنا الوجود مع الماهية. ربما الانسان هو الكائن الوحيد الذي يحمل كل منه فكرة فردية مميزة وخاصة به إلى جانب ماهيته الإنسانية العامة. فتتطابق فكرة (مثال) الإنسان العام مع الماهية، أما فكرة الإنسان الفردي فهي تتطابق مع الظاهرة.

يذكر في "الأوبانيشاد" ان كل ما هو موجود هو جزء من كل لبراهمن. "ان الوجود السامي الوحيد هو البراهمن. وهو في الأرض والعلاء، في الغرب والشرق وفي الشمال والجنوب. وليس كل الكون إلا البراهمن." ويتناغم هذا الفكر تناغما مع الوحدوية الإسلامية (monism) أيضا. ان كون الله فوق كل مكان وفي الوقت نفسه احتوائه كل الأماكن هو أحد المعتقدات الأساسية للإسلام. لكن إبراز جوانب هذا الفكر المتعلقة بوحدة الوجود قد يؤدي الى التحريفات.

وتجد الفكرة الرئيسية لهذا التعليم تفسيرها الأوضح في الحوار الذي يجرى بين الأب أودالاكا والابن شفيتاكيتو في "الأوبانيشاد". "رجع

شفيتاكيتو الى بيته بعد أن أمضى اثني عشر عاما في الدراسة، لكن يبدو أنه لم يستوعب الحقيقة العليا (الذات) بعد. وبدأ أودالاكا يسعى الى تعريف ابنه بالحقيقة العليا وهي أتمان. طلب الأب من ابنه أن يعطي له ثمرة من شجرة التين الهندي ويفتحها. أعطى الابن هذه الثمرة وقال: "فتحتها يا أبتي"، سأله الأب "ماذا ترى؟"، أرى "فيها بضع بذرات صغيرة، يا أبتي"، وفقال الأب: "وقسّم تلك البذرات وقل ماذا ترى؟". فعلت، لا شيء، أبتي". أجاب الأب "فتنبت كل الشجرة من الكائن (الذات) الموجود في باطن البذرات، الذي تراه. وباطن البذرات حافل بتلك الذات. كل شيء مدينٌ في وجوده لتلك الذات، إنه الحقيقة، وهو الوجود القائم بذاته."[98]

ثم طلب الأب من ابنه أن يأخذ رشفة من الماء المالح ويقول له ما مذاقه. لكن الملح في الماء ليس مرئيا. ما الذي يعطي طعما هو غير مرئي. كذلك الأتمان ليس مرئيا رغم هذا فهو موجود باطن كل شيء وخارجه. "إنه عليم بكل شيء. لكن يستحيل العقل إدراكه ". فالوجود الحق قد يكون غير مرئي أيضا. إن ما هو مرئي وظاهر زائلٌ وفان، كذلك لا يشترط بالصفات والوظائف. إن الوظيفة الحقيقية لكل جسم أو حدث تكمن في برنامجه الجيني، وليس في ظاهره".

إن محاولات إعطاء الأولية للوجود المعقول والفكرة عند البحث عن الوجود الحقيقي، ومقارنة الوجود المحسوس بالوجود المعقول كانت سائدة ابتداء من العهود القديمة.

وفقا للمفهوم الذي نقترحه، موضوع التجربة الحسية هو الوجود المعقول في الواقع. أما مظهر الأشياء في "العالم المحسوس" فيتحدد بالأفكار المنفعلة (غير الفعالة) التي تحملها. وعملية الإدراك هي في الواقع عملية إشراق هذه الأفكار وانتقالها من الحالة المنفعلة الى الحالة الفعالة وإنعاشها، حيث أن الانسجام والتناغم الداخلي الناشئ بين الفكرتين المختلفتين اللتين يحملهما الإنسان يكون شرطا للحصول الى الحقيقة.

---

[98] نفس المصدر، ص. 29

المصادر والمراجع

1. ابو نصر فارابي. الجمع بين رأي الحكيمين افلاطون الالهي وارسطوطاليس.
2. ابو نصر فارابي. أغراض ارسطوطاليس في كتاب مابعد الطبيعة.
3. *Kaya Mahmut.* İslam filozoflarından felsefe metinleri. İstanbul, 2003. (في التركية).
4. *Aurelius Augustinus.* De Civitate Dei.
5. *Аминразави Мехти.* Ал-Фараби. – Великие мыслители Востока. М. Крон-пресс. 1998. (في الروسية).
6. *Ахутин А.В.* Понятие «природа» в античности и в Новое время. М., «Наука», 1988. (في الروسية).
7. *James W.* Pragmatism // The works of William James. Vol. 1. Cambridge (Mass.)–L., 1975.
8. *The Dialogues of Plato* (Protagoras, Timæus, Meno).
9. *Plotinus.* The Enneads (translated by Stephen MacKenna), London, Medici Society, 1917-1930.
10. *Jean-Paul Charles Aymard Sartre.* L'Imaginaire. Paris, 1940.
11. *Скорцов Н.Е.* Платон о сознании в борьбе с сенсуализмом и эмпиризмом. – Платон: Pro et contra. СПб.: 2001. (في الروسية).
12. *Шаймухамбетова Г.Б.* Арабоязычная философия средневековья и классическая традиция. М., «Наука», 1979. (في الروسية).

كانط، نحو استراتيجية السلام العالمي

الأستاذ سمير بلكفيف ـ الجزائر باحث وأستاذ جامعي جزائري

ملخص:

ما من أمل ينشده الإنسان في عالمنا وزماننا ويتوق إليه بشغف، يفوق ما يتوق إليه في سلام أبدي وكوني، وهو سلام من شأنه أن يحرّر مستقبل الإنسانية من عنائها الأكبر الناجم عن التطور السريع الذي أحرزته صناعة الأسلحة الفتاكة، فغدت تهدّد الوجود البشري على الإطلاق. وفق هذه النظرة الاستشرافية التي يمتزج فيها البعد الأخلاقي والحضاري والإنساني التواصلي ـوالتي تطبعها الغائية المتفائلةـ نجد الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" (1724-1804)، ومن خلال كتابه "نحو السلام الدائم" يحرص على فكرة إنسانيةـعالمية، وذلك من خلال التشريع لسلام كوني وأبدي، مؤكدا أن خلاص الجنس البشري يكمن في تحقيق الكمال الأخلاقي الأقصى للإنسانية، وهو السلام الأبدي.

المقدمة:

إننا نجد كانط، ومن خلال كتابه "نحو السلام الدائم" يقف عند مفترق طريقين، ويتجاوز ذلك من أجل إيجاد طريق ثالث، يعيد فيه الاعتبار لماهية السلام وآليات تحقيقه، فهو من جهة، يتجاوز النظرة المغالية في المثالية (الطوباوية)، والتي يمثلها أفلاطون، ذلك أن كانط كان أكثر جرأة من هذا الأخير، فهو لم يعمل على تأجيل سعادة البشر إلى ما وراء العوالم، وإنما بحث عن كيفية تحقيقها في عالمهم الواقعي، وهي السعادة التي لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير بلوغ السلام الكوني، وهو من جهة أخرى، يتجاوز سخرية وتشاؤمية بعض الفلاسفة، أمثال لايبنتز، والذي أكّد أن السلام ليس سوى تصنعا ولهو غير مجد لحشد من السذج.

يبدو أن كانط إنسان مفرط في إنسانيته، فهو يثق في الإنسان ثقة مطلقة، وفي بعده الأخلاقي والعقلي يعوّل عليهما كثيرا في ضمانات السلام، الأمر الذي يجعل مشكلة السلام ـحسبهـ مشكلة أخلاقية، ذلك أن الأمل في سلام كوني وأبدي يسود العالم، ويستمر بصورة لانهائية مرهون كله بالتربية الأخلاقية، هذا من جهة، ومن أجل تكوين العقل النقدي؛ أي العقل الراشد المستنير، من جهة أخرى، على اعتبار أن تشريع السلام الكوني يقتضي

الاحتكام إلى سلطان العقل، وأن تعيين هذا السلام هدفا إنسانيا نبيلا يوجب- علاوة على ذلك- الإقرار بأخلاقيات التواصل بين الشعوب والدول حتى في حالة الحرب.

وعلى هذا الأساس، تكون إشكالية الموضوع كالتالي: كيف يمكن فهم السلام -بما هو مشكلة سياسية- فهما أخلاقيا ؟ ضمن أية رؤية ووفق أية استرتيجية يفكر كانط في موضوع السلام ؟ ثم ما الذي يجعل مطلب السلام الكوني مطلبا إنسانيا ملحا ؟ وإلى من يتوجه هذا الرجاء (السلام الكوني) أو ذلك النداء سواء كان سخرية أم هجاء ؟ هل يتوجه إلى الناس بعامة أم إلى الساسة بخاصة أم هو قول خاص بالفلاسفة ؟ ثم كيف يكون السلام الكوني حافزا للإنسان في الوصول إلى مواطنة عالمية ؟ وكيف يكون السلام الكوني كفيل كمرجعية إنسانية لحل المسائل الخلافية القائمة بين الدول ؟ وأخيرا كيف يكون السلام محركا أخلاقيا -في حقيقته- يطرح على مستوى الراهن بقوة ؟ أي هاجس هذا الذي يدفع بكانط إلى التفكير في مصير الإنسانية تفكيرا إتيقيا يظل راهنا حتى بعد موته ؟

أولا-حول أهمية وضرورة السلام:

إن تمسكنا بـ"كانط" كمرجعية فلسفية في موضوع السلام الكوني-الأبدي يفسره تأثيره الكبير في تشكيل الوجه الأبرز للحداثة الفلسفية "فلسفة القانون[(1)]"، سواء على مستوى المبادئ أو الإشكاليات، بيد أنه إذا كان كانط قد جعل من النقد والتأسيس شعارا لفلسفته، فقد أبى الفلاسفة اللاحقون عليه إلا أن يكونوا أوفياء لهذا الشعار، حينما رجعوا إليه ليستوعبوا فلسفته ويمارسوا عليها نقدا واسعا، إما لتوسيع مفاهيمها أو تجاوزها أو التضاد معها، ابتغاء بناء فلسفات جديدة[(2)].

ويأتي إسهام كانط في إرساء دعائم وأسس السلام، على اعتبار أن هذا الأخير ليس من فعل الطبيعة، إنما ينبغي أن تصنعه إرادة البشر؛ أي أن السلام يرتبط بالفعل الإرادي للإنسان، بحيث يتوجب عليه أن يعيّن سلوكه بشكل تصبح معه قوانين السلوك لكل واحد تقوم بموجب مبدأ الحرية والحق[(3)]. ونظرا، لأن البشرية تعرف في الوقت الراهن ما يسمى بالنزوع التخريبي، وهو أساس كل مظاهر النزاعات والحروب بما تتضمنه من هدم لقيم الإنسان، وتهديد لوجوده ذاته، ومن ذلك شبح التهديد بالحروب النووية أو الكيميائية أو البيولوجية، هذا الشبح الذي يبقى مسلطا على رقاب البشر دائما، إذا لم يتم السعي إلى التخلص من كل أسلحة الدمار الشامل[(4)].

إن الإنسانية لا تهددها الأخطار الناجمة عن اختلاف الأديان أو اللغات في ظل السلام الكوني-الأبدي، بل تغدو ممكنة في كنف من الحياة الإنسانية الحقيقية، لأن الالتزام الشخصي الحر إلى كونه قيمة أخلاقية في ذاته، يُنمي

حركة التقارب بين الشعوب، ويحفّز القوى الفعالة على التسابق نحو الأفضل، ذلك أن السلام الكوني القائم على العدل والحرية يؤلف أروع مكسب تحققه الإنسانية المتطورة[5].

إن كانط يبدو أكثر تفاؤلية حسب عبارة «Jean Paul Richter »، إذ بقي حتى موته يدافع عن السلام الكوني-الأبدي، ولقد كان على حق عندما أثنى على "هيوم" بوصفه أعطى الدواء البطولي، والذي بإمكانه أن يجلب الشفاء للإنسانية من الحروب وما تخلفه من آلام، حين شبه الأمم المتحاربة (أثناء الحرب) بشخصين ثملين يتشاجران بعصي في محل فخاري، ويلزمهم وقت طويل للشفاء من اللكمات المتبادلة، وفوق ذلك لا بد عليهم أن يدفعوا قيمة وثمن ما حطموه من أواني، بينما النتائج المؤلمة للحرب الحالية قادرة على أن تُحتّم على المتنبئين السياسيين بالإقرار بتوجيه قريب للإنسانية نحو الأحسن والأفضل، وسلام عالمي بدا يلوح في الأفق[6].

إن السلام الحقيقي ليس السلام المؤقت، بعد وقبل الحرب؛ أي عندما يبحث المنتصر عن الاستزادة من الغنائم، بينما يحضر المنهزم نفسه للثأر، بل السلام الحقيقي يتعلق بسلام راسخ ودائم (كوني)؛ أي سلام لا يحتوي منذ تأسيسه على تعقيدات قد تعيقه، فإن سلام مثل ذلك لا يمكن أن يكون كونيا، وهنا ينبغي أن نتعلم مجددا من التاريخ، فمعاهدات السلام كثيرة عبر التاريخ، لكن هذا النوع من السلام هو سلام اتفاق وهدنة، بيد أن السلام الكوني، والذي ينبغي أن يعقب ما يسمى خطأ حتى الآن بمعاهدات الصلح -وهي في الحقيقة اتفاقيات هدنة- ليس فكرة جوفاء، إنما هو مهمة تتحقق رويدا رويدا، وتقترب من غايتها بخطى واثقة ومستمرة، ولابد من الأمل بأن الفترات الزمنية التي تستغرقها هذه الخطوات الصاعدة باتجاه السلام الكوني تتسارع أكثر فأكثر [7].

وعلى هذا الأساس، يقصد كانط بالسلام في قوته كسلام دائم وكوني وعالمي، بما أن العائق يتأتى من الإخفاق في تحقيق مؤسسة عدل عالمية، الآن وقد أصبح الطريق مفتوحا وحتى لو بقي مصطلح السلام موضوع تفكير، فإن خلاص البشرية يتمثل في تحويل هذا التفكير إلى ممارسة سياسية-عملية[8].

ثانيا- نحو تأصيل كوني للسلام أو في كونية المفهوم والمصطلح:

يعرض كانط مشروعه -السلام الكوني- وفق إستراتيجية العقلانية الكونية التي تزدرى كل ما هو جزئي ومتغير، وتبحث عن منطلق يتجه نحو الشمولية، ولعل الدليل على ذلك من وجهة النظر الفيلولوجية هو عنوان الكتاب في حدّ ذاته "نحو السلام الدائم".

إن السلام الكوني هو الحافز الوحيد في بلوغ السياسة الكونية، وما يتبعها من مفاهيم كونية (مواطنة كوسموسياسية، قوانين سياسية كونية، تاريخ كوني، مجتمع كوني أخلاقي ...الخ)، والحقيقة أن المفهوم الكوني للسلام لا يتعلق بفكر يخص حضارة دون غيرها، أو قسما من الإنسانية دون غيره، فلا يعني السلام الكوني ما تقرّه أطروحات الفكر الغربي من مواثيق ودساتير - مع أن السياسة الغربية تنتهك ذلك- ذلك أن المساهمة في السلام تطرح -في نظرنا- طرحا خاطئا عندما نقيسها على مساهمات الغرب فحسب،كيف لا ؟ وهو الذي ينتج نقيضه (الحرب)، وإنما المقصود هنا بالسلام شكل من أشكال الحقيقة، وهو لا يحيل لأي معنى عرقي أو جغرافي أو قومي، إن السلام الكوني المقصود به هاهنا لا هوية له، وربما هو ما يتجاوز كل هوية، فليس هناك معاهدة أو سلام أصيل، كل ما هناك هو كيفيات أصيلة للمشاركة في إرساء السلام الكوني-الأبدي. لذلك فإن كل سؤال فلسفي لا مفر له اليوم من أن يجد نفسه منخرطا في إطار كيفية الحفاظ على النوع البشري-الإنساني، ولابد من أن يطرح على الفكر بما هو فكر إنساني كوني.

إن السلام يجب أن يرتبط بالبعد الإنساني، وبروح المواطنة[9] من أجل تكريس القيم الديمقراطية السامية، على اعتبار هذه الأخيرة كقيمة عالمية-كونية لا يمكن لها أن تقوم إلا في ظل سلام عالمي، لأن القضاء على السلام يعني القضاء على الديمقراطية.

إننا إذن مطالبون للمساهمة في الكونية، بيد أن هذه المساهمة لن تتأتى إلا لمن يقول بفكر شمولي-كوني، يتعالى عن الاختلافات اللغوية والفروق الحضارية والسياسية والأيديولوجية، وفي هذا السياق نجد كانط يثق ثقة مطلقة في الإنسان، على اعتبار النظرة العقلانية لضرورة السلام، والتي ستؤدي لامحالة إلى ربط الممارسة السياسية بالبعد الأخلاقي، ذلك أن العقل العملي (الأخلاقي) يستشرف الخطر الذي لا مهادنة فيه قائلا: "يجب أن لا تقوم حرب البتة، لا بينك وبيني في الحالة الطبيعية، ولا بيننا كدول مبنية داخليا"، هذا السلام الذي أفعل ما يكون في إنهاء الحرب القذرة، والتي ما فتئت جميع الدول من دون استثناء -حتى الآن- تحشد مؤسساتها الداخلية تجاهها، كما لو كانت هي الغاية الأسمى، وإذا كان السلام يظل بالنسبة إلينا مجرد أمنية غالية، فعلى الأقل لن نخطئ قط إذا اتخذنا كمبدأ لنا أن نصبو إليه بدون كلل، لأن هذا هو الواجب[10].

يظهر كتاب كانط "نحو السلام الدائم" سنة (1795)؛ أي قبل كتابه "المبادئ الأولى الميتافيزيقية لنظرية القانون"، حيث صاغه على هيئة معاهدات دبلوماسية، ويتألف من الأقسام التالية:

أولا- ستة مواد تمهيدية تصوغ الشروط السلبية للسلام.

ثانيا- ثلاث مواد نهائية تصوغ الشروط الايجابية العامة الداخلية والخارجية الدولية لقانون السلام.
ثالثا- ملحق أول: يبحث فيه كانط من الناحية الفيزيائية والمادية المحضة في الطبيعة بوصفها ضمان السلام.
رابعا-ملحق ثان: يدعو فيه كانط إلى إعطاء الفلاسفة في تنوير الدولة والحاكمين فيما يتعلق بالأمور السياسية.
خامسا- العلاقة بين الأخلاق والسياسة [11].

إن نصوص الكتاب (نحو السلام الدائم) تتقدم في شكل معاهدة سلام تنتظر التوقيع من الذين سيلتزمون باحترامها، وهو يبدأ "بمواد تمهيدية" تحدّد مجموعة من الشروط بحيث لا يمكن تصور مشروع السلام من دونها، وهناك ميزة أساسية تتمثل في الحذر من كل ما يجعل الثقة المتبادلة مستحيلة، ثم يأتي حينئذ نص المعاهدة المتمثل في "المواد النهائية"، والتي عددها ثلاث؛ يلتزم الموقعون بترقية الدستور الجمهوري في دولهم الخاصة بالدخول في فيدرالية للدول حرة، مؤسسة لحق الشعوب، وبسنّ قانون عالمي محدّد بإكرام عالمي (Hospitalité) -ضيافة كونية- وتنتهي المعاهدة بتذييلين يتعلق كلاهما بما يؤكد إمكانية دوام السلام، يخص الأول ما يضمن السلام، والذي ذهب في اتجاه ما قرره كتابه السابق "تاريخ كوني من وجهة نظر عالمية"، كما يضيف في طبعة لاحقة للكتيب ملحقا خاصا بالعلاقة بين السياسة والأخلاق[12].

:إن كانط نفسه يعتبر كتاب السلام الدائم، وبالرغم من صغر حجمه بمثابة التطبيق العقلي للنظرية السياسية، والتي وضعها في كتابه الشهير "الأصول الفلسفية لنظرية الحق"، ولقد عبّر عن هذا أبلغ تعبير في خاتمة الكتاب المذكور الذي صدر سنة (1797)؛ أي سنتين قبل وفاته.

ثالثا- نحو إشعاعية كونية أو في تجاوز التاريخانية:

بالرغم من اشتغال كانط على مستوى المقولات التاريخية [13] إلاّ أنه يتجاوزها في نهاية المطاف إلى إشعاعية كونية -على حد تعبير ميشال فوكو- بحيث تُختزل لديه كل المنظومات الواقعية إلى حدود لا نهائية، وتغدو معه القوانين السياسية ذات أبعاد كونية لانهائية، الشيء الذي يسمح بالمضي قدماً تجاه سياسة كونية عالمية، وبالتالي إمكانية الانخراط في مواطنة كونية عالمية من أجل التخفيف من وطأة الانتماء ومن ثقل الذاكرة التاريخية [14]، ذلك أن المشكلة الكبرى للنوع الإنساني -فيما يقول كانط- هي بلوغ مجتمع كوني يحكمه قانون كوني، وتفسير هذا أنه في المجتمع وحده يمكن تحقيق استعدادات الإنسان وبالتالي غرض الطبيعة، فيغدو المجتمع منظما وفق دستور كامل وعادل للمواطنين مع تمتع هؤلاء بكامل الحرية، هذه الأخيرة

التي تجد في القوانين السياسية الكونية ضمانا لها [15]. إن الكونية التي يفكّر وفقها كانط هي كونية اختزال الخصوصيات، بينما الكونية التي يبحث عنها هي كونية القانون وعالميته باعتباره قاعدة الفعل التي وضعها العقل الخالص العملي[16]، وهذا القانون ينطلق من الذات الإنسانية التي تقوم بتشريع ذاتي وكوني في الوقت ذاته، لأنها حينما تشرّع لذاتها فإنها تشرّع للآخرين.

إن السياسة الكونية تُحيل إلى ضرب من العالمية التي تتخطى أقنوم المجتمع وأقنوم الدولة معا؛ فهي تؤسس للوطن الآخر، وطن المعنى، وهي تعيد طرح كل نظام وكل قانون وكل سلطة على محك المعنى الذي يمكن للفرد أن يرى نفسه من خلاله؛ أي بما تعنيه ذاته كإنسان، ولا تولّد المواطنة العالمية إلاّ عندما تُكسر دوائر الانغلاق الثقافي ويتاح للذات مباشرة صلتها الطبيعية بالعالم بتوسط الحرية وحدها، وهنا ليست الحرية سوى الإتيان بشيء من مساحة المعنى خارج السلطوي[17]، فيتعلم الإنسان فن العيش معا -بما هو إنسان- على وجه التواصل الكوني وخلق فضاء عمومي قائم على مبدأ العمومية بوصفه شرطا لكل علاقة مع الآخر، وباعتبار الإنسان كائنا عاقلا خاضعا لقوانين العقل العملي، وبوصفه كائنا مستقلا أو غاية في حدّ ذاته ينتمي إلى مجال الكائنات العاقلة بعامة، وباعتبار البشر كائنات أو مخلوقات أرضية تعيش في شكل اجتماعي يملك حسا مشتركا أو حس الجماعة[18]، فإن كل هذا يسمح بقيام ثقافة النزعة الإنسانية، والتي تأخذ بالبعد الإنساني أو إن شئنا الدقة-فيما يقول جاك دريدا- قيام ثقافة المواطنة الكونية[19].

إن مثل هذا الطموح الكانطي، والذي يأخذ معه مجموعة كبيرة من الفلاسفة غير قابل-على الأقل- للتفكير فيه على نحو خال من ضمانات تسمح ببلوغه، لذلك نجد كانط يعتمد على تمفصلات من شأنها إنجاح وتحقيق السلام الأبدي-الكوني، والذي لا يمكن أن يتأتى خارج أرضية أمنية، ورؤية تفاؤلية للمستقبل.

هكذا يكون الحاضر أفضل من الماضي والمستقبل أفضل من الحاضر، وتنعكس هذه الأفضلية الزمانية على مستوى الواقع، بحيث تستطيع الإنسانية بلوغ -ولو بالقدر القليل- مستوى النضج السياسي والأخلاقي، إذ تظهر الدساتير والقوانين التي من شأنها تعزيز الكرامة والبعد الإنساني وتحفظ حرية الفرد، ذلك أن الحقوق هي الشرط اللازم لتعايش الحريات الفردية، وهي أيضا أساس لتصور الدولة من حيث أن غرضها ليس هو إرشاد الناس إلى السعادة بل كفالة النظام لكي يتيسر للإنسانية أن تتقدم نحو الأحسن والأفضل، وحتى يصبح مخطط النمو والتقدم الذي يسير فيه التاريخ الإنساني

هو تعبير عن المثل الأعلى للحرية[20]، فالطبيعة والحرية إن اجتمعتا في فكر الإنسان بحسب مبادئ الحق الكامنة فيه تصبحان وحدهما القادرتين على تقرير هذا الأمر (التقدم) حتى وإن لم يكن ذلك إلا في صيغة غير محددة وكحدث عارض[21]، وإذا كان الحل الأمثل والكامل -حسب أفلاطون- لأي دستور أو لقوانين تامة وعادلة ذات صلاحية كونية يبدو مستحيلا على مستوى الواقع[22]، فإن كانط كان أكثر جرأة من أفلاطون، فهو لم يعمل على اختزال سعادة البشر في قوالب فلسفية ترتمي في عالم المثل خارج عن إرادتهم، وإنما حاول البحث عنها في عالمهم الواقعي عن طريق مشاركة حقيقية في اختيار المصير، وهي السعادة التي لا يمكن أن تكون شيئا آخر سوى بلوغ سلام كوني.

رابعا- المواطنة الكونية في أفق السلام الكوني:

إن الإيمان بالتقدم، سواء من ناحية تاريخ كوني أحسن وأرقى، أو من ناحية انتصار المثل الأخلاقية وقوى الخير في العالم، لا ينتج إلا من خلال ظهور شرعي لفكرة الحق، ولقد شهد المجتمع حادثة من هذا النوع هي الثورة الفرنسية (1789)، إلا أن كانط يدين تطرفها رغم أنها -حسبه- أيقظت في روح الشعوب حماسا خالصا وتفاؤلا بقرب سيادة القانون وسعادة البشر، وبالتالي استئصال النزعة العسكرية ونزع السلاح وإيقاف الحروب، هذه الأخيرة التي تعدّ أكبر مانع أمام التقدم الخلقي، وإذا كانت الحرب هي النتيجة الطبيعية للتعصب والقهر والسيطرة فإن هدف كانط هو أخذ الإنسانية إلى غايتها الكونية، وهي تحقيق سلام كوني-أبدي[23]، على اعتبار أن السلام ثمرة للنهج القانوني على الصعيد الداخلي للدولة ثم على الصعيد الخارجي (العلاقات بين الدول) [24]. إن السلام-فيما يقول كانط- الذي ينبغي أن يعقب ما يسمى خطأ حتى الآن بمعاهدات الصلح، وهي في الحقيقة اتفاقيات هدنة ليس فكرة جوفاء، إنما هو مهمة تتحقق رويدا رويدا، وتقترب من غايتها بخطى واثقة مستمرة، ولابد من الأمل بأن الفترات الزمنية التي تستغرقها هذه الخطوات الصاعدة باتجاه السلام الدائم تتسارع أكثر فأكثر[25].

إن كانط لم يحسم مسؤولية السلام ضمن مقال سنة (1796) إلا أننا نعثر لديه على إجابة شافية عما يكون مسؤولا على السلام الكوني في أحد هوامش كتاب "نزاع الكليات" (1798) في تعليقه عن يوطوبيات الفلاسفة، فلقد تم إخراج "أطلنطا أفلاطون" و"يوطوبيا مور"، و"أقيانوس هارينكتون"، و"سفير أنبيا آلاس"، إخراجا مسرحيا، لكن لم يحدث أبدا القيام بمحاولات تحقيقها، ذلك أن أملنا وتفكيرنا في ظهور كيان سياسي فاضل مهما كان الأمر متأخرا مثلما نفكر بذلك هو حلم عذب، ومع ذلك أن نقترب من ذلك أكثر فأكثر ليس فقط أمرا قابلا للتفكير من جهة أن ذلك يتطابق مع القانون

الأخلاقي[26]، وإنما هو واجب، لكنه لا يخص المواطنين فحسب بل يخص قادة الدول، وكانط يحدد للفلاسفة مالهم وللساسة ما عليهم[27]، للفلاسفة حق التفكير في السلام الكوني، وعلى قادة الدول واجب العمل على الاقتراب منه أكثر فأكثر[28]، لكن السؤال الذي يمكن طرحه في هذا السياق هو: ما هي دوافع وضمانات هذا الحلم العذب والجميل ؟ أو بتعبير آخر: ما هي الآليات التي تمكننا من تحقيق سلام كوني وأبدي أو على الأقل التمهيد له ؟

إن ميثاق السلام العالمي لا يؤلف جزءا من نظرية الحق فقط، بل هو الغاية النهائية بأسرها لنظرية الحق، ذلك أن حالة السلام هي الحالة الوحيدة التي فيها ما هو لي وما هو لك؛ أي حالة قانونية يسودها سلام ونظام، وهذا الأخير لا يمكن أن يُستمد من تجربة أولئك الذين رضوا به حتى ذلك الحين كمعيار لسائر الناس، بل يجب أن يُستنبط قبليا بواسطة العقل من المثل الأعلى لتجمع قانوني للناس تحت قوانين عامة، والواقع أن كل الأمثلة لا تستطيع إلا أن توضح لا أن تثبت، ولئن كان من المستحيل للوهلة الأولى تحقيق فكرة السلام الكوني، فإنه من الممكن أن تؤدي إليها بإصلاح غير مشعور به يتم تبعا لمبادئ راسخة تقودنا دائما إلى هذا الخير الأسمى في ميدان السياسة، ونعني به السلام الدائم بين جميع الدول والشعوب في هذا العالم [29].

إن أول ما يشترطه كانط -في سبيل تحقيق سلام كوني- هو ضرورة تجاوز المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين الدول، والتي يصطلح على تسميتها معاهدات السلام، ذلك أن هذه الاتفاقيات ما هي إلا مجرد هدنة -من أجل جمع قوة أكثر- لمباشرة الحرب من جديد: "لذلك ينبغي ألا تعتبر أية معاهدة صلح على أنها كذلك، إذا ما كان أطرافها قد احتفظوا ضمنا اللجوء إلى حرب جديدة، لأن معاهدة من هذا النوع لن تكون سوى مجرد هدنة وليست السلام الذي يعني انتهاء الأعمال العدائية كافة، ولا يمكن أن نضفي على هذا السلام المؤقت صفة الدائم (الكوني)"[30].

إن الخطوة الثانية نحو السلام الكوني-الأبدي هي ضرورة الحفاظ على استقلالية كل دولة :"فلا يحق لأي دولة من الدول أن تتدخل بالقوة في دستور دولة أخرى ونظام حكمها" [31]؛ أي عدم تدخل أي دولة في الشؤون الداخلية لدولة أخرى، لأن أكثر شرور العالم وحروبها تبدأ بانتهاك دولة لحدود دولة أخرى :"فلا يسوّغ لأي دولة مستقلة (كبُرت أم صغُرت، فهذا لا شأن له في هذا المجال) أن تستحوذ على دولة أخرى لا بالميراث ولا بالمبادلة ولا بالثراء ولا بالهبة، فالدولة ليست ميراثا (على غرار الأرض التي تقوم عليها)، إنما هي مجتمع بشري لا يجوز لأحد أن يتحكم فيه، ولا يحق لأحد أن يتصرف به ما لم يكن من هذا المجتمع بالذات"[32]، هذا، وينبغي كذلك تجنب الوسائل التي من شأنها أن تدفع الدول إلى الحرب، كإزالة الجيوش باعتبارها

تعكس الاستعداد للحرب: "إنه يجب إذن -فيما يقول كانط- أن تزول الجيوش النظامية كليا مع الوقت، لأن ظهور هذه الجيوش الدائم على أهبة الاستعداد للقتال يجعلها تهدد الدولة الأخرى بالحرب تهديدا مستمرا، ومن شأن هذا الواقع أن يدفع بكل دولة من الدول إلى محاربة الأخرى من حيث حشد الأعداد غير المحدودة من الفرق العسكرية"(33). إن الحرب لا تعطل مشروع السلام الكوني فحسب، وإنما تجرّ الدول إلى أزمات مالية عالمية بفعل النفقات العسكرية المستمرة، لذلك: "لا يحق لأي دولة اعتماد الاقتراض لتمويل نزاعاتها الخارجية، فهذا النظام ابتكار بارع استحدثه شعب تاجر من شعوب هذا الجيل، ليضفي على المال قدرة خطرة، وهذا التدبير يمثل ثروة واقفة على أهبة الاستعداد للحرب" (34)، ولعل الأكثر من ذلك -وفق تحليل كانط- أن العلاقات القائمة بين الدول تحتاج إلى ضرورة الحرص على تجنب كل ما من شأنه أن يلغي الثقة القائمة بين الدول، خاصة الدول المتنافسة: "فلا يحق لأي دولة في حالة حرب مع دولة أخرى أن تسمح لنفسها بأعمال عدائية من النوع الذي يجعل الثقة مستحيلة بينهما بعد استتباب السلام، ومن هذه الأعمال مثلا استخدام عناصر تقوم بالاغتيال أو التسمم أو انتهاك حقوق الاستسلام أو التحريض على الخيانة في الدول المحاربة" (35).

هذا، وإن طبيعة النظام السياسي هي كذلك آلية من شأنها أن تقربنا من تحقيق فعلي لسلام كوني-أبدي، لكن السؤال الذي يطرحه كانط هاهنا: هل النظام الجمهوري هو النظام الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى إيجاد السلام الكوني(36) ؟ ولما كان النظام الجمهوري هو وحده الذي يتطلب موافقة المواطنين إما مباشرة أو عن طريق ممثليهم على القيام بحرب ما، ولما كانت ويلات الحرب ونفقاتها وتخريبها، وما تجرّه من ديون يبقى عبؤها باهظا حتى أثناء السلام، فإن تقرير القيام بحرب ما لا يتم إلا بعد تقدير عميق وتفكير دقيق في كل النتائج المترتبة على الحرب، خصوصا، وأن المواطنين أنفسهم هم الذين سيقاتلون ويدفعون من أرزاقهم نفقاتها، وكل هذا يدعوهم إلى التفكير ألف مرة ومرة قبل الإقدام على خوض حرب ما، أما إذا كان أمر تقرير الحرب في يد شخص واحد هو الذي يملك السيادة بل ويعتبر الدولة كلها ملكا له، فإنه سيعتبر الحرب مجرد نزهة مثل نزهة الصيد(37)، ولا يخشى منها على متعه وملذاته، ولهذا فإنه يخوضها لأسباب تافهة ويوكل إلى الهيئة الدبلوماسية أمر تقديم المبررات، وهي هيئة في خدمة الحاكم مستعدة لتقديم ما يشاء من مبررات تقتضيها قواعد اللياقة في المعاملات ما بين الدول(38).

إن إرادة البشر تقتضي العمل من أجل تحقيق سلام أبدي، ولكن هناك على مستوى الواقع ما يناقض ذلك، إذ أننا نجد صراعات وحروب واعتداءات،

وهنا يقرّ كانط -على نحو ميتافيزيقي- على وجود خطة خفية في تقدم التاريخ نحو الأفضل توجّه الإرادة الإنسانية نحو سلام كوني، بحيث يكون لزاما علينا طرح سؤال يتعلق بجوهر البحث عن السلام الدائم وهو: ما الضامن- بالإضافة إلى إرادة البشر- لقيام سلام كوني-أبدي ؟ والجواب أفصحت عنه الطبيعة نفسها، الأمر الذي يجعلنا نتساءل مرة أخرى: ماذا تفعل الطبيعة في هذا الاتجاه لكي تقود الإنسان إلى الهدف الذي يفرضه عليه عقله بالذات كواجب، وبالتالي من أجل تعزيز نزعته الأخلاقية [39] ؟ الحقيقة أن الطبيعة هيئت الناس للعيش في كل أجزاء الأرض وشتتتهم بالحرب في كل الأقاليم حتى أكثرها استيحاشا ابتغاء عمارتها، ثم أرغمتهم بنفس الوسائل على عقد صلات متفاوتة في القانونية[40]، ذلك أن :"السلام ليس مجرد حسن الجوار بين حقين يتجنبان التصادم، إنما هو أكثر من ذلك تبادل في الأفكار والفوائد والبضائع لأن الناس يؤلفون جماعة"[41].

إن سلامة الجنس البشري تتطلب تحقيق الكمال الأخلاقي الأقصى للإنسانية، وتلك هي الغاية العامة للجنس البشري، وبتحققها يتحقق السلام بالضرورة [42]، ذلك أن العلاقة بين الدين الأخلاقي والسلام العالمي-في نظر كانط-هي علاقة تلازم، على اعتبار أن الدين يقوم على العقل، وحياة العقل هي حياة الإنسانية؛ أي فعل الخير والعدل والسلام والمحبة، وتحقيق السلام في تلازم ضروري مع الواجب الأخلاقي، لهذا يرى كانط-وهو محق تماما في هذا وليت العالم ينتبه إلى أهمية ما طرحه في هذا السبيل حتى يمكن تجنب ويلات الحروب الناجمة عن التعصب والتطرف والإرهاب- أن مشكلة السلام مشكلة أخلاقية، فالأمل في سلام كوني وأبدي يسود العالم ويستمر بصورة لا نهائية مرهون كله بالتربية الأخلاقية من أجل تكوين العقل النقدي؛ أي العقل الراشد المستنير -أليست بداية كل حرب جرت في الواقع سببها تهور واندفاعية ؟- والتربية الهادفة إلى تنمية المواهب واحترام الشخصية وفقا للمبادئ الأخلاقية[43]، خاصة وأن المبادئ والقواعد الأخلاقية تحمل البعد إنساني، وهو الشيء الذي يجعلها حينما ترتبط بالسلام تضفي عليه الشرعية الكونية؛ أي يحمل هو الآخر بعدًا كونيا إنسانيا على غرار الأخلاق الكونية[44]. وهكذا نجد كانط يطبق على الأفراد القاعدة الكونية في المجال السياسي من حيث السلام كوني، مثلما هو الشأن في المجال الأخلاقي.

إن الإنسانية الأخلاقية التي تحرك الفعل الخلقي لا تلبث أن تتحول إلى قوة داخلية تحرك العقل نحو تحقيق سلام كوني-أبدي، الأمر الذي يبين لنا أن الكونية ومعها العقل هي محور الفعل الأخلاقي السياسي إذ يظهر العقل كمشرع لما هو أخلاقي-سياسي، ومعه تظهر العلاقة بين الأخلاق والسياسة.

خامسا- البعد الأخلاقي-الإنساني في الممارسة السياسية:

لقد استشرف كانط إمكانية تحول الدولة الكوسموسياسية إلى كيان سياسي يتحكم بكل الدول، أو ما يسميه كانط بـ"مملكة كونية"، لذلك اكتفى ببناء فكرة الحق الكوسموسياسي على مجرد التزام أخلاقي واستعمال عمومي للعقل وإرشاد فلسفي للسياسة[45]، فالالتزام الشخصي الحر إلى جانب كونه قيمة أخلاقية في ذاته، ينمي -في نظر كانط- حركة التقارب بين الشعوب، ويحفز القوى الفعالة على التسابق نحو الأفضل حيث يغدو السلام الكوني-الأبدي القائم على العدل والحرية يؤلف أروع مكسب تحققه الإنسانية المتطورة [46]، وهنا يمكن أن نستحضر "Levinas" ذلك القارئ الجيد لكانط، والذي يتحدث عن العلو الذي يستحوذه الآخر عليّ أثناء لقائه، وعندئذ سيصبح ممكنا النظر إلى الغريب لا كعدو محتمل، ولكن كمواطن عالمي (كوني) على هذه الأرض المشتركة، وكمسافر شاهد على إمكانية الأمل وبحق في مكان تسوده العدالة والسلام [47].

إن كانط يبدو أكثر تفاؤلية حسب عبارة "Jean Paul Richter"، إذ بقي حتى موته يدافع عن سلام كوني-أبدي[48]، ولقد كان على حق عندما أثنى على "هيوم" بوصفه أعطى الدواء البطولي، والذي بإمكانه أن يجلب الشفاء للإنسانية من الحروب وما تخلفه من آلام، حين شبه الأمم المتحاربة (أثناء الحرب) بشخصين ثملين يتشاجران بعصي في محل فخاري، ويلزمهم وقت طويل للشفاء من اللكمات المتبادلة، وفوق ذلك لابد عليهم أن يدفعوا حق ما حطموه من أواني، بينما النتائج المؤلمة للحرب الحالية قادرة أن تحتم على المتنبئين السياسيين بالإقرار بتوجيه قريب للإنسانية نحو الأحسن والأفضل الذي بدا يلوح في الأفق[49].

إن فكرة السلام الكوني-الأبدي التي حرص كانط على صياغتها لم تكف أبدا عن التجذر والتطور في الفضاء السياسي الحالي منذ تأسيس المجتمع الأممي، فقد جعلت من الممكن أن يحتج الجميع على أي اعتداء يقترف بشأن أي إنسان في أي جزء من الأرض، وكانط يبدو على حق حينما قصر مهمة الفيلسوف على الدفاع عن حرية التفكير وعن التهذيب الأخلاقي للإنسانية من أجل توجيهها نحو مستقبل يكون فيه الإنسان غاية في ذاته، والوطن عالما بلا حدود والدولة حقا كوسموسياسيا قائما على ضيافة كونية، ذلك أن مهمة الفيلسوف -حسب كانط- ليست صياغة الدساتير الحقوقية فتلك مهمة المشرّعين والساسة والحقوقيين، إن دوره ليس مواجهة الدولة القائمة وإنما التفكير أمام الإنسانية برمتها؛ أي خارج سقف الملل والنحل، إنه مواطن

كوني في عالم يتسع للجميع[50]، ذلك أن الفيلسوف يريد دائما أن يضفي الشرعية الكونية على أرائه الفلسفية[51].

إننا نجد في حق المواطنة الكونية، التي بشّر بها كانط، والتي لم تعد في نظر "هابرماس" مجرد مبالغة متحمسة في مذهب الحق درجة الاكتمال القصوى الضرورية للحق المدني والعمومي، الشيء الذي جعل "هابرماس" يعترف بأهمية مبدأ العمومية الذي شدّد عليه كانط كمبدأ لكل عملية سياسية، ذلك أن كانط -في نظر هابر ماس- هو من حرص على صياغة العلاقة الحميمية بين التنظيم الحقوقي والثقافة السياسية لشعب ما، وأهمية ذلك في تجذر مفهوم الحرية في تحضر كل أمة وتقدمها.

لقد جعل كانط الحرية هي المرتكز، ذلك أن كل عمل إنساني إذا كان حرا فإنه سيكون في مستوى اللامشروط، وبالتالي في مستوى الكوني الذي يلتمس في كل مرة من حيث معاملة الإنسان كإنسان؛ أي كذات لها كرامة، مما يدل على أن الأخلاق لا تنفك عن الفكر السياسي حيث يلتقي الأخلاقي والسياسي في وحدة التشريع العقلي؛ أي في استناد القانون السياسي-ومعه الأخلاقي- إلى المبادئ القبلية-الأولية وفق مبادئ العقل العملي، فالقانون لا يمكن أن يستخلص مما هو موجود لأنه معياري، ولأنه مساعد لعلم الأخلاق بالمعنى الأوسع والضامن للحريات. إن كانط لم يكن-على حد تعبير بدوي- إلا أكبر "نبي" للنزعة العقلية في القانون.

سادسا- ماذا نتعلم من كانط في عالم اليوم، أو في راهنية كانط ؟

1-الكونية: ربما يمكننا القول أن كانط هو الفيلسوف "الكوني" الوحيد، أو على الأقل الأكثر من شرّع لعقلانية كونية وحرص على الدفاع عنها، فالسلام الذي دعا إليه كانط لا يبدو البتة حكرا على دولة دون أخرى أو مجتمع دون غيره، بل هو سلام كوني خاص بالإنسانية جمعاء، ولما كان الواقع السياسي يفرق أكثر مما يوحد ؛أي يسمح بظهور اختلافات وانتماءات، فقد دعا كانط إلى سياسة كونية تتجاوز التاريخ إلى تاريخ كوني للإنسانية.

إن كانط يراهن على الكونية ضد "الهوية-الخصوصي"، وعلى المدنية ضد القوميات، وعلى الجغرافيا السياسية والجيوفلسفة بدلا من التاريخ وفلسفة التاريخ[52]، وهو الشيء الذي أكد عليه "ميشال فوكو" عندما رأى أن نصوص كانط لا يمكن أن تساعد أي مؤرخ على تحليل التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي حصلت في منتهى القرن الثامن عشر، ذلك لأن مقصد كانط أكثر من ذلك بكثير، إنه مقصد إشعاعي وكوني-لا تاريخي[53]. إن البعد الكوني الذي طرحه كانط يساعدنا على التخفيف من وطأة الانتماء،

ومن ثقل الذاكرة التاريخية، ومن ضروب الأقليات إلى الاتجاه نحو أفق استكشافي كوكبي يشكل مواطنة كونية.

2- فن العيش سويا: يعلمنا السلام الكوني كيف يمكن أن نوجد معًا وكيف نستعمل سويا العالم والمدن بوصفنا مواطنين كونيين، ففي أفق المواطنة الكونية يمكننا تجاوز ما أسماه "فوكو" -ابتزاز الحداثة- أي تجاوز الثنائية المنطقية التي تهيمن على ممارساتنا الفكرية وتصيب عقولنا بضرب من العطالة والدوغمائية (هل نحن مع التنوير أم ضده ؟ هل نحن مع الحداثة أم ضدها ؟ ...الخ).

إن السياسة الكونية تعلمنا فن العيش معا والانتماء إلى وطن واحد هو العالم، وقيام فضاء مفتوح يتجاوز التاريخ والانتماء، ذلك أن هذا الأخير كرّس ثنائية الذات والآخر، وأصبح كل قطب يحمل دلالة (الشرق صورة الضحية أو هو المستعمَر والمتخلف وموطن الإرهاب، الغرب صورة البطل المستنير أو هو المستعمِر وموطن الديمقراطية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان ...الخ)[54].

3- قوة الإنسان في العقل: يعلمنا كانط أن العقل هو الذي ينتج السلام الكوني، وكل أهمية النظرية النقدية في كونها حصرت الاهتمام بكيفية إنتاج المفاهيم الكونية، والعقل -وفق مبادئه القبلية- يضمن الاتفاق والتفاهم، إنه مبدأ العمومية باعتباره يضمن آليات الحوار والنقاش، وقوته تظهر في أنه يربط بين الأخلاق والسياسة (مبدأ التشريع الذاتي). إن كانط يعلمنا الاقتراب أكثر من أنفسنا ومساءلة عقولنا.

4- الراهنية: يعلمنا كانط أنه ما من تفكير إلا ولابد أن يحمل في ذاته الشرعية الكونية؛ أي لابد أن يتجه نحو الراهنية، وكل إجابة يقدمها الفيلسوف لابد أن تكون نموذجا لا تاريخيا، إنها استمرارية ودوام اللحظة؛ أي تجاوز الأبعاد الثلاثية للزمان (ماض، حاضر، مستقبل) نحو إشعاعية لا تعرف اتجاها معينا ولا تأخذ بداية أو نهاية، والفيلسوف الحق هو الذي يضفي الشرعية الكونية على آرائه الفلسفية.

5- التفاؤلية: يعلمنا كانط ضرورة التفاؤل في تقدم التاريخ الإنساني نحو ما هو أفضل وأرقى، وليس من قبيل الحلم بالمستقبل مثلما تتغذى بذلك اليوتوبيات الحديثة، ومع كانط لم يعد بوسع الفيلسوف أن يكون بطلا، وإنما يجدر له أن يتخذ لنفسه مقاما يكون له فيه من الشجاعة على استعمال عقله، وقسط كبير من التفاؤل بالمستقبل، من أجل أن يكون الإنسان الكوني والحر والجريء على استعمال عقله قريب التحقق وليس مجرد حلم من أحلام الفلاسفة[55].

وقصارى القول، إن السلام الكوني عند كانط لا يحيل إلى ضرب من التفكير الخيالي، وإنما منطلق أخلاقي بالأساس وغاية أخلاقية في النهاية يُحرك الذات الإنسانية نحو الاتفاق مع الآخر.

الخاتمة:

لقد أكد كانط على ضرورة بلوغ السلام الكوني، وبالرغم من تشابك وتعقد الآليات التي تضمنه، سواء ما تعلق منها بالبعد الأخلاقي أو العقلي، فإن كانط يكون بذلك قد فتح قارة جديدة، وهي قارة الإنسانية التواصلية، على اعتبار أن مشكلات الإنسان يمكن حلها بالرجوع القهقرى إلى طبيعة الإنسان الخيّرة، والتي تنشد النبل والخير.

إن هذه الثقة المفرطة في الإنسان، والأمل الكبير فيه في تخليص الإنسانية من عنائها الأكبر، تجعل من كانط يقف في وجه أطروحات الفلاسفة والمفكرين الذين أرادوا تكريس الفكر التراتبي، والرؤية المركزية، والبعد الأيديولوجي، بدءا من فلسفة "لايبنتز" و"نيتشه" التي أقرّت بأن حالة السّلم هي دائما خطوة جديدة نحو حرب آتية لمحالة، وصولا إلى أطروحات المعاصرين، أمثال: "صموئيل هيدينغتون" و"فوكو ياما"، والتي حملت رؤية سوداوية عن التاريخ الإنساني ومصيره أيضا.

لقد آن لنا الأوان لكي نميّز بين فيلسوف الإنسانية قاطبة، والذي يحمل همّ الإنسان بما هو إنسان، وبين المشرّع السياسي-المؤدلج الذي يبرّر الحرب والغزو والاجتياح العسكري.

الهوامش:

1- إن الكلمة الألمانية (recht) ونظيرتها الفرنسية (droit) تدل على الحق وعلى القانون معا، ومن هنا قد يختلط الكلام عن كليهما دائما، ولهذا نرجو من القارئ الكريم أن يفهم المعنيين معا حين نستخدم أحد اللفظين: نقلا عن عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979، ص.05

2- محمد المصباحي وآخرون، فلسفة الحق، كانط والفلسفة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2007، ص119.

3- إيمانويل كانط ،نحو السلام الدائم، ترجمة، نبيل الخوري، دار صادر، بيروت،ط1، 1985، ص.12

4- وزارة التربية الوطنية، نصوص فلسفية مختارة، ص.116

5- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص 12.

6- Kant (Emmanuel, Pour la paix perpétuelle, projet philosophique, traduction et traduction, Joël Lefebvre, presses Universitaires de Lyon, 2002, p112.

7- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم المصدر السابق، ص.99

8- فرانسوا مارتي، العدالة العالمية، الطريق نحو السلام، ترجمة، نعيمة حاج عبد الرحمن، مجلة أيس، الجزائر، العدد1، جوان، 2005, ص.52

9- وفي هذا السياق يمكن القول أن مشروع المصالحة الوطنية يعكس بحق مدى النضج السياسي للمجتمع المدني الجزائري، إذ أن تيقن الجزائريين والجزائريات من أنه من دون عودة السّلم والأمن، لن يثمر أي مسعى من مساعي التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالثمار التي يتوخونها منه. نقلا عن: République Algérienne Démocratique et Populaire, Projet de charte pour la paix et la réconciliation nationale,29 9 2005, p8.

10– إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص ص13-.14

11– عبد الرحمن بدوي ، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص ص207-208.

12– فرانسوا مارتي، العدالة العالمية، الطريق نحو السلام، المرجع السابق، ص .53

13- نقصد بها الظروف التاريخية التي أحاطت بنظرية كانط السياسية، ففي ذلك الوقت كان مذهب أو مدرسة القانون الطبيعي هو السائد، وكان كتاب "جروتيوس" "Grotius" (1583-1645) الموسوم بـ "في قانون الحرب والسلام" هو المتن المقرر في كثير من الجامعات الألمانية، ثم صار القانون الطبيعي أساسا في القانون العام السياسي المحلي والدولي, وعلى أساسه أقام "هوبز" نظريته في السيادة، و"لوك" رأيه في أنه لا ضرائب بدون تمثيل نيابي، و"روسو" مذهبه في الإرادة العامة أو الجماعية: نقلا عن عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص ص8-9.

14- أم الزين بنشيخة-المسكيني، كانط راهنا أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2006، ص7.

15- عبد الرحمن بدوي، فلسفة التاريخ عند كانط، أوراق فلسفية، العدد 11، 2004، ص88.

16- فرنسوا مارتي، العدالة العالمية، الطريق نحو السلام، المرجع السابق، ص56.

17- مطاع صفدي، ماذا يعني أن نفكر اليوم ؟ فلسفة الحداثة السياسية، نقد الإستراتيجية الحضارية، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، ط2، 2002، ص88.

18- أم الزين بنشيخة-المسكيني، كانط راهنا أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المرجع السابق، ص.33

19- جاك دريدا وآخرون، المصالحة والتسامح وسياسات الذاكرة، ترجمة، حسن العمراني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص.11

20- عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، ص127.

21- ميشال فوكو، كانط والثورة، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، العدد38-39، 2004-2005، ص15.

22- منير الكشو،التاريخ والتقدم عند كانط، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، العدد38-39،2004-2004، ص21.
23- حسن حنفي، الصراع بين الكليات الجامعية عند كانط،مجلة أوراق فلسفية، العدد11، 2004، ص ص124-125.
24- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص.15
25- المصدر نفسه، ص99.
26- إن ما يجعل كانط يؤسس للسلام الكوني-الأبدي هو تقدم التاريخ نحو الأفضل والأحسن، ولكن ليس كباقي الفلاسفة الذين ينظرون إليه كحتمية، وإنما لأن كانط يربط هذا التقدم التاريخي بالتقدم الأخلاقي.
27- لا ينساق كانط مع أفلاطون في دعوة هذا الأخير إلى أن يكون الفلاسفة حكاما أو الحكام فلاسفة، وكل ما يطلبه من الحكام ألا يكتموا أصوات الفلاسفة بل يتركونهم يبدون آراءهم بحرية، خصوصا وأنه لا خطر على الحكام من الفلاسفة، لأنهم لا يؤلفون أحزابا ولا جمعيات ولا نوادي سياسية. نقلا عن: عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص246.
28- أم الزين بنشيخة،كانط في فضاء هابرماس أو كيف الكلام على السّلم الدائمة ؟ مجلة أوراق فلسفية، العدد11، 2004، ص.411

29- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص ص201-202.

30- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص30.
31- المصدر نفسه، ص34.
32- المصدر نفسه، ص31.
33- المصدر نفسه، ص ص32-33.
34- إن تشريع السلام الكوني يقتضي الاحتكام إلى سلطان العقل، وإن تعيين هذا السّلم هدفا إنسانيا نبيلا يوجب-علاوة على ذلك- الإقرار بأخلاقيات التواصل بين الشعوب والدول حتى في حالة الحرب، حيث يفرض كانط على الدول المتحاربة ما يسمى بآداب الحرب، وهو ما من شأنه أن يذكرنا بآداب الحرب عند المسلمين في بواكيرهم الأولى، نقلا عن: المولدي عزديني، في راهنية العقل والأخلاق، موقعها في تشريع مطلب "السلم الأبدية" عند كانط، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 128-129، 2004، ص.86
35- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص.64
36- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص231.
37- لقد أجاب أحد الأمراء البلغاريين إمبراطورا يونانيا، كان هذا الأخير قد اقترح عليه الاقتراح الشهم؛ أي المنازلة المفردة لإنهاء الخلاف بينهما دون سفك دماء الرعايا، فقال: "الحداد الذي لديه ملقط لا يستخرج قطعة الحديد المحمّاة بيده". نقلا عن: إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص32.
38- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص232.
39- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص64.
40- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص188.
41- Emmanuel Kant, pour la paix perpétuelle, op.cit, p 42.
42- عبير سعد، الدين والسلام عند كانط، مجلة أوراق فلسفية، العدد 11، 2004، ص312.
43- المرجع نفسه، ص ص311-312.

44- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، المرجع السابق، ص191.
45- أم الزين بنشيخة، كانط في فضاء هابرماس أو كيف الكلام على السّلم الدائمة ؟ المرجع السابق، ص.420
46- إيمانويل كانط، نحو السلام الدائم، المصدر السابق، ص.12
47- فرانسوا مارتي، العدالة العالمية، الطريق نحو السلام، المرجع السابق، ص62.

48- Emmanuel Kant, pour la paix perpétuelle, op, cit, p42.

49- Ibid. p 112.
50- أم الزين بنشيخة، كانط في فضاء هابرماس أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المرجع السابق، ص.516

51- يريد الفيلسوف دائما أن يضفي الشرعية الكونية على آرائه ونظرياته الفلسفية، وتاريخ الفكر الفلسفي يبيّن مدى إسهام الفلاسفة في وضع تشريعات ومبادئ كونية لا تقبل التغير والاستثناء، فنحن نجد -مثلا- في فلسفة أفلاطون أو أرسطو نموذجا حقيقيا لمحاولة بلوغ ما هو كوني،كما أننا نجد القديس "أوغسطين" يبحث في العصر الوسيط في إمكانية تجسيد الكوني الذي أسماه "مدينة الله"، وفي الفكر الإسلامي نجد "الفارابي" يشرّع لما هو كوني من خلال مدينة فاضلة ودولة عالمية واحدة تحمل في ذاتها قيمة كونية.

52- أم الزين بنشيخة-المسكيني، كانط راهنا أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المرجع السابق، ص.217
53- صالح مصباح، التنوير الكلاسيكي في تنوعه وتاريخيته، راديكاليا ومعتدلا ومضادا، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، العدد 38-39، 2004-2005، ص.66
54- أم الزين بنشيخة-المسكيني، كانط راهنا أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المرجع السابق، ص.218

55- المرجع نفسه، ص219.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أم الزين بنشيخة-المسكيني، كانط راهنا أو الإنسان في حدود مجرد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2006

2- إيمانويل كانط ،نحو السلام الدائم، ترجمة، نبيل الخوري، دار صادر، بيروت،ط1، 1985

3- جاك دريدا وآخرون، المصالحة والتسامح وسياسات الذاكرة، ترجمة، حسن العمراني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2005

4- حسن حنفي، الصراع بين الكليات الجامعية عند كانط،مجلة أوراق فلسفية، العدد11، 2004

5- عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979،

6- عبير سعد، الدين والسلام عند كانط، مجلة أوراق فلسفية، العدد 11، 2004

7- عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت

8- فرانسوا مارتي، العدالة العالمية، الطريق نحو السلام، ترجمة، نعيمة حاج عبد الرحمن، مجلة أيس، الجزائر، العدد1، جوان، 2005

9- محمد المصباحي وآخرون، فلسفة الحق، كانط والفلسفة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2007،

10- مطاع صفدي، ماذا يعني أن نفكر اليوم ؟ فلسفة الحداثة السياسية، نقد الإستراتيجية الحضارية، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، ط2، 2002

11- منير الكشو،التاريخ والتقدم عند كانط، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، العدد38-39،2004-2004

12 ميشال فوكو، كانط والثورة، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، العدد38-39، 2005-2004

1-République Algérienne Démocratique et Populaire, Projet de charte pour la paix et la réconciliation nationale,29 9 2005

2Kant (Emmanuel, Pour la paix perpétuelle, projet philosophique, traduction et traduction, Joël Lefebvre, presses Universitaires de Lyon, 2002

الفنون

القيم الجمالية والرمزية للفن الإسلامي

Aesthetic and symbolic values of Islamic art

د. شامخ زكريا مفلح علاونه أستاذ مساعد: قسم التاريخ

القيم الجمالية والرمزية للفن الإسلامي

Aesthetic and symbolic values of Islamic art

د. شامخ زكريا مفلح علاونه أستاذ مساعد: قسم التاريخ
جامعة القدس المفتوحة. فلسطين فرع رام الله والبيرة التعليمي

Abstract:
The research explored the subject of aesthetic and symbolic values for the Islamic religious Arts of its all kinds and patterns, whether different floral, architectural; inscriptions; paintings, photography and other Islamic patterns in the various Islamic arts> The research also discussed the components of aesthetic values represented in the elements of Islamic Art as parity, commitment ,repetition and uniformity and simplicity, time use values and other renewable values in Islamic Art.

The research also addressed the symbolic meanings of some of the graphics through the verses of the Holy Quran which are many as symbolic numbers and timings, punishments, fonts, and various symbolic graphics and other reflecting artistic images and religious and spiritual portrayals, a s well as natural symbolic of nature, life and the afterlife.

The research also focused on highlighting aesthetic values of the Islamic architecture which can be summarized in various elements and components of The Mousque. It also touched the subject of photography and the study of Islamic paintings, related to the Heavens, its people, their attributes and characteristics in the imagery, especially in the various palaces, baths and various building.

ملخص:
تناول البحث موضوع القيم الجمالية والرمزية الدينية للفنون الإسلامية بأنماطها المختلفة سواء الزخارف النباتية والمعمارية والنقوش الكتابية؛ واللوحات الفنية والتصوير الإسلامي وغيرها من الأنماط المختلفة في الفنون الإسلامية، كما وناقش البحث مكونات القيم الجمالية التي تتمثل في عناصر الفن الإسلامي كالوحدة والتماثل والالتزام والتكرار والتجانس والبساطة وملئ الفراغ وغيرها من القيم المتجددة في الفنون الإسلامية.
وعالج أيضاً رمزية ومدلولات بعض الرسومات من خلال آيات القرآن الكريم وهي كثيرة كرمزية الأرقام والمواقيت، والحدود، والخطوط، ورمزية الرسومات الخماسية والسداسية والثمانية وغيرها مما يجسد صور فنية بقوالب دينية وروحية ، وكذلك الرمزية الطبيعية للطبيعة والحياة والآخرة.
وركز البحث كذلك على إبراز القيم الجمالية للعمارة الإسلامية التي تتلخص في نموذج المسجد بعناصره المختلفة، كما تطرق إلى موضوع التصوير الإسلامي ودراسة نموذج اللوحات الفنية التي تتعلق بموضوع الجنة وأهلها وصفاتهم في التصاوير المختلفة خاصة في القصور والحمامات والعمائر المختلفة.

مقدمة:
إن وظيفة الفن هي صنع الجمال؛ والزخارف المختلفة تعتبر واحدة من الطرق المهمة التي تصنع هذا الجمال المنشود، لذلك فهي تتصدر المرتبة الأولى بين الفنون الإسلامية المختلفة، وبالتالي فالعمل الفني مهما كان نوعه ونمطه يقصد به الوصول إلى قيمة جمالية ظاهرة وأخرى روحية ورمزية باطنه، تعبر عن مكونات الجمال وهو ما تتميز به الفنون الإسلامية. ولكي نستطيع دراسة القيم الجمالية والفنية للفنون الإسلامية المتنوعة؛ لا بد من التعرف أولاً على هذه القيم الموجودة في الفنون الإسلامية المختلفة سواء كانت في العمارة الإسلامية أو التصوير الإسلامي أو الزخارف النباتية أو الهندسية، إضافةً إلى الخزف الإسلامي أو الخط العربي بأنماطه المختلفة، لأن جميع الفنون الإسلامية تحتوي بين ثناياها على قيم روحية وجمالية وفنية غاية في الإبداع والإتقان.
ومن أهم القيم الجمالية للفن الإسلامي التي تتمثل في موضوع العمارة الإسلامية والزخرفة النباتية والزخرفة الهندسية والتصوير الإسلامي والخطوط الإسلامية؛ علماً أنه يوجد خصائص وعناصر فنية لكل فترة

إسلامية والتي تتمايز عن الفترة التي تلتها كالفن الأموي على سبيل المثال الذي يتمثل بالزخارف النباتية والمعمارية التي لا زالت قائمة في قبة الصخرة والمسجد الأموي بدمشق وجامع قرطبة في الأندلس، وكذلك الفنون الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية.

ولكن مهما كان التباين في مواضيع الفن فإنه غاية في الإتقان والجمال والأبهة من منطلق إيحائي من خلال قوله تعالى:"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (البقرة، آية 177)؛ وكذلك قوله تعالى"هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِيءُ المُصوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحسنى يُسبِّحُ لهُ ما في السمواتِ و الأرضِ و هو العزيزُ الحكيم"(الحشر،آية 24)، وغيرها الكثير من الآيات التي تدل وتدعو المسلم إلى الإتقان والتفاني والإخلاص في العمل من منطلق الفوز بسعادة الدنيا والآخرة، فالفن الإسلامي يتميز بتمايز أصالته وتكامله وتماثله في موضوع الطبيعة والكون، فسيطيع الإنسان أن يفهمه كما يشاء ظاهراً وباطناً وفي الخيال وبشكل محدود وبشكل يعبر عن اللا محدود كما هي مخلوقات هذا الكون الإنسانية بسلالاتها وأشكالها المختلفة؛ والنورانية والشمسية والطبيعية والحيوانية والنباتية.

الجمالية الفنية والروحية للعمارة الإسلامية:
المسجد نموذجاً

أعُتبر ولا يزال المسجد في الإسلام رمزاً من رموز العمارة الإسلامية وشخصية المدينة والقرية والتجمع السكاني والذي غالباً - وبصورة تقليدية - يتوسط تلك التجمعات السكانية للدلالة على الوسطية وعلى التساوي بين الناس من حيث القرب من المسجد من منطلق مركزي؛ فأول عمل قام به الرسول (ص) بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة 622م[(99)]، وهكذا أصبح دارجاً عند الخلفاء المسلمين أثناء الفتوحات بناء وتخطيط مسجد المدينة ومنه يتم تحديد الأحياء والأسوار والقلاع والمعسكرات بعد الفتوحات الإسلامية في الدولة الإسلامية ابتداءً من فترة الخلافة الراشدة وانتهاءً بفترة الخلافة العثمانية.

فالمسجد هو المكان الجامع، فيه تتم صلاة الجماعة، يلتقي الناس ضمن دائرة الحي، وفيه يلتقي المسلمون يوم الجمعة ضمن دائرة المدينة، كما ويلتقي الراغبون في العلوم الدينية، فهو مركز للثقافة، وفيه القيم الروحية

---

99 كريزويل، ك. العمارة الإسلامية الأولى، نقله إلى العربية:عبد الهادي عبله، استخرج نصوصه وعلق عليه:أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ط1،1984،ص16.

والجمالية التي يبحث عنها المسلم لذاته ولإشباع رغباته الدينية والروحية[100] فالمسجد ركن أساس لوحدة العقيدة الدينية في الإسلام وزخرفتها لم تخرج عن القواعد المتبعة في العمارة المدنية ، وقد اتخذت أشكالاً معمارية خاصة للتمايز بها عن بقية دور العبادة ولأسباب اقتضتها الحاجة العملية لتحديد جدار القبلة والصلاة[101].

يوجد في المسجد قيم جمالية ورمزية دينية وروحية تتجسد بذات العناصر التي يتكون منها المسجد، فبعد انتقال الخلافة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان من المدينة المنورة إلى دمشق سنة(42هـ/ 661م)، تم إدخال العناصر المعمارية وبجماليتها وزخارفها المختلفة كالمئذنة والمحراب والساحة المكشوفة والمداخل والقباب والمقرنص والزخارف النباتية المختلفة وغيرها من العناصر المعمارية في كل من مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق ومسجد قرطبة في الأندلس ومساجد شمال أفريقيا مثل مسجد القيروان في تونس والقيروان في مدينة فاس وغيرها من العمائر الإسلامية الأولى في الدولة العربية الإسلامية[102]. وقد أضيفت تلك العناصر المعمارية والفنية للمسجد في سياق أو ضمن المعايير الأخلاقية والدينية التي لم تغب أبداً من الخطاب الإسلامي حول الفن[103].

تتمثل جمالية العمارة الإسلامية في الكشف عن الجوهر الخالد، وهو الجوهر الكوني الذي لا يقبل التجزئة ولا يقبل التباين والاختلاف، وهذا الكشف يتم بإلغاء الجوانب الحسية الزائلة في شخص الإنسان وفي الطبيعة المحيطة لهذا الإنسان؛ وقد واجه الفنان المسلم بداية الأمر صراعاً داخلياً فيما يتعلق بالرؤية الروحية والرؤية الدنيوية لتجسيد هذه القيم، والمتأمل لهذه العمارة يشعر بنشوة وهو يتأملها، وبالغيبوية في مضمونها وشكلها فتثير فيه حالة من الإحساس بالبحث والتفكر في غيبويتها ومضمونها [104]. إن القيم الجمالية في الفن الإسلامية قيم فنية متجدد ومختلفة فعندما ندرس نمط المآذن

---

100 بهنسي، عفيف. الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط1، 1998، ص26.

101 كونل، أرنست. الفن الإسلامي، ترجمة د احمد موسى، بيروت: دار صادر، 1966، ص11.

102 سامح، كمال الدين. العمارة في صدر الإسلام، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، 1971، ص17.

103 كرابار، أوليغ. كيف نفكر في الفن الإسلامي، ترجمة: عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط1996،1، ص39.

104 جودي، محمد حسين. خصائص العمارة الإسلامية خصوصيتها، ابتكاراتها، جماليتها، عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 1419 هـ/ 1998م، ص97.

الأولى في العمارة الإسلامية المبكرة نجدها تجددت من المئذنة المربعة إلى الأنماط المختلفة حيث تطور مفهوم ونمط وشكل المئذنة في الفترات اللاحقة[(105)]، فالجمال الفني نسبي وليس مطلق في كل الفنون وليس في الفنون الإسلامية وحدها، فالعمارة هي التلاؤم الجمالي المتزايد مع البيئة والفكر الإنساني، وقد لعبت البيئة دوراً مهماً في التنوع الجمالي للعمارة الإسلامية والفنون الزخرفية المختلفة حسب الاختلاف في نمط البيئة والبيئة المحيطة[106].

فالجمالية الفنية والرمزية والروحية للعناصر المعمارية في المسجد تتمثل في الجانب الديني أولاً والدنيوي ثانياً، فالمئذنة في الإسلام جمالية رمزية دينية وجمالية فنية تتمثل في كون المئذنة منارة للدعوة إلى الصلاة وللدلالة على المسجد[(107)]، كما تدل على امتدادات واتساعات فضائية نحو المطلق[(108)]، فغالبية المآذن تنتهي برأس مدببة لتخترق حجب السماء، وهي تعتبر رمزاً لارتباط المسجد بالسدة الإلهية[(109)]، كما أن المئذنة المكان المرتفع في المسجد، والمئذنة ليست بدعة وهي عنصر من العناصر الهامة في المسجد، ومن المعروف أن بلال الحبشي علا سطح الكعبة للآذان يوم فتح مكة ليؤذن فوقه، فالمئذنة تطورت مع مرور الوقت وعرفت كل منطقة في العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس نمطاً مختلفاً عن المناطق الأخرى[(110)]، وهي تدل على هوية البناء لغاية هذا اليوم وهي ركن أصيل في المسجد[(111)].

فالمآذن لها ثلاث قيم وهي الوظيفية والجمالية والمعنوية. وكما تتضمن قباب صغيرة تعلوها فهي غالباً ما ترمز إلى السماء وكما يعلوها الهلال

---

[105] بهنسي، عفيف. العمارة العربية الجمالية والوحدة والتنوع، الرباط: المجلس القومي للثقافة العربية، د.ت.، ص23-37.

[106] المرجع السابق، ص109.

[107] كرابار، أوليغ. كيف نفكر في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ص26.

[108] جودي، محمد حسين. العمارة العربية الإسلامية خصوصيتها، ابتكاراتها، جمالياتها، مرجع سابق، ص98.

[109] عبيد، كلود. التصوير وتجلياته في التراث الإسلامي،بيروت:مؤسسة مجد للدراسات والنشر والتوزيع،ط1، 1428 هـ/2008م،ص104.

[110] عكاشة،ثروت. القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، القاهرة: دار الشرق، ط1، 1414 هـ/1994،ص128.

[111] الشامي، صالح حمد. الفن الإسلامي التزام وإبداع، دمشق:دار القلم،ط1، 1410 هـ/1990م،ص304.

والذي يرمز للمواقيت والحج[112]. بسم الله الرحمن الرحيم "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ "(البقرة:189). وللهلال رمزية لا تكاد تحصى إذا أردنا التبحر في هذا الموضوع؛ فبه يتحدد مواقيت الصلاة الليلية الفجر والمغرب والعشاء، وبالتالي تحديد الأشهر الهجرية، وتحديد شهر الصيام شهر رمضان، ومن خلاله يتحدد بدء شعائر ركن من أركان الإسلام وهو الحج.ومع ذلك لم يستخدم الهلال كرمز ديني للديانة الإسلامية فترة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وقوله تعالى"هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ" (يونس: 5)

لقد أنشئت القباب الأولى في الإسلام بشكل واضح في العصر الأموي وتمثل ذلك في قبة الصخرة والمسجد الأموي بدمشق[113]، فالقباب الأولى نصف كروية أو دائرية الشكل نصفها في السماء والآخر لا وجود له، فبذلك فالنصف الأعلى يمثل السماء والآخر معنوي لا وجود له ويمثل الأرض، فهذا يعني أنه يرمز للجانب الديني الروحاني المتمثل في الصلاة والأخر الدنيوي الذي يمثل الجانب الوظيفي المادي للمسجد للإنارة وتقليل استخدام الدعامات والأعمدة. فالرمز الروحي للقبة يعني شكل السماء الذي يشبه القبة التي تحيط بالأرض واتساع الفضاء من جانب آخر[114] أما المحراب كأحد العناصر الجمالية والمعمارية في المسجد ليست بالضرورة أن يكون المحراب على شكل حنيةً؛ ولم يكن في مسجد الرسول محراباً وقد كانت إشارة للدلالة على مكان الإمام في المسجد وقت الصلاة، ولم تعرف المساجد المحاريب إلا زمن الوليد بن عبد الملك حيث تطور نمط وشكل المحراب في الفترات اللاحقة منها ما عرف بالمحاريب الأموية والفاطمية والأندلسية والتركية والمغولية والعثمانية[115].

لقد زخرفت بشتى أصناف الرخام والرسومات المعمارية المختلفة كدليل على أهمية هذا العنصر المعماري والذي يرمز للإمامة والوحدة في أداء حركات الصلاة وطقوسها المختلفة خلف إمام المسجد في الصلاة، هذا بالإضافة إلى دلالات دينية أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم في أربعة

---

112 البدوي، مصطفى حسن. لطائف الإشارات في أسرار المآذن والمنارات، القاهرة، شركة الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، 1ط،1429 هـ/2008م،ص39.

113 عكاشة، ثروت. القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص131.

114 مصطفى، صالح لمعي. القباب أشكلها، مصادرها، تطورها، بيروت: دار الفكر العربي، 1977، ص11؛ وزيري، يحيى.موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ج2،ط1999،1م، ص79.

115 مؤنس، حسين. المساجد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،1981،ص80.

مواضع بذكر كلمة المحراب نذكر منها كقوله تعالى" فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً"(آل عمران:37). كما نجد غالبية سجاد الصلاة في المساجد والبيوت تنسج على شكل محراب فهي بالتالي تأكيد المحراب ودوره في ذهن المصلي حتى وإن كان في غير المسجد، ومع وجود المحراب في المسجد فغالبية سجاد المسجد ينقش ويزخرف عليه شكل المحراب حتى يساعد المصلي في التركيز بالصلاة والخشوع ولم يرسم عليها رسومات أخرى. وربما ترمز للمسجد كونه المكان الديني الوحيد الجامع للصلاة فيه عند المسلمين[116].

والمنبر لا يعتبر حقيقةً من المعالم المعمارية في المسجد وإنما جزءاً منفصلاً عنها خاصة في بدايات الدولة الإسلامية فغالبية منابر المساجد في تلك الفترة منابر خشبية؛ وتشير المصادر التاريخية أن بعض الخلفاء كان يأخذ منبره معه عند الانتقال من ولاية إلى أخرى بعيدة إما كهدية لتلك الولاية أو لانه يعلم أن لا منبراً في مسجد تلك الولاية أو المدينة، كما كان يفعل معاوية، وكذلك منبر صلاح الدين وغيرها من الأمثلة، وأول المنابر الخشبية المتحركة كانت قد ظهرت في الأندلس؛ ومن مدلولات هذه المنابر من الناحية السياسية والدينية أنها كانت رمزاً للسلطان؛ ولكن ليست بالضرورة أن ترمز للسلطان؛ فوظيفتها دينية لإلقاء الخطب يوم الجمعة من قبل خطيب المسجد حتى يكون في مكان بارز او مرتفع قليلاً عن الناس لدواعي الصوت والانتباه والاهتمام بما يقوله شيخ المسجد أو إمام المسجد[117]. أما الجانب الجمالي فقد نقشت عليها الآيات القرآنية غالباً وقليلاً منها ما زخرف بزخارف نباتية سوى بعض جدرانها الخارجية خاصة الرخامية منها، أما الخشبية فقد أستخدمت فيها شتى أصناف التعشيق والتكفيت والتربيع والزخارف الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعين والأشكال المختلفة والأرابسك ، فعلى سبيل المثال فالأربسك يعتبر إتمام للعمل الفني في صورة تأكيد وتدعيم وإكمال للمنظر العام للزخرفة سواء كانت محراباً أو منبراً أو غيرها[118].

أما فيما يتعلق بالأعمدة التي توجد في غالبية المساجد الإسلامية فتمثل التناظر والتساوي والتعامد والتقاطع والإلتقاء من منطلق هندسي حسابي، فإذا نظرت بشكل متعامد أو متناظر من زاوية جانبية تشاهد مدى الدقة والتساوي

---

116 خليفة، ربيع حامد. الفنون الإسلامية في العصر العثماني،القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ص1، 2001، ص45-50.

117 مؤنس، حسين. المساجد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981،ص82.

118 سعيد، حامد. الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها،القاهرة: دار الشروق، ط1، 1421 هـ/ 2001م، ص56.

في النسب والمسافات بين هذه الأعمدة في كثير من المساجد الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر والأندلس وشمال أفريقيا؛ ففي المقام الأول فهي قيمة معمارية هندسية حسابية مشتركة تمثل أحادية التخطيط والفكر الهندسي الإسلامي الذي يمثل أيضاً رؤية هندسية ودينية في آن واحد عند التفكير والبدء ببناء المساجد بحيث تشمل عنصر التساوي في الأعمدة من كل الزوايا ومن حيثما نظرت إليها لتنافس العمارة البيزنطية في تلك الفترة الإسلامية الأولى، وتظهر بما يليق بالمكان الديني الذي يؤمه المصلون في اليوم خمس مرات(119).

يتبين مما سبق ذكره من قيم جمالية فنية معمارية ورمزية في المسجد نموذجاً للقيم الجمالية المعمارية والرمزية الروحية، إذ لا ينفصل الجانب المادي عن الجانب الروحي أو الإيحائي بغض النظر عن نمط وشكل وطريقة الإيحاء بواسطة رموز أو إشارات ضمنية في الفنون الزخرفية الإسلامية، فنجد في القصور الأموية والحمامات والقلاع والأسبلة[120] وغيرها من المباني المعمارية ذات قيم جمالية لا مثيل لها في الفنون الأخرى وبالتالي أقتصر الحديث في الجزء الأول من هذا البحث على العناصر الجمالية والمعمارية في المسجد كنموذج لهذه القيم.

أن القيم الجمالية الخالدة في الفن الإسلامي الخاص بالجانب المعماري مثل التوازن والتماثل والتناغم في الأنماط المعمارية خاصة في الأعمدة والقباب والساحات المكشوفة والمنابر والأقواس تجسد أولاً شخصية الدولة الإسلامية من الناحية الدينية وتسجد ملامح الدولة الإسلامية من الناحية المعمارية بطابع إسلامي خاص، كما وتسجد الرمزية السياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية، بحيث أصبحت إشارة المسجد أو بالتحديد المئذنة في جميع خرائط العالم السياحية خاصة في الدول غير الإسلامية كرمز لمكان المسجد وبالتالي كرمز للإسلام وبالتالي كرمز للعقيدة والشريعة وبالتالي كرمز للمسلمين بالإضافة لتحديد المكان.

فنجد تقريباً مثالية الفن الإسلامي كقيمة لا توجد في غالبية الفنون غير الإسلامية، فالفنان المسلم يسعى وراء المكونات الكامنة ووراء الأشياء، وانسجامها مع المعاني الإلهية، وبالتالي فبهذه المثالية لم يقصد الكشف عن

---

119 فكري، أحمد. مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة: دار المعارف، 1961، ص81؛ نويصر، حسني محمد. الآثار الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 1998، ص 73؛ مرزوق، محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس،بيروت:دار الثقافة،1979، ص117.

120 الحسيني، محمود حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، القاهرة: مكتبة مدبولي،د.ت، ص92.

الغامض وإنما الكشف عن أعماق مضامينها المختلفة خاصة الإبداع والخلق والكون، فيذكر البهنسي أن معايير جمالية الفن الإسلامي تكمن في الحرية والإبداع، والبحث عن المثل، والتسامي والإطلاق، فمن هنا فقد تحققت حرية الفنان المسلم نتيجةً لارتباطه بالمطلق حسب منظور التوحيد الذي قامت عليه العقيدة الإسلامية، ومن خلال الفن يمارس الإنسان الإبداع في التصوير الحيواني خاصةً وهي مثُل يبحث عنها الفنان لإرضاء مكنون أو ظاهر النفس، وهنا في هذا الموضوع ليس هدف الفنان الخلق وإنما الإبداع، كما ويتضح موضوع التسامي من خلال تصوير الجنة ليس مضاهاةٍ لله سبحانه وتعالى وإنما إظهار قدرة الله وهنا الفرق بين تصوريين لهذا الجزء من الفن والزخرفة الإسلامية[121].

الزخرفة النباتية:

الله سبحانه وتعالى مهد الطريق للفنان المسلم من خلال آياته القرآنية بذكر الأشجار والنباتات في 112 آية في 47 سورة وذكر 16 نبتة بأسمائها في القرآن[122]، ومنها على سبيل المثال لا الحصر كقوله تعالى" وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ... "(الأنعام: 99).

تعتبر الزخارف النباتية تجسيداً لما اخبر عنه الله في القرآن والمتمثل في أشجار الجنة المختلفة التي أخبرنا الله عنها بجانب الأنهار ، فبعض اللوحات تمثل وترمز إلى جنة الآخرة؛ وبعضها يمثل واقع جنة الدنيا بما فيها من نباتات وأشجار مختلفة، وبالتالي فقد زخرت المساجد الأولى في الإسلام بالزخرفة النباتية خاصة الأموية منها في مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى[123] والمسجد الأموي في دمشق والقصور الصحراوية فمثلاً نجد شجرة التفاح في خربة المفجر في أريحا مع أنها بيئة شبه صحراوية لا تصلح لزراعة التفاح رغم أن التفاح شجرة من أشجار الجنة[124]، وهذه الزخرفة تمثل قيم التماثل والتكرار وقد استخدمت بشكل منفرد أو مزدوج أو متقابل أو متعانق ضمن وحدة واحدة مؤلفة من مجموعة من العناصر النباتية الورقية

---

121 بهنسي، عفيف. الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط1، 1998، ص8-14.

122 ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006،ص115-130.

123 بيضون، عيسى. دليل المسجد الأقصى المبارك، فلسطين: كفر كنا، ط1993،1، ص33.

124 تالبوت، رايس دافيد. الفن الإسلامي، دمشق: مكتبة جامعة دمشق، 1977، ص8.

والثمرية والزهرية المتداخلة والمتشابكة التي لا تكاد تنتهي في اللوحة الفنية أو الجدارية الواحدة؛ وقد تكون الزخرفة ثنائية الإتجاه وقد تكون ثلاثية. فظاهرة التكرار في الزخرفة النباتية عند بعض الباحثين[125] تفسر من منطلق ديني حيث ورد في القرآن الكريم" وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا"(الشمس:1-4). قد تكون هذه التفسيرات لا علاقة بالمنطلقات الدينية، وإنما من منطلق إكمال الوحدة الزخرفية من جانب ومن جانب آخر ملئ الفراغ، وقد يرمز إلى الديمومة واللانهاية لقدرة الله سبحانه وتعالى، وقد ترمز إلى تعاقب الليل والنهار ؛ وتعاقب الشمس والقمر، وقد ترمز للربيع والشتاء، وقد ترمز إلى النبتة أو الشجرة ذات الجذع الأصل وتتفرع منه الأوراق والأغصان المختلفة بتكرار إذا لا يعقل أن تكون شجرة واحدة وتخرج منها ورقة واحدة فقط وغيرها الكثير من التفسيرات المختلفة بهذا الخصوص[126].

أما ظاهرة التوازن والتنوع كقيمة جمالية في الفنون النباتية خاصة الإسلامية منها تفسر قدرة الله سبحانه وتعالى في اتزان حركة الأرض وثباتها؛ وعدم طغيان ما عليها من الخلائق على بعضها البعض، كلُ له قدره الموزون الذي يكفيه لأداء دوره على الأرض كما أراده خالقه كقوله تعالى" أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"(الحجر: 19) [127].

أما التناسق والترابط في الزخارف النباتية فهي تظهر إجتماع الخلائق في أصل واحد، ومصير واحد، فكل المخلوقات والرسومات لها ارتباط بالمنشأ، وارتباط في صفة الحياة التي تجمعهم في المصدر والمصير والخير والشر والنسب وغيره، ولكن من الناحية الجمالية فبدون التناسق لا قيمة جمالية للوحة فنية زخرفية فلا يعقل أن يكون لون زهرة اللوتس أصفر في شقها الأيمن بينما يكون أخضر في شقها الأيسر وبهذا الشكل تكون قد فقدت عنصراً جمالياً وخرجت عن المألوف في الفن وهكذا في الفنون الزخرفية الهندسية والكتابية وغيرها من الفنون المختلفة[128]. كقوله تعالى"... وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..."(آل عمران، 180).

---

125 ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006،ص128.

126 محمد، مصطفى عبد الرحيم. ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997،ص93.

127 قطب، محمد. منهج الفن الإسلامي، القاهرة: دار القلم،د.ت، ص133.

128 المرجع السابق، منهج الفن الإسلامي، ص134.

إن العناصر الفنية المختلفة التي عززت قيم جمالية في الفن الإسلامي في الأساس تدخل ضمن دائرة أولى وهي وحدة اللوحة الفنية كعنصر أساسي؛ وبدونها لا يمكن أن تتجمع أركان العمل الفني؛ وبمعنى آخر إطار يحدد اللوحة من جميع الجهات، ويأتي في المرتبة الثانية عنصر التكرار وفي المرتبة الثالثة التماثل وفي الرابعة التقابل وفي الخامسة الاتساق والسادسة التعامد والسابعة الارتباط والثامنة التوازن وهي في جملتها تعتبر مكوناً أصيلاً وأساسياً في الزخرفة الإسلامية سواءً كانت الهندسية أو نباتية وقيمتها الجمالية تطغى أحياناً على قيمتها الرمزية والدينية ومن هذا المنطلق فهي غالباً توحي بطريقة أو بأخرى عن مضامينها وأسرارها وجمالياتها المختلفة.

إذا نظرنا إلى لوحة فنية زخرفية ثابتة في مكانها الأصيل ليس كما ننظر إليها في متحف فني، ففي مكانها نعي قيمة جماليتها كجزء من كل في مسجد أو قصر أو حمام أو غيرة، نربط البيئة بالإنسان بالروح والمادة بالتاريخ والحاضر بالوحدة والتنوع بالقدرة والإبداع؛ بينما لو نظرنا إلى تلك اللوحة في مكان منفصل عن ماضيها أو مكانها سنجدها ذات قيمة أقل من جميع الخصائص السابقة الذكر، أنظر الفرق بين شجرة التفاح أو الرومان او النخيل على جدران قصير عمرة أو المفجر أو المسجد الأموي ووجودها مجرد قطع فنية في متحف أسمنتي يعج بالضوضاء والأصوات المختلفة.

والفراغ غير محبذ في الفن الإسلامي وبالتالي التخلص منه يوسع رقعة الحياة بوصل ما بين السماء والأرض؛ والدنيا والآخرة، وما بين الإنسان والكائنات الأخرى؛ وما بين الإنسان والفرد والجماعة؛ وما بين الإنسان والفرد والإنسانية، وللخصائص السابقة الذكر نضيف قيم جمالية أخرى مثل الشمول والتعدد والإمتلاء تصبح الزخرفة الإسلامية خاصة النباتية منها أجمل وأكمل وأمنع، وتصبح أزخر بالحياة والحركة من كل لوحة تعرض جانباً واحداً من الجوانب، وبخصوص التكرار كعنصر جمالي فقد قصد الفن الإسلامي أن يلفت الحس إلى الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان، وبهذا فقد أخذ من الإسلام شموله وسعته وتعبيره، ولذلك فهذا العنصر يعرض الحياة غير مقطعة الأوصال مفرقة الأجزاء[129].

فموضوع الزخرفة النباتية موضوع يطول التبحر فيه إذا ما أردنا دراسة كل نمط وفترة وخصائص كل منها تصلح لتكون بحثاً منفصلاً غني بالتفاصيل خاصة بالفن الأموي والأندلسي والذي يتضمن تفصيلات رائعة جداً عن أنماط مختلفة عن نباتات وأشجار أموية وأندلسية خاصة في مدينة الزهراء ومسجد قرطبة ومدينة الحمراء ومدينة اشبيله وغيرها من المدن

---

[129] قطب، محمد. منهج الفن الإسلامي، القاهرة: دار القلم،د.ت، ص198.

الأندلسية والتي تعتبر النموذج الباقي الأهم في الوقت الحاضر للفنون الإسلامية النباتية المختلفة[130].

الزخرفة الهندسية

لقد أتقن المسلمون استعمال الخطوط الهندسية وصياغتها ضمن أشكال هندسية وفنية رائعة؛ فقد ظهرت الأطباق النجمية المختلفة والمضلعات والدوائر والمثلثات والدوائر المتداخلة؛ فهي من جانب صفة مشرقة للفن الإسلامي وخير دليل على أقصى إستفادة وتوظيف للهندسة في الفن الإسلامي، والزخرفة الهندسية وهي ذات أهمية خاصة في الفن الإسلامي وهذا النمط من الزخرفة فرض نفسه بكل قوة في الفن الإسلامي، وهو ينقل الناظر إليه من الجزء إلى الكل وهو ما يمكن وصفة بالفن الهندسي المتجدد بإستمرار.

إن البحث في الجمال الهندسي والرمزية كقيمة جمالية في الفنون الإسلامية باعتبارها أحد أهم مكونات الفنون الإسلامية؛ يعتبر بمثابة دعوة إلى التفكير فيما وراء الزخرفة من خلال المقرنصات والمربعات والمثلثات وأشكال لظواهر كونية مختلفة من منطلق قوله تعالى" الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. (آل عمران:191).

تعتبر الزخارف الهندسية التي زينت بها جدران ودعائم مسجد قبة الصخرة من أقدم الأمثلة على هذا النمط من الزخرفة الهندسية[131]، حيث نجد بعض رسومات للنجوم والأهلة، كما توجد رسومات وأشكال هندسية مختلفة من أجمل ما أبدعت يد الفنانين، فقد شاع في الفن الإسلامي أشكال النجوم والأهلة المتقابلة والمتجاورة؛ وقد أستخدم الهلال في الفترات الإسلامية المختلفة خاصة في الفترة العثمانية حيث وجدت الأهلة في النياشين العثمانية والرسومات العثمانية المختلفة وقد أتخذ الهلال كرمز ديني للدولة العثمانية[132]. لقد أستخدم في الفن الإسلامي أطباق نجمية سداسية بنمط زخرفة معمارية كما في خربة المفجر في أريحا، وأخرى ثمانية كما هو في

---

130 مالدونادو، باسيلو بابون. الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة النباتية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، القاهر: المجلس الأعلى للثقافة،ط1، 2002، ص39.

131 حسن، زكي محمد. أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، القاهرة:بدون دار نشر، 1956،أنظر شكل 953؛حسين، محاسنة وآخرون. تاريخ مدينة القدس،عمان: دار حنين للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص 120-122.

132 مرزوق، محمد عبد العزيز.الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987،ص 113.

عدد كبير من الزخارف الجصية في الحمراء في مدينة غرناطة[133]، والخماسية في مناطق مختلفة من العمائر الإسلامية.

يقول الله تعالى في محكم تنزيله "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ"(الحاقة:17)، هل هذه الآية هي الرمزية الروحية للنجمة الثمانية ؛ أم هي مجرد تداخل مربعين بشكل أو بآخر مع بعضهما البعض للوصول إلى طبق نجمي متعدد الزوايا؛ أم تمثل القوى الأربع في الطبيعة، الضلع الأعلى يمثل الهواء، والأسفل يمثل التراب أو الأرض، والأيمن يمثل النار، والأيسر يمثل النار، وهل المربع المتداخل الثاني يمثل الجهات الأربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب من منطلق كقوله تعالى"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (البقرة:115).

التفسيرات المختلفة تكاد لا تنتهي فيما يتعلق بالأشكال النجمية المختلفة[134] والتي انتشرت في بلاد الشام ومصر؛ حيث أن التشكيلات النجمية الزخرفية الإسلامية تتكون في الحقيقة من عناصر نجمية منفردة، تستمر أضلاعها لكي تشكل نجوماً أخرى، أو لكي تتضافر مع نجوم أخرى في تشابك منسجم ومستمر قد يكون متقابلاً أو متناظراً أو متداخلاً في آن واحد، وبالتالي تشكل سمة أو خاصية اللانهاية ولكنها تشكل التناسق في مجموعها كوحدة واحدة[135].

تقترن القيمة الجمالية بالقيمة الرمزية للشيء فإذا اقترن المثمن بصفة العرش؛ والشكل الكروي يعبر عن السماء والدائرة عن الكون والخط المستقيم يمثل الفكر أولاً والاستقامة ثانياً، والمخمس يمثل الطبيعة، والمسدس يمثل أيام الخلق الستة، وأركان الإيمان وغيرها بحور من التفسيرات المختلفة فهل الفن الإسلامي حقاً ليس ذات دلالات رمزية حقاً بل ينظر إليها كقيمة جمالية إذا كانت غالبية الإشارات والرموز التي تستخدم بشكل عفوي من قبل الإنسان أثناء الكلام يفهم منها كذا وهكذا فكيف الفن الزخرفي الهندسي في الفن الإسلامي، فهذا الجزء من الفن منح الفن الإسلامي قيمة الدقة والقياس والحساب وبهذا استطاع الفنان المسلم إدخال كل ما أراد في موضوع فنونه المختلفة وبطرق مختلفة وبوسائل مختلفة. وعلى الرغم من ظهور الزخارف

---

133 الحمراء:عبارة عن عدد من القصور تم تأسسيها من قبل حكام الدولة الناصرية في مملكة غرناطة ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا تشتهر بعمارتها الإسلامية الطابع وفنونها الإسلامي التي لا مثيل لها في التاريخ. أنظر: الخطيب، محمد بن عبدالله. اللمحة البدرية في اخبار الدولة الناصرية،بيروت: دار الآفاق الجديدة،ط3، 1980، ص 23.

134 جاد، محمد توفيق.تاريخ الزخرفية، القاهرة:دار المعرف،1976، ص183.

135 ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006،ص107.

الهندسية المستقيمة الخطوط، إلا أنها نمط قد يعتبر معقداً متداخلاً ومتشابكاً لا يوحي لنهاية واضحة؛ إلا أنها في حقيقتها بنيت على أصول وقواعد هندسية ونسب قياسية رُوعيت فيها التبادلية المتكررة من حيث الشكل والمسافة وملئ الفراغ إلا أنها توحي للطمأنينة الحسية من خلال التأكيد على ذات النمط الهندسي المتكرر[136].

فن التصوير الإسلامي

لقد ازدهر فن الرسم والتصوير في الإسلام بحيث انطبع بالطابع الإسلامي الخاص بحيث ازدهر في المنممات والتوريق والتلوين والزخرفة والتكعيب الهندسي وبالتالي عبر عن تميز الروح في أساليب التعبير عن جمالياتها وهذا أمر طبيعي في تميز الأمم والشعوب في فنونها المختلفة، كذلك فإن هذا التميز لم يمنع من ازدهار فن التصوير في القصور والحمامات والأسبلة والنوافذ والمخطوطات وغيرها من أنماط الفنون الإسلامية[137].

استخدم التصوير في المساجد والكتب والحمامات والقصور بحيث استخدمت الألوان بجرأة رغم قلتها؛ وبالتالي فإن الرسومات وأنماطها سواء حيوانية أو نباتي فقد حورت بشكل زخرفي ورمزي وتجريدي، والفنان لم يمل إلى رسم الحيوانات إلا لما تمتع به من اشكالها من طبيعة زخرفية، بالإضافة إلى ما لحركاتها المختلفة من رشاقة وتآلف نغمي كان لها أن أغنت اللوحات الفنية بمستويات غنية في الحركة والتعبير، كما لم يتطرق التصوير الإسلامي إلى الموضوعات الدينية كثرا لحساسيتها، كما لم يعُن التصوير الإسلامي بالموضوعات الأسطورية، كما لم يتناول موضوع الملاحم الشعرية والموضوعات الدرامية؛ بل عبر عن قصص ورموز وأفكار سلوكية وسياسية واجتماعية وشاعرية، أما الموضوعات التي ركز عليها التصوير الإسلامي فهي صور الكتب والتصاوير الجدارية والتصاوير الزخرفية بالتلوين والفسيفساء، والنحت وصور الحمامات والقصور التي تحتوي على صور جدارية لأشكال آدمية، وقد توزعت قنوات التصوير على أماكن معمارية متعددة في الدولة الإسلامية[138].

لقد ظهر في الدولة الإسلامية عدة مدارس كانت قد تخصصت في موضوع التصوير في الفن الإسلامي، ومن هذه المدارس مدرسة بغداد والتي ظهرت في القرن الثالث عشر للميلاد ومن أشهر مصوريها الواسطي وعبد

---

[136]مالدونادو، باسيلو بابون. الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة الهندسية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، القاهر: المجلس الأعلى للثقافة،ط1، 2002، ص37.

[137] عمارة، محمد. الإسلام والفنون الجميلة، القاهرة: دار الشروق، ط1، 1991، ص128.

[138] عبيد، كلود. التصوير وتجلياته في التراث الإسلامي،بيروت:مؤسسة مجد للدراسات والنشر والتوزيع،ط1428،1 هـ/2008م،ص141.

الله بن الفضل في كتاب(خواص العقاقير)؛ والمدرسة الإيرانية المغولية ظهرت في القرن السابع عشر ومن أشهر مصوريها بختيشوع في كتاب (منافع الحيوان) ومدرسة التصوير التيمورية ظهرت في القرن الخامس عشر الميلادي أشهر مصوريها جنيد، ومدرسة بهزاد التصويرية وأشهر مصوريها مؤسسها كمال الدين بهزاد مؤلف ومصور مخطوطة (البستان) ومدرسة بخارى ظهرت في القرن السادس عشر ميلادي إشتهرت بكثير من تصوير المناظر الغرامية، والمدرسة الصفوية أشهر مصوريها آغاميرك ومخطوطة(خسرو على عرشه) والمدرسة التركية مصوروها من غير الاتراك، وآخر هذه المدارس المدرسة المغولية التي اختصت بتصوير النساك والصوفيين[139].

إن الخوض في تفاصيل التصوير الإسلامي عملية طويلة وشاقة جداً من حيث مواضيعها وتفصيلاتها المختلفة ولكن لا بد من التطرق إلى المواضع التي عالجها التصوير الإسلامي وما المنطلقات التي إعتمد عليها هذا النوع من الفنون، لقد عالج هذا الجزء من الفنون الإسلامية التصوير الذي يخص حياة الصيد والبيئة وصراع الحيوانات المختلفة وصور آدمية تظهر بعض أنواع الرياضات المختلفة كالمصارعة بالمفهوم الإسلامي وليس بالمفهوم الحديث للمصارعة الحالية، وقد تكون بعض التصاوير التي أظهرت عما هو خارج نطاق ضوابط الدين والشريعة الإسلامية خاصة في الفترة الفاطمية حيث ظهرت بعض التصاوير لعملية شرب الخمر على الخزف والأواني الخزفية وبعض الصور الآدمية في بعض الحمامات الأموية مع بعض التحويرات المختلفة وكثيراً ما عالجت هذه التصاوير الجنة وما يتعلق بكل تفاصيلها في القرآن والشريعة الإسلامية[140].

وهناك الكثير من الموضوعات التصويرية الفنية، التي يمكننا فيها تقصي البعد الديني والجمالي ومنها اللوحات الفنية التي تعالج جنة الفردوس وأهل النعيم فقد ظهرت أشكال وجوههم المستديره أو ما يطلق عليه النوع القمري وهي ذات أشكال وجوه أهل الجنة ويصف القرآن في عدد كبير من الآيات وجوه أهل الجنة بقوله تعالى: " تعرف في وجوههم نضرة النعيم"(المطففين:24)، وكذلك قوله تعالى" وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(الغاشية:8-11) وعدد كبير جداً من الآيات التي تورد وصف مفصل عن تفاصيل وجوه أهل الجنة.

---

139 المرجع السابق، ص151.

140 ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006،ص140.

كما وردت أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم" أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر"، كما وظهر وجوه الأشخاص بدون لحى وشوارب وهذه صفات أهل الجنة كما ورد في حديث الرسول" يدخل أهل الجنة جُرداً مُرداً"، وتظهر عيونهم مكحلة، ويظهرون في أعمار متساوية، وبشكل مختصر في كثير من اللوحات لتصويرية التي تتفق وما ورد من آيات قرآنية قد تتحدث عن الجنة أو الحياة الدنيا بتصويرها الأشياء بنمط تصويري محدد لا يتعارض مع الدين الإسلامي، وقد مر التصوير الإسلامي بمراحل متعددة من طور الاقتباس والتقليد في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية؛ وطور الممارسة والابتكار والذي يشمل عصر الخلافة العباسية بالعراق وعصر أحمد بن طولون، وطور الرقي والإبداع ويشمل عصر الدولة الفاطمية والطور الرابع وهو عصر الإنحطاط والذي يبتدئ من القرن السابع الهجري لغاية القرن العاشر[141].

الآيات القرآنية التي تصور أو تلخص مواضيع مختلفة في التصاوير الإسلامية موضوع الجنة كقوله تعالى" مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ¤ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " (الرحمن: ٧٦ – ٧٨)، وقوله تعالى" أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا" (الكهف: ٣١)، وقوله تعالى" عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا " (الإنسان: ٢١)، فكل آية من الآيات التالية صورة جمالية رائعة تمثل شكل اللوحة الأخضر، والأساور الذهبية وغيرها من الصور الرائعة التي ظهرت في القرأن الكريم في وصف الجنة وأهلها.

لقد وجد نمطين من التصاوير أو الصور؛ منها ما يعرف بالصور الجدارية الفسيفسائية وأخرى بالصور الجدارية بالفريسكو، فالنمط الأول وجد في قبة الصخرة والجامع الأموي بدمشق وقبة الظاهر بيبرس بدمشق، والنمط الثاني وجد في قصي عمرة في الأردن وقصر الحير الغربي وجناح الحريم بالجوسق الخاقاني بسامراء وفي عمائر أخرى متعددة[142].

---

[141] الأصمعي، محمد عبد الجواد. تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام، مصر: دار المعارف،د.ن.ص23.كذلك أنظر ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006،ص142.

[142] فرغلي، أبو الحمد محمود. التصوير الإسلامي،القاهرة: الدار اللبنانية المصرية، ط1، 1991، ص46.

قيم جمالية في الخط العربي:

أن الخط العربي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين الإسلامي، وبالتالي فإن المسلمين ينظرون لهذا الخط بتذوق وتمعن وبلذة حسية، لقد وظف الخط العربي من خلال الدين الإسلامي ولتقوية مشاعر وأحاسيس المسلمين في لحظات معينة وقليلة وهي مواقيت الصلاة وهذا يعني أن المسلمين أحسنوا توظيف الخط في المجال الروحي والجمالي بحيث تجمع بين الجمال الباطن والجمال الظاهر.

لقد أتاح نزول القرآن بالعربية لهذه اللغة أنواعاً من العناية لم تحلم بها أية لغة أخرى، فكان من ضمنها جمع اللغة وتدوينها، وضبط مفرداتها وتحديد معاني ألفاظها ومن ثم إعرابها وقد نتج عما سبق ما يعرف بحركات التشكيل والإعجام، وكل ذلك كان بدافع العناية بكتاب الله والحفاظ عليه وإيجاد الوسائل التي تجعله سهل المتناول قراءةً وفهماً، وكانت العناية بكتابته واحدة من وسائل القراءة الصحيحة، ومن هذا المنطلق أصبح تحسين الخط بغية العناية بالقرآن الكريم وذلك من أجل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى[143].فالخط العربي كتب بعدة أنماط تم تسميتها بأسماء المدن أو الدول أو الأماكن أو المدارس التي عرفت من خلالها؛ فهناك الخط الكوفي، والخط النسخي، وخط الثلث، والخط الأندلسي، وخط الرقعة والخط الديواني، وخط التعليق أو الفارسي وخط الإجازة ، هذا بالإضافة إلى تفرع أيضاً بعض هذه الأنماط إلى عدة أقسام فمثلاً عرف الخط الكوفي المورق والمزهر والمنحصر والمعشق أو الموشح وهكذا بقية الخطوط العربية الأخرى[(144)].

لقد أستخدمت أنماط متعددة من الخطوط والتي عرفت باسم الخطوط المزخرفة، فقد جعل الفنان المسلم للحرف في اللغة العربية جمالية نستطيع القول أنه تمكن من رسم الخط كمادة زخرفية، فتحولت الخطوط إلى لوحات جمالية زخرفية وتمكن الفنان المسلم من تنويع شكل ونمط الخط تارة برز الخط على الزخرفة وتارة أخرى برزت الزخرفة على الخط وبهذا أراد الفنان المسلم تقديم نمطين وراعي الذوق والاستمتاع المتعدد للإنسان أو توازن بين الخط والزخرفة ومن هنا القيمة الجمالية والفنية الظاهرة والباطنة في الخط العربي.

ومن هذه الأمثلة عبارة " ولا غالب إلا الله" التي نقشت بها جدران قصر الحمراء، حيث تظهر العبارة على أنها شكل وردة الأكانتوس أو الخرفيش باللغة العربية والجزء الأسفل خطوط العبارة المتشابكة وفي وسط العبارات

---

[143] الشامي، صالح حمد. الفن الإسلامي التزام وإبداع، دمشق:دار القلم،ط1، 1410 هـ/1990م،ص198.

[144]المرجع السابق،ص198.

مد طويل على شكل جذوع نبتة الأكانتوس، كما ظهر نمط آخر لهذه العبارة ولكن كانت الحروف العربية ظاهرة أكثر من الزخرفة، ونمط ثالث جمع بين النمطين الأول والثاني[145].
نتطرق إلى مثال آخر للجمالية الرائعة للخط العربي المتمثل بنموذج الطغراء فهي أرقي ما وصل إليه فن الجمال التزييني بالخطوط فيفها يهدف الفنان إلى الجمال المتناقض الرجراج بين الصراحة والغموض، وقد أختير الخط الهمايوني أو الديواني للكتابة بأسفل الطغراء وذلك لانسجامه ومجانسته كتابة الديوان الأعلى في الدولة التي يرأسها السلطان تميزاً لأسمه المقدس، وبعده عن العامة وإحلال هذا الخط في تميزه محل الخط الهيروغليفي عند الفراعنة القدماء من الخط الديموطيقي خط العامة[146].
أما القيمة الرمزية والجمالية فهي متلازمة في هذا النوع من الفنون، فأنماط الكتابة تؤدي وظيفة جمالية وروحية ووظيفية في آن واحد، لذلك لا بد من التطرق لبعض الملامح العامة لجماليات الخط العربي التي تكمن في دلالات حروفها فعلى سبيل المثال جر خر فر كر مر ...الخ لها صورة جمالية تتمثل في فيما يسمى بالحركة في هذه الكلمات، والدال مثل مد عد كد رد ففيها البذل وفيها قدسية دينية حيث تبدأ كثير من الآيات القرآنية بها[147]، أما شرط إتقان الجمالية في هذه الخطوط فلا بد من أن تكون الخط المجرد بالتحقيق، والمحلى بالتحديق، والمجمل بالتحويق، والمزين التخزيق، والمحسن بالتشقيق، والمجاد بالتدقيق، والمميز بالتدقيق[148]، ودراسة الخطوط عملية طويلة زاخرة بالمعلومات التي لم نتطرق إليها فهي علم قائم بذاته من حيث نوعية الخطوط وطريقة كتابتها ودراسة أحرفها وأشكالها وتوريقها وزخرفتها ودلالاتها ورموزها.

قيم جمالية في الفنون التطبيقية

نذكر بعض الأمثلة على ما يعرف بالفنون التطبيقية خاصة المعدنية من أباريق وكؤوس وصحون وأواني مختلفة مثل المشكاة والتي غالباً ما

---

145 سلامة، إبراهيم محمد عودة. "دراسة تاريخية وأثرية حول زخرفة الزليج في قصر الحمراء".رسالة دكتوراه جامعة غرناطة،2000م)، ص139.

146 عبيد، كلود. التصوير وتجلياته في التراث الإسلامي،بيروت:مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008،ص68.

147 بهنسي، عفيف. جمالية الفن العربي،الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979، ص93.

148 المرجع السابق، ص106.

أستخدمت في عقود المحاريب والقباب وأروقة وكانت بمعنى أو بآخر قناديل الإنارة في المساجد والمقامات والأضرحة، حيث ترتبط المشكاة بقوله تعالى:" اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(النور:35). أسرار الجمال في المشكاة أنها ترمز للنور والإضاءة من ناحية وجماليتها تكمن في وظيفتها وذكر هذه الكلمة مقترنة بالإيمان والاستقامة وهي ترمز إلى الله سبحانه وتعالى حيث وصف نور الله بنور المشكاة ومن هنا برزت أهمية هذه التحفة الجملية في صناعتها والجميلة في وظيفتها.

لا تقتصر الفنون التطبيقية على صناعة المعادن وإنما تشمل الأربسك وصناعة الخزف والسجاد والزجاج والجص والحفر على الخشب والحفر على الحجر والرنوق المختلفة وغيرها من الفنون المختلفة التي تحتوي على قيم جمالية رائعة فيكفي شهرة السجاد الإسلامي خاصة الإيراني والتركي والذي لا يزال يحافظ على جودته وجمالية رسوماته واتقانه من خلال الرسومات المختلفة.

هناك قيم جمالية كبيرة جداً في الفن الإسلامي من خلال مدلولاتها الرمزية فبعض الرنوق السلطانية التي لا تزال تزين واجهات البوابات أو الأبراج الإسلامية في مدن إسلامية عريقة كمدينة القدس وغرناطة والرباط ودمشق والقاهرة تظهر أهمية والقيمة الجمالية لهذه الرنوق، فمثلاً على بوابة الشريعة وهي أحدى بوابات مدينة غرناطة رنق (المفتاح)، ورنق اليد التي يطلق عليها يد فاطمة وهي يد أو كف اليد بشكل مفتوح وهي كف اليد اليمنى، فهي أحياناً ترمز إلى أركان الإسلام وأخرى ترمز إلى الصلوات الخمس وأخرى ترمز إلى رد الحسد وكثيرة هي التفسيرات الدينية ولكن ما القيمة الجمالية لليد؟ زخرفة مدخل البوابة أولاً ترمز للسلطة كقيمة جمالية ثانياً ، توحي بقدرة الله سبحانه وتعالى، أما المفتاح فيرمز للقوة والسيادة والتحكم والسيطرة. وهي التي قد تحمل الكتاب للفائز يوم القيامة[149].

هذه بعض الأمثلة على الفنون التطبيقية والتي كانت ولا زالت نقطة وعامل جذب ودراسة للعاملين في حقل الحضارة الإسلامية وخاصة إنجازاتها المادية والتي بدون شك تعتبر جزء من تاريخ الحضارة الإسلامية فهي الوجه المادي المشرق للتطور الذي وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية حتى

---

[149]سلامة، إبراهيم محمد عودة. "دراسة تاريخية وأثرية حول زخرفة الزليج في قصر الحمراء".رسالة دكتوراه جامعة غرناطة،2000م)، ص158.

في مجال الفنون المختلفة فالدين الإسلامي قوى ودعم ومنح جانب التفكير والوعي والإبداع لدى الفنان المسلم كي يبتكر ويحقق ما يريد من خلال إلتزامه بالدين والعقيدة الإسلامية

الخاتمة:

إن العناصر الجمالية في الفن الإسلامي إرتبطت إرتباطاً وثيقاً بالدين والعقيدة الإسلامية من منطلق تكميلي وتطويري لا من منطلق تفسيرات مختلفة، فالدين أول من وجه الفنان المسلم ومن خلال الالتزام وبالتالي منحه عنصر الابتكار والإبداع من خلال الأطر الرئيسية التي منحها للفنان المسلم ومن خلال المواضيع التي منحها للفن الإسلامي من حيث البيئة والجمال والكون والتفكير بالبعد الروحي للفن لإعطائه ميزات تختلف عن الفنون الأخرى مهما كانت.

إن الحقيقة الجمالية للخصائص التي تعطي فناً معيناً قيمة عامة وعالية وعالمية هي خصائص خاصة بالفن الإسلامي، وهذا أعطى الفنان مساحة من القيم مثل التكرار اللا محدود في الابتكار والتماثل والتقابل والاتساق وغيرها من القيم التي أعطت خصوصية ثقافية للفن الإسلامي، فمثلاً الدقة في التخطيط المعماري بعناصره المختلفة التي تطرقنا إليها في الجزء الأول من هذا البحث برزت من خلال الجمالية الوظيفية للأبنية واكتسابها شخصية محددة تختلف اختلافاً كلياً عن العمارة غير الإسلامية.هذا منح العمارة الإسلامية عنصر الوحدة وبالتالي نجد المسجد في كافة الأقطار الإسلامية غالباً ما يحتوي على ذات العناصر نفسها من قبة ومحراب وجدار قبلة وساحة مكشوفة وغيرها من العناصر.

من أهم العناصر الفنية التي تحتوي على قيمة جمالية هي عنصر الوحدة الفنية التي تمتاز بها الفنون الإسلامية المختلفة التي تجعل الإنسان أن يدرك هويتها من خلال عنصر التعددية ضمن الوحدة الواحدة فزخرفة هندسية تتكرر فيها الأشكال السداسية او الثمانية أو المربعات أو المثلثات والتي تعني التنوع الغزير للفنون الهندسية وهذا لا يؤثر سلباً على جمالية هذا الفن.

إن القيمة الجوهرية الكامنة في الفن الإسلامي هي إيقاعه وتجريده؛ ويصاحب المتمعن بالفنون الإسلامية إحساس رائع وجميل لا يجاريه فيه أي فن أخر، ولاشك أن هذا الاتجاه يرجع إلى تصور المسلمين لله والعالم والإنسان، فالإنسان في نظر المسلم ضعيف، يحتاج للنجاة وأن الله هو الخالق البارئ المصور، ليس كمثله شيء، وأن الأيمان مطلق بعظمة الله ـ عز وجل ـ فإتجه الفنان للنظر إلى المطلق المجرد، ولم يهتم إطلاقاً بمحاكاة الأشياء، من أجل ذلك لم تكن وظيفة الفن الإسلامي نقل المرئي؛ والمتحرك، بل إظهار ما هو

غير مرئي، ومحاولة الإحساس بالقوانين الرياضية التي تحكم هذا الوجود، وتأكيداً لهذه القيم إتجه الفن الإسلامي إلى الهندسة والزخرفة.
إن الفلسفة الزخرفية في الفنون الإسلامية تقوم على تحقيق الجوانب الجمالية والفنية التي تتفق مع طبيعة والمناطق التي عالجتها؛ من بيئة جبيلة أو بيئة صحراوية والنباتات والأشجار التي تنمو فيها وبالتالي بالإضافة إلى أنها رسمت ووضحت فقد أرخت بيئة جغرافية وبيئة حيوانية في آن واحد وهذا يعتبر تجسيداً ولو لجزء بسيط للفنون الإسلامية.

قائمة المراجع:

_الأصمعي، محمد عبد الجواد. تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام، مصر: دار المعارف،د.ن

- البدوي، مصطفى حسن. لطائف الإشارات في أسرار المآذن والمنارات، القاهرة، شركة الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، 1ط،1429 هـ/2008م.
- بهنسي، عفيف. الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط1، 1998.
- العمارة العربية الجمالية والوحدة والتنوع، الرباط: المجلس القومي للثقافة العربية، د.ت.
- جمالية الفن العربي،الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979.

_ بيضون، عيسى. دليل المسجد الأقصى المبارك، فلسطين: كفر كنا، ط1993،1.
_ تالبوت، رايس دافيد. الفن الإسلامي، دمشق: مكتبة جامعة دمشق، 1977.
_ جاد، محمد توفيق.تاريخ الزخرفية، القاهرة:دار المعرف،1976.
- جودي، محمد حسين. خصائص العمارة الإسلامية خصوصيتها، ابتكاراتها، جماليتها، عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 1419 هـ/ 1998م.

_ حسن، زكي محمد. أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، القاهرة:بدون دار نشر، 1956.
_حسين، محاسنة وآخرون. تاريخ مدينة القدس،عمان: دار حنين للنشر والتوزيع، ط1، 2003.
- الحسيني، محمود حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، القاهرة: مكتبة مدبولي،د.ت.

_ الخطيب، محمد بن عبدالله. اللمحة البدرية في اخبار الدولة الناصرية،بيروت: دار الآفاق الجديدة،ط3، 1980
_ خليفة، ربيع حامد. الفنون الإسلامية في العصر العثماني،القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ص1، 2001.
_سامح، كمال الدين. العمارة في صدر الإسلام، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، 1971.

- سعيد، حامد. الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها،القاهرة: دار الشروق، ط1، 1421 هـ/ 2001م.
_ سلامة، إبراهيم محمد عودة. "دراسة تاريخية وأثرية حول زخرفة الزليج في قصر الحمراء".رسالة دكتوراه جامعة غرناطة،2000م).
- الشامي، صالح حمد. الفن الإسلامي التزام وإبداع، دمشق:دار القلم،ط1، 1410 هـ/1990م.
- عبيد، كلود. التصوير وتجلياته في التراث الإسلامي،بيروت:مؤسسة مجد للدراسات والنشر والتوزيع،ط1428،1 هـ/2008م.
_ عكاشة،ثروت. القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، القاهرة: دار الشرق، ط1414،1 هـ/1994.
- عمارة، محمد. الإسلام والفنون الجميلة، القاهرة: دار الشروق، ط1، 1991.
- فرغلي، أبو الحمد محمود. التصوير الإسلامي،القاهرة: الدار اللبنانية المصرية، ط1، 1991.
_ فكري، أحمد. مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة: دار المعارف، 1961.
- قطب، محمد. منهج الفن الإسلامي، القاهرة: دار القلم،د.ت.
- كرابار، أوليغ. كيف نفكر في الفن الإسلامي، ترجمة: عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط1996،1.
_ كريزويل، ك. العمارة الإسلامية الأولى، نقلة إلى العربية:عبد الهادي عبله، استخرج نصوصه وعلق عليه:أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ط1984،1.
- كونل، أرنست. الفن الإسلامي، ترجمة د احمد موسى، بيروت: دار صادر، 1966.

_ مؤنس، حسين. المساجد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،1981.
_ محمد، مصطفى عبد الرحيم. ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997.
_ مرزوق، محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس،بيروت:دار الثقافة،1979.
الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
_ مصطفى، صالح لمعي. القباب أشكلها، مصادرها، تطورها، بيروت: دار الفكر العربي، 1977.
_ مالدونادو، باسيلو بابون. الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة النباتية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، القاهر: المجلس الأعلى للثقافة،ط1، 2002.
_نويصر، حسني محمد. الآثار الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 1998.
_ وزيري، يحيى.موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ج2،ط1999،1م.
_ ياسين، عبد الناصر. الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق،ط1، 2006.

الاقتصاد و إدارة الأعمال

ملف العدد على شرف العالم العراقي

الأستاذ إبراهيم كبة

مفتتح لملف العالم الجليل إبراهيم كبة بقلم: الدكتور فليح حسن خلف

كتاب المفكر الماركسي الاستاذ أبراهيم كبة *

(دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي)

عرض..تقديم..تعليق الدكتور عباس الفياض

أهمية تبني معايير المحاسبة الدولية في الاقتصاد العراق

الدكتور صباح قدوري

التلوث البيئي وأثره على البيئة السياحية في مدينة إب

الدكتور محمد حسن النقاش

نظم المعلومات المالية الالكترونية للمصارف التجارية في فلسطين : العقبات والمخاطر- دراسة ميدانية على المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم

د. عمر محمود أبو عيدة

العالم العراقي الجليل الأستاذ إبراهيم كبة



إبراهيم كبة الاستاذ والعالم والانسان والمفكر

كان ابراهيم كبه استاذا فاضلا وعالما قديرا وانسانا مبدئيا ومفكرا ثرا بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان ودلالات وتعجز الكلمات هذه وغيرها عن وصفه وتبقى كلمات الشكر والتقدير والعرفان قاصرة عما قام به وما قدمه في الجوانب والمجالات الاساسيه وعاشها معه زملاؤه وطلبته ومحبيه ومعارفه واذكر منها على سبيل المثال لا الحصر وبشكل مكثف ومركز ما ياتي :

اولا- كونه استاذا فاضلا وغزيرا في ما دته من خلال كون نسبة رسوب الطلبه الذين كان يدرسهم منخفضه جدا الى الحد الذي تكاد تصل الى الصفر لسببين اساسيين هما

1-الحافز القوي الذي يدفع طلبته الى متابعة المادة بكل تفاصيلها واستيعابها وفهمها والنجاح فيها لغزارتها حيث ان كل محاضرة من محاضراته تضيف الجديد لطلبته ان لم تكن المحاضره كلها تقريبا تتضمن مثل هذه الاضافة للطلبة 2- العمق والدقة والاحاطة التامة بمضامين المادة والطريقة التي يوصل بها المعلومة بكل تفاصيلها الدقيقة الى الطالب بوضوح وموضوعية وشمولية ولتاكيد ما سبق اذكر واقعة حصلت عندما تم اخراج بعض الاساتذة من الجامعات العراقية في منتصف السبعينات ومنهم الاستاذ الفاضل ابراهيم كبة كلف احدهم بتدريس مواده ومنها مادة تاريخ الفكر الاقتصادي رفض القيام بذلك لانه لم يرضى ان يضع نفسه بديلا عن استاذ فاضل وقدير وغزير في مادته وبحيث يتضاءل كثيرا بنظر الطلبة عندما يقوم بالتدريس بدلا عنه   وهذا يؤكد بشكل واضح انه لا يمكن ان يضاهى كاستاذ فاضل

ثانيا – كونه عالما قديرا من خلال ما يلي

1-انه كان في محاضراته العلمية وبحوثه ودراساته وكتبه يحيط احاطة تامة ودقيقة بكل جوانب وتفاصيل ما يتم تناوله وبحيث ان المصادر التي كان يعتمد عليها والهوامش التي كان يشير اليها تغني علميا الموضوعات التي يتصدى لها

اذ انه في كل هذه يعرض ويحلل ويناقش ويقبل ويرفض ويضيف في كل هذه الجوانب وبالاستناد الى ادلة واثباتات علمية وافية ودقيقة ومتينة

2-انه كان حتى في تعقيباته على البحوث او الدراسات او الكتب التي تنشر يضيف اليها ويغنيها علميا وكان يقوم بشكل منتظم بمثل هذه التعقيبات في مجلة الاقتصاد التي تصدرها وزارة الاقتصاد والتي سبق ان كان وزيرا لها بعد تكليفه بحقيبتها اضافة الى وزارة الاصلاح الزراعي التي كلف وزيرا لها بعد ثورة 14 تموز 1958 واذكر هنا مرة اخرى مثالا واقعيا يؤكد ذلك وهو ان الدكتور الفاضل كاظم حبيب كان قد نشر بحثا قيما عن الريع الاقتصادي وقد عقب عليه الاستاذ الفاضل ابراهيم كبة وكان هذا التعقيب بمثابة بحث جديد اضاف الكثير الى البحث واغناه رغم غزارة وعمق ما تضمنه بحث الدكتور كاظم حبيب من افكار علمية

ثالثا – كونه انسانا مبدئيا والذي جسده في كل مواقفه الحياتية والتي كان فيها صريحا جريئا قويا في حجته لا يضعف ولا يلين وابرز ما يؤكد هذا هو دفاعه في التحقيق بعد شباط63 والذي مثل محاكمة وتعرية لنظام شباط ودفاعا شريفا وقويا وشجاعا عن افكاره ومواقفه المبدئية واذكر هنا مرة اخرى مثالا واقعيا يؤكد مبدئيته وهو ان احد طلبة ماجستير الاقتصاد كان قد اختاره مشرفا على رسالته للماجستير وكان عنوانها العبودية في العهد البابلي وقد تم رفضها لاسباب سياسية وغير علمية في بداية السبعينات باعتبار ان موضوعها يسئ الى تاريخ العراق وقد رد الاستاذالفاضل ابراهيم كبة هذا الرفض وسبب هذا الرد بحجج واسانيد علمية واستمر الرفض والرد لفترة غير قليلة وكان في كل ذلك ثابتا على موقفه ولم يتراجع وحتى ان الاستاذ الفاضل الدكتور محمد سلمان حسن اقترح عليه ان ياخذ توازن القوى بنظر الاعتبار والذي كانت تربطه معه علاقة قوية به كونه زميلا له في الجامعة وكونه كان مديرا عاما لوزارة الاقتصادعندما كان كبة وزيرا لها فرد عليه الاستاذ كبة بانه لم يدخل معركة حتى ياخذ توازن القوى بنظر الاعتبار وانما الموضوع موضوع علمي ويجب ان يقبل او يرفض على اسس علمية وليس على اسس سياسية وقد استمر الموضوع وهدد كبة برفع الموضوع الى جهات علمية عالمية كونه موضوعا مهما الى ان تراجعت الكلية والجامعة والوزارة عن موقفها بسبب مبدئيته واصراره وقبلت الموضوع ولكن بتغيير عنوانه بحيث يصبح دور الدولة في العهد البابلي والذي لم يغير من الموضوع ومضامينه وهو الامر الذي يؤكد مواقفه المبدئيه وعدم قبوله التراجع عن هذه المواقف لايمانه وقناعته بصحتها وصوابها

رابعا – اما كونه مفكرا ثرا فيبرز من خلال اثراؤه الفكر التقدمي وبالذات الاقتصادي من خلال مجمل اضافاته لهذا الفكر وكمثال على ذلك مساهمته البارزة بخصوص نظرية انماط الانتاج والتي تعتبر ابرزاساس لاشكال النظم الاقتصادية والتي تضمنها كتابه دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي مطبعة العاني بغداد 1973 ص 115-126 والتي لخصتها بشكل مركز في كتابي النظم الاقتصادية ص24-26 وساقتبسها من هذا التلخيص نصا وكما يلي يتم الاستناد الى ما يطلق عليه نظرية انماط الانتاج في تحديد طبيعة النظم الاقتصادية كاساس لتنوعها واختلافها وهي النظرية التي استندت اليها الاشتراكية وبالذات الماركسية في ذلك والتي ترى ان نمط الانتاج هو الذي يحدد طبيعة النظام الاقتصادي ونمط الانتاج هذا يتحدد بقوى الانتاج وعلاقات الانتاج وحيث ان قوى الانتاج تتمثل بالعمل الذي هو النشاط الواعي والهادف والذي يتصل باستهلاك قوة العمل والذي يؤديه الانسان وحده سواء كان جسمانيا عضليا اوعقليا فكريا وكذلك وسائل الانتاج والتي تمثلها الاشياء الماديه المستخدمة في الانتاج والتي هي اما مواد عمل اي مستلزمات انتاج وتشمل الموارد الطبيعية والمواد الخام والمنتجات شبه او نصف المصنعة وكذلك وسائل الانتاج التي تستخدم في الانتاج من خلال العمل بمواد العمل لتحقيق الانتاج ووسائل الانتاج هذه تمثلها المكائن والالات والمعدات والتي يؤدي بها العامل عمله ووسائل تساعد على القيام بالانتاج كالابنية والطرق

والمخازن والارض وغيرها وتمثل وسائل الانتاج اهمية خاصة في كونها الاكثر تاثيرا على الانتاجية وعلى تطور القوى المنتجة وبالذات عنصر العمل وان علاقات الانتاج ترتبط بوسائل الانتاج وتتحقق اثناء عملية الانتاج والتي تشكل مع علاقات التوزيع التي ترتبط بوسائل الاستهلاك العلاقات الاقتصادية وان من اهم العناصر التي تحدد علاقات الانتاج هذه الملكية حيث ان طبيعة الملكيةهي التي تحدد طبيعة علاقات الانتاج بتحديدها لملكية وسائل الانتاج التي تتحدد علاقات الانتاج بها وبالشكل الذي يتم من خلاله تحديد مدى التعاون او التناحر والصراع في هذه العلاقات حيث تكون العلاقات تعاونية في الملكية الاجتماعية وتناحرية في الملكية الفردية لوسائل الانتاج وكذلك تقسيم العمل في مداه وفي طبيعته وملكية وسائل الانتاج هذه التي تحددعلاقات الانتاج هي التي تحدد كذلك من يملك المنتجات التي تتحقق من خلال الانتاج ومن ثم فانها هي التي تحدد شكل توزيع الانتاج وطبيعته حسب المفهوم الماركسي وعلى اساس كل ما سبق فان نمط الانتاج الذي يتحدد بقوى الانتاج وعلاقات الانتاج المرتبطة بها والتي تمثل البنية التحتية والتي تتحدد بدورها بملكية وسائل الانتاج باعتبار ان ملكية وسائل الانتاج هي اساس علاقات الانتاج وهو الامر الذي يفسر ويحدد النظام الاجتماعي وما يرتبط به من بنية فوقية تمثلها العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية والوعي الاجتماعي والذي يفرز نظام الملكية لوسائل الانتاج وبذلك يتم التوصل الى ان نمط الانتاج هو الذي يفسر التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي والذي هو تاريخ تعاقب انماط الانتاج التي يستند كل منها على نمط انتاج محدد بخصائصه وسماته وطبيعته وهو الامر الذي يتم الاستناد فيه الى التقسيم الماركسي لمراحل تعاقب النظم الاقتصادية والتي هي النظام العبودي والنظام الاقطاعي والنظام الراسمالي والنظام الاشتراكي والتي يتسم كل منها بنمط انتاج خاص به

عرض الكتب المهمة ومعالجتها

نضع هذه الزاوية في مقدمة ملف الأستاذ إبراهيم كبة للأهمية ولعلاقة القراءة البحثية هذه بالملف مباشرة

كتاب المفكر الماركسي الاستاذ أبراهيم كبة *

(دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي)

عرض..تقديم..تعليق

<u>الدكتورعباس الفياض</u> بريطانيا

يقول ارسطو ان "الرجل الرائع من يهب العطايا وليس من يكدس الثروة".

يأتي كتاب الاستاذ(ابراهيم كبة) تاريخ الاقتصاد و الفكر الاقتصادي واحداً من أهم الكتب في ميدان الفكر الاقتصادي ،الذي ساعدت جامعة بغداد على طبعته الاولى 1970 . وقبل الخوض في عرض الكتاب، نشير الى أن مؤلفه ربما يكون غنياً عن التعريف، فهو بحق من أبرز الاقتصاديين والمفكرين العراقيين أن لم يكن على مستوى الاقتصاديين في البلدان العربية والاجنبية، وأن نتاجه وجهده وعمله الفكري الكبير هذا يضعه بمصاف ما قام به المفكرون الاقتصاديون عبر عصور عديدة. في سبيل ايجاد مفاهيم وأفكار للظواهر الاقتصادية بغية معرفتها والتكيف او الحديث عنها، وجعلها أكثر ملاءمة للاستيعاب عند الضرورة ، علماً أن دراسة الاقتصاد وفهمه يرتهنان ايضاً بالمنهج الذي يستخدمه هذا الكاتب او ذاك، هذا الباحث او ذاك، هذا الفيلسوف او ذاك، لغرض فهمه وادراك أبعاده العلمية والاجتماعية.

الفكرة العامة للكتاب

يحتوي العمل على 560 صفحة من الحجم المتوسط، متضمناً مقدمة حول مواد الكتاب بالاضافة الى عشرة فصول ينتقل فيها لا عبر الزمن وأنما عبر الفكر والتاريخ،محدداًقيماً بينها ونقاط ألتقائها وتقاطعها .هذا الانتقال مكن المؤلف من تحقيق وتحليل مضمون الفكرة من دون أن يكتفي بمجرد العرض . القسم الاول ظهر تحت عنوان: تاريخ الاقتصاد، وهو مقسم الى اربعة فصول. اما القسم الثاني فيحمل عنوان: في تاريخ الفكر الاقتصادي، وقد ضم ستة فصول. هذا مع العلم ان(الاستاذ كبة) وضع لكل قسم او فصل من فصول كتابه هذا، فهرساً تفصيلياً خاصاً مع هوامش وحواشٍ وبعض المفردات المعرفية الخاصة بآراء المفكرين وتواريخ تناولهم للمادة المطروحة. فلم يكتف الكاتب بمراجعة المصادر الثانوية، بل بذل مجهوداً

كبيراً في الرجوع الى المؤلفات الاصلية لاصحاب المذاهب والآراء، وبلغاتهم الاصلية، موفراً مادة مليئة بالمعطيات التاريخية والفكرية، وبالوقائع والنظريات وبملاحظاته النقدية بشأنها، التي تشكل مادة غنية بين أيدي الدارسين والباحثين والقراء للاستفادة منها، وأن تكون حافزاً للتعمق اكثرو للتحليل . فهولن

*أبراهيم كبة: أستاذ أكاديمي ووزير سابق بعد ثورة 14 تموز1958،ولد عام 1919 وتوفيه في2004-10-26 له عدة كتب وبحوث وترجمات قيمه ومن لغات عديدة.الامر الذي يتطلب من الحكومة العراقية أو أسرة الاقتصاديين العراقيين عقد مؤتمراً علمياً لتقييم أعماله وفاءأ له،وكتابه(تاريخ الاقتصاد وتاريخ الفكر الاقتصادي) كان عباره عن محاضرات قدمت للطلبة الدارسين في جامعتي المستنصرية و بغداد. صدرت الطبعة الاولى1970 والثانية1973

يكتفي بذلك ، بل ينتقل من الفكرة الى الحدث الذي يشكل تاريخ علم الاقتصاد جزأ من هذه الافكار.فماهي الاصول التي اعتمدها المؤلف؟

أن الكاتب سعى الى النظر الى علم الاقتصاد من زاوية رؤياه للعالم الذي تطورت فيه أفكار أقتصادية محددة...منذ التاريخ البشري وصولآ للرأسمالية حتى ظروفنا الحالية.(يستند الى منهجية قائمة على نظرة متكاملة موحدة للنشاط الاقتصادي وللعملية الاقتصادية، على أعتبار الواقع الاقتصادي والفكر الاقتصادي جانبين مترابطين لحقيقة واحدة) .ص3

هذا يعني أن الاقتصادلايمكن فهمه أو لايجد بمعزل عن الحياة الاقتصادية ،وأن موضوعاتة التي شغلت أهتمام المفكرين منذ الآزل لم تكن البحث فقط عن نظرية القيمة أو الاسعار والتوزيع وغيرها وأنما شغلت هذه الموضوعات ذاتها هي التي اوصلت علم الاقتصاد الى أوج نضجه مع عموم الاقتصاديين الكلاسيكيين.

المنهج العام للكتاب

تناول" الاستاذ كبة" في القسم الاول التاريخ الاقتصادي، مقدماً مادة علمية منذ البدايات، تتناول أسسه المنهجية، حيث وضع عناوينه كمقدمة عامة في مادة التاريخ الاقتصادي، تشمل:

أ. موضوع التاريخ الاقتصادي :الذي يعنى حسب المؤلف بدراسة النشاطات الاقتصادية Activities . كما تجري في الواقع ، أو حسب تعبير أندرى بيتر يعني بتاريخ الحياة الاقتصادية Vie، أو بتاريخ الوقائع الاقتصادية Faits حسب تعبير مؤرخي الاقتصاد الفرنسيين أو بتاريخ الخبرات والتجارب الاقتصادية Experiences حسب تعبير شمبيتر في كتابه تاريخ

التحليل الاقتصادي الطبعة الثانية 1955ص12-13 ، أو بتاريخ تطور العمليات الاقتصادية كما هي متجسدة عبر الزمن Processes حسب تعبير أسكار لنجه ،أو بكلمة مختصرة يدرس "التاريخ الاقتصادي" تاريخ تعاقب النظم الاقتصادية Economic Systems .
ب – كما يتناول المؤلف أساليب عرض المادة في المؤلفات الاكاديمية، أي دراسة التاريخ الاقتصادي حسب التقسيم الاكاديمي التقليدي للتاريخ العام الى عصور قديمة ووسطى وحديثة، منتقداً عيوب هذه الطريقة، فضلاً عن الغموض والشكوك الحديثة حول هذا التقسيم. كما يشير الاستاذ كبة الى اقتصارها على الزوايا والأطر التاريخية فقط من دون التعمق، او في دراسة التاريخ الاقتصادي من زاوية القطاعات الاقتصادية (زراعية، صناعية، تجارة... الخ). ويفند هذه الطريقة بأنها تكمن في تجزئة العملية الاقتصادية بصورة مصطنعة، او في استعراضها تاريخ أجزاء من العمليات الاقتصادية، تعود لأنظمة اقتصادية مختلفة من دون ملاحظة وظائفها المتباينة. او الدراسة الاقليمية للتاريخ الاقتصادي، اي استعراض التاريخ من زاوية التوزيع الجغرافي للعملية الاقتصادية .
كما ان المؤلف يشير الى الدراسة المقارنة للتاريخ الاقتصادي، كما يفعل ولتر بكنكهام
W.Buckingham في مؤلفه "النظم الاقتصادية النظرية – دراسة مقارنة"، وهو يقارب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي. وهناك خلط، كما يقول الاستاذ كبة، بين التاريخ الاقتصادي والنظرية الاقتصادية، او كما يفعل رالف بلوجت R. Blodgette في مؤلفه "النظم الاقتصادية المقارنة". وعيوب هذه الافكار والنظريات تكمن في أن الاسلوب قد يكون مفيداً من الناحية العملية، ولكنه مضر من ناحية اهماله للطابع العضوي لنظام الاقتصادي، او كما تجري الدراسة المؤسسيةInstitutional التاريخ الاقتصادي، أي التركيز على تاريخ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. وعيوب هذه الدراسة، بحسب المؤلف، انها تهمل في الحقيقة المفهوم العلمي للنظام الاقتصادي، فضلاً عن مفهومها الخاطئ للراسمالية والخلط بين الدراسة النظرية والواقع الاقتصادي. كما ويستعرض ايضاً دراسة النماذج النظرية أو Economic Models في التاريخ الاقتصادي، أي دراسة الخصائص الجوهرية للنظم الاقتصادية – التاريخية (اقطاع، رأسمالية، اشتراكية... الخ) بعد تجريدها من التفاصيل غير المهمة. وهنا يقف الاستاذ كبة الى جانب هذا الاسلوب من الدراسة للتاريخ الاقتصادي، معتبراً اياه خطوة لا غنى عنها لفهم جوهر الانظمة الاقتصادية التي تعاقبت. ولكن المنهجية العلمية تفترض ان يعقب التجريد عملية اخرى هي . Successive

Approximatio عملية التقريب او التمديد المتعاقب.كما ويشير"كبة" (أذا أكتفى المؤلف بدراسة النماذج النظرية وحدها ،كما يفعل الكثير من الاقتصاديين الاكاديميين، فأن دراساتهم تكون مشوبة بعيب التجريد والبعد عن التاريخ الحقيقي) ويطرح الاستاذ كبة مثالان عن ذلك بقوله أن مثالآ ممتازفي حسن أستعمال النظرية يمكن العثور عليه في دراسة (بول سويزي) المعروفة عن (نظرية التطور الرأسمالي)،كما نشهد على طريقة ناقصة في أستعمال هذا الاسلوب بدراسة بكنكهام المشار اليها.

وينتهي الاستاذ كبة بالاشارة الى ان الطريقة الصحيحة، في رأيه، في عرض التاريخ الاقتصادي هي طريقة دراسة تطور وتعاقب النظم الاقتصادية (نظم الانتاج والتوزيع) بسائر مقوماتها العلمية، وفي اطرها الاجتماعية والتاريخية (أنظر ص 60). وفي الصفحات التي تليها يضع المؤلف قائمة بأسماء المؤلفات التي تساعد في دراسة المادة في الجامعات.

أهم الاشكاليات التي تناولها المؤلف

يرى د. كبة ان من المناسب الاشارة الى بعض النظريات حول مراحل التاريخ الاقتصادي، ويختار منها بعض نظريات التفسير الاقتصادي، تاركاً النظريات الاجتماعية الأخرى... الخ.

حول مراحل التاريخ الاقتصادي القومي، نظرية فون لست (F. List) وهومن رواد المدرسة التاريخية الالمانية والمدرسة الرومانتيكية الالمانية ومؤسس المدرسة الوطنية فيها. ويقوم نظامه الفكري على ثلاثة أركان: (نظري، عملي، تاريخي). وتستند نظريته الى اعتبار تقسيم العمل هو العامل الحاسم في التطور الاقتصادي، وهذا العامل ايضاً يكتسب أهمية من قبل آدم سمث، وقبله افلاطون وارسطو، إلا ان هذا العامل، حسب رأي الاستاذ كبة، لا يمكن ان يكتسب دلالته إلا ضمن نمط العلاقات الانتاجية بمجموعها.

ب. نظرية برونو هلدبراند (1812 – 1878) حول مراحل التطور الاقتصادي للامم. ويعد هلدبراند أحد مؤسسي المدرسة التاريخية الالمانية، والذي هاجم المدرسة الكلاسيكية البريطانية في مؤلفه "الاقتصاد السياسي للحاضر والمستقبل"، وهو يرى ان مهمة علم الاقتصاد يجب ان تقتصر على دراسة التاريخ الاقتصادي الحقيقي للامم .

ج. نظرية هنري مورغان لمراحل التطور الاقتصادي بفعل تطور أدوات الانتاج. يعد الانثروبولوجي الامريكي مورغان من الاوائل الذين ركزوا على أهمية العامل التكنولوجي (تطور أدوات الانتاج)، وممن اكدوا على نشوء وتطور وانحلال النظم الاقتصادية. وتعد نظريته، كما يشير الاستاذ كبة، احد المصادر الاساسية للنظرية الاشتراكية، وذلك بتأكيدها على عامل قوى

الانتاج، واعتباره الحافز الاول للتطور الاقتصادي والاجتماعي. ويلاحظ على هذه النظرية انها احادية الجانب one side لاعتبار ان التقدم التكنولوجي نفسه مشروط دائماً بالمحيط الاجتماعي.

د. نظرية بوخر في تطور الوحدات الاقتصادية. كان بوخر (1847 – 1930) احد أقطاب المدرسة التاريخية الالمانية الجديدة بجانب شمولر وماكس فيبر وسومبارت، وهو يشير في كتابه "نشوء الاقتصاد" (1893) الى ان الاقتصاد مر بثلاث مراحل تاريخية هي "المرحلة المنزلية، مرحلة اقتصاد المدن، مرحلة الاقتصاد الوطني". ونظريته لها تأثير في صياغة المدرسة الاقتصادية الامريكية – المؤسسية) Institutional كوفنر، ميتشل... الخ)، كما اشار لها بوضوح افلاطون وارسطو، كما اشار لها آدم سميث لتقسيم العمل.. الخ، وبسبب طابعها الميكانيكي هاجمها سومبارت، فضلاً عن الاقتصاديين المعاصرين.
هـ - نظرية روستو في مراحل النمو الاقتصادي. يرى روستو بأن جميع الاقطار تمر في تطورها الاقتصادي بخمس مراحل من المرحلة الدنيا الى الأعلى، وهي:

1. مرحلة المجتمع التقليدي Traditional
2. مرحلة الشروط المسبقة الانطلاقPreconditions of take off
3. مرحلة الانطلاق Take off
4. مرحلة السير نحو النضوجDrive toward maturity
5. مرحلة الاستهلاك الجماهيري المرتفع High mass consumption

وبعد ان يشير كبة لكل مرحلة وما يليها من المراحل الاخرى، يقدم ملاحظاته النقدية، في كونها تشكل مجموعة من أفكار البرجوازية، ولا تحتوي على عنصر جديد، لا في فكرها الاجتماعي او الاقتصادي، وهي خليط متنافر من آراء مجموعة الاشتراكيين التصحيحيين Revisionists والتكنولوجيين المعاصرين، وبعض الآراء الكنزية، الى جانب والعديد من الاراء المغرقة في الفاشية والنازية وموجهة لتحقيق أهداف محددة، وهي معارضة للاشتراكية ولحركة التحرر الوطني..

و. نظرية" اندريه بيتر" Piettre في ربط مراحل الفكر الاقتصادي بمراحل الحضارات الغربية أذ يقسمه الى ثلاث مراحل : الاولى يسميها مرحلة(أقتصاد الخدمة) Economie de service وتشمل

مجموع تاريخ الفكر الاقتصادي حتى القرن الثامن عشر – والمرحلة الثانية يسميها مرحلة (أقتصاد الحرية)-
Economie de liberteوالاخيرة يسميها مرحلة (أقتصاد التدخل)
Economie de l'intervention ويربط "بييتر" هذه المراحل الفكرية كما يشير كبة بثلاث مراحل في تطور الحضارات الغربية (حضارات البحر المتوسط) اليونانية والرومانية والغربية وهي مراحل سيطرة التقاليد (الدينية أو الخلقية أو القانونية..الخ) على المجتمع ، ويعلق" أ . كبة" فمرحلة التحرر من التقاليد المذكورة ونقدها (المرحلة الفردية)، ومرحلة تدخل الدولةفي الحياة الاجتماعية. تكون الحياة الاقتصادية (الواقع الاقتصادي) مطابقة لهذه المراحل الثلاث في كل من الحضارات المذكورة.ففي المرحلة الاولى يكون الاقتصاد خاضعأ (Subordinate) وبحسب . ففي المرحلة الاولى تميزت بخضوع ا لاقتصاد للتقاليد حتى القرن الثامن عشر. اما المرحلة الثانية يكون الاقتصاد مستقلاً Independentوفي الاخيرةيكون سائدأ Dominante فانها تتميز بتحرر المجتمع من هذه التقاليد وينزع الاقتصاد نحو التحرّر ويتحول من خاضع الى اقتصاد
مستقل ،وقد(دخلت اوربا في هذه المرحلة ابتداء من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمرحلة الثالثة تتميز بانحلال عناصر الفردية وتحول الحرية الى فوضى والسلطة الى استبداد، بسبب الطابع اللاأخلاقي لتراكم الثروة، وتضطر الدولة للتدخل في الحياة الاقتصادية، ويتحول الاقتصاد الى الاقتصاد الموجهDirigee ، مرحلة تدخل الدولة.Estatimate

يوجه الاستاذ كبة سهام نقده الى هذه النظرية ويصفها بالمثالية والسطحية في عرضها لعلاقة الاقتصاد بالدولة، بقوله ان جوهر المراحل يتحدّد بطبيعة قوى الانتاج بعلاقات الانتاج والتفاعل بينهما، ونتيجة لهذه الرؤيا لا يفرق بيتر بين المراحل التي مرت بها البشرية (العبودي – الاقطاعي – العصور الحديثة... الخ) (ص 79.(

واضافة لذلك يوضح الاستاذ ابراهيم كبة العلاقة بين التاريخ الاقتصادي وتاريخ الفكر الاقتصادي، والخلط الذي تذهب اليه بعض المؤلفات الاكاديمية بين هذين العلمين. ويشير هنا الى ان التاريخ الاقتصادي هو علم وصفي، يتناول الواقع التاريخي للعملية الاقتصادية، علم وقائعFactual ، انه الوجه الواقعي (وجود – واقع) وجزء من القاعدة الاقتصاديةEconomic base ، جزء من علاقات الانتاج، في حين ان تاريخ الفكر الاقتصادي، هو تاريخ الصياغات النظرية للقوانين الاقتصادية، والوجه النظري للعملية الاقتصادية (فكر – نظرية)، وجزء من مفهوم الايديولوجية او مفهوم البناء الفوقي–

العلوي .Super structure وعليه فان التاريخ الاقتصادي، بحسب كبة، هو الاساس المادي لتاريخ الفكر الاقتصادي (ص 82.)

كيف يرى الاستاذ ابراهيم كبة بعض الاشكالات من منظوره؟

يتناول الاستاذ كبة الاسس المنهجية في دراسة نظرية انماط الانتاج في الفصل الثاني (ص 85)، واضعاً الاطار المنهجي لمجموع الدراسات الخاصة بهذا القسم. وفي دراسة مكثفة يأخذ في الاعتبار مجموع العوامل المادية والفكرية، التي توجه النظام الاقتصادي، مشيراً الى بعض المفاهيم الاقتصادية الاولية، معرفاً الاقتصاد السياسي بأنه العلم الذي يعنى بدراسة القوانين الاجتماعية التي تحكم انتاج وتوزيع البضائع لاشباع الحاجات الانسانية، سواء كانت هذه الحاجات حيوية (بايولوجية) او اجتماعية، والتي يقرّرها مستوى الثقافة العام في المجتمع، وقد تكون الحاجات فردية او جماعية... وغيرها من التعريفات التي ترتبط بعملية الانتاج والتوزيع والعمل، وكل ما يرتبط بالاقتصاد السياسي من قوانين.

وفي الفصل الثالث تناول نظام الاقتصاد البدائي او "المشاعي"، مؤكداً طابعه التاريخي الشمولي، رابطاً اياه بالاصول البايولوجية والانتروبولوجية للتاريخ الانساني، الذي يوفر بدوره شروط نشوء النشاط الاقتصادي، وأن الملكية المشتركة لوسائل الانتاج اساس العلاقات الانتاجية، وتطابق تعاونية العمل، وهذا التطابق بين الملكية وقوى الانتاج جاء نتيجة لضعف الفرد المنعزل وليس نتيجة جعل وسائل الانتاج اجتماعية... والقانون الاقتصادي الاساسي لنظام انتاج المشاعية هو ضمان وسائل المعيشة الضرورية للانسان بالاعتماد على أدوات انتاج بدائية، وعلى اساس مشاعية تملك وسائل الانتاج، والعمل الجماعي، وطريقة التوزيع المتساوي للمنتجات. وكان التقسيم الوحيد للعمل هو التقسيم الطبيعي "رجال ونساء" (ص 118.(

وفي الفصل الرابع (ص 139 – 261) يتناول المؤلف الاقتصاد العبودي معالجاً فيه مسائل نظرية حول نمط الانتاج العبودي والازمة العامة للنظام العبودي، ملقياً اضواء ساطعة على أهم معالم نشوء المؤسسات الحضارية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويمكن القانون الاقتصادي الاساسي للنظام العبودي في الانتاج مقدرا من فائض المنتوج Surproduit لاشباع حاجات مالكي العبيد، وذلك عن طريق الاستثمار (الاستغلال) الوحشي للعبيد على اساس التملك الكامل لوسائل الانتاج والعبيد من قبل مالكيهم، وعن طريق استرقاق asservissement والحاق الخراب بالفلاحين والحرفيين وتحويلهم الى عبيد مرحلة الانتقال الى العبودية – وكذلك عن طريق قهر واسترقاق شعوب البلدان الاخرى .

والنظام العبودي هو الذي كان قد مكن على نطاق واسع نسبياً من تقسيم العمل بين الصناعة والزراعة، وبالتالي من بلوغ العالم القديم الذروة في الحضارة الهيلينية .Hellenisme وبدون وجود العبودية لم يكن من الممكن وجود الدولة اليونانية او الفن والعلم الاغريقيان. الحال بدون قاعدة الحضارة الهيلينية والامبراطورية الرومانية، ما كان بالامكان ظهور اوربا الحديثة، (مقتبسة من انغلز "الرد على دوهرنغ (Engels (Anti-Duhring" ص .199

اما القسم الثاني من مؤلف ابراهيم كبة فمخصص للحديث عن "تاريخ الفكر الاقتصادي" (ص 263 – 556)، الذي تناول فيه بعض التيارات الفعالة في تاريخ الفكر الاقتصادي، بدءاً بالفكر اليوناني والروماني، وصولاً عبر السكولائية والماركنتيلية الى النظرية الكنيزية في الثلث الثاني من القرن العشرين.

حاول المؤلف ان يكرس جهداً كبيراً في دراسة الجوانب المنهجية والمبدئية والنظرية العامة، مستعرضاً الجوانب النقدية للمؤلفات الاكاديمية الحديثه، من وجهة نظره، مقدماً منهجاً علمياً شاملاً للافكار والمفاهيم والأسس المنهجية التي يمكن الاطمئنان لها، في دراسة تفاصيل التاريخ والأزمنة والوقائع والافكار الاقتصادية وفي تحديد المفاهيم الاساسية للعلوم الاقتصادية مثل المذهب، النظرية، النظام، المنهج، السياسة، المؤسسة، الفكرة، الفكر... الخ). اضافة الى تناول المناهج الاكاديمية (المنهج الكلاسيكي، التاريخي الأقطاعي، الاقليمي، المقارن... الخ، مركزا على العيوب البارزة التي تصاحب التجزئة، التجريد، الشكلية.. الخ، ومن منهجية اعتمدها المؤلف. حيث يتناول الموضوع خلال دراسته لنظرية انماط الانتاج باعتبارها إطاراً لمجموعة الدراسات المنهجية الخاصة في هذا القسم من الكتاب، مشيراً الى حداثة المادة المطروحة، كما يذهب الى ذلك اريك رول Eric Rollفي مؤلفه "تاريخ الفكر الاقتصادي " A History of Economic.

وفي القرن الثامن عشر ظهرت بعض المؤلفات في هذا الموضوع، يأتي في المقدمة منها من حيث الاهمية مؤلف (آدم سمث"Adem Smith ثورة الامم")الذي يستعرض فيه الماركنتيلية، وما كتبه المؤرخون الاشتراكيون من الالمان في القرن التاسع عشر لتثبيت المنهج التاريخي مثل "شمولر" والناقدين للنظام الرأسمالي وفكره الاقتصادي من امثال "كارل ماركس "ونظريته في فائض القيمة و"دوهرنغ "في التاريخ النقدي للاقتصاد الوطني والاشتراكية، حتى اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث اصبح تاريخ الفكر الاقتصادي مادة مستقلة وأكثر مرغوبيةً .Popular

ويحدد الاستاذ كبة الاهمية لدراسة المادة، في انها:

-اولا، انها تؤكد الطابع العلمي لعلم الاقتصاد وتجنب المرء خطر "التجريد" الشائع في علم الاقتصاد الاكاديمي.

-ثانياً، في كونها تشكل مدخلاً لدراسة النظرية الاقتصادية المعاصرة واستيعاب الجدل القائم فيها بين الاقتصاديين، حول نظرية ارسطو في الطبقات الاجتماعية، او نظرية ريكاردو في الريع التفاضلي او آراء" توماس الاكويني" حول الربا او النظريات الفيزيوقراطية حول الزراعية، وكذلك "كينز" الذي احيى نظريات (مالتس وبرودون وسيسموندي) في أهمية الطلب الفعال ودوره في التحليل الاقتصادي. وهنا يؤكد الاستاذ كبة أهمية الجدل للنظريات الاقتصادية المعاصرة من جهة، والمفكرين الذين يمثلون هذه الاتجاهات .

- ثالثاً، اهمية دراسة المادة لتجنب تكرار الاخطاء في السياسة الاقتصادية ولضمان التقدم في هذا الميدان، والبناء على أسس الفكر السابق، وتجنب ما يسميه كونار الزيزفونية الفكرية Sisiphisme Intellectuelle في اشارة الى اسطورة" زيزيف "اليونانية المعروفة .

-رابعاً لاثبات استمرارية ووحدة الفكر الاقتصادي منذ العصور القديمة حتى الآن .

- خامساً، هو التأكيد على الطبيعة الاجتماعية للاقتصاد وارتباطه بجميع العلوم الاجتماعية الاخرى كالسياسة، الاخلاق، الفقه، والجماليات وعلم الاجتماع... الخ.

-سادساً هو ادراك نسبية Relativity الافكار الاقتصادية، وعدم تمتعها بقيم مطلقة وتوقفها على الظروف الزمانية والمكانية، مما يوحي بأهمية التطور من دون الثورة في زعم هاني Haney في مؤلفه "التاريخ الفكري للاقتصاد History of Economic "، كما يشير الى ذلك الاستاذ كبة .

- سابعاً، لأهمية التمييز بين "علم الاقتصاد" كمجموعة قوانين موضوعية، وبين الاقتصاديين الذين يختلفون في تفسيراتهم لهذه القوانين، تبعاً لاختلاف فلسفة الحياة واختلاف المنهج.Method

كما يشير الاستاذ كبة الى ان وراء كل فكر اقتصادي "قديم وحديث" فلسفة اجتماعية. ويميل المؤلف الى الربط بين الصلة الأكيدة بين التحليل الاقتصادي والفلسفة الاجتماعية، بقوله من الصعوبة فهم الاول من دون الثاني، وأن للفكر الاقتصادي جذرين، الاول الجذر الفلسفي، او ما يدعونه "الصورة العالمية للحياة الاجتماعية" والثاني الجذر العملي، "اي الآراء والحلول لمشاكل الحياة الاقتصادية العملية " التي تصدر عن الساسة ورجال الادارة ورجال الا عمال... الخ.

نقاط الاختلاف ونقاط الالتقاء

يخالف الاستاذ كبة آراء تيلر Taylor بقوله: "يبالغ تيلر في التأكيد على اندماج الفكر الاقتصادي بالفلسفة الاجتماعية، متجاوزاً الارتباط بين المادتين الى الرغبة في ادماج في مادة واحدة. ويرى ان الفرق بين المادتين ليس فرقاً في الطبيعة او في الدرجة، بل هو فرق في الموضوع، حيث ان الفلسفة السياسية، الاخلاقية، الاجتماع، الاقتصاد، مواد ولكل من هذه المواد موضوع محدد مختلف عن الموضوعات الاخرى, هذا المبرر لدراسة كل موضوع على حدة، لا يعني نسيان الترابط فيما بينهما.

كما يلاحظ كبة بعض التناقضات في استعراض "هاني" للخطوط العامة بين الفكر المادي والفكر المثالي، ويبرز عيوبه في الخلط بين الانواع المختلفة للمادية والمثالية في الحقول المتعددة للمعرفة (الحقل الوجودي – انتولوجيا، والحقل المعرفي – استمولوجيا، والحقل الاجتماعي – سوسيولوجيا). ويتوقف عند المنهج لهاني في الفكر الاقتصادي والمنهج الاقتصادي وأثره في تحديد الفكر الاقتصادي واختلاف المنهجية سبباً للخلاف في الفكر الاقتصادي بعد ان يضع "المنهج الاستنتاجي) Deductive "من العام الى الخاص)، والمنهج الاستقرائي) Inductive من الخاص الى العام) والمنهج الاحصائي يعتقدها بأنه الجمع بين المنهجين.

وبعد ان يحاجج(كبة) طروحات هاني ومنهجيته وبعض التطرف في تفسيره وتطبيقه بعض أقطاب المدرسة التاريخية الالمانية ونفي الطابع الشمولي لمسلمات المدرسة الكلاسيكية الانكليزية "الانسان الاقتصادي انسجام المصالح" ورفض تقسيم العمل الدولي، حرية التجارة الدولية... الخ، وصولاً الى انكار وجود علم للاقتصاد... يشير كبة الى ان تصنيف المنهجية في الاقتصاد لدى هاني الى استقرائية واستنتاجية احصائية، تؤكد ان هاني لا يستوعب كامل العملية المنهجية ولا حتى جوهر هذه العملية. غير ان كبة يتفق مع هاني في ربطه الفكر الاقتصادي بالفلسفة.

ولعل من المفيد الاشارة الى تفرد" شوميتر" Schumpetere في مؤلفه تاريخ التحليل الاقتصادي History of Economic Analysis من بين المؤرخين وانكاره اثر الفلسفة في تطور الفكر التحليلي في الاقتصاد، وحسب آرائه لا أثر للفلسفة الاغريقية القديمة أي مجموعة المعارف العلمية (العلم الكلي Universal Science مجموعة العلوم الطبيعية والاجتماعية والميتافيزيقية، التي بقيت سائدة حتى منتصف القرن الثامن عشر، والتي تمثل افكار كبار الموسوعيين من امثال ارسطو وتوماس الاكويني ولاينتبز وفيكو . اصحاب النظم الفكرية الشاملة، فان العلاقة معدومة في رأي شومبيتز بين فلسفة هؤلاء وبين آرائهم في الحقول المختلفة . لا اثر لفلسفة ارسطو في

نظرياته الفيزيائية والاقتصادية ولا أثر في لفلسفة لايبتيز (مونادولوجيا Monadolog آرائه في التجارة الحرة.

تدفع هذه القضايا الاستاذ كبة الى تفنيد افكار شومبيتر باشارته الى ان السلوك الاقتصادي يتأثر حتماً بالمعتقدات الفلسفية (دينية ام غيرها) ولهذا فان اثر الفلسفة اكيد في "السياسات" الاقتصادية التي يدعو اليها الاقتصادي، اي بالنسبة لفروض ونظريات وأدوات المحلل الاقتصادي. ومن المؤسف(يقول كبة) ان شمبيتر لا يقدم أية حجج لاثبات رأيه هذا، بل يحيل القارئ الى تفاصيل في كتابه الضخم: " تاريخ التحليل الاقتصادي". كما ويخالف كبة شوميتر في الفكر الاقتصادي والتحيز الايديولوجي Ideological bias كبة ، من ان من اكتشاف(ماركس وزميله انجلز) موجهاً انتقادات للمفهوم الماركسي للايديولوجيا.. الخ. ويشير كبة الى ان شومبيتر وحداني Monist التفسير للايديولوجيا، لا صلة له في الواقع، وعلى خلاف ما يضمن شومبيتر وأغلب المفسرين الاكاديميين المعاصرين، من ان المحلل الاقتصادي نفسه هو نتاج محيط اجتماعي محدد، وموقع معين في المحيط المذكور. وبالمقابل تناول الاستاذ كبة للفكر الاقتصادي في العهد الاقطاعي، وفي تحديد العصر الوسيط والجدل الحاصل بين المؤرخين الاكاديميين، حيث يشير احد المؤرخين الهولنديين الى ان تحدي الفترة الاقطاعية من 337 ميلادية التي انتهى حكم قسطنين الكبير، وعصر وسيط ينتهي بسقوط القسطنطينية 1453 ميلادية، وهي الفترة التي ساد فيها الحكم الاقطاعي في اوربا، والجدل الواسع بين الباحثين، .

وللأستاذ ابراهيم كبة رأي في هذا الجدل، يشير فيه الى أنه من العبث محاولة وضع نظرية عن الفترة الزمنية، ومن المهم تتبع تفاصيل عملية التحول الاجتماعية من النظام القديم (الرق) الى النظام الاقطاعي الجديد، وأن كل نزاع ينشأ في احضان النظام الذي سبقه يؤدي الى التصادم فيما بينهما. ويسجل واقع نشوء النظام الرأسمالي اثر انفجار الثورات السياسية البرجوازية في القرن السابع عشر والثامن عشر، مشيراً الى انه يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، باعتباره نقطة التحول من نظام الرق الى النظام الاقطاعي، كما يمكن اعتبار القرن الخامس عشر الميلادي الفترة الحاسمة للانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية (ص 387 – 388.(

لكن مصادر الفكر الاقتصادي الاقطاعي، كمال يقول الاستاذ كبة، بل ان الحياة الفكرية بمجموعها في العهدالاقطاعي، كانت تحت اشراف الكنيسة، فلا غرابة، اذن، ان ترتدي شكلاً دينياً سكولائياً، ولا غرابة اذا كانت الآراء الاقتصادية تشكل على الدوام فصولاً من كتب الفقه واللاهوت. ولكن الفكر السكولائي استمد عناصره الفكرية من ثلاث مصادر، هي الفكر اليوناني،

وتحديداً ارسطو، والفكر المسيحي القديم، وثالثا دور الكنيسة ومذهب توما الاكويني، الذي يقوم على التوفيق بين الافكار المسيحية الاولى وبين شروط النظام الاقطاعي. وهنالك آراء شومبيتر لدراسة الفكر السكولائي، رغم ان كبة يختلف اختلافاً جذرياً عن خطه العام، ولكنه يضع حيزاً كبيراً لافكار شومبيتر امانة للفكر في الصفحات 421 – 459.

لكنه ينتقد رأي شومبيتر في تقييم نظرية الفائدة عن السكولائيين المتأخرين واعجابه بها، ويعتبر" كبة" اي تفسير نقدي للفائدة مجرد مس سطحي للظاهرة الاقتصادية لا ينفذ الى جذورها في العملية الاقتصادية نفسها، وفي النظام الاقتصادي (النمط الانتاجي) الذي يفرزها او ان ربط الفائدة بالربح خطوة صحيحة ولكنها خطوة قاصرة. ان الحل يكمن في دراسة قوانين النمط الراسمالي وخاصة قوانين انتاج وتوزيع فائض القيمة، وهذا ما فعله مؤسسو الاقتصاد العلمي من وليم بتي حتى كارل ماركس)ص 459 .(

في الفصل الخامس: "الفكر الاقتصادي لعهد الرأسمالية التجارية، وضع الاستاذ كبة بعض العناوين التي تساعد على تناول الموضوع بسلاسة، بدأ من الاساس المادي (التراكم البدائي لرأس المال) وشروط نشوء الرأسمالية التجارية وشروط الانتاج وعملية التراكم، والفكر الماركينتيلي باعتباره جزء من الايديولوجية الرأسمالية. مشيراً الى أن آدم سمث، في كتابه "ثروة الامم"، هو اول من أطلق اسم "الماركينتيلية" والتي كانت تعكس ايديولوجيا نشوء وتطور الرأسمالية التجارية .Commercial Capitalism ويخلص الى القول ان المدرسة الماركينتيلية خدمت مصالح فئات الرأسمالية التجارية الى جانب الملوك وحاشيتهم البيروقراطية والفئات العليا الاحتكارية من الراسمالية التجارية. ويعزي الاستاذ كبة تخلفها، الى تغير الوقائع الاقتصادية وظهور خبرات جديدة نحو المؤسسات المصرفية وتوسع الاقتصاد السوقي + الثورة الصناعية، التي احلت "المنظم الصناعي Entrepreneur "محل التاجر باعتباره الشخصية الاساسية في النظام الاقتصادي (ص 526.(

اما الرأسمال الصناعي، فقد بدأ ينشأ ويتطور قبيل الثورة الصناعية (أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر). والمؤسسون الحقيقيون لعلم الاقتصاد يأتي على رأسهم وليم بتي و يرى ولادة الافكار للنظام الرأسمالي ولدت في احشاء المجتمع الاقطاعي في الفترة المذكورة نفسها .وبدوره يضع" كبة" تصنيفاً علمياً لتاريخ الفكر الاقتصادي بالربط العضوي بتاريخ (النظم الاقتصادية) كما يلي : ص330-332

(1) الفكر الاقتصلدي للعهد العبودي (الرق) Slavery -الفكر اليوناني و"الروماني"- القرنان الخامس والرابع ق .م .

(2) الفكر الاقتصادي للعهد الاقطاعي Feudalism -500 -1500م
(خاصة الفكر الاكويني-القرن 13م)
(3) الفكر الاقتصادي الرأسمالي: ويحددها
1- المدارس الرأسمالية:
أ- عهد الرأسمالية التجارية (القرن 15-18م) المدرسة الماركنتينية، وبعض الاتجاهات الطوبا ئية.
ب- عهد الرأسمالية الصناعية (اللبرالية)- القرن 18-1870)
(1) المدرسة الفيزيوقراطية –(محاولة توفيقية لبرجزة الاقطاع و القطاع الزراعي في فرنسا)-1750-1780 .
(2) المدرسةالكلاسيكية الانكليزية (سمث،ريكاردو) 1776-1848م .
(3) المدرسة التبريرية Apologetic (سي، باستيا، مالتس،كيري) .
(4) المدرسة الانتقائية (جون ستيوارت مل) .
(5) المدرسة التاريخية الالمانية الاولى(روشر وتلاميذه).
(6)المدرسة الوطنية الالمانية (لست) .
2- مدارس البرجوازية الصغيرة- (سيسموندي ،برودون ،الاشتراكيات الطوبائية) .
3- الماركسية .
ج-عهد الرأسمالية الاحتكارية (الامبريالية) -1870-1914 ويشير الى مدارسها:
(1) المدرسة النمساوية (مدرسة فينا)- (منكر ،جيفونتز) حوالي 1870 .
(2) مدرسة التوازن (مدرسة لوزان)-(فالرأس ،باريتو)- أواخر القرن 19 .
(3) المدرسة المختلطة (مارشال و كلارك)- حوالي 1890 .
(4) المدرسة التاريخية الالمانية الثانية- شمولر وأنصاره.
(5) المدرسة النظمية (المؤسسية) الامريكية- فبلن وأنصاره .
د- عهد الازمةالعامة للرأسمالية(1914-1939)
1-المدرسة الاحتكارية اللبرالية (عدم تدخل الدولة) اللبراليون الجدد (الكلاسيكيون)Neo liberals –فون ميزس Mises ومدرسته، المدرسة السويدية (فكسل Wicksel ومدرسته) .
2- المدارس الاحتكارية التدخلية
أ-المدرسة الفاشية (تدعو للتأميم لغرض الحرب) .
ب- توجيه الدولةللقطاع الاحتكاري (الاقتصاد المختلط) .
ج- تدخل الدولة لتحقيق القيمة (الكنزية)
3- المدارس البرجوازية الصغيرة (الاشتراكية الديمقراطية – مدرسة أقتصاد الرفاه- بيغو وأنصاره- مدرسة هوبزن و هلغردنغ .

4- أمتدادات الماركسية .
ومما يلاحظ ان الاستاذ كبة رغم أشارته الى المدرسة الاحتكارية الليبرالية و الليبراليون الجدد ، لم يشر أو يتوقف عند صندوق النقد الدولي و البنك الدولي ودور هاتين المؤسستين الدوليتين اللتين تشكلتا من قبل الدول المجتمعة مدينة بريتون وودز في الولايات المتحدة الامركية عشية أنتهاء الحرب العالمية الثانية في عام 1944 وما تمخض عنها من نظام" بريتون وودز" الذي كانت المهمة ،خلق حالة من التوازن بين الدول والاسواق عقب حالة الكساد الكبيرالذي أصاب الاقتصاد العالمي 1929-1933 وظهور النظرية الكنزية .حيث أضطلعت الدولة بدور أقتصادي أجتماغي واسع النطاق الى حد ما ،عبر مساحة الانفاق العام الجاري و الاستثماري،وعبر جملة من الاجراءآت والضمانات، من ضمنها حلحلة جوانب من مشكلة البطالة والتضخم و توازن الاسعار وغيرها من التدخلات الحكومية، وقد سجلت تلك الاجراءآت معدلات نمو مرتفعة نسبياً بالتوافق مع تطور ملحوظفي مستويات الرفاه الاجتماعيبشكل عام. ولكن في النصف الثاني من الستينات ، مع تصاعد حدة الازمة النقدية في منظور الاقتصاد العالمي ...وشهدت الدول الرأسمالية ظاهرة جديدة لم تكن معروفة في تاريخ الرأسمالية وهي ظاهرة تعاصر البطالة مع التضخم - Stagflation في منتصف السبعينات (هذه الحالة لم يعاضرها الكتاب فلا تقلل من شأنه وأهميته) وهي ظاهرة يصعب فهمها وتفسيرها في أطار النظرية الكنزية ،الامر الذي الى صعود "النظرية النقدية" أو ما تسمى" بمدرسة شيكاغو" بقيادة (ميلتون فريدمان وفون هايك) الداعية بالعودة الى الجذور(سمث-ريكاردو) والى أبعاد الدولة ودورها في الحياة الاقتصاد ية وأطلاق قوى السوق ،وبدأت هذه التطبيقات في فترة مجيء رئيسة الوزراء البريطانية" تاتشر" عام 1979 ووصول الرئيس الامريكي" رولاند ريغان" الى البيت الابيض ،ووقوع البلدان النامية في (فخ المديونية) في الثمانينات ، وتحولها بعد ذلك بضغوط من المؤسسات المالية(صندوق النقد الدولي و البنك الدولي) ووفقاً ل"توافق واشنطن" نحو أقتصاد السوق الهادفة نحو العولمة وأحتواء البلدان النامية. وجاء أنهيار البلدان الاشتراكية في أوربا الشرقية في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات وتحولها نحو أقتصاد السوق كأحد الاسباب التي تصب لصالح الليبرالية الجديدة .

أما الفصل السادس الذي ظهر تحت عنوان: "الكامراليون الالمان الاوائل" (الصفحات 534 – 556)، فيشيركبة الى تطور العلم الكامرائي في المانيا والنمسا، وهو الاسم الذي أطلق على الماركينتيلية طيلة ثلاثة قرون في هذه البلدان، إذ ترجع افكارها الى بداية القرن السادس عشر، وبذورها لدى لوثرو

اوسا Ossa ((1506 – 1556 وبصورة اوضح لدى الحقوقيين جورج اوبرخت Obrecht وبزولد Besold في أواخر القرن المذكور. كما برز بورنتز Bornitz وكلوك .Klock ومجمل الافكار المشتركة لهؤلاء تتحدد من قبيل: أهمية النقود، زيادة السكان، ضرورة التدخل الحكومي، ولكنهما اختلفا حول نقاط أخرى من قبيل: اعتماد نفقات الدولة على موارد الدومية الملكي او تحديد معدل الفائدة تحديداً قانونياً، او مدة وطبيعة الحقوق والامتيازات المالية للملوك Regalien تجاه رعاياهم. كما ان الموضوعات التكنيكية (كالزراعة وصيد الاسماك وصناعة الحرير) كانت تحتل اهمية خاصة في كتاباتهم.

والملاحظ في الفكر الكامرالي والماركينتيلي في الفكر الاقتصادي المعاصر، كما يشير كبة، من ان هناك جملة اتجاهات متباينة لتصور العلاقة بين الفكر الكامرالي الجرماني والفكر الماركينتيلي بصوة عامة، وبخاصة نماذجه الانكليزية. ولا شك ان الاختلاف في هذا التصور يعود اساساً الى الاختلاف في النظرة الاصلية لطابع ومحتوى ودلالة الفكر الماركينتيلي نفسه. وهنالك من يعالج الفكرين في اطار واحد وضمن عنوان واحد، هو الفكر الماركنتيني، وخير مثال على ذلك الاقتصادي السويدي "هكشر" في مؤلفه المعروف "الماركنتينية" بينما يرى شومبيتر ذلك، لا كتيار من تيارات الفكر الماركينتيلي، بل كتيار من التيارات التي اطلق عليها اسم "أدب المستشارين الادارين"، وركز على فكرة "دولة الرفاه"، أي دولة التدخل الاقتصادي التي ترجع أولوية ظهورها في أورباعلى يد"بسمارك" عندما أعتمد (الرايخستاغ) تشريعات توفر بشكل أولي تأميناً ضد الحوادث والمرض والشيخوخة،وبعدها في أنكلترا بسبب تعاظم دور النقابات وتأثير الحركة الفابية ومن ثم في العشرينات والثلاثينات ظهرت أقتصاديات الرفاهة ص552

ويتفق د. كبة مع الرأي الذي يفرد موضوعاً خاصاً للكامرالية الالمانية، لا باعتباره أدباً منفصلاً او متميز بسماته النوعية الخاصة، وأن خير من يمثل هذا الراي هو الاقتصادي الاميركي هاني (ص 554)، وقد اثرت الكامرالية تأثيراً مباشراً في الفكر الاقتصادي الالماني الحديث وحددت مساره التاريخي وطبعته بسماتها الخاصة.

ملاحظات على الكتاب:- أسلوب العرض والمنهجية المعتمدة

يقوم مؤلف الاستاذ ابراهيم كبة بالتعبير على نحو علمي، عن مهمة الاقتصاد وعلى دراسة صادقة للافكار وللحياة الاقتصادية. وتكمن قيمة الكتاب العلمية في انها تكشف عن القوانين والمفاهيم التي تتحكم بولادة

متخصص وعالم اقتصادي، كيف يبني أفكاره ومفاهيمه وكيف يعالج أفكار المفكرين الآخرين بدرجة عالية من الوضوح، وهذه بحد ذاتها، على ما اعتقد قيمة المؤلف. فثمة نقاط كثيرة اشار لها الاستاذ كبة وعمد الى شرحها بتوسع وبعضها اكتفى باشارات عابرة اليها. ولكنه، بالمقابل، دعم أفكاره بحواش ومصادر عديدة، فقد قسم الكتاب الى قسمين. القسم الاول يتضمن الجوانب التاريخية لعلم الاقتصاد مع تحليل لكي يكون العرض واضحاً قدر المستطاع . يسهل بلوغه للدارسين وللقراء، باستثناء بعض الجوانب الفكرية التي يحاجج فيها بعض آراء المفكرين وهو يوجه مؤلفه للدارسين والباحثين، الذين يريدون ان يبحثوا جدياً، ويريدون ان يأخذوا طريقهم بأنفسهم. فهو يطلع القارئ على العشرات من آراء المفكرين ويعرض أفكارهم بشكل سليم، ويعطي وجهات نظره حولهم، ناقداً او مؤيداً، مخالفاً او متفقاً، ويجري حواراته بطريقه تؤمن سلامة أنتظام سيرها ما أمكن..

وعلى ما يبدو، فان الامر لا يتعلق بطريقة عرض المؤلف لكتاب ما، بل بما يتعلق بفهم القوانين والأفكار والمفاهيم التي طرحها الكاتب، لكي يتمكن الدارس من رسم طريقه الخاص، لمتابعة تطور هذا العلم. أ . كبة تناول عرض الكتاب بمنهجية علمية وبروحية متخصص، وشغل حيزاً كبيراً لتحليل الجوانب التاريخية للمدارس او المذاهب الفكرية (القديمة والحديثة) التي تمكن الباحث من الاسترشاد منها..

أن هدف المؤلف على ما اعتقد، هو الكشف عن الطروحات غير العلمية التي تتناول موضوع الاقتصاد السياسي، وحركة المجتمع والمراحل التاريخية للتطور البشري، بعيداً عن الاسلوب الاكاديمي الانتقائي،الذي يكتفي بمجرد استعراض المدارس المختلفة على علاتها والوقوف متفرجاً منها، غير أن كبة يختلف فهو، يخضع جميع هذه الأفكار والنظريات لدراسة منهجية (المنهجية كما يشبر لها المفكر الاقتصادي المصري د. محمد دويدارهو" فن ترتيب الافكارترتيباً دقيقاً بحيث يؤدي الى كشف حقيقة مجهولة،أو البرهنة على صحة حقيقة معلومة...). قائمة على نظرة متكاملة موحدة للنشاط الاقتصادي وللعملية الاقتصادية، مما يضفي على المؤلف الترابط العضوي للملامح البارزة فيه، موضحاً بعض المقولات الاقتصادية وتعريفه لها. وعندما يريد ان يشير الى شاهدة معينة في التاريخ الاقتصادي فانه يشير الى اين؟ ومتى؟ ومن الذي عبر عنها بوضوح؟.

وفي القسم الثاني يعرض الجوانب النظرية، فقد اعتمد طريقة في البحث في منتهى الدقة، بحيث تناول الافكار من مصادرها الحقيقية، وبلغة أصحاب هذه الافكار والنظريات وطبقها على الواقع بطريقة منهجية ماركسية. وهو بذلك يكون قد امتلك المادة بكل تفاصيلها، وحلّل اشكال نموها، وكشف عن

الارتباطات لبعض المذاهب الفكرية المطروحة في الكتاب، وتمكن من عرضها بمجموعها وببناء هيكلي للمبادئ والافكار التي يتبناها المؤلف. ولاينسى الاشارة الى كبة كان متفقاً مع أوزنر(صاحب كتاب تطور الفكر الاقتصادي) حول أهمية الثورات العلميةالثلاث في تاريخ الفكر الاقتصادي وهي ثورات (نيوتن و دارون و أينشتاين) ص228 . كما أن كبة يأخذ باستنتاج بول سويزي في معرض(تحليله للمنهج العلمي في الاقتصاد) ص298، فيما يتعلق بأستنتاجات ونظريات "ماركس" في الجزء الاول منها ،هي ذات طابع مؤقت فقط ومن الضروري تعديلها عند مواجهتها بالواقع ، وأنها غير قابلة لأخذها كتوقعات للمستقبل، ويستشهد" سويزي" بقانون الشقاء المتزايد للبرولتاريا (وهو أحد القوانين الواردة في الجزء الاول من راس المال) ويؤكد بأنه قانون تجريدي، وأن ماركس نفسه أكد على أنه يخضع في التطبيق لعدة ظروف معاكسة جديرة بالتحليل . أما الجزأن الثاني والثالث من (رأس المال) فهما تقريب متعاقب Succesive approximation للمجرد Abstract الى المحدد Concrete أي تقريب النمط النظري الى الواقع الفعلي . يبدو أن نظرة الاستاذ كبة هذه نابعة من رؤيته للتاريخ وتاريخ الفكر الاقتصادي بشكل خاص. فهو لاينظر الى حركة التاريخ على أنها آلية أو خطية.فالتاريخ لايتحرك من الحاضر أو من الماضي فقط وأنما من المستقبل أيضاً .

الخلاصة :

تناول مؤلف أ. ابراهيم كبة القيّم "دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي" جملة من الافكار والمفاهيم والنظريات لمدارس فكرية متنوعة ومختلفة. فقد تناول الفكر الاقتصادي والتاريخ الاقتصادي في العصور القديمة (العصر اليوناني والعصر الروماني) مروراً بالعصر الوسيط.

تناول الكتاب المسائل التي بحثها كلاً من افلاطون وأرسطو، والتي تتعلق بالقيمة والنقود من جوانب فلسفية وأخلاقية وسياسية، لأن الفكر الاقتصادي لم يعد علماً مستقلاً حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وفي العصر الوسيط، او كما يسمى عصر سيطرة الفكر اللاهوتي وتوما الاكويني أبرز الممثلين له، وتطرقه الى المسائل الاقتصادية ومعالجتها اخلاقياً تبعاً للتعاليم المسيحية. ويواصل " كبة "بحثه من ان الانسان وحياته الاجتماعية منذ بداية التاريخ البشري اتسمت بضرورة توفير الحاجات المتعددة للاستمرار في حياته، وتوفير الموارد القادرةلتلبية هذه المطاليب. ونتيجة لذلك تطورت معارفه الاقتصادية والاجتماعية، ومن هنا برزت الحاجة لامتلاك معرفة دقيقة لمختلف الظواهر والوقائع الاقتصادية، وبذلت محاولات جدية عديدة لمفكرين اقتصاديين، وفلاسفة كبار وفي مرحلة لاحقة ظهرت

المدرسة الماركينتيلية "التجارية" والمدرسة الفيزوقراطية "الطبيعية " ومفكريها، كما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الاقتصادية. وسارت دراسته على نهج كبار أصحاب المذاهب الاقتصادية الكبرى من امثال ارسطو وتوماس الاكويني وآدم سمث وماركس وفيلن وكينز.

لقد اتسمت أفكار "كبة"في مؤلفه المذكوربكثير من الصرامة والدقة. أذ يلاحظ في كتابه، الذي يحتوي على 560 صفحة، وبالتبويب الذي يميز شخصية المؤلف ونظرته العميقة، فهو قد يتبنى أفكار كانت تتعارض مع أفكاره التى تناولها في "دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي"، بدأ من العصور القديمة والوسطى ومن المدارس (السكولائية، الماركينتيلية، الفيزيوقراطية والكلاسيكية) عدا ماركس وبعض المفكرين وصولاً الى الكنزية.

ويعتبر رائد من رواد الفكر الاقتصادي، حيث انبرى لمناقشة أفكار كبار أصحاب المذاهب الاقتصادية. وأبدى آراءه الخاصة حول القضايا المطروحة، متفقاً او مفنداً. وأن مناقشته وطروحاته وطريقته الايجابية وتلخيصاته لآراء المفكرين حول المسائل النظرية المبحوثة، تشكل مدرسة فكرية نستخلص منها الدروس لغرض تعميق بحوثنا النظرية في الميدان الاقتصادي.

وأن العمل الكبير الذي بذله د. كبة، يساعد على استيعاب المعلومات المعرفية، لعمل جيل الرواد الاوائل من الاقتصاديين على اختلاف مشاربهم الفكرية والايديولوجية والسياسية.

د. كبة الاقتصادي والأكاديمي البارز الذي عمل استاذاً في جامعتي بغداد والمستنصرية، والذي تناولت أعماله ومحاضراته، قضايا التاريخ والفكر والفكر الاقتصادي بشكل مكثف، كان قد شهد مراحل تطور البلدان النامية، وعاش الحرب الباردة وتنافس المعسكرين (الرأسمالي والاشتراكي) وأحاط بمعظم الأفكار والنظريات البارزة منذ نشوء المجتمع البشري. وقد تاثر بالفكر الماركسي، وبالبناء الاشتراكي، على ما أعتقد، وهذا الامر يتضح من أفكاره وآراءه التي تجعله قريباً للمدرسة الماركسية، وقربه لا يلغي حقيقة انه رائداً حقيقياً في علم الاقتصاد. وأرى في مؤلفه "دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي"، الذي نشر عام 1970 لا زال يحظى بالاهمية النادرة، وفي مقدمة الوثائق العلمية المتخصصة في عراقنا اليوم. وأن مؤهلاته العلمية وسعة معرفته سمحت له بمعالجة عدد من المسائل الفكرية الاقتصادية بقدر من العمق والدقة في التحليل. وستحتفظ ذاكرة الاجيال من طلبته وزملائه من الاساتذة بذكرى طيبة لاستاذ اقتصادي كبير، نظراً لاسهامته الغنية في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي.

هذا الكتاب يعيد سرد آراء أ. كبة ويفتح نافذة لتسليط الضوء على النواحي غير المرئية من الافكار الاقتصادية على المستوى العالمي ولاثارة نقاش عملي ومنهجي حول ما يجري الآن من متغيرات في الساحة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية في ظل العولمة والخصخصة التي يتبارى حولها مفكرو ومنظرو الرأسمالية .

أن المؤلف والكتاب يدفع بأتجاه مواصلة البحث والاستخدام النظري والمنهجي العلمي استخداماً جدلياً ،بالترابط مع ما يجري في العالم ومع ظروف واقعنا في البلدان العربية بكل خصوصياتها ،وذلك وفق منهج فكري وألتزام سياسي بالديمقراطية ونشرها ومأسستها على الصعيد المجتمعي، ونقل ذلك التراث الى حالة الحركة والتجدد. في ظل الازمة الحالية للرأسمالية التي برهنت أن التوجهات الليبرالية الجديدة غير قادرة وحدها عن حل الاشكال بين الاقتصاد والسياسة في أطار السلطة السياسية والازمة تدفع بقوة أن المصلحة الاقتصادية أو الحالة الجدلية بين المؤسسة الخاصة و الدولة، فالسوق يواجه تراجعاً لصالح الدولة منذ أزمة (2008-2009) ولا زال ، هذا التراجع يتطلب تبريره نظريا من أصحاب "المدرسة النقدية" وهو مايدفع الى الصدارة البحث عن حلول وأفكار جديدة(خارج الاطار المذكور) وأيجاد صياغات لمقاربات تنموية في بلداننا العربية ،بسبب خيبة الامل لما أسفرت عنه النتائج من تطبيقات وصفات(الصندوق و البنك)الدوليين للبلدان النامية على أمتداد الثلاثين سنة الماضية، وهي مجموعة السياسات التي أنطلقت من "توافق واشنطن" الذي جسدت (الليبرالية الجديدة)برامجه الاقتصادية للاصلاح ، ولم تستطيع الدول التي ألتزمت بذلك أن تتخطى عتبة التخلف والتبعية وأنما عجزت من تحقيق أي ملمس تنموي للالفية الثالثة .هذه النظرة العلمية العميقة على "ما أعتقد "التي تجعل من الكتاب مصدراً ذو أهمية كبرى في تاريخ الاقتصاد وتاريخ الفكر الاقتصادي ،وهي ما تفسر الاهمية النسبية لمهمة الاستشراف عند الاستاذ أبراهيم كبة *.

البحوث

أهمية تبني معايير المحاسبة الدولية في الاقتصاد العراقي

الدكتور صباح قدوري
نائب رئيس جامعة ابن رشد\هولندا
رئيس قسم المحاسبة\كلية أدارة الأعمال
الدنمارك

ملخص:

تتوجه اليوم السياسة الاقتصادية العراقية نحو الليبرالية والانفتاح على الأسواق الخارجية. والانتقال إلى اللامركزية الإدارية في تسيير الاقتصاد، ومنهج التحول إلى اقتصاد السوق. ولاشك في أن هذه السياسة قد ساهمت في تفاقم نظام الفساد المالي والإداري في المؤسسات العامة والخاصة، الحكومية والحزبية، وخاصة بعد الاحتلال في عام 2003.

وأمام هذه الحالة تعاظمت الحاجة للتفكير بإجراء الإصلاحات الضرورية في الاقتصاد العراقي، ومنه النظام المحاسبي. وسيكون تطبيق معايير المحاسبة الدولية إحدى عوامل ذلك الانفتاح باتجاه تطوير نظام محاسبي يقضي على مشكلة الفساد في العراق، وقبل ذلك يساهم في توحيد الأنظمة المحاسبية المتعددة المعمول بها في القطاعين العام والخاص تسهيلا للعمل وضبطا نوعيا له. وربما كان ذلك أدعى في تطوير أساليب الرقابة المالية وجودتها، وأيضا في تحديث القدرات المهنية للعاملين في حقلي المحاسبة والإدارة في العراق الجديد.

وتتطلب هذه الحالة الانتقال إلى اقتصاد جديد للمحاسبة، واستخدام أدوات جديدة لمعالجة وظيفة النظام المحاسبي، من أجل توفير المعلومات المحاسبية التي تلبي احتياجات المستثمرين والمالكين والممولين وغيرها.

Abstract

Today, Iraq's economic policy is leaning towards liberalism and openness to foreign investment. The transition to decentralization and market economy is in process, but not without costs.

The financial and administrative system is infested with corruption at all levels, especially after the occupation in 2003.This fatal situation requires the much needed reforms of the financial system, and hereby the accounting system. The application of international accounting standards could be one of the key factors in the development process of a multi-applicable accounting system, and the fight against corruption.

The implementation of contemporary accounting methods would not only enforce control and quality capabilities, but also the professional capacity of workers in the field of accounting and administration.
The situation requires a move towards a new accounting system, and the use of new tools to address the challenges of the current situation. It is within the country’s interest, that the accounting system can provide relevant and up to date information, which can fulfil the needs of investors, financiers and others.

توطئة:

إن ظهور النظام المحاسبي القياسي العالمي، يعدّ ضرورة أساسية لتطويرعلم [وفن] المحاسبة، وللابتعاد عن كافة السلبيات التي تواجه الطرق المحاسبية المختلفة في بلدان عديدة، ومنها العراق. إن تطبيق هذا النظام سيؤثر بلا شك على التوعية في أوساط المسؤولين والمشرعين في الدوائر والمؤسسات والوحدات الاقتصادية التابعة للدولة، وفي وحدات إدارة الأعمال. حيث أن تبني هذه المعايير يوفر مرجعا محاسبيا واحدا وثابتا. ويساهم في تعزيز مهنة المحاسبة على الصعيد العالمي. وفي تطويراقتصاديات دولية قوية،عن طريق ترسيخ وتشجيع الالتزام بالمعايير المهنية عالية الجودة. وتعزيز التقارب الدولي بين هذه المعايير والتعبيرعن قضايا المصلحة العامة والمسؤولية الاجتماعية، حيث تكون الخبرة المهنية أكثر ملاءمة. ويؤمن أيضا عملية ضمان وسلامة المعاملات الاقتصادية وتفسير المعلومات. ويوفر إفصاحا ماليا يسهل فهمه وقراءته ومعالجته والتعامل معه، ومحاسبة المسؤولين في الحكومة على أساسه. كما يضع أسسا موحدة لعملية التقييم والمقارنة وتوحيد المبادئ والأصول والقواعد المحاسبية في ظل تعقيد العلاقات الاقتصادية، ونتيجة للتطور السريع الذي يحدث في مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وكذلك التوجه نحو ليبرالية العلاقات الاقتصادية العالمية من خلال الانفتاح المتزايد لنموذج اقتصاد السوق- الحر.

أهمية البحث:

وتكمن أهمية هذا البحث، في اتباع منهج تحليلي معرفي ووصفي، الأمر الذي يقود إلى بلورة تصور منطقي وآليات التنفيذ اللازمة لتطوير النظام المحاسبي، من خلال التأكيد على ضرورة الاستفادة من تطبيق معايير المحاسبة الدولية في الاقتصاد العراقي وأهميته.لا سيما وأن تفاقم نظام الفساد المالي والإداري في العراق وخاصة بعد الاحتلال في عام 2003، لاشك فإن تطبيق المعايير المحاسبية الدولية سيكون أحد العوامل، والمفتاح الحقيقي لتطوير نظام محاسبي من شأنه أن يقضي على هذه

المشكلة. لا سيما وأن الحالة الاقتصادية العراقية الحالية قد تكون مؤهلة، مع الأخذ بنظر الاعتبار دورالمنظمات المهنية الوطنية المحاسبية، وبرامج الحكومة والجامعات ومراكز البحوث المختصة لتطبيق ذلك.

مشكلة البحث:

فيما يمكن تلخيص مشكلة البحث في إمكان تبني هذه المعايير في القطاعين العام والخاص، وفي فرص تطبيقها بحيث تتلاءم وتتكيف مع البيئة الوطنية، وتوجه الاقتصاد العراقي نحو الليبرالية، واللامركزية الإدارية، وتطبيق نموذج اقتصاد السوق، محددا ذلك بضرورة إجراء الإصلاحات الضرورية والمهمة في البنية الهيكلية للاقتصاد والنظام المحاسبي العراقي المعمول به حاليا.

هدف البحث:

أما الهدف في هذا البحث، فيتمثل بأن تبني هذه المعايير، سوف يحقق مبدأ التوافق بين الأنظمة المحاسبية والتقارير المالية المتعددة المعمول بها في العراق، والتي تنظم أمورها مصادر مختلفة، كالقانون التجاري،الضريبي، قانون الميزانية العامة للدولة، قانون أصول المحاسبات العامة للدوائر والمؤسسات في القطاع العام والجمعيات، وقوانين وحدات إدارة الأعمال في القطاع الخاص، وغيرها.

فرضية البحث:

إن فرضية البحث تكمن في الفكرة الآتية، فلكي يؤدي النظام المحاسبي دوره الحقيقي والفعال في الاقتصاد العراقي، لابد من الاستفادة من تطبيق هذه المعايير بما يساهم بلا شك في توحيد الأنظمة المحاسبية المتعددة المعمول بها في القطاعين العام والخاص. ومن ثمَّ في تحسين أساليب الرقابة المالية وجودتها ومناهجها من الجانبين النظري والتطبيقي وتطويرها جميعا. والفرضية ترى بأن ذلك سيرفع من كفاءة الأداء المالي والمحاسبي والإداري وإنتاجيته، وكذلك في تطوير القدرات المهنية للعاملين في الحقل المحاسبي.

محاور البحث:

وفي ضوء ما تقدم ، يمكن إجمال محاور البحث بالآتي:-
المحور الأول: توصيف مكثف للحالة الاقتصادية في العراق الجديد.
المحور الثاني: لمحة مختصرة عن الأنظمة المحاسبية في العراق.
المحور الثالث: سرد مختصر ومكثف عن التطور التاريخي للنظام المحاسبي، ووظائفه.
المحور الرابع: المعايير المحاسبية الدولية، وإمكان تبنيها والاستفادة من تطبيقاتها في الاقتصاد العراقي.
المحور الخامس : الخلاصة والمقترحات

المحور الأول: توصيف مكثف للحالة الاقتصادية في العراق الجديد

يلعب الاقتصاد المعرفي اليوم دورا كبيرا في اقتصاديات البلدان المتطورة. وقد أصبح أكثر تأثيرا في الحياة من بين العوامل الأخرى المادية والطبيعية. وتلعب التكنولوجيا وخاصة المعلوماتية منها دورا مهما وبارزا في نمو وتطوير اقتصاد المعرفة. يقول الكاتب وليام اي. **هلال** وزميله كينيث ب. تايلور في كتابهما الموسوم "اقتصاد القرن الحادي والعشرون- الآفاق الاقتصادية - الاجتماعية لعالم متغير:"اليوم أصبح واضحا كون المعرفة وخاصة اقتصاديات المعرفة هي الأصل الأكثر استراتيجية في الوحدات، ومصدر الإبداع والابتكار والقيم والتقدم الاجتماعي- أي المورد الذي لا ينضب".
فالاستعانة بمفاهيم الاقتصاد المعرفي، يساعدنا على التعرف الحقيقي إلى بعض ملامح النظام الاقتصادي العراقي في المرحلة الراهنة وأنشطته، وذلك من خلال تحليله وتقييمه واستخلاص النتائج من أدائه، ووضع استراتيجية واضحة وشفافة لتفعيله. والتصور في آفاق تطوره المستقبلي، من خلال إجراء إصلاحات وتغيرات جذرية في البنية الهيكلية لهذا القطاع، الذي يعدّعصب الحياة للعراق الحالي والمستقبلي. ومما لا شك فيه أن هذه

الإصلاحات لابد أن تشمل الجانب المحاسبي أيضا، من خلال تطوير النظام المحاسبي وتحديثه على صعيدي القطاع العام والخاص.
وقبل أن ندخل في موضوع إمكان وضرورة تطبيق المعايير المحاسبية الدولية في العراق، لا بد من إعطاء صورة واضحة ومكثفة (من دون الدخول في التفاصيل)، عن طبيعة النظام الاقتصادي وميكانزمه،وهي كالآتي:-

1 - إن الاقتصاد العراقي الحالي، هو اقتصاد ريعي. ويعني ذلك تبعية الدولة أو المجتمع للمداخيل الناتجة من صادرات المصادر الطبيعية، مثل النفط، وهي المصادر التي تلعب دورا بارزا في كل أنشطة الدولة. بمعنى آخر فإنَّ الدولة تؤمِّن ميزانيتها بالاستناد إلى تصدير النفط. حيث تبلغ نسبة مساهمة القطاع النفطي بحدود(75-80%) من الناتج المحلي الإجمالي. وتشكل عائدات النفط 98% من موارد الميزانية العامة للدولة.

2- غلبة طابع النشاط الاقتصادي الاستهلاكي، يرافقه تدني النشاط الانتاجي، وخاصة الصناعي والزراعي والخلل والقصور في البني التحتية لهما، الأمر الذي يساهم في خلخلة إمكانات خلق التراكم الرأسمالي للاقتصاد في المدى المنظور.
3- انعدام رؤية شفافة واستراتيجية و/أو أيديولوجية واضحة في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة. وقد بلغت موارد الدولة العراقية منذ الأحتلال في2003 حتى الان نحو400 أربعمئة مليار دولار امريكي، لم تستثمر منها الا مبالغ قليلة جدا في تطوير القطاعات الأنتاجية ، وخاصة الصناعة والزراعة، ولا في مجالات بناء واعادة بناء البني التحتية، و/أو جلب التكنولوجيا المتطورة، ولا في تحسين وتامين الخدمات العامة الضرورية من الصحة والتعليم ومياه للشرب وكهرباء ومشتقات النفط، ولا خطط جادة للقضاء على البطالة الواسعة. وتبديد غالبيتها في مشاريع وسياسات لا علاقة لها بتحقيق التنمية الأقتصادية والأجتماعية والبشرية المستدامة. كما جرى نهب عشرات

المليارات منها من قبل المحتلين والفاسدين والمافيات على المستويات الإدارية والحزبية.

4- تدمير شامل ومبرمج للبني التحتية، نتيجة الحروب المجنونة في العهد السابق والاحتلال الأمريكي وحلفائه للعراق في عام2003.

5- احتل العراق على وفق تقرير منظمة الشفافية الدولية2011، المرتبة الثالثة في العالم بعد الصومال وأفغانستان، في تفشي نظام الفساد الإداري والمالي فيها، وتفاقم حدته بعد الاحتلال عام 2003.

6- حسب التقرير الصادر من الأمم المتحدة فإنَّ نسبة الفقر في العراق وصلت إلى 23%. ونسبة البطالة بحدود 30%، وخاصة في صفوف الشبيبة والخريجين والنساء. كما أن نسبة التضخم قد تقترب من رقم عشري.

7- الانفتاح غير المنضبط على اقتصاد السوق، وهونهج السياسة الاقتصادية الحالية المفروضة على العراق من المؤسسات المالية الدولية (الصندوق والبنك الدوليين ومنظمة التجارة العالمية). وضعف أداء القطاع العام، وخاصة في عملية إعادة البناء (البنية التحتية، وإدخال التكنلوجيا الحديثة، والخدمات الأساسية).كما أن أداء القطاع الخاص المحلي ضعيف أيضا.

8- ضعف ومحدودية مصادر القوى البشرية المتطورة وذات الخبرة اللازمة في العملية الإنتاجية. وضعف في البنى التحتية أيضا، ما يعرقل فضلا عن عوامل أخرى، عملية النمو والتطورالاقتصادي في العراق.

9- إن العقود المبرمة بين الحكومة الفيدرالية، بما فيها إقليم كردستان العراق والشركات الأجنبية العاملة على أساس عقود المشاركة في الإنتاج، تنقصها الشفافية العالية، وتشكل إجحافا كبيرا بالجانب العراقي. وعلى وفق بعض البيانات الأولية، فإن هذه العقود تمنح الشركات المذكورة، ولمدة طويلة قد تزيد عن 20 سنة، حصة أرباح عالية من النفط المستخرج، بكلفة زهيدة لهذه الشركات، مقابل تطوير الحقول النفطية العراقية.

10- وقد ساهمت السياسات الاقتصادية القائمة على تحرير الأسواق والأسعار بأشكال تتنافى مع السياسات الاقتصادية التنموية، مع غياب وانعدام المحاسبة والشفافية على الصعيدين الإداري وغيره، أقول ساهمت في تزايد حدة الاستقطاب

الاجتماعي، ما أدى إلى انقسام المجتمع، ونجم عنها فجوة كبيرة بين الفقراء والأغنياء، مسببا تركز الثروة بشكل كبير في يد الفئات المتنفذة في قمة الهرم الحزبي والإداري العام، وهي التي تسيطر على الميول الاقتصادية ورسم الاتجاهات العامة المعمول بها.

11- ضعف واضح في أداء التشريعات المالية والنظام الضريبي والمؤسسات المالية وعلى رأسها البنوك، وعدم استقرار قيمة العملة المحلية.

12- التردي المريع المتفاقم للخدمات كافة، البلدية والصحة والتعليم وغيرها.

13- هناك خلل بنيوي في تركيبة الموازنة، وذلك بسبب تفاوت كبير في نسبة توزيع نفقات الموازنة بين الإنفاق العام التشغيلي الذي يمثل نسبة أكثر من 70% فيما الإنفاق الاستثماري العام لا يشكل إلا ما نسبته 25-30% من مجموع الموازنة. وقد تسببت هذه الحالة في عجز الموازنة عن خلق ديناميكية مطلوبة على مستوى النمو الاقتصادي، والذي يشترط وجود استثمارات ضخمة يحتاجها البلد وخاصة في مجال بناء وإعادة بناء البنى التحتية، وإدخال التكنلوجيا الحديثة، وتأهيل القطاع النفطي، والنهوض بالقطاعات الإنتاجية ، وفي مقدمتها القطاعين الصناعي والزراعي، وتفعيل التجارة ووضعها بخدمة الخطط التنموية العامة، تمهيدا للانتقال من اقتصاد ريعي الى اقتصاد القيمة المضافة مستقبلا.

المحور الثاني : <u>لمحة مختصرة عن الأنظمة المحاسبية في العراق</u>

نجد اليوم في العراق أنظمة محاسبية متعددة. وعلى الرغم من التزام القطاعين الصناعي والتجاري، بتطبيق النظام المحاسبي الموحد، إلا أن المؤسسات الحكومية والنشاط الاستثماري والمالي والاجتماعي ووحدات الأعمال الخاصة بقي يتبع أنظمة مختلفة. وهذه الأنظمة هي:

1- المحاسبة الحكومية، وتطبق في الدوائر والمؤسسات الحكومية المرتبطة حساباتها مركزيا بالخزينة، العامة للدولة.

2- النظام المحاسبي الموحد للقطاعين الصناعي والتجاري الحكومي.
3- النظام المحاسبي للنشاط الاستثماري، على وفق الخطط الاستثمارية لوزارة التخطيط .
4- الأنظمة المحاسبية المطبقة في البنوك وشركات التأمين.
5- أنظمة محاسبية مختلفة في وحدات إدارة الأعمال- القطاع الخاص.

ومن الطبيعي أن تختلف هذه الأنظمة فيما بينها من حيث التسجيل والسجلات والدفاتر والمبادئ والقواعد المحاسبية وإعداد الحسابات الختامية وإنتاج التقارير المالية والإفصاح المالي، ومن ثم إلى نتائج هذه التعددية والاختلاف فيما بينها.

إن النظام المحاسبي الموحد المطبق في وحدات الصناعية الحكومية، وضع في حينه لاحتياجات الاقتصاد الموجه أو المخطط، وفي ظل هيمنة القطاع العام في النظام المركزي لتسيير الاقتصاد وإنتاج البيانات لخدمة الاقتصاد الكلي أكثر من الاقتصاد الجزئي، ولم يتغير ذلك النظام حتى الآن.

وكما نجد ان العلاقة بين المحاسبة المالية ومحاسبة التكاليف في تصميم النظام المذكور، جاءت لتركز على (الأول) على حساب (الثاني)، وبذلك أهمل دور وحدات إدارة الأعمال بوصفها المنتج الأساس للبيانات التحليلية التي تنتجها محاسبة التكاليف. وعليه يمكن القول بان النظام المحاسبي الموحد بشكله الحالي، ليس أكثر من مسودة النظام المحاسبي للتكاليف.

ولمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن الاطلاع عليها في البحثين للباحث، من خلال الرابطين المدرجين في نهاية قائمة المصادر.

وبناء على ما تقدم، يمكن القول، بعدم ملاءمة الانظمة المحاسبية المطبقة اليوم للمرحلة الحالية التي تمر بها السياسة الاقتصادية العراقية، وذلك للأسباب الآتية:-

1- توجه الاقتصاد العراقي نحو الليبرالية والانفتاح، واللامركزية الإدارية، وتطبيق مبدأ الاقتصاد الحر.
2- توفر المقومات الأساس لها من الموارد المالية والبشرية المناسبة.
3- توافر البنية الأساس للنظام المحاسبي.

4- سعة الوحدات الاقتصادية وأسواق مالها في المدى المنظور.
5- وجود كوادر مهنية متمثلة في المحاسبين ومكاتب المحاسبة.
6- مساهمة الجامعات العراقية، والمنظمات المهنية المحاسبية، ومراكز البحث العلمي في تطوير عملية النظام المحاسبي.

وقد فرضت هذه الحالة استخدام أدوات جديدة لمعالجة وظيفة النظام المحاسبي، من أجل توفير المعلومات المحاسبية التي تلبي احتياجات المستثمرين والممولين. وبرأينا فإن الانتقال إلى اقتصاد جديد للمحاسبة، يتطلب تقديم اطار عمل مقترح يمكن تبنيه للتعامل مع معاييرالمحاسبة الدولية.وبهده المناسبة نود الاشارة إلى أن المعايير المحاسبية العراقية في أغلبها ترجمة للمعايير المحاسبية الدولية، الا أنها لم تجرِ عليها تعديلات او إعادة تفسيرها وصياغتها بحيث تتلاءم مع البيئة الاقتصادية الجديدة للعراق اليوم، ومع متطلبات العولمة والتطورات السريعة في العلاقات التجارية العالمية، وفي مجال التكنلوجيا المعلوماتية. ومن هذه المعاير على سبيل المثال وليس الحصر(المعايير في مجال التقارير المالية وعرض البيانات والافصاح المالي ومدى ملاءمتها للمؤسسات التجارية والشركات العالمية، استخدام الكلفة التاريخية في اعداد الحسابات الختامية من دون الأخذ بنظر الاعتبار معالجة التضخم للحسابات، استخدام طرق مختلفة في احتساب الاندثار، ويجب الاستقرارعلى اتباع الطريقة الواحدة من دون التغيير، تقيم الاستثمارات بكلفة الإنتاج، الشركات التجارية تتبع طريقة محاسبة المشتريات فى تسجيلاتها، تصنيف الشركات التي تخضع للتدقيق وتصديق حساباتها من مكاتب وشركات تدقيق الحسابات المرخصة، بعض معايير التدقيق الدولية في اصول مراجعة الحسابات، طرق معالجة الأخطاء وتسوية الحسابات الختامية، بعض معايير في محاسبة التكاليف والادارية ، توحيد السنة المالية لاعداد الحسابات الختامية على وفق السنة التقومية العالمية، معالجة الاحتياطيات والتخصيصات، معالجة الاصول غير الملموسة...وغيرها). فعليه ان الضرورة تقتضي إصدار معايير وطنية بالتوافق والتكيف مع معاييرالمحاسبة الدولية على وفق البيئة الوطنية الجديدة. والاستعانة بمبادئها وإصدار الارشادات والتفسيرات بأهميتها، وتحديد سقف زمني للشروع بتطبيقها.

المحور الثالث: سرد مختصر ومكثف عن التطور التاريخي للنظام المحاسبي، ووظائفه

قبل الدخول في موضوع المعايير المحاسبية الدولية، أرى من الضروري إلقاء نظرة سريعة ومختصرة عن عملية التطور التاريخي للنظام المحاسبي المعاصر، واستمرار هذه العملية بشكل متواصل. وهو حصيلة تفاعلات اقتصادية واجتماعية وقانونية وبيئية متطورة، وحسب متطلبات العلم وحاجات المجتمع.

إن نظرية المحاسبة الحديثة (نظام القيد المزدوج)، وضعها الرياضي الربان(لوكا باشيولي) في كتاباته (Summa de Arithmetica,Geometria,Proportioni et Proportionalita) تحت العناوين أو مبادئ (الحساب، الهندسة، التساوي؛ المعادلة والنسب)، والتي صدرت في مدينة البندقية (فينسيا) ايطاليا سنة 1494 م. وهي المدينة التي كان قد تأسس فيها في عام 1581م أول معهد للمحاسبة.
ويعتمد جوهر نظرية القيد المزدوج [التي وضعها باشيولي] على مبدأ المدين والدائن، فجاءت كاحدى الاكتشافات الرياضية التي تقول: إن لكل قيد حسابي مدين يقابله قيد حسابي دائن، أي بمعنى آخر ان المجموع الجبري لجانب المدين يساوي المجموع الجبري لجانب الدائن، وان الفرق بينهما يساوي الصفر، وبذلك تحتفظ عمليات تسجيل المعاملات الاقتصادية بالموازنة في كل مراحلها حتى إعداد التقارير المالية الختامية المتعارف عليها بتقرير النتيجة، أي الأرباح والخسائر، والميزانية العمومية التي تعبر عن قيمة وسائل انتاج الوحدة الاقتصادية ومصادر تمويلها، معبرا عنها بوحدة النقد وفي وقت محدد، مع الأخذ بنظر الاعتبار تعديل هذين التقريرين، في حالة كون نسبة التضخم المالي عالية عند اعدادهما.
وينسب تاريخيا استخدام دفتر اليومية العامة (Journal) لتسجيل المعاملات الاقتصادية على وفق نظرية القيد المزدوج، لاول مرة، الى ايطاليين. في الوقت الذي تقترن عملية تطويرالسجلات

المحاسبية وترحيل المعاملات من دفتر اليومية الى الدفاتر الفرعية التي تسمى بدفترالأستاذ(ledger) ،وترصيدها، باسم انكليز. كما تنسب عملية تطوير يوميات ذات الاعمدة المتعددة والمستخدمة في البنوك، وايضا في تطوير نظام محاسبة التكاليف، الى امريكيين.

تعتبر المحاسبة اليوم لغة الأعمال (language of business The) ، وهي جزء من نظام المعلومات الاقتصادي بالإشارة إلى العلم الكمي والمعلوماتية (سبيرنتك وانفورمتك cybernetics and informatics) ونحن نجد اليوم أن النظام المحاسبي بات يطبق ايضا عن طريق البرامج الألكترونية المتقدمة التي تلبي متطلبات تطور وتقدم المجتمع في مجال التكنولوجيا المعلومات.

ومنذ ذلك الوقت تجري باستمرارعملية تطوير وتحديث النظام المحاسبي عالميا. وأصبح اليوم نظريا وعمليا له علاقة ملموسة مع مختلف النشاطات البشرية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعملية، ويحتل مكانه الأساس بين كافة العلوم. ونتج عن ذلك ظهور فروع متخصصة له ، شملت كل اشكال النشاط الاقتصادي البشري.

المحاسبة كنظام من ناحية ، وفن من الناحية الأخرى . لها جانب نظري وجانب آخر تطبيقي. فالأول يتمثل في النظرية المحاسبية ومبادئها وقواعدها، والجانب الآخر يتكون من شقين، الأول يتضمن القوانين والأعراف والأنظمة، والثاني هو الجانب الفني- القيد المزدوج ، المستخدم في عملية انتاج البيانات الاقتصادية وقياس الأداء وتقييمه.

ان تركيب النظام المحاسبي، هوالذي يحدد وظائفه.اذ يمكن تقسيم تركيب النظام المحاسبي إلى الأنظمة الفرعية الآتية:-

1- قسم التبويب وتسجيل المعاملات الأقتصادية – مسك الدفاتر.

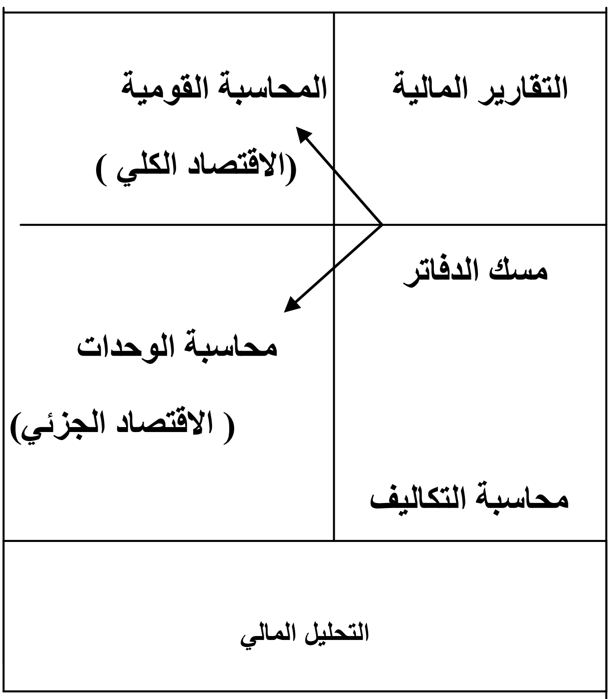
2- قسم الاحتساب، قياس الموارد الاقتصادية للوحدة – محاسبة التكاليف

3- التقارير المحاسبية، تمثل في انتاج البيانات، وعرضها. تزويد المستويات الإدارية المختلفة داخل وخارج الوحدة الأقتصادية بهذه المعلومات ، للاستفادة منها في عملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية .

4- التحليل المالي ، ترجمة هذه البيانات بشكل عملي ، لتسهل على عملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية النهائية.

يمكن تعبير عن هذه الوظائف بالشكل الآتي:-

النظام المحاسبي



المصدر: عمل شخص

ان منهجية التسجيل وعملية الاحتساب وعرض النتائج على شكل التقارير المالية، ومن ثم تفسيرهذه النتائج وتقديمها الى المستويات الإدارية المختلفة للاستفادة منها في عملية اتخاذ القرارات

الاقتصادية والإدارية، تشكل بمجموعها النظام المحاسبي، الذي يؤدي الوظائف الآتية:

1- تزويد المسؤولين في مختلف المستويات الإدارية للاقتصاد الوطني بالمعلومات الجارية والزمنية ، معبرا عنها بالأرقام والتي تعدّ ضرورية في عملية اتخاذ القرارات اللازمة لتوجيه النشاط الاقتصادي الكلي والجزئي، ويتم ذلك من خلال وسائل التسجيل وتقديم التقارير المالية، التي تهدف خدمة الأغراض الثلاث الرئيسة، وهي:-
ا- اعداد التقاريرالإدارية الداخلية للإدارة،التي تشتمل على البيانات اللازمة للتخطيط ورقابة الوظائف الروتينية الدورية.
ب- اعداد التقاريرالإدارية الداخلية للإدارة،التي تشتمل على البيانات اللازمة لاتخاذ قرارات غيرالروتينية، واعداد الخطط والسياسات المهمة- الاستراتجية للوحدة الاقتصادية.
ج- اعداد التقارير المطلوبة للجهات الخارجية ، وخاصة لأصحاب الوحدات الاقتصادية في القطاعين الخاص والعام، والجهات الضريبية، والبنوك، والمقرضين، والموردين، والعملاء، والمستثمرين، ومالكي الأسهم، وغيرها من الجهات الخارجية الأخرى.
2- خلق الظروف اللازمة لأداء عملية الرقابة الداخلية والخارجية للأنشطة الاقتصادية، وتحديد الحالة المالية للوحدة الاقتصادية من خلال قياس الأداء، وتحديد درجة تحقيق الأهداف الموضوعة في البرمجة او الخطة ، ومقارنتها بالمتحقق وبيان الانحرافات واسبابها والمسؤولين عنها. وتتم الرقابة الداخلية من قبل الجهاز الإداري لقسم المحاسبة والمالية في الوحدة الاقتصادية، اما الرقابة الخارجية ، فتجري من قبل الجهات الخارجية كمكاتب المحاسب القانوني المعترف بها والمسجلة عند الجهات الحكومية الرسمية،اومن قبل الإدارة الحكومية المتمثلة بالجهاز المركزي للرقابة المالية.
3- خلق الأسس اللازمة لإجراء المقارنة الجارية والزمنية بين الوحدات الاقتصادية ، عن طريق تحليل وتفسير البيانات المحاسبية ، وتظهر هذه الوظيفة من خلال تطبيق النظام المحاسبي للتكاليف.

4- اعطاء صورة واضحة عن الوضع المالي للوحدة في الاقتصاد الكلي والجزئي ، عن طريق عرض البيانات الموحدة والمستحصلة من عمليات التسجيل والأحتساب والتحليل ، والتعبير عنها بالحسابات الختامية والمتمثلة بحسابات النتيجة والميزانية العمومية على صعيد الوحدة الأقتصادية للأقتصاد الجزئي ، وكذلك اعداد الميزان القومي على صعيد الاقتصاد الكلي ، والأخيرة تعتمد على مدى درجة وجود النظام المحاسبي الموحد الذي يساعد على عملية انتاج البيانات اللأزمة لهذا الغرض.

المحور الرابع: المعايير المحاسبية الدولية ، وامكان تبنيها والاستفادة من تطبيقاتها في الاقتصاد العراقي

حدث في السنوات الأخيرة نمو كبير في الاقتصاد العالمي ، ما ادى الى عولمة الشركات، والأسواق المالية ، والاستثمارات الراسمالية عبر القارات واندماجها مع الشركات الوطنية. وكذلك التطور السريع الذي تشهده التكنولوجيا المتقدمة وخاصة في مجال الاتصالات والمعلومات، ما انتج صعوبات امام الشركات والمستثمرين في كثير من بلدان العالم في تفسير البيانات المحاسبية والمالية واستخدامها في عملية المقارنة. على الرغم من أن كثيرا من البلدان تستخدم معايير قياسية واعراف محلية في النظام المحاسبي، وهناك جمعيات مهنية وطنية تعني بتطوير مهنة المحاسبة، الا انها تستخدم طرق ومبادئ مختلفة لإنتاج هذه البيانات وتفسيرها لأغراض التقييم والأداء والمقارنة، مما سبب في ظهور مشاكل كبيرة في عملية الرقابة والفهم المختلف بين الشركات، في حالة حدوث النزاعات المالية والقانونية، وعدم اقرار البيانات الحسابية والتقارير الناتجة عنها. وأمام هذه المشكلة وصعوبة الرقابة وتدقيق حسابات ومكافحة ظاهرة الفساد المالي والاداري، والسيطرة على الأرباح الكبيرة التي تحققها الشركات العالمية الكبرى وخاصة الأمريكية والأوربية منها، اصبحت الحاجة الى ايجاد نوع من النظام المحاسبي القياسى العالمي ، الذي يعدّ من الضروريات الأساسية لتطوير علم المحاسبة وللابتعاد عن كافة السلبيات المحاسبية التي كانت تواجه الطرق

المحاسبية المطبقة في البلدان المختلفة منها العراق، بحيث يتم بموجبها تامين عملية ضمان وسلامة المعاملات الاقتصادية، وتفسير المعلومات المالية وعملية التقييم والمقارنة وتوحيد المبادئ والأصول المحاسبية التي تجري بين هذه الشركات في ظل عولمة وتعقيد العلاقات الاقتصادية الدولية.

إن انبثاق جمعيات وطنية واقليمية وعالمية مختلفة في مجال المحاسبة منها، قواعد تنظيم المحاسبة للجمعيات الوطنية، قواعد المالية والمحاسبية لدول الوحدة الأوربية ، النظام المحاسبي الموحد للأمم المتحدة، الاتحاد الدولي للمحاسبين، الدليل المحاسبي الأحصائي الموحد والتصانيف السلعية للجامعة العربية، لجنة توجيه المعايير المحاسبية في المملكة المتحدة عام 1969 ، مجلس معايير المحاسبة الامريكية في الولايات المتحدة عام 1973 ، الاتحاد العام للمحاسبين والمراجعين العرب، الجمعية العالمية لدارسة التطور التاريخي للمحاسبة، وغيرها.

وفي سنة 1972 ، انعقد المؤتمر الدولي للمحاسبين في سيدني باستراليا، واتخذت فيه قرارات مهمة بانشاء هيأتين، بهدف التفاعل مع المشكلات المحاسبة الدولية والاختلاف بين الانظمة المحاسبية المتبعة في بلدان المختلفة. وتم تاسيس الاتحاد الدولي للمحاسبين IFAC ، ولجنة معايير المحاسبة الدولية IASC. تحاول
الاخيرة الى ايجاد مبدأ التوافق بين الانظمة المحاسبية والتقارير المالية، التي تنظم امورها مصادر مختلفة، كالقانون التجاري، قانون الضريبي، قانون اصول ميزانية الدولة، قانون اصول محاسبات الشركات التجارية والصناعية والجمعيات وغيرها. والخروج بالمعايير القياسية بحيث تكون مقبولة على صعيد العالمي.

وتهدف الى تحقيق النتائج التالية:-
1- تقييم الكفاءة والأداء والحالة المالية للشركات الأجنبية التابعة والمشتركة.
2- تقييم اهلية فرص الاستثمار وامكانية تحقيقها.

3- التوافق في التركيبة التجارية والمعاملات المالية ، باسلوب يحقق اكثر نفعا في المجالين الضريبي والتقاريرالمالية المختلف عليها.
4- تقيم المعلومات المالية الخاصة بالمنافسين الأجانب، على الرغم من وجود تباينات كبيرة في التطبيق العملي لهذه المعلومات حول العالم، وذلك بسبب تعدد الأنظمة المحاسبية وقواعد اعداد هذه المعلومات .
5- وتعدّ ايضا الية لتطويرعلم المحاسبة.

ما يقارب من أربعة عقود، وبالتحديد من عام 1973، تجري محاولات جادة من قبل الجمعيات والمنظمات المحاسبية المختلفة المذكورة، والتي تساهم في عملية تطوير النظام المحاسبي، الى توحيد المبادئ والأسس والقواعد المحاسبية المختلفة عليها من قبل هذه الجمعيات. وذلك عبر عقد المؤتمرات الدولية ، وكتابة البحوث والمقالات واثارة المناقشات ، بهدف الوصول الى النظام المحاسبي القياسي العالمي يكون مقبولا من الجميع. ومنذ ذلك الوقت صدر عدد من المعايير الدولية للمحاسبة. وصلت حتى الان الى 41 معيارا محاسبيا، منها على سبيل المثال وليس الحصر ،(المعايير الدولية للافصاح المالي، والمعايير الدولية لمحاسبة القطاع العام، معايير ضرائب الدخل، معايير الأفصاح في البيانات المالية للبنوك والمؤسسات المالية المشابهة، معايير الاستثمارات العقارية، معايير المحاسبة الزراعية، ومعاييرالدولية لرقابة الجودة والتدقيق والمراجعة والخدمات ذات العلاقة، ودليل قواعد السلوك الأخلاقي للمحاسبين المهنيين، والمعيار المحاسبي المصري، وغيرها). ولا تزال عملية اصدار وتطوير هذه المعايير مستمرة، وقد ألغي بعض منها، وتجري على الأخرى ايضا التعديلات المطلوبة. حيث أصدرت اكثر من 30 تفسيرا لتلك المعايير، الا انه مايزال هناك اختلافات كثيرة في المعايير الدولية المتبعة محليا في كثير من بلدان العالم. وذلك بنتيجة اختلاف البيئة الوطنية الأجتماعية والاقتصادية والقانونية ، والجهات التي بحاجة الى هذه المعلومات المالية لاستخدامها في عملية اتخاذ القرارات من قبل، المستخدمين والمالكين، والمستثمرين، وحاملي الاسهم ، والبنوك، والدوائر والمؤسسات الحكومية ، وغيرها من الجهات.

ان اكثر المفاهيم المحاسبية التي هي موضوع الاختلاف بين هذه الجمعيات التي تتبع معايير المحلية،
يمكن اجمالها بالآتي :-
1- المعالجة المحاسبية للموجودات غير الملموسة، والتي تشمل:-
- شهرة المحل:اما اعتبارها من الموجودات(راسملتها)، ومن ثم تخضع للاندثار خلال فترة اقصاها 40 عاما، اوتستهلك مقابل تخصيص الاحتياطي لها ، او معالجتها بالطريقتين معا ، واندثارها في فترة لا تزيد عن5 سنوات .
- الاختراعات ، براءة التسجيل ، الامتيازات وعلامات الفارقة:تعالج الى حد ما بنفس الطريقة السابقة.
- تكاليف البحوث والتطوير والدعاية: اما ان تضاف مباشرة الى حساب الأرباح والخسائر بوصفها نفقات تستخدم لغرض كسب المال ، او عدّها موجودات (نفقات مصروفة مقدما) تخضع للاندتار-الأطفاء خلال 5 سنوات.
2- استخدام طرق مختلفة في تقييم البضاعة او موجودات آخر المدة.
3- استخدام طرق مختلفة في احتساب الاندثار، ويجب الاستقرارعلى اتباع الطريقة الواحدة من دون التغيير.
4- فرق تخفيض او زيادة قيمة الأوراق النقدية ، اما تحويلها الى حساب الأرباح والخسائر، او تعد موجودات تخفض بها قيمة الأوراق.
5- استخدام الكلفة التاريخية في عمل الحسابات الختامية(حساب الأرباح والخسائر ، والميزانية العمومية)
6- معالجة التضخم للحسابات الختامية وتعديلها.
7- طرق معالجة الأخطاء وتسوية الحسابات الختامية.
8- تقيم الاستثمارات بكلفة الأنتاج.
9- شركات التجارية تتبع طريقة محاسبة المشتريات فى تسجيلاتها.
10- الشركات التي تخضع للتدقيق ، هي شركات كبيرة ومتوسطة وبعض الشركات الصغيرة . ان مبدأ تصنيف هذه الشركات يكون على اساس ،الحد الأقصى لمجموع الميزانية العمومية ، الحد الأقصى لحجم المعاملات الاقتصادية(حجم

المبيعات) ، حجم راس المال، متوسط عدد العاملين ،مثلا 25 ،50 ، وغيرذلك.

ان فاعلية تاثير وجود النظام المحاسبي القياسي العالمي، هي خلق الحالة التوافقية بين الشركات العالمية التي تستخدم انظمة محاسبية قياسية محلية مختلفة حول العالم ، والتي يمكن اجمالها كالآتي:-

1- زيادة الفوائد الناجمة من البيانات والمعلومات والتقارير المحاسبية ، بسبب استخراجها على وفق اسس ومعايير القياسية العالمية ووضعها في اطار موحد.

2- يخدم على عملية مقارنة الحالة المالية والنتائج للشركات في البلدان المختلفة.

3- تقليل من مخاطر الاستثمارات الراسمالية في الأسواق العالمية، والناتجة عن اختلاف استخدام النظام المحاسبي والتقاريرالناتجة عنها، بسبب تطبيق القواعد القانونية المحلية.

4- ان توحيد الأسس والطرائق ومفاهيم المحاسبية ، يتطلب توحيد اسس وطرائق العمل وتطوره ، مما يزيد من امكانية تحقيقه، بعكس تعدد الأسس والطرائق المحاسبية الذي يستدعي تعدد طرق العمل وطرق التنفيذ ووسائله، مما يؤدي الى تشتت الجهود وتشعبها وضياع وقت التنفيذ والجهود المبذولة لأجلها ، ويسبب ايضا الى تزايد كلفة تصديق التقارير القانونية التي تتطلبها البلدان المختلفة.

ان وجود معايير دولية في مجال المحاسبي والمالي تغطي حسابات القطاعين العام والخاص، تساعد على تحقيق، مايلي:

1- ضرورة التوحيد والتنسيق والتوافق المحاسبي العالمي.

2- تسهيل عملية قراءة القوائم المالية الموحدة.

3- تخفيض التكاليف.

4- توثيق البيانات المحاسبية في الأسواق العالمية.

5- تسهيل المعاملات الأقتصادية بين المتعاملين دوليا.

6- مواكبة الحداثة وتطورات التكنلوجيا المعلومات والمعرفية في مجال النظام المحاسبي.

وهنا لابد من الاشارة والتاكيد على مسالة مهمة، وهي ان تطوير وتحديث النظام المحاسبي في اي بلد ، يتم عن طريق الدولة والجمعيات المهنية الخاصة بالمحاسبة. ففي الحالة الأولى ، يكون التطور محدودا ومقيدا بالقوانين والتعليمات التي تصدرها الدولة في كيفية تطبيق النظام المحاسبي . اما في الحالة الثانية، فيكون تطوير النظام المحاسبي وتحديثه مستمرا وبلا حدود. وبناء على ذلك نجد ان الواجب يلزم على الجمعيات المهنية الوطنية الخاصة بالمحاسبة في العراق ، ان تعمل على تشجيع سياسة توفيق المعايير الوطنية مع المعايير الدولية من خلال تقارب وازالة الاختلافات بين المعايير الوطنية والدولية تدريجيا. مع امكانية وضع سقف زمني مناسب للانتقال الى التقيد والالتزام بتطبيق المعاير الوطنية المتوافقة مع المعايير الدولية في وحدات القطاعين العام والخاص.

ان الوظيفة الاساسية للنظام المحاسبي كما ذكرنا سابقا هي، قياس الاداء وانتاج البيانات والمعلومات وعرضها على شكل القوائم المالية كمخرجات للنظام المحاسبي، على ان تلبي احتياجات مختلف فئات مستخدمي هذه البيانات المالية من داخل وخارج الوحدة الاقتصادية، من العاملين، والممولين، والمقرضين، والمستثمرين، وحاملي الاسهم، والجهات الضريبية ، وتقاسم الأرباح، والجهات الأحصائية، وعلى مستوى الاقتصاد الكلي في احتساب الدخل القومي ، اعداد جداول التشابك الصناعي، وغيرها، وذلك بهدف اتخاذ القرارت. لذا فانه يجب اتباع قواعد وسياسات محاسبية، والمعرفة المهنية للمعايير المحاسبية والمراجعة والتحليل المالي، والتي تساعد على ان تفصح هذه المعلومات والبيانات على اسس جودة النوعية بدلا من الكمية، وتعبرعن الحقائق والعلأقات الأساسية التي تتعلق بالوحدة الأقتصادية.
وتتضمن الأفصاح المحاسبي (من دون الدخول في التفاصيل)، في ضوء معايير المحاسبة الدولية، المواضيع التالية:-
1- الأطار النظري والفكري، واسس ومقومات الأفصاح المالي.
2- المعلومات المطلوبة في افصاح عن القوائم المالية.
3- التقيد بمعايير المحاسبة الدولية بالأفصاح عن القوائم المالية.

بالنسبة للنقطة الأولى اعلاه، يعرف الافصاح المحاسبي، بانه اعداد البيانات والمعلومات المحاسبية الضرورية بصورة كاملة وصحيحة وموثوقة غير مضللة وملائمة، معبرة عن صورة واضحة وشفافة عن الوحدة الاقتصادية . وتقديمها الى مستخدميها على شكل القوائم المالية قابلة للفهم، بغرض الاستفادة منها في عملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية. ويعتبر عملية الافصاح ايضا ، على انه اجراء يتم من خلالها اتصال الوحدة الاقتصادية بالعالم الخارجي. وان تساعد هذه القوائم المالية الجهة الخارجية على اتخاذ قراراتها الاقتصادية تجاه الوحدة. على ان تقدم تلك المعلومات والأفصاح عنها باساليب متنوعة وبصفة دورية.وتتضمن هذه القوائم بشكلها التقليدي المتعارف علية في العرف المحاسبي، كالأتي:

1- قائمة الدخل/النتيجة.
2- قائمة المركز المالي والتغيرات الحاصلة عليها.
3- قائمة الأرباح المحتجزة.
4- معلومات اساسية ترفق بالملاحظات.

وبخصوص النقطة الثانية اعلاه، تتضمن مواضيع منها، السياسات المحاسبية المتبعة في اعداد القوائم المالية، تحديد المستخدم للمعلومات، واغراض استخدام المعلومات، والبيانات المقارنة، واساليب وطرق الأفصاح. تحديد نوعية البيانات الواجب ان يتضمنها التقارير المالية ، وهي:-

1- قائمة المركز المالي.
2- قائمة الدخل.
3- قائمة مصادر الأموال واستخداماتها.
4- قائمة التدفق النقدي.
5- قائمة التغيرات في حقوق الملكية.

اما بخصوص النقطة الثالثة، فان المعيار المحاسبة الدولي الأول ، يتضمن موضوعات عرض البيانات المالية، وهي:-

1- عرض البيانات المالية لاغراض العامة وتكون قابلة للمقارنة.
2- يجب التقيد في المعيار عند عرض القوائم والبيانات المالية.
3- ان هذا المعيار ساري على كافة المؤسسات، بما في ذلك البنوك وشركات التامين.
4- يتولى مجلس الإدارة في الوحدة الاقتصادية مسؤولية مهمة اعداد وتقيم البيانات والقوائم المالية.

5- تقدم البيانات المالية عند عرضها معلومات عن:-
- ممتلكات الوحدة الاقتصادية.
- التزامات الوحدة الاقتصادية تجاه العاملين وغيرهم.
- ايرادات واعباء الوحدة الاقتصادية، بما فيها الأرباح والخسائر.
- التدفقات النقدية.

ونعرض هنا بعض المعايير المحاسبية الدولية عن الافصاح المحاسبي على سبيل المثال، وليس الحصر، ومنها :-

1- يتطلب معيار المحاسبة الدولي الاول، ان تعرض الوحدة الاقتصادية الموجودات المتداولة وغير المتداولة، والمطلوبات المتداولة وغير متداولة، مصنفة كمجموعات مستقلة في صلب الميزانية العمومية.

تحليل المصروفات والإيرادات قي صلب قائمة الدخل او في الأيضاحات.

2- يتطرق المعيار المحاسبي الدولي الثاني عن الموضوعات تخص المخزون السلعي: تعريف والمصطلحات، والمعالجة المحاسبية للمخزون، كتقيم المخزون تتماشى مع الاقتصاد التضخمي (بضاعة تامة الصنع، بضاعة تحت التشغيل، المواد واللوازم الانتاج، وتكلفة الخدمة)، تكلفة المخزون، قياس المخزون ، والطرق المستخدمة في القياس، وغيرها من المواضيع التي تتعلق بالمخزون السلعي والخدمي، وبمحاسبة التكاليف.

3- كما يتطلب معيار المحاسبى الدولي السابع، ان تقدم الوحدة الاقتصادية، بالتقرير عن التدفقات النقدية من الأنشطة المختلفة، التشغيلية والاستثمارية والتمويلية . ويفضل استخدام الطريقة المباشرة في العرض.

المحور الخامس: الخلاصة والمقترحات

في ظل تنامي عولمة الاقتصاد ،وانفتاح البورصات واسواق المال عالميا، يتبنى اليوم معايير المحاسبة الدولية بشكل متزايد على مستوى عديد من دول العالم. وتلتزم اليوم بتطبيق هذه المعايير من قبل 107 دول، من ضمنها الدول المتقدمة. وتتبنى ثمانية دول عربية منها، (السعودية، البحرين، مصر، الكويت، لبنان، عمان،

قطر ، الأمارات العربية المتحدة) تطبيق تلك المعايير، وخاصة في وحدات القطاع الخاص، بحيث يتفاعل تطبيق هذه المعايير مع البنية الجديدة للعلاقات الاقتصادية الدولية. وهذا الالتزام ليس خيارا ، بل الزاما لكل بلد ينوي الانتقال المباشر الى مراحل التقدم والتطور العالمي المشهود، يضاف اليها امكانيات حل مشكلات جوهرية تطفو بوضوح في هذا البلد اوذاك ، كما تبرز حالة الفساد التي تحتاج لمعالجة محاسبية دقيقة ومنظمة بموضوعية في سياق محدد.

المبادرة في تشكيل الهيأة الوطنية لمعايير المحاسبة في العراق. تاخذ على عاتقها مهمة العمل والتنسيق مع لجنة معايير المحاسبة الدولية السابقة التي استبدلت حاليا [مجلس معايير المحاسبة الدولية] . والاستفادة من خبراتها العلمية والمهنية والعملية في مجال توحيد المفاهيم والمبادئ والقواعد والقوانين واعداد الحسابات الختامية والتقارير المالية ، وذلك بهدف تحقيق المهمات الاتية:-

1- اصلاح النظام المحاسبي في العراق ، بحيث يرتقي الى مستوى القياسي العالمي ، مما يعود ذلك بفوائد كبيرة على توثيق المعاملات التجارية الداخلية للشركات الوطنية والاجنبية او الشركات العالمية المشتركة.

2- تحديد الاختلافات فيما بين المعايير الوطنية الحالية والمعايير الدولية. وتعديل هذه الاختلافات للتوافق مع المعايير الدولية ، وبما تتلائم مع البيئة الوطنية.

3- الزام الوحدات الاقتصادية بتطبيق المعايير الوطنية المتوافقة مع معايير المحاسبة الدولية.

4- هناك تجارب الدول المطبقة لمعايير المحاسبة الدولية في القطاعات الاقتصادية المختلفة. يمكن الاستفادة منها وتطبيقها في الاقتصاد العراقي ، وخاصة القطاع العام . وذلك للمحافظة على المال العام من الهدر والضياع والسرقة والفساد .

5- النهوض بالمهام الرقابية بكل حيادية وموضوعية وشفافية وكفاءة مهنية عالية. ومواكبة التطورات المتسارعة في حقول الرقابة المالية ورقابة الاداء.

6- التركيز على الرقابة الوقائية وقبل الوقوع في الاخطاء. وبالنتيجة ايضا تقديم المشورة المحاسبية المالية للجهات الخاصة

للرقابة ، ليستفيد من موضوعاتها المالية المتخصصة ،العاملين في مختلف الدوائر والمؤسسات والوحدات الحكومية. وخاصة في الوقت الذي ما زال العالم يعاني من الأزمة المالية والاقتصادية واثارها.

7- الاستفادة من التقنيات والأساليب الحديثة في إنجاز الاعمال بمزيد من الفاعلية والجودة.

8- اصدار معيار وطني متوافق مع كل اصدار جديد للمعايير الدولية، وينسجم مع الأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة.

9- ضرورة تاكيد على تدريس مادة المعايير المحاسبية الدولية في كليات الاقتصاد وادارة الأعمال. وكتابة البحوث والدراسات من قبل الأكاديميين والمعنيين بشؤون تطوير النظام المحاسبي في العراق . بحيث ان تكون هذه البحوث مرشدا لاستراتيجية الجمعيات المهنية الوطنية والجهات الحكومية الخاصة بتطوير واقع مهنة المحاسبة ومقومات المهنية ، ومنها معايير المحاسبة الدولية والمراجعة على المستوين النظري والتطبيقي .

10- ان معايير المحاسبة الدولية في القطاع العام تغطي الحسابات للوزارات والدوائر والمؤسسات الحكومية والشركات التابعة للدولة، كما تغطي احتساب العجز في الموازنة مشيراً الى ان اهم مشكلتين في اية دولة هما العجز في الموازنة العامة والدين العام.

ومن أجل ترجمة هذه المهمات الى حيز التطبيق، لابد ان تبادر وزارة المالية الجهة المسؤولة المباشرة عن شؤون الإدارة المالية في العراق،و\أو تبادر كلية الادارة والاقتصاد في الجامعة المستنصرية الموقرة، بالاشتراك مع كلية إدارة الأعمال بجامعة ابن رشد في هولندا، وأية جهات أخرى ذات الاختصاصات وتتبنى هذا المشروع، إلى عقد مؤتمر او ندوة علمية ومهنية لتعريف ولتوضيح أهمية تبني وتطبيق معايير المحاسبة الدولية في القطاع الاقتصادي العراقي. ومواكبة التطورات الدولية في مجال الرقابة والجودة والتدقيق والمراجعة المالية، وقواعد السلوك الأخلاقي للمحاسبين المهنيين، الصادرتين من الاتحاد الدولي للمحاسبين، والمترجمتين الى اللغة العربية عن المجمع العربي للمحاسبين القانونيين في اصداراته لسنة 2010، وبالتعاون مع اتحاد المحاسبين والمدققين العراقيين، وكليات الادارة والاقتصاد في الجامعات العراقية، ومراكز البحوث ،

وهيأتي الرقابة المالية والنزاهة، ومكاتب المحاسبين القانونيين، والبنك المركزي العراقي، ومراكز الاستشارات والتطوير الاداري، والخبراء والاختصاصيين في مجال النظام المحاسبي، والمجمع العربي للمحاسبين القانونيين، والبلدان العربية المطبقة فيها هذه المعايير. وذلك لتباحث ومناقشة هذا الموضوع الحيوي والمهم للاقتصاد العراقي. وبرؤية واضحة نحو التمييز الرقابي المهني المستدام لتعزيز المساءلة العامة، وتوطيد مفاهيم الإفصاح والشفافية. ومساعدة القطاع العام والخاص للعمل بكفاءة وفاعلية وبرسالة مباشرة للمساهمة في تحسين إستخدام وإدارة الموارد العامة للدولة. والمحافظة على المال العام من الهدر والضياع ، والحرص على سلامة الاقتصاد الوطني من خلال رقابة شاملة ومستقلة على المال العام.

على ان تنبثق من هذه الندوة ورش متخصصة لتقديم رؤية علمية وقانونية ومهنية وموضوعية واضحة بهذا الخصوص. والخروج بالقرارات والتوصيات الرشيدة من الندوة ، ومتابعة تنفيذها ضمن سقف زمني محدد ، ورفعها الى الجهات التشريعية والتنفيذية للبث فيها واصدار الأليات والمتسلزمات اللازمة لتنفيذها في المدى المنظور.

<u>المصادر باللغة العربية:</u>

1. **_الشجاعي، محمود محمود، النظام المحاسبي الموحد في ضوء المعايير المحاسبية ، المكتبة العصرية، المنصورة 2006 .**
2. **العشري فؤاد، حافظ عبد اللطيف، موريس واسيلى، النظرية والتطبيق في النظام المحاسبي الموحد،الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي ، القاهرة 1976 .**
3. **حجازي، وجدي حامد، تحليل القوائم المالية في ظل المعايير المحاسبية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر 2011.**
4. **سلوم، حسن عبد الكريم ، بتول محمد نوري، دور المعايير المحاسبية الدولية في الحد من الازمة المالية العالمية، دراسة مقدمة الى المؤتمر العلمي الدولي السابع، كلية الاقتصاد والعلوم الادارية ، جامعة الزرقاء، الاردن.**

5. شريف توفيق، حسن علي محمد سويلم، استراتيجيات توفيق المعاير الوطنية والعربية لتتوافق مع عولمة المعايير الدولية للمحاسبة، الزقازيق ، مصر 2004 .
6. قدوري، صباح، تحديث محاسبة التكاليف في وحدات الصناعي الحكومي العراق، رسالة، دكتوراه غير منشورة، باللغة البولندية، جامعة لودز، بولندا 1985 .
7. قدوري، صباح، تطور النظام المحاسبي في العراق، بحث منشور في العدد الاول من الدورية العلمية المحكمة، جامعة ابن رشد/ هولندا، كانون الاول/ديسمبر 2010 .
8. قدوري، صباح ؛ تحديث محاسبة التكاليف في النظام المحاسبي الموحد للوحدات الصناعية العراقية، بحث منشور في العدد الثاني من الدورية العلمية المحكمة، جامعة ابن رشد/هولندا، نيسان/ ابريل 2011 .
9. هلال، وليام اي. (و) كينيث ب. تايلور، ترجمة: د. عبدالوهاب حميد رشيد (و) د. حسن عبدالله بدر، اقتصاد القرن الحادي والعشرين الآفاق الاقتصادية- الاجتماعية لعالم متغير، ISBN 978-91-633-2084-2
10. هيني فان جريوننج، معايير التقارير المالية الدولية: دليل التطبيق ، ترجمة طارق حماد ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، القاهرة 2006 .

تقارير المنظمات الدولية والأكاديمية المعتمدة علميا:

1. الاتحاد الدولي للمحاسبين، إصدارات المعايير الدولية لرقابة الجودة والتدقيق والمراجعة وعمليات التاكد الاخرى والخدمات ذات العلاقة ، الجزء الاول ، طبعة عام 2010 ، باللغة العربية.
2. الاتحاد الدولي للمحاسبين، إصدارات المعايير الدولية لرقابة الجودة والتدقيق والمراجعة وعمليات التاكد الاخرى والخدمات ذات العلاقة، الجزء الثاني ، طبعة عام 2010 ، باللغة العربية.
3. الاتحاد الدولي للمحاسبين، دليل قواعد السلوك الاخلاقي للمحاسبين المهنيين، طبعة عام 2010 ، باللغة العربية.
4. تقرير منظمة الشفافية الدولية لعام 2011 .
5. تقرير برنامج الامم المتحدة الانمائي في العراق لعام 2011 .وتقرير تحديات التنمية في الدول العربية2011 ، برنامج الامم المتحدة الانمائي ، المركز الاقليمي للدول العربية بالقاهرة.
6. لجنة المعايير المحاسبية الدولية، معايير المحاسبة الدولية الصادرة.
7. هيأة المحاسبة والمراجعة لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، صناعة معايير المحاسبة الدولية التطور ودور المجالس والهيئات الوطنية والدولية، مركز الدراسات والمعلومات، ، مارس 2005 .وادناه موقعها الألكتروني.

www.gccaao.org

المصادر باللغة الانكليزية:

1- Intermediate Accounting Comprehensive, Volume Fifth addition, Simons U.S.A

2- International Accounting Summaries, A guide for interpretation and Comparison, Coopers & Lybrand (International) 1991 John Wiley & Sons , INC.

3- IASC, International Accounting Standard , Presentation of Financial Statements, August London, 1997.

4- Luca Pacioli ,"Tractatus X1,de Computis et Scripturis, Summa de Arithmetica,Geometria,Proportioni et Proportionalita",SKwP, Warszawa 2007.

كتاب مترجم عن الايطالية من جمعية المحاسبين في بولندا، بمناسبة الذكرى المئوية لتاسيس الجمعية، (1907- 2007)، باللغة البولندية.

الروابط الألكترونية:

1- http://www.averroesuniversity.org/pages/JOURNALofAVERROESUNIVERSITY01.pdf

2- http://www.averroesuniversity.org/pages/JOURNALofAVERROESUNIVERSITY02.pdf

التلوث البيئي وأثره على البيئة السياحية في مدينة إب

الدكتور محمد حسن النقاش
رئيس قسم السياحة وإدارة الفنادق
كلية التجارة والعلوم الإدارية ـــ جامعة إب اليمن

مستخلص

(التلوث البيئي وأثرة على البيئة السياحية في مدينة إب)

مدينة إب أحدى محافظات الجمهورية اليمنية اشتهرت باسم(محافظة اللواء الأخضر) ، تتمتع مدينة إب بخصوصيات جمال بيئتها المهيئة للاستخدامات السياحية ، وعلى وجه الخصوص السياحة البيئية ، كما أن مقومات الجذب السياحي الثقافية والتاريخية والطبيعية تجعلها من أفضل المناطق في اليمن للاستثمار السياحي ، إلا أن البيئة السياحية في مدينة إب تواجه اليوم مشكلة التلوث والذي أخذ يؤثر سلباً على البيئة السياحية باستنزاف الموارد الطبيعية والغير طبيعية ويجعلها غير صالحة للاستثمار السياحي وذلك مما يؤدي إلى ضياع فرص الاستثمار في هذه المدينة ، لآن التلوث ومصادره في مدينة إب إذا ترك لحاله يتعاظم التلوث بشكل كبير سوف تخسر المدينة جزء تنموي في مجال التنمية السياحية وبتالي يؤثر ذلك سلباً ، على اقتصاديات المدينة ، وفي ضوء ذلك جاء البحث ليتعرف على مصادر التلوث وأسبابه ومن المسوؤل عنه لغرض الوصول إلى معالجات تلبي حاجات الجيل الحالي وجيل المستقبل بخلق بيئة سياحية صحية ونظيفة وسليمة ومتعافية من الأمراض تسهم في زيادة الاستثمار السياحي وزيادة الطلب السياحي والمرتبط أساسا بمدى ملائمة البيئة للأغراض السياحية من حيث نظافتها وسلامتها وخلوها من الأمراض التي تستنزف قدراتها وإمكانياتها السياحية في إشباع رغبات وحاجات السكان والسياح ، وفي ضوء الاستنتاجات توصل الباحث إلى جملة مقترحات وآليات لغرض معالجة تلوث البيئة في مدينة إب وإيقاف الهدر البيئي وتمكين البيئة بمدينة إب من إعادة توازنها لتأمين متطلبات حاجات ورغبات السياح المحليين والدوليين أنياً ومستقبلاً .

Abstract

Pollution And Its Impacts on The Tourist Environment In Ibb City

Ibb , one of Yemen's governorates, is called" the Green province" as it is distinguished with beauty characteristics of its environment which is ready for tourist uses/attractions; the environmental tourism in particular. Besides, the factors of tourist, cultural, historical and natural attractions make Ibb city one of the best regions for tourist investment in Yemen. However, nowadays the tourist environment in Ibb has confronted pollution's problem which negatively affects on the tourist investment through depleting the natural and unnatural resources and making it useless for tourist investment. Consequently, that makes the investment's opportunities lost in this city. Moreover, Since the pollution and its sources in Ibb city is not taken into account, it will be escalated/increased badly and then the city must lose a vital part in the tourist development. Thus , this will affect negatively on the economic resources of the city.

On the other hand, according the what is mentioned beforehand, the research identifies with the pollution's sources and its reasons/causes together with the responsible for it so far to tackle the problem and find such solutions for satisfying the present and the upcoming generations through providing such tourist, healthy and clean environment which is devoid of diseases. As a result, this would promote the tourist investment increasingly and elevate up the tourist demand which is basically related to the environment's convenience for tourist purposes through its cleanliness, safety and devoiding of diseases which actually depleting its capabilities ad tourist potentialities in order to meet the population and tourist's' needs and desires.

Similarly, on the basis of the conclusions, the researcher has reached to such suggestions and mechanism so far to tackle with the pollution of environment in Ibb city and discontinue the environmental waste and reviving the environmental equilibrium in Ibb city in order to ensure the needs and the requirements of the local and international tourists sooner and later.

المقدمة

لقد استأثر موضوع البيئة السياحية والمحافظة عليها من التلوث اهتمام الباحثين على فائض الاستخدامات الصناعية والبشرية المختلفة والتي تعتبر المسئول المباشر بإلحاق الأضرار المختلفة للبيئة السياحية سواء منها الهواء الذي يتنفسه الإنسان ، و التربة التي يعيش عليها أو المياه التي تشكل 75% من مساحة الكرة الأرضية ، وبالإضافة إلى الأضرار البشرية للبيئة السياحية فهناك الأضرار الطبيعية والتي تتمثل بظاهرة الجفاف والعواصف الرملية والترابية والإشعاعات الشمسية الطويلة المدى وما يصاحبها من جفاف التربة والأضرار الزراعية ، وتعتبر مسببات التلوث البشري اخطر أنواع التلوث البيئي في البيئة السياحية مقارنة بالملوثات الطبيعية سيما وأن فضلات المعامل والمحلات التجارية والدور السكنية أو المزارع المتمثلة بالغازات والإشعاعات وما تحمله من مواد كيميائية وعضوية آخذة بالزيادة يوم بعد يوم ، وفي ضوء ذلك ستتناول الدراسة أهم مصادر التلوث في مدينة إب ومدى تأثير ذلك على البيئة السياحية آنياً ومستقبلاً ، ومن الطبيعي أن تلوث البيئة السياحية في مدينة إب لا يخدم توجهات الدولة بان تكون محافظة إب محافظة سياحية وبالتالي العاصمة السياحية للجمهورية اليمنية ، بعد أن تتوافر فيها إمكانيات استثمارية تنموية في مجال الخدمات السياحية والبنية التحتية والتي هي أساس قيام المشاريع السياحية ، وكل ذلك مرتبط أساسا بمدى ملائمة البيئة للأغراض السياحية من حيث نظافتها وسلامتها وخلوها من الأمراض التي تستنزف قدراتها وإمكانياتها السياحية في إشباع رغبات وحاجات السكان والسياح .

إن الاستثمار في إب يعتمد أساس حرية النشاط الاقتصادي والسوق الحرة المتبع في اليمن ويستفيد من مزايا قانون الاستثمار اليمني ومغرياته التي تساوي بين الاستثمار اليمني والأجنبي ، وتقدم كافة الإعفاءات والتسهيلات المحددة في القانون ، تشكل السياحة في إب عنصر الاستثمار الأول باعتبارها صناعة قائمة بحد ذاتها وعنصراً حيوياً للتنمية الشاملة ورافداً

متميزاً للاقتصاد المحلي والقومي يكتسب أهميته الكبرى في محافظة غنية بالخصوصيات والجمال وإب بكل ما فيها من تنوع يشجع السياحة الدولية والمحلية لا مثيل لها في اليمن ، وتحقق لمستثمريها فرصا واعده ومستقبلاً مبشراً كما أن مقومات الجذب السياحي الثقافية والتاريخية والطبيعية تجعلها من أفضل المناطق للاستثمار ، وفي ضوء ذلك جاءت الدراسة لغرض معالجة التلوث البيئي في مدينة إب والذي بقاءه يؤثر بشكل مباشر وغير مباشر على تلوث البيئة السياحية في المدينة ومما يؤدي ذلك إلى ضياع فرص الاستثمار السياحي في هذه المدينة ، لأن التلوث ومصادره في مدينة إب يساهم في استنزاف البيئة السياحية فيما إذا ترك لحاله وبالتالي نخسر جزء تنموي مهم في مجال التنمية الاقتصادية ، فيتطلب العمل على خلق بيئة سياحية صحية ونظيفة وسليمة ومتعافية من الأمراض تسهم في زيادة الاستثمار ومن ثم زيادة الطلب السياحي وبذلك يزداد الدخل السياحي الذي يسهم في زيادة الدخل القومي وهذا ما تعمل عليه الدول المتقدمة في مجال التنمية السياحية .

منهجية البحث :

اولاً : مشكلة البحث :

1. أصبح التلوث البيئي من اخطر التحديات التي تواجه التنمية السياحية المستدامة في مدينة إب .
2. ضعف الوعي البيئي السياحي لدى سكان المدينة .
3. ضعف التخطيط البيئي والسياحي لدى الجهات المسئولة عن البيئة السياحية
4. ضعف تطبيق القوانين والتشريعات البيئية والسياحية والرقابة والتفتيش في المدينة .

ثانيا : أسباب اختيار موضوع البحث:

1. تتمتع مدينة إب بموقع مرموق وهيغنية بمقومات ومغريات الجذب السياحي على مستوى الجمهورية اليمنية ، والأمر الذي يحتاج إلى مزيد من الاهتمام حتى تستطيع إب أن تقدم منتجاً سياحياً فريداً من نوعه.
2. الحاجة إلى فهم ورصد ظاهرة التلوث البيئي في علاقته بمجال تأثيرها على البيئة السياحية في المدينة .

ثالثاً : أهداف البحث:

يهدف البحث إلى ما يأتي :

1. التعرف على مصادر التلوث في البيئة السياحية في المدينة .
2. فهم ورصد ظاهرة التلوث البيئي ومدى علاقتها بمجال التنمية السياحية .
3. إيجاد آليات للمؤسسات السياحية والبيئية والجهات الأخرى المعنية والمهتمة بهذا المجال لتقليل درجات التلوث البيئي وتدعيم المناطق السياحية من ناحية ، ولتحقيق نقلة نوعية للخدمات السياحية لتحقيق أعلى مستوى من مستويات الجذب السياحي في مدينة إب .

رابعاً : فرضيات البحث :

1. الفرضية الرئيسية : أن التلوث البيئي يؤثر سلباً على البيئة السياحية ويساهم في عملية استنزاف الموارد الطبيعية والغير طبيعية ويجعلها غير صالحة للاستثمار أو القيام بالمشاريع السياحية والأنشطة والفعاليات السياحية .

وتتفرع من هذه الفرضية فرضيات فرعية هي :

أ - هناك معوقات وصعوبات تواجه السياحة في مدينة إب بسبب التلوث .

ب - ضعف دور الجهات ذات العلاقة بالبيئة السياحية في معالجة هذه المشكلة .

ت - ضعف الوعي السياحي والبيئي لدى أفراد مجتمع مدينة إب .

خامساً : أسلوب البحث :

لتحقيق أهداف البحث من حيث الشكل والمضمون فقد تطلب استخدام عدد من وسائل البحث والتحليل تمثلت في :

1. الدراسات المكتبية التي زودت الباحث بالمفاهيم والأفكار والحقائق اللازمة فيما يخص الأدبيات المختلفة عن التلوث البيئي .
2. الدراسة الميدانية وكانت تمثل الركن الأهم والجديد في البحث .
3. استخدمت في الدراسة مستلزمات إجراء عملية استبيان لعينة عشوائية من داخل مدينة إب تتكون من (250) شخصاً ، وبلغ عدد

الاستمارات المستردة (237) استمارة . لغرض معرفة اثر التلوث البيئي على البيئة السياحية في مدينة إب ، ورأي الأفراد بما تقدمه المؤسسات ذات العلاقة بالبيئة والسياحة ، وقد تم استخدام التكرارات والنسب المئوية بالإضافة إلى المتوسط الحسابي في عرض وتحليل البيانات .

وفي ضوء ذلك تم تقسيم البحث وفق طبيعة الدراسة و أهدافها إلى :

- المبحث الأول : الإطار ألمفاهيمي للبحث .
- المبحث الثاني : مصادر التلوث البيئي في مدينة إب .
- المبحث الثالث : تحليل إجابات أفراد العينة .
- المبحث الرابع : الاستنتاجات والتوصيات .

<u>المبحث الأول : الإطار ألمفاهيمي :</u>

<u>أولاً : البيئة :</u>

يتعذر أحيانا وضع تعريف للفظ شائع الاستخدام يفهمه كل فرد في حدود استخدامه المباشر له . وكذلك هي البيئة ، فمن الصعوبة إعطاء تعريف محدد لها لان تعريفها يرتبط بكيفية العلاقة بينها وبين متداولها وبالمجالات التي تستخدم فيها ، فرحم الأم يعد بيئة الإنسان قبل ولادته يستمد منه مقومات نموه جنيناً ، ويتأثر بالبيئة الخارجية عن طريق تأثيرات أمه ، وبعد الولادة يعد البيت بيئته والمدرسة بيئته والمدينة بيئته والقطر بيئته والكرة الأرضية بيئته بل حتى الكون كله يعد بيئة له . وتتسع البيئة مع نمو الإنسان واتساع خبراته وتشعب متطلباته ، فتتشعب وتصنف معها البيئة إلى بيئات متعددة كالبيئة الصحية والبيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية والبيئة الصناعية والبيئة الزراعية والبيئة الروحية والبيئة السياسية . وهكذا ... ومن هنا يتضح أن وضع تعريف شامل للبيئة يستوعب مجالات استخدامها المختلفة لا يتيسر بسهولة ويتطلب أن نلم بإطار كل هذه المجالات [1] . وعليه سوف نعرج على بعض تعاريفها وفيما له صلة بموضوع بحثنا . فقد أقرت منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة عام 1967تعريف الأستاذ النرويجي (س.ويك) لبيئة الإنسان على أنها (ذلك الجزء من العالم الذي يؤثر فيه ويتكيف له) [2] .

أما G.G. MARTIN فقد عرف البيئة في بحثه الموسوم (التنمية ومشاكل التلوث في العراق) بأنها هي (كل العالم المحيط بنا ، الهواء الذي نتنفسه ، الماء الذي نشربه ، الغذاء الذي نأكله ، الأرض التي نمشي عليها ، وكل الأشياء الحياتية الأخرى [3] . كما عرفت البيئة بأنها (ما يحيط بالإنسان من

تأثيرات فيزيائية وكيميائية وإحيائية ، بالإضافة إلى التأثيرات الاجتماعية التي لها تأثير واضح في صحة الإنسان والنشاط الاجتماعي له)[4] .
وقد أعطى مؤتمر ستوكهولم للبيئة في 5 حزيران عام 1972 مدلولاً و فهماً شاملاً للبيئة بحيث أصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية كالماء والغذاء والتربة والمعادن والنباتات والحيوانات ومصادر الطاقة بل عدت رصيد المواد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان ومتطلباته . وبعبارة موجزة وكما جاء في إعلان مؤتمر ستوكهولم (أن البيئة هي كل شيء يحيط بالإنسان) [5] . ويقصد بالبيئة بمفهومها العام (الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان يتأثر به ويؤثر فيه ، بكل ما يضمه هذا المجال المكاني من عناصر ومعطيات سواء كانت من خلق الله سبحانه وتعالى كالصخور وما تضمه من معادن ومصادر وقود و التربة والتضاريس وموارد المياه وعناصر المناخ من حرارة وضغط ورياح وأمطار ، إضافة إلى النبات الطبيعي والحيوانات البرية أو المعطيات من صنع الإنسان من عمران وطرق ووسائل نقل واتصال ومزارع ومصانع وسدود وغيرها [6] .ومن خلال هذا المفهوم العام والشامل للبيئة يمكن أن نميز بين نوعين منها هما [7] :

1 - البيئة الطبيعية :
ويقصد بها كل ما يحيط بالإنسان من عناصر أو معطيات حية وغير حية ، وليس للإنسان أي دخل في وجودها كالماء والهواء والتربة والمعادن ومصادر الطاقة والنباتات والحيوانات ، وهذه جميعها تمثل الموارد التي أتاحها الله للإنسان كي يحصل منه على مقومات حياته ــ غذاء وكساء ودواء ومأوى ــ وهي عناصر أو معطيات وان كانت تبدو في ظاهرها منفصلة عن بعضها البعض إلا أنها ليست كذلك في واقعها الوظيفي ، إذ تعمل عناصر البيئة الطبيعية على وفق حركة ذاتية من ناحية وحركة توافقية مع بعضها البعض من ناحية أخرى على وفق نظام معين غاية في الدقة والانسجام يطلق عليه النظام الايكولوجي الطبيعي .
2 - البيئة الاجتماعية أو البيئة المشيدة :

وتتكون من البنية الأساسية المدنية التي شيدها الإنسان ومن النظم الاجتماعية والمؤسسات التي أقامها . وبعبارة أخرى هي كل ما أضاف الإنسان من عناصر أو معطيات بيئية تمثل نتاج تفاعله واستغلاله لموارد بيئته الطبيعية . ومن ثم يمكن النظر إلى البيئة الاجتماعية أو المشيدة على أنها الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها والتي غيرت البيئة الطبيعية لخدمة الحاجات البشرية ، وتشمل العناصر المشيدة أو المبنية للبيئة العمران وطرق

النقل والمواصلات والمزارع والمصانع والمراكز التجارية والمستشفيات والمدارس والمعاهد والجامعات والمواني وغيرها من الأنشطة البشرية المختلفة.

ومن هنا يطلق على النظم الايكولوجية نظم إعالة الحياة ، ويصبح العمل على استمرارها بصورة متوازنة غير مختلة ضرورياً لإدامة الحياة واستمرارها . وهنا من الضروري الإشارة إلى أن مشكلة اختلال التوازن الايكولوجي في البيئة الطبيعية ليست مستقلة عن مشكلة التلوث البيئي بل هي بالتأكيد ناتج من نواتج تلك المشكلة .

ثانياً : الصحة والبيئة :

تعرف الصحة العامة public helth بأنها (علم وفن حفظ الحياة) وعرفت بعبارة أوجز بأنها (علم الحياة) . وقد وضعت منظمة الصحة العالمية (W . H. O).تعريفاً عاماً لها وهو (أن الصحة ليست مجرد حالة عدم وجود مرض أو عاهة ، بل هي الكمال الجسمي والعقلي والرفاه الاجتماعي والاقتصادي وحتى الاستقرار السياسي) [8] وجاء تعريف العالم ونسلو winslow للصحة العامة بما يفسر لنا هذا العالم تفسيراً وافياً وشاملاً ويزيل أكثر الغموض عنه ، إذ عرف الصحة العامة (بأنها علم وفن منع المرض وإطالة الحياة وتنمية الصحة وكفاءتها من جميع الوجوه بواسطة جهود منسقة ومنظمة من قبل المجتمع ومنظماته واتحاداته ومؤسساته وذلك من خلال توفير البيئة الصحية والسيطرة على الأمراض الانتقالية المعدية وتثقيف الفرد صحياً وتنظيم وتوفير الخدمات الطبية والتمريضية للمجتمع مع تشخيص مبكر للأمراض وتوفير العلاج وتطوير الحياة الاجتماعية لتأمين العيش المطلوب لكل فرد وتأمين الصحة له على الدوام وإطالة عمره) [9] .

وقد أصبح من الأمور البديهية أن للبيئة التي يعيش فيها الإنسان العائل أثرا كبيراً في تقرير مستوى صحته ، أي إصابته بالمرض أو سلامته منه . إذ تعتمد صحة الإنسان في نهاية المطاف على قدرة المجتمع على تنظيم التأثير بين أنشطة الإنسان والبيئة الطبيعية والحيوية بطرق تحمي الصحة وتدعمها ، ولكن من دون أن تهدد تكامل النظم الطبيعية التي تعتمد عليها البيئة الطبيعية والحيوية ، ويتضمن هذا صيانة استقرار المناخ والتوافر المستمر للموارد البيئية (من تربة وماء عذب وهواء نقي) . كما يتضمن أيضاً استمرار في أداء النظم الطبيعية التي تتلقى المخلفات الناتجة من المجتمعات البشرية منزلية وصناعية وزراعية ، من دون أن تعرض الناس للعوامل الممرضة وللمواد السمية . وللبيئة الطبيعية تأثير رئيس في صحة الإنسان من خلال درجة الحرارة والرطوبة والإشعاع ونوع التربة وتركيبها

الكيماوي وتركيب الهواء والماء وكذلك من خلال تفاعلها مع نمط توزيع نباتات وحيوانات الإقليم . وللبيئة الحيوية تأثير أساسي في الإمداد بالغذاء وفي آليات تكوين مستودعات الأمراض وآليات انتقالها [10] .
وتتضمن العوامل البيئية المؤثرة في الصحة ما يلي [11]:

- العوامل المرضية ونواقلها ومستودعاتها ، كالبكتيريا والفيروسات والفطريات والاميبا والديدان . وما تسببه من أمراض .
- العوامل الفيزياوية والكيماوية الموجودة في البيئة بصورة مستقلة عن الأنشطة البشرية والقادرة على التأثير في الصحة كالنيوكليدات المشعة التي تحدث طبيعياً والأشعة فوق البنفسجية .
- عوامل فيزيائية وكيميائية ضارة تضيفها الأنشطة البشرية إلى البيئة كاكاسيد النتروجين مثلاً والمركبات الهيدروكاربونية و ذرات الهباب الناتجة عن احتراق الوقود الاحفوري والمخلفات الغازية والسائلة والصلبة التي تخلفه الصناعة والمخلفات المشعة .

وتعد الأوضاع المتردية للبيئة سبباً رئيساً في انتشار الأمراض المختلفة ، ففي البلدان النامية مثلاً تنتشر الأمراض المعدية والطفيلية كالكوليرا والملا ريا والبلهارسيا ، وأمراض سوء التغذية . حيث يعيش مليارات من البشر الذين ما زالوا يفتقرون إلى الضروريات الأساسية مثل المأوى الملائم وسبل الحصول على إمدادات المياه النظيفة والمرافق الصحية ومرافق التخلص من النفايات وغيرها ، وان تدهور الأوضاع البيئية التي يعيشون في ظلها يضاعف من انتشار العوامل المعدية وتكاثر ناقلات الأمراض ويزيد من خطر الإصابة بها [12] .
ويعد السرطان والعيوب الخلقية من الأخطار البالغة على الصحة والتي تنتج من التعرض للمواد الكيماوية السامة والإشعاع . وهو من العوامل الرئيسية للإصابة ويتوقف تأثير التعرض لملوث كيماوي على طول مدة التعرض وشدته ونوع المادة الكيماوية. ومما تجدر الإشارة إلية أن هنالك اتفاقاً عاماً الآن على أن حوالي 85% تقريباً من جميع حالات السرطان تنتج من عوامل بيئية مثل الإشعاع المؤين والمواد الكيماوية المسببة للسرطان في الهواء والماء والدخان والكحول والغذاء وبعض العقاقير [13] . وان دور الإشعاع المؤين المحرض لسرطانات من أنواع مختلفة هو دور ثابت ومؤكد [14] .
وتشير الإحصاءات إلى أن 60%ــ90% من إصابات السرطانات في الولايات المتحدة هي نتيجة المواد الكيماوية وتلوث البيئة [15] . وان التعرض للمعادن الثقيلة مثل الزئبق أو الرصاص قد يؤدي للإصابة بأورام الدماغ ،

وان التعرض إلى جرعات صغيرة من الرصاص في مدة الطفولة يؤدي إلى العجز في وظيفة الجهاز المركزي العصبي على المدى البعيد [16] .

ثالثاً : التلوث :

يعد التلوث من المشاكل الكبيرة التي يواجهها الإنسان المعاصر ، لا بل وأخطرها ، وهي بحاجة إلى تضافر الجهود كافة لمعالجتها والحد منها . ومما يزيد المشكلة تعقيداً إن للإنسان نفسه الدور الواضح في زيادة خطورته من خلال نشاطاته المختلفة التي أصبحت تهدد الحياة البشرية ، فضلاً عن تأثيرها في الكائنات الحية الأخرى مما يحدث تغييراً في التوازن الطبيعي للبيئة ومكوناتها المختلفة الحية منها وغير الحية . والعلماء وان اختلفت وجهات نظرهم وآرائهم في إيجاد تعريف عام وشامل للتلوث حيث تضمنت أغلب التعاريف على مفاهيم معينة . إلا أنهم يتفقون على تعريف تلوث البيئة بأنه يشمل الإخلال بالتوازن الطبيعي لمكونات البيئة الذي يؤثر في حياة الكائنات الحية [17].

وسوف نستعرض بعضاً من هذه التعاريف لنخلص بالفكرة الرئيسة للتلوث . فقد عرف التلوث بأنه التغير الحاصل في الخواص الفيزيائية والكيماوية والبيولوجية للهواء أو التربة أو الماء ويترتب عليه ضرراً بحياة الإنسان في مجال نشاطه اليومي والصناعي والزراعي مسبباً الضرر والتلف لمصادر البيئة الطبيعية [18] .

كما عرف التلوث البيئي بأنه التغيرات غير المرغوبة التي تحصل في محيطنا ، أهمها التي تنتج من نشاطات الإنسان ومن خلال التأثيرات المباشرة وغير المباشرة في تغيير شكل الطاقة ومستويات الإشعاع والبيئة الكيميائية والطبيعية للكائن الحي . وهذه التغيرات سوف تؤثر وبصورة مباشرة في الإنسان أو من خلال تزويده بالماء والزراعة والمنتجات الحية أو المواد الطبيعية أو الممتلكات ، أو من خلال المجالات الترفيهية أو الإعجاب بالطبيعة [19].

كما عرف التلوث البيئي بأنه (كل تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية والذي لا تستطيع الأنظمة البيئية استيعابه من دون أن يختل توازنها ، والتلوث بهذا المعنى متنوع المسببات بيولوجياً أو كيميائياً أو فيزيائياً ، مما يتسبب في انتشار الملوثات وبنسب مختلفة في الهواء والماء والتربة) [20] .

ويعرف التلوث أيضا بأنه (إفساد المكونات البيئية حيث تتحول هذه المكونات من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة ((ملوثات)) مما يفقدها الكثير من دورها في صنع الحياة) .

حيث تتحول عناصر أي نظام ايكولوجي إلى ملوثات إذا ما فقدت كثير من صفاتها وكمياتها (بالزيادة والنقصان) التي خلقت بها بحيث تصبح في صورتها الجديدة عنصراً ملوثاً للبيئة [21] .

ومن هنا يمكننا أن نخلص إلى أن التلوث هو حصول تغيرات أو تأثيرات غير مرغوبة في الصفات الفيزياوية والكيماوية والحيوية للبيئة (هواء ، ماء ، تربه) والتي تؤثر في حياة الإنسان والحيوان والنبات بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

وتدخل المادة الملوثة إلى البيئة بسبب بعض الحوادث كالحرائق و الانفجارات أو عن طريق المجاري أو الفضلات الأخرى أو كنواتج عرضية لبعض العمليات الصناعية آو من خلال بعض الفعاليات الأخرى للإنسان [22] .

رابعاً : الملوثات :

وهي المواد أو التأثيرات الموجودة في البيئة وغير مرغوب فيها بسبب أضرارها البيئية وأخطارها الصحية ، ويقصد بالأضرار البيئية هو التغير في نوعية وصفات البيئة وما ينجم عنها من تأثيرات في الحيوانات والنباتات أو الأحياء المجهرية . أما الأضرار الصحية فيقصد بها التأثيرات الضارة أو السامة أو الخطيرة على صحة الإنسان وأجياله القادمة [23] .

خامساً : تقسيم الملوثات بحسب مصدرها :

ويشتمل على ما يأتي [24] :

1. الملوثات الطبيعية : وهي التي تنتج من مكونات البيئة ذاتها دون تدخل الإنسان ، و تشمل الغازات الناتجة من البراكين كثاني اوكسيد الكبريت ، الأملاح في المياه ، دقائق الغبار في الهواء أو قد تكون ظواهر طبيعية كالحرارة والإشعاع .
2. الملوثات التكنولوجية والصناعية : وهي التي تتكون نتيجة لما استحدثه الإنسان في البيئة من تقنيات وما ابتكره من اكتشافات كتلك الناتجة عن الصناعات المختلفة والتفجيرات النووية ووسائل المواصلات .
3. ملوثات الإنسان والحيوان : وتشمل ما يطرحه الإنسان من فضلات نتيجة نشاطاته اليومية العادية ، كالملوثات الناتجة عن المدن والمجتمعات السكنية التي تشمل مياه المجاري بما تحويه من المواد العضوية بدرجة رئيسية ، وكذلك تشمل الفضلات الحيوانية . والجدير بالذكر أن هذه الملوثات بطبيعتها تزداد بازدياد عدد السكان وبارتفاع مقدار ومعدل حاجتهم المعيشية.

سادساً : تقسيم الملوثات بحسب طبيعتها :
وتشمل على ما يأتي :

1. الملوثات ذات الطبيعة الفيزياوية : وهي ظواهر فيزياوية مادية وتشمل الإشعاع (وهي اشد خطراً على البيئة والأحياء) والحرارة والضوضاء والاهتزازات والأمواج الكهرو مغناطيسية .وهذه الملوثات تتداخل مع الخصائص الفيزياوية لعناصر البيئة أو المادة الحية [25] .
2. الملوثات ذات الطبيعة الكيماوية: وهي مجموعة واسعة من الملوثات الأكثر انتشارا في البيئة ، وتشمل عدداً كبيراً من المواد الطبيعية المنشأ كالنفط ومشتقاته والزيوت والشحوم والسموم الطبيعية والرصاص والزئبق والغازات المتصاعدة من البراكين وعدداً كبيراً من المواد المصنعة كالمبيدات الكيمياويات الزراعية والفضلات الصناعية من الأحماض والأملاح والقواعد والحرائق وعوادم السيارات والمصانع وكذلك الجسيمات الدقيقة الناتجة من مصانع الاسمنت والاسبست و الكيمياويات السائلة عندما تلقى في التربة أو الماء .
3. الملوثات الإحيائية : وهي كائنات حية مجهريه في الغالب وتعمل على تغيير بعض الصفات أو الخصائص البيئية عند وجودها فيها أو ذات أضرار بصحة الإنسان أو الأحياء الأخرى ، وهي على وفق الأسس العلمية لعلم البيئة فإنها تعد من المكونات الإحيائية الطبيعية ، ومنها ما هو طفيلي يعيش في أمعاء الإنسان أو الحيوانات ، وقد يسبب حالة مرضية كما هو الحال بالنسبة للطفيليات المعوية أو ليس له تأثير صحي ضار كما في حالة العديد من البكتيريا المعوية .وقد أدت ممارسات الإنسان الخاطئة تجاه البيئة مثل طرح الفضلات البشرية في الأنهار أو رمي الحيوانات النافقة في المصادر المائية إلى خلق مشاكل بيئية وصحية عديدة وبالتالي تحول هذه الأحياء إلى ملوثات بيئية . ولذلك فإن تعبير الملوثات الإحيائية يقتصر على المسببات المرضية فقط كالبكتيريا والطفيليات والفطريات والفيروسات وغيرها [26]

سابعاً :السياحة والبيئة [27] :
اهتمت الدول بالسياحة في العقود الأخيرة للقرن العشرين بعد أن كان الاهتمام يتركز على التنمية الاقتصادية التقليدية التي اتبعتها معظم الدول النامية منذ تحررها بعد الحرب العالمية الثانية ، وبدء تنفيذ نماذجها التنموية والانفلات من التبعية للدول الاستعمارية ولم يتم الاهتمام بالنشاط السياحي والأنشطة المتعلقة به كهم من هموم ومسئوليات الدول منذ بداية تنفيذ

مشروعات التنمية الاقتصادية الخاصة بها . بل كان بدء الاهتمام بالسياحة اهتماما ثقافياً و ترفيهياً بجهود فردية غير مخططة وغير مركزية وتم الالتفات للتنمية السياحية عندما أدركت الدول أهمية السياحة والعائد الاقتصادي الهام الذي تحققه تلك الصناعة المستقبلية الهامة وأصبحت الدول الكبرى تتنافس على الاستحواذ على السائحين وعلى دفع عجلة صناعة السياحة إلى الأمام دفعات قوية ومؤخراً تم الالتفات للعوامل البيئية والمخاطر التي قد تتسبب من الاستخدام المكثف للموارد والسياحة والبيئة .

لقد بدأ مفهوم السياحة البيئية في الظهور في العقود الأخيرة من القرن العشرين بالنسبة إلى العالم كله وأصبحت السياحة البيئية جزء هام من السياحة العالمية والمقصود بها أنها تجوال وسفر لمناطق طبيعية من أجل الاستمتاع ومشاهدة الطبيعة والكائنات الحية في أماكن وجودها الطبيعية بحيث لا يتم التدخل في مجريات حياتها أو معاشها أو في المحمية الطبيعية وهذا التوجه قد بدأ يظهر في معظم دول العالم المتقدم وبشكل خاص في التوسع في المحميات والمنتزهات الطبيعية التي يبلغ عددها أكثر من 30 ألف منتزه ومحمية طبيعية في العالم . ومعظم الدول التي تهتم بالسياحة تقوم على الاستفادة من هذه المحميات في تزايد نسبة السياحة البيئية لديها واهتمت كثير من الدول بهذا النوع من السياحة لما له من أهمية في تحقيق أهداف التنمية السياحية والسياحة إلى المناطق الطبيعية في نطاقات جغرافية معينة في العالم تتميز تلك المناطق بنوع مميز من السمات الطبيعية وهذه هي التي لم يغير فيها الإنسان شيئاً كثيراً ولم يبذلها وإنما قام بتطويرها وزيادة جمالها بصورة لا تخل بأصلها أو بطبيعتها وخصائصها وهي بيئات مميزة تراعي التوازن الطبيعي والخصائص المميزة للمكان فالمناطق الجبلية والشلالات والصحاري والغابات والمحميات الطبيعية والثلوج والبحيرات والسواحل وغيرها كلها تصب في نفس هذا النوع من البيئات .

وهذه البيئات لها محبيها ومن يعشقون التردد عليها وقضاء الوقت في أحضانها بعيداً عن تلوث المدن أو صخبها وقد خصصت معظم الدول التي تمتلك من خصائص البيئات الطبيعية الكثير من الإمكانيات المادية والبشرية للحفاظ على البيئة الطبيعية لما تحمله للدولة من مردود مادي كبير من خلال السياحة الطبيعية التي يحبذها الكثيرين من السياح في كل المناطق الجغرافية وتنطوي السياحة البيئية على إبراز المعالم الجمالية لأي بيئة في العالم فكلما كانت نظيفة وصحية كلما أزدهرت السياحة وانتعشت وتبدو للوهلة الأولى أن السياحة هي إحدى المصادر للمحافظة على البيئة وأنها لا تسبب الإزعاج ولا تعد مصدراً من مصادر التلوث لكن هذا القول به الكثير من التجاوزات فبالرغم من الجوانب الايجابية للسياحة إلا أنها تشكل مصدراً من مصادر

التلوث البيئي والتي هي من صنع الإنسان والسياحة وتحقيق المصالح الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم عليها ونتج ذلك كما يقرر العلماء من التصرفات السلبية للإنسان وعدم احترامه للتوازن البيولوجي وتلويثه للبيئة من خلال الأنشطة المختلفة وتعديه الجائر على البيئة وهذه التصرفات تعتبر كوارث لها تأثيرها على جميع الكائنات وأولها الإنسان .

ولضمان تنمية مستديمة محققة للتوازن وجب علينا المحافظة على البيئة الطبيعية بإمكانياتها المادية والبشرية ونشاطاتها المولدة للموارد التي تضمن التمويل الذاتي ومن أهم هذه النشاطات المتعلقة بالسياحة البيئية التي تعد من انجح الوسائل للانتعاش الاقتصادي وتسهيل الاتصال بالطبيعة وحماية التنوع البيولوجي .

لقد أصبحت السياحة البيئية ذات التوازن البيئي ظاهرة هامة محورها التأمل في الطبيعة والنباتات والحيوانات وتوفير الراحة للزائرين وأصبحت العلاقة بين السياحة والبيئة علاقة توازن دقيق بين التنمية والسياحة وحماية البيئة وهذا ما يؤكده إعلان مانيلا (1980) على أن الاحتياجات السياحية لا ينبغي أن تلبي بطريقة تلحق الضرر بالمصالح الاجتماعية والاقتصادية لسكان المناطق السياحية أو البيئية أو بالموارد الطبيعية والمواقع التاريخية والثقافية التي تعتبر عامل الجذب الأساسي للسياحة ويشدد الإعلان على أن هذه الموارد جزء من تراث البشرية وأنه يجب على المجتمعات المحلية الوطنية والمجتمع الدولي بأكمله القيام بالخطوات اللازمة لكفالة الحفاظ عليها ويعتبر التخطيط الطويل الأجل والسليم بيئياً شرطاً أساسياً لإقامة توازن بين السياحة والبيئة لكي تصبح السياحة نشاطاً إنمائياً قابلاً للاستمرار .

ومع ذلك فإن كثيراً من البلدان النامية التي تنوء تحت عبء الديون الخارجية وتحتاج بشدة للعملة الصعبة طرحت جانباً مخاوفها من أن تؤدي السياحة إلى تردي البيئة الطبيعية ــ ووضعت سياسات سياحية غايتها تكثيف النشاط السياحي وأدت هذه السياسات القصيرة النظر في الحقيقة إلى تدهور ملحوظ في بيئة بعض البلدان مما أبعد عنها أعداداً متزايدة من السياح وسيستغرق علاج هذا التردي وتسريع السياحة من جديد سنوات عديدة كما سيتطلب موارد مالية ضخمة لتحسين وضع السياحة في هذه البلدان .

إن الإنسان بتطوره الصناعي وتقدمه العلمي وخلال رحلات حياته المتعددة لا يشغله شيء في بحوثه ومختبراته أكثر من محاولات الوصول إلى السيطرة على الطبيعة وما عليها والكون وما فيه و تتم له هذه السيطرة بامتلاك وسائل الدمار والفناء ، والسباق وإلى امتلاك الفضاء والعسكرة فيه ، والتطورات التقنية والبيولوجية التي تخل بتوازن البيئة وسلامة الإنسان ، وتمتعه بالسياحة رغم أنه لا سياحة بلا صحة ، ولا صحة بلا بيئة سليمة

فالبيئة الأساس في أي حقل سياحي وهذا ما يوجب علينا أن نبين مضامينها ومرتكزاتها وأخطارها .
تقع البيئة اليوم تحت تأثير مجموعة من الارهاقات والاستنزافات التي أدت وتؤدي إلى ظهور مجموعة من المشكلات الحياتية التي بدأت تهدد سلامة الإنسان بشكل خاص وسلامة المخلوقات بشكل عام .
وتعتبر مشكلة التلوث من أهم المشاكل البيئية ، لما تعكسه من الآثار الصحية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الآثار المتعلقة بالغذاء والإسكان والطاقة .
لذلك يرى العلماء والباحثين والمهتمين السير على طريق التعايش مع البيئة والحفاظ عليها ، لا أن نسير على طريق استنزاف الموارد البيئية مثل قطع الأشجار ، وجرف التربة ، والإفراط بالتصحر ، وهدر المياه ، والإكثار من استعمال الطاقة المولدة للغازات الضارة ، وإلقاء النفايات وإبقائها مكشوفة على قارعة الطريق ، والتي تنعكس علينا بالمزيد من الأوبئة والأمراض والإسراف في صيد الأسماك والطيور وغير هذا كثير لأننا بقدر ما نعطي البيئة من حيث الاهتمام النوعي والكمي تعطينا هي أيضاً وتدعم السياحة التي تعتمد اعتمادا كبيراً على البيئة النظيفة .
إن البيئة النظيفة هي عماد النشاط السياحي ، والبيئة كما هو معروف هي خزان الموارد من الهواء والشمس والأنهار والبحار والجبال والشعب المرجانية والواحات والمحميات والمناخ والتي تمثل أهم المغريات والمقومات التي يعتمد عليها الجذب السياحي وتستغلها الدول لعرض منتجها السياحي وأي استنزاف لهذه الموارد أو إتلاف لها يقوض دعائم النشاط السياحي ويعرضه لمخاطر مستقبلية بل قد يؤدي إلى فشل مشروعات التنمية السياحية ، مما يسبب في تراجع معدلات السياحة وتراجع نسبة قدوم السائحين إلى البلاد حيث ينبغي السائح البيئة النظيفة المريحة والاستمتاع بكافة المقومات البيئية التي تحقق له السياحة البيئية والثقافية بل كافة أنواع السياحات الرشيدة وتقوم استراتيجيات التنمية السياحية السليمة على إحداث التوازن بين تحقيق التنمية السياحية والمحافظة على البيئة نظيفة وعدم استنزاف الموارد البيئية والقضاء على المقومات البيئية الطبيعية التي تعتمد عليها السياحة كما تهدف للعمل على تحقيق التنمية الإقليمية المتوازنة بالمحافظة على المكان والبيئة .
لقد أخذت الأنشطة الإنمائية التي لم تضع الاعتبارات البيئية في حسبانها تسهم في إلحاق في المحيط البيئي ونتيجة للامعان في استغلال الموارد الطبيعية دون النظر إلى التوازن البيئي وإلى احتياجات الكائنات الحية الأخرى التي تعيش في البيئة نفسها لدرجة ظهرت العديد من التغيرات التي

تنذر بأخطار كبيرة والتي أحالت أجزاء كبيرة من سطح الكرة الأرضية إلى بيئة ملوثة غير صالحة لحياة الكائنات الحية والإنسان نفسه . وما يزيد من خطر تلوث البيئة أن الغلاف الحيوي ليس له مكان محدد وأن تلوثه في بلد ما قد يؤدي إلى تلوثه في البلدان المجاورة فتلوث نهري النيل والفرات مثلاً في كل من أوغندا وتركيا على التوالي سيقود حتماً إلى تلوثهما في الأقطار المجاورة الأخرى التي يمر فيها هذان النهران إضافة إلى تلوث مياه كل من البحر المتوسط والخليج العربي حيث يصب النهران على التوالي .

لقد أحدثت الأنشطة البشرية ومن بينها السياحة الكثير من التغيرات في البيئة مما كان لها آثار كبيرة في استنفاد المصادر الطبيعية وتلوث الوسط البيئي المحيط وإخلال في التوازن البيئي ومن أمثلة هذه التغيرات تمركز الصناعة في المدن وما يتبعه من نشاط تجاري واجتماعي وعلمي وزيادة في وسائل النقل والهجرة من الأرياف إلى المدن إلى العديد من المشاكل الاجتماعية والصحية ، وتحولت البيئة في كثير من المدن والصناعية منها بصفة خاصة إلى بيئة ملوثة بغازات متعددة مثل اوكسيد الكبريت والكربون والنيتروجين إضافة إلى الهيدروكربونات والدخان وغيرها من الملوثات .

إن الكثير من اتجاهات التنمية الحالية تؤدي إلى تدهور البيئة (التصحر وتدهور الغابات وتلوث الهواء والماء والغذاء) وكيف يمكن لهذه التنمية أن تخدم القرن الحالي الذي ستتضاعف فيه أعداد الناس الذين يعتمدون على البيئة اعتمادا كبيراً ... لذا فإن تحقيق أهداف التنمية تعتمد على تنفيذ برامج التنمية الصديقة للبيئة ويتطلب مساراً جديداً وهو التنمية المستدامة التي تلبي حاجات الحاضر دون المساومة على قدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها ، لذا ينبغي أن تدخل البيئة بصورة مترابطة في عمليات صنع القرار وسن القوانين ليس بهدف حماية البيئة فحسب بل لحماية التنمية وتعزيز أهدافها ذلك أن التنمية والبيئة مرتبطتان بصورة كبيرة في تحسين أحوال وحياة الإنسان ومستقبلهم وهذا التوجيه مطلوب في بلداننا التي تعرضت لكثير من الظروف القاسية ولتعرض الموارد الطبيعية للاستغلال غير المنظم الذي نتج عنه التلوث والاستنزاف والتصحر في بعض المناطق وانقراض بعض الأنواع الحيوانية وانخفاض أعدادها انخفاضا بالغاً وغيرها من السلبيات .

المبحث الثاني: مصادر التلوث البيئي في مدينة إب

يعد موضوع مصادر التلوث البيئي من المواضيع المهمة التي شغلت فكر واهتمام العلماء والباحثين المهتمين بشؤون البيئة لما له من آثار سلبية بعيدة المدى على حياة وأنشطة الإنسان المختلفة والواقع أن التلوث مشكلة بيئية

أصبح من المشكلات الخطرة جداً التي يواجهها العالم منذ عدة عقود وما يزال ، وقد أخذت تتفاقم بدرجة مذهلة حتى أصبحت أزمة بيئية معقدة ذات آثار متراكمة تهدد حاضره ومستقبله [28] فقد قفزت المشكلة فجأة على مسرح الأحداث العالمية وحظيت باهتمامات العلماء والباحثين منذ النصف الثاني من القرن الماضي عندما ازدادت حدة التلوث وتجاوزت الحدود المسموحة لتصبح مشكلة العصر بل ومن أكثر المشكلات البيئية خطورة وتعقيداً والتي باتت تؤرق بال المسئولين والباحثين الذين يجتهدون في وضع الضوابط الحاكمة والمعايير الآمنة التي تخلص البشرية من خطر هذه المشكلة المخيفة [29] . والتي يعد الإنسان سببها وضحيتها في آن واحد . فقد نجح الإنسان في تحقيق إنجازات علمية وتقنية كبرى لكنه لم ينجح في أن يوازن بين الآثار الايجابية والآثار السلبية لتلك الانجازات [30] . ومما يزيد المشكلة خطورة وتعقيداً عالميتها ، فخطر التلوث وإفساد البيئة يهددنا جميعاً نحن البشر وان هذا الخطر لا يقل أهمية عن أخطار الحروب والمجاعات والأوبئة [31] .

خاصة إذا ما علمنا أن الملوثات سواء كانت هوائية أم مائية قادرة على الانتقال والحركة من منطقة إلى أخرى ، ولنا في تزايد ثاني اوكسيد الكربون في الغلاف الجوي والثقب الذي اكتشف في منطقة القطب الجنوبي ونتائجهما العالمية ما يؤكد ذلك [32] .

إن قضية التلوث البيئي قضية شائكة ومتعددة المسالك لتعدد أسبابها وتشابك آثارها ومن الصعوبة الخوض في تفاصيلها كافة وتغطيتها إلا ما يتعلق منها بموضوع بحثنا وأدناه أهم مصادر التلوث في مدينة إب :

أولاً – الهواء:

يكون للمواطن في مدينة إب دور أساسي في تلوث الهواء في المدينة ، حيث ينجم التلوث عن فعالياته من خلال حياته اليومية ونشاطه الصناعي والتجاري والزراعي والعمراني وفي ضوء ذلك سنتطرق إلى أهم مصادر تلويث الهواء في المدينة وكما يلي :

1. وسائط النقل : تستخدم في مدينة إب المركبات والدراجات النارية المختلفة الطاقة المتمثلة بالبنزين والديزل أو الكيروسين والتي تعد أحد أهم المصادر المهمة في تلويث الهواء ، لا سيما وان أعداد المركبات والدراجات النارية في تزايد مستمر في جميع أنحاء مدينة إب ، وتعد المركبات والدراجات النارية من أهم وأخطر مصادر التلوث الهوائي وتأتي خطورتها مصدراً للتلوث في أن عوادم المركبات والدراجات النارية تحتوي على الكثير من الغازات الخطرة جداً مثل أول اوكسيد الكربون ، كما يحتوي على البنزوبرين الذي يتسبب في إصابة سكان المدينة بالسرطان والكاربوهيدرات والرصاص ومادة الكاديوم الخطرة وغيرها ، ومما يزيد من خطورة ملوثات

عوادم السيارات والدراجات النارية أنها تقذف في الطبقة الهوائية السفلية التي تتعامل معها الأحياء (الإنسان والنبات والحيوان) بشكل مباشر ومن ثم تنتقل الملوثات بسرعة وبشكل مباشر إلى أجسام السكان وإلى محاصيلهم الزراعية وثروتهم الحيوانية[33].

2. الصناعة : تعد الصناعة من أكبر مصادر التلوث لا سيما إذا ما كانت تعتمد على الوقود الحفري (الفحم ، النفط ، الغاز الطبيعي) مصدراً رئيسياً للطاقة إذ ينطلق منها عادة عند احتراقها بكميات كبيرة جداً من الغازات والجسيمات التي تعمل من خلال تراكمها في الغلاف الجوي على إفساد تركيبة الهواء وبما يؤدي إلى حدوث خلل في نظامه الايكولوجي يصبح معه الهواء مصدراً لكثير من المخاطر والمضار التي باتت تهدد كل مظاهر الحياة وغير الحية ، ومهما كان نوع الصناعات المتواجدة في مدينة إب في أحيائها أو شوارعها أو مداخلها فهي تبعث الغازات من المصانع ثاني اوكسيد الكبريت وهو (غاز مهيج) عديم اللون ، نفاذ الرائحة وخانق وغاز أول اوكسيد الكربون الذي يتمتع بقابلية كبيرة للاتحاد مع هيموجلوبين الدم مما يحد من قدرة الأوكسجين داخل الجسم على إتمام دورته العادية إضافة إلى قدرة الدم على استخلاص الأوكسجين من الهواء المستنشق مما يعرض الإنسان لخطر الاختناق ، أما غاز ثاني اوكسيد الكربون فجسيمات الكربون فيه قادرة على امتصاص الغازات السامة فيتحول بذلك إلى غاز خطر ، وهكذا تمارس الأنشطة الصناعية في مدينة إب دوراً مهماً في تلوث الهواء ، ويمتد تلوث الهواء ليشمل أيضا ما يتسرب من المصانع من غازات سامة وخاصة مصانع المبيدات الحشرية .

3. الاستخدامات المنزلية والحكومية : وتشمل الانبعاثات اليومية من المنازل ومختلف المؤسسات الحكومية والتجارية والخاصة حيث يستخدم الفحم والغاز الطبيعي والبترول ، كمادة للوقود ، حيث تنبعث نسب كبيرة من الدقائق العالقة (دخان) وبعض الغازات كثاني اوكسيد الكبريت واكاسيد النتروجين [34] .

4. الملوثات الناتجة عن حرق النفايات : إن حرق النفايات له آثار سيئة على نوعية الهواء لانبعاث كميات من الدقائق العالقة (دخان) وغازات ثاني اوكسيد الكبريت واكاسيد النتروجين والكربون وهي غازات سامة تؤثر على صحة الإنسان ونشاطه اليومي حيث تسبب أمراض الكوليرا والإسهال والتايفوئيد والزحار والتهاب العيون [35] .

5. المبيدات الزراعية والحشرية : إن أكثر أراضي مدينة إب تستغل للزراعة ، واستخدام المبيدات الزراعية بشكل واسع ساهم في صنع التلوث

الهوائي حيث يتطاير الكثير من مكونات المبيدات في الهواء ، فلقد ثبت أن بقايا المبيدات تبقى في الأرض الزراعية لمدة طويلة جداً تصل إلى أكثر من عشرين عاماً وأنها تتراكم عاما بعد عام لتصل إلى تراكيز عالية ، وفي الوقت نفسه يتم تبخرها من التربة إلى الهواء الجوي حيث تعد مصدراً دائماً للتلوث [36] .

إن ملوثات الهواء تسبب أمراض عديدة منها (امرض الجهاز التنفسي والزكام والسعال والجهاز العصبي وأمراض القلب وتهيج العيون وسرطان الرئة وسرطان الجلد وغيرها من الأمراض) .

أما بالنسبة للنباتات فيؤثر التلوث الهوائي على أنسجة الأوراق والمادة الخضراء بها مما يؤدي إلى ذبول وموت النباتات أو يبطئ من عملية نموها الطبيعي .

ثانياً : التلوث الضجيجي (الضوضاء) : [37]

تعد الضوضاء أحد مصادر التلوث ، وقد لاحظ المشرفون على الأعمال الصناعية أنها تعوم أنتاج الفرد وتؤدي إلى الشعور بالضجر والتوتر النفسي ووجد مجلس بحوث الصناعات أن الضوضاء تقلل من الكفاءة الإنتاجية في الأعمال الصعبة والمعقدة ، كما أن الضوضاء تفسد طبيعة الهواء وتحوله من هواء هادئ مفيد إلى هواء مزعج ضار ، لما للضوضاء من أخطار مرضية نفسية وجسمانية تصيب الإنسان إلى حد أصبحت معه الضوضاء أو الضجيج في الوقت الحاضر مشكلة بيئية خطرة في المدن والمناطق الصناعية والتجارية والأسواق والشوارع المكتظة بالسيارات وازدحام المرور وغيرها ، وتقاس الضوضاء (الأصوات)بوحدة قياس خاصة تسمى (ديسيبل) والتي تتدرج بين واحد ديسيبل إلى كثر من (200) ديسيبل ، فالصوت الخافت يكاد لا يسمع بالأذن البشرية تبلغ حدته أو شدته واحد ديسيبل وهكذا ، وقد تكون شدة الصوت مقبولة وآمنة إذا كانت أقل من (75)ديسيبل ، أما إذا ازدادت شدة الصوت عن (75) ديسيبل تصبح الضوضاء خطرة ومسببة الكثير من الأمراض ومصادر الضوضاء في مدينة إب ربما يصل في تقديرنا إلى (75)ديسيبل فأكثر بسبب حركة السيارات والآت التنبيه في شارع العدين بالدرجة الأولى وشارع تعز وكذلك في المناطق الأخرى في منطقة الظهار حيث سوق القات والسوق المركزي وهذه المناطق تشكل حالة متميزة في مصادر الضجيج في المدينة ، أما الأمراض التي تسببها الضوضاء فهي :

ضعف القدرة على السمع ، تقلص وضيق الشرايين مما يسبب أزمات قلبية ، رفع ضغط الدم ، الأرق وزيادة إفراز العرق واضطراب عملية التنفس واضطرابات الجهاز العصبي حيث تكثر الأمرض العصبية و النفسية في

البيئات العالية الضوضاء ، حيث تؤدي الضوضاء إلى زيادة اندفاع مادة الادرينالين في مجرى الدم وما يعقب ذلك من توتر وعصبية ، كما أثبتت أن يحدث نقصاً في إفراز عصارة المعده، كما يؤدي إلى زيادة الصداع والشعور بالإرهاق .

ثالثاً : مصادر تلوث المياه :

للتلوث المائي مصادر متنوعة في مدينة إب يسهم كل منها في تلويث المياه بصورة أو بأخرى ، إلا أن معظمها مصادر تعود إلى سلوكيات الإنسان وتتمثل هذه المصادر بما يلي :

1. الصناعات :

الصناعة هي من أهم وأخطر مسببات التلوث للماء وخصوصاً التلوث بالمواد الكيماوية (كالحوامض والقواعد والمواد السامة) ، لأنها تحتاج لثلاثة أو أربعة أصناف ما تحتاجه نفايات المجاري من الأوكسجين ، وآخر ما في ذلك أن المواد السامة التي تدخل في تلك الصناعات تعود إلى الماء ذائبة مع النفايات الخطرة [38] . مباشرة إلى المياه أو بطريق غير مباشر من التربة إلى المياه الجوفية وهذا ما نخشاه كون مدينة إب تعتمد بالدرجة الأولى على مصادر المياه الجوفية ، ومما يزيد حجم المشكلة أن أغلب الصناعات تحتاج إلى المياه أثناء العمليات الإنتاجية ، فالماء إن لم يدخل في الصناعة كمادة أولية فإنه يستخدم لأغراض شتى كالتبريد أو غسل المواد أو تخفيفها [38] . والصناعات التي تسبب التلوث كثيرة ومتعددة ولكن يمكن حصرها في الصناعات التالية :

الصناعات الغذائية ، الصناعات النسيجية ، معمل دباغة الجلود ، الصناعات الكيماوية الصناعات النفطية ، مصافيها ، الصناعات المعدنية والتعدين ، الصناعات المطاطية ، الصناعات البلاستيكية والصناعات الورقية [39] .

2. مياه المجاري الصحية :

تمثل مياه المجاري الصحية مصدراً خطراً من مصادر التلوث ويزداد خطر هذه المشكلة في مدينة إب للكثافة السكانية العالية فيها ونتيجة لوجود خلل في بعض شبكات المجاري أو لعدم وجود تلك الشبكة و الاستعاضة عنها بالحفر الامتصاصية (خزانات المياه القذرة) ، فإن المياه تتسرب إلى جوف الأرض مسببة التلوث في مصادر المياه الجوفية والسطحية ، وتشتمل هذه المصادر على الفضلات التي تطرحها الوحدات السكنية والتجارية التي تحتوي على ما يطرحه الإنسان من أوساخ ودهون ومنظفات وأملاح ذائبة ومود عالقة مسببة للأمراض وغيرها من الفضلات الناتجة عن الاستعمال اليدوي للماء ، كذلك فضلات الفنادق والمستشفيات والمدارس والكليات والسجون وغيرها

من الأبنية العامة ، بالإضافة إلى مياه الأمطار التي تغسل الشوارع وتحمل معها مواد ملوثة عند جريانها ، فعند تساقط الأمطار يتم غسل الهواء والشوارع في المدن بحيث أن مياه الأمطار الجارية تحمل معها أنوع كثيرة ومتعددة من الملوثات التي تصل عن طريق شبكة المجاري إلى أقرب مصدر مائي [40] .

3. استخدام المبيدات والأسمدة الكيماوية :
وتتعرض المياه الجوفية في إب للتلوث من خلال ما يتسرب إليه من المواد الكيماوية مع مياه الصرف الزراعي نتيجة أستخدم الأسمدة الكيماوية بمعدلات عالية ، وكذلك المبيدات الحشرية وهي من المركبات الكيماوية الشديدة التحمل والتي تحتفظ بوجودها في البيئات المائية لمدة طويلة مما يساعد على اختزانها وتراكمها في أجسام الأحياء المائية إلى الحد الذي يشكل خطورة بالغة على حياة الإنسان حيث وجد أن هناك علاقة بين المبيدات ومرض السرطان [41] .

أما الأسمدة الكيماوية فبالرغم من تحقيق الزيادة في الإنتاجية نتيجة استعمالها إلا أن لها آثار بيئية يمكن تلخيصها بما يلي [42] :

1. تسرب النترات إلى المياه الجوفية نتيجة لاستعمال الأسمدة ما يؤثر في نوعية المياه المستخدمة.
2. نتيجة التدهور الحاصل في التربة وخصوبتها يؤدي استعمال المبيدات والأسمدة الكيماوية بكميات كبيرة إلى زيادة التدهور في الخصوبة وربما يؤدي إلى التصحر [43] .

إن ملوثات الماء تسبب ما يلي [44] :

1. أمراض التايفوئيد ، الديزنتري ، التهاب الكبد ، شلل الأطفال ، وغير ذلك من الأمراض .
2. عدم صلاحية الماء للشرب لوجود الأملاح غير العضوية .

رابعاً : مصادر تلوث التربة :
أما التربة فهي الوسط الذي ينمو ويعيش فيه النبات ويتلق فيه ضروررياته وتلوثه سيؤدي إلى الأضرار بمكونات البيئة والمعروف أن بيئة مدينة إب يغلب عليها الطابع الزراعي وتتأثر بشكل كبير بمصادر التلوث البيئي من تلوث الهواء وتلوث الماء ، وكذلك فإن مصادر التلوث في المعادن الثقيلة ومياه الصرف الصحي ونتيجة استخدام الأسمدة النيتروجينية وزيادة الملوحة

والمبيدات والتي تعتبر أحد أهم المصادر في تكوين التربة وذلك عن طريق رش المحاصيل بكميات كبيرة منه ووضع المبيدات في التربة بكميات كبيرة إضافة إلى بقايا المحاصيل والمخلفات الحيوانية الملوثة بالمبيدات ، وتعتبر المبيدات الهيدروكربونية الأكثر انتشاراً وبقاءً في التربة ، كما أن الاستخدام المكثف للأسمدة ، خاصة الأسمدة النيتروجينية يؤدي إلى تدهور خواص التربة الكيميائية والفيزيائية و تلوث البيئة الزراعية .

المبحث الثالث : تحليل إجابات أفراد العينة :

أولاً : مصادر المعلومات عن تلوث البيئة السياحية في مدينة إب :

يتضح من الجدول (1) أن هناك معلومات ومعرفة لدى المبحوثين عن أهم الجوانب المتعلقة بالتلوث البيئي و تلوث البيئة السياحية في مدينة إب ، فقد جاءت الفقرة (الإنسان سبب التلوث وضحيته بالمرتبة الأولى من حيث مدى معرفة المعلومات ، حيث تعرفها الأغلبية من المبحوثين وكانت نسبتها أعلى من باقي النسب حيث بلغت معرفتها بدرجة تامة (84%) ومعرفتها إلى حد ما (14%) وعدم معرفتها (2%) وبمتوسط حسابي (2.83) ، ويليها في الأهمية الفقرة الخاصة بتسرب المياه من المجاري الصحية أو من خزانات المياه القذرة يساهم في تلوث المياه الجوفية ، حيث بلغت نسبتها (82%) أعرف تماما و (14%) أعرف إلى حد ما و (4%) لا أعرف وبمتوسط حسابي (2.78) ، وجاءت الفقرة الخاصة بالمركبات والدراجات النارية من أهم مصادر تلوث الهواء، حيث بلغت نسبتها (71%)أعرف تماما ، (27%) أعرف إلى حد ما ، (2%) لا أعرف ،وبمتوسط حسابي (1.43) ، وتليها باقي الفقرات حسب الأهمية في ضوء معرفتها من قبل المبحوثين .

جدول (1)

العوامل المتعلقة بتلوث البيئة السياحية في مدينة إب

م	المعلـــومــــــات	مدى معرفة المعلومات						المتوسط الحسابي
		أعرف تماما		اعرف إلى حد ما		لا أعرف		
		عدد	%	عدد	%	عدد	%	
1	يعد موضوع التلوث البيئي من المواضيع المهمة التي شغلت فكر واهتمام العلماء والباحثين .	145	61 %	76	32 %	16	%7	2.46
2	الإنسان سبب التلوث وضحيته .	200	84 %	35	14 %	2	%2	2.83

3	المركبات والدراجات النارية من أهم مصادر التلوث في الهواء.	170	71%	64	27%	3	%2	1.43
4	عوادم (دخان) المركبات والدراجات النارية تسبب مرض السرطان .	130	55%	80	34%	27	11%	2.43
5	الغازات والجسيمات الناتجة من الصناعات التي تعرض الإنسان لخطر الاختناق.	131	55%	97	41%	9	%4	2.51
6	الغازات المنبعثة من جراء إحراق النفايات تسبب أمراض (الكوليرا ، الإسهال ، التايفوئيد ، الزحار، التهاب العيون ..).	67	28%	90	38%	80	34%	1.94
7	إن المبيدات الزراعية والحشرية تبقى أكثر من (20) عام وتتبخر من التربة إلى الهواء ويحدث بالتالي التلوث الهوائي .	52	22%	75	32%	110	46%	1.75
8	ملوثات الهواء تسبب أمراض منها (أمراض الجهاز التنفسي ، الزكام ، السعال ، الجهاز العصبي ، أمراض القلب ، تهيج العيون ، سرطان الرئة ، سرطان الجلد)	149	63%	78	33%	10	%4	2.58

	وغيرها من الأمراض .							
9	التلوث الهوائي يؤثر على أنسجة أوراق النباتات والأشجار والمادة الخضراء بها مما يؤدي إلى ذبول وموت النباتات أو بطئ عملية نموها .	126	53%	82	35%	29	12%	2.40
10	الصناعات أخطر مسببات التلوث للماء لأن أغلب الصناعات تحتاج إلى الماء كمادة أولية ، أو استخدامه لأغراض التبريد أو غسل المواد أو تخفيفها ، وان نفايات الصناعات السامة تعود مباشرة من التربة إلى المياه الجوفية .	125	53%	84	35%	28	12%	2.40
11	تسرب المياه من المجاري الصحية أو من خزانات المياه القذرة يساهم في تلوث المياه الجوفية .	195	82%	33	14%	9	%4	2.78
12	ما يطرح الإنسان من أوساخ ودهون ومنظفات وأملاح ذائبة ومواد عالقة كذلك فضلات الفنادق والمستشفيات والمدارس والكليات والسجون وغيرها من الأبنية	129	54%	92	39%	16	%7	2.47

	العامة ، بالإضافة إلى مياه الأمطار ، تسبب تلوث التربة وبالتالي تلوث المياه الجوفية .							
13	تتعرض المياه الجوفية للتلوث نتيجةً استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية بشكل عشوائي .	123	52 %	81	34 %	33	14 %	2.37
14	استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية بكميات كبيرة يؤدي إلى زيادة التدهور في خصوبة التربة وربما يؤدي إلى التصحر .	151	64 %	59	25 %	27	11 %	2.52
15	إن ملوثات الماء تسبب أمراض (التايفوئيد ، الديزنتري ، التهاب الكبد ، شلل الأطفال ، أمراض السرطان) وغير ذلك من الأمراض)	62	26 %	108	46 %	66	28 %	1.98

ثانياً : الاعتماد على مصادر المعلومات عن تلوث البيئة السياحية في مدينة إب :

وفيما يتعلق بالجدول (2) بمصادر معلومات المبحوثين عن الجوانب المختلفة للتلوث البيئي والبيئة السياحية ، فقد أتضح أن البرامج التليفزيونية قد لعبت الدور الأهم ، حيث يعتمد عليها نحو (28%) بصفة دائمة من المبحوثين ، كما يعتمد عليها أحياناً نحو (36%) وبمتوسط حسابي (1.91)، أما الكتب العلمية فقد تبين أن نحو (27%) يعتمد عليها بصفة دائمة و(33%) بصفة جزئية ، وبمتوسط حسابي (1.87) وتمثل النشرات البيئية

مصدراً مهماً وبدرجة أقل ، حيث يعتمد عليها (23%) فقط من المبحوثين بصفة دائمة ، كما يعتمد عليها نحو (35%) منهم بصفة جزئية ، وبمتوسط حسابي(1.81) ، وهناك مصادر أخرى كالندوات والمحاضرات والبرامج الإذاعية والصحف والمجلات والانترنت ، لكن اعتماد المبحوثين عليها يبدو قليلاً نسبياً ، وتؤكد هذه النتائج ما يتمتع به التلفزيون من قوة اتصالية كبيرة إذا أحسن استغلالها في توفير المعلومات البيئية وتغير سلوك المشاهدين نحو التعامل العقلاني مع المكونات والعناصر المختلفة للنظام البيئي ، كما توضح أيضاً القوة والتأثير الذي تتمتع به الكتب العلمية على القراء وإمكانية استخدامها في الإرشاد والتوعية البيئية .

جدول (2)

اعتماد مصادر المعلومات عن تلوث البيئة السياحية في مدينة إب

م	مصادر المعلومات	درجة الاعتماد عليها						المتوسط الحسابي
		دائماً		أحياناً		نادراً		
		عدد	%	عدد	%	عدد	%	
1	البرامج التلفزيونية	66	%28	86	%36	85	%35	1.91
2	الصحف والمجلات	38	%16	118	%50	81	%34	1.81

3	البرامج الإذاعية	46	%19	89	%38	102	%43	1.76
4	الكتب العلمية	64	%27	79	%33	94	%40	1.87
5	الانترنت	38	%16	70	%30	130	%54	1.62
6	الندوات والمحاضرات	50	%21	102	%43	85	%36	1.85
7	النشرات البيئية	55	%23	83	%35	99	%42	1.81

ثالثاً : نوع النفايات ودرجة انتشارها في البيئة السياحية في مدينة إب :

وفيما يتعلق بالجدول (3) بنوعية النفايات ودرجة انتشارها في المناطق السياحية في مدينة إب ، فقد اتضح كما هو مبين في الجدول أن أكثر هذه النفايات انتشاراً هو الأكياس البلاستيكية فقد أجاب (84%) بصفة كثيرة و (13%) بصفة متوسطة وبمتوسط حسابي (2.81) ، ويليها في الترتيب العلب المعدنية للمشروبات حيث بلغت النسبة (63%) كثيرة و (29%) متوسط وبمتوسط حسابي (2.54) ويليها في ذلك العلب والأطباق البلاستيكية

حيث بلغت نسبتها (46%) بصفة كثيرة و (37%) متوسطة وبمتوسط حسابي (2.29) ، وأن باقي النفايات وبمختلف أنوعها هي أقل انتشاراً في مدينة إب

جدول (3)

نوع النفايات ودرجة انتشارها في البيئة السياحية في مدينة إب

م	نوع النفايات	درجة الانتشار						المتوسط الحسابي
		كثيرة		متوسطة		قليلة		
		عدد	%	عدد	%	عدد	%	
1	أكياس بلاستيك	200	%84	30	%13	7	%3	2.81
2	العلب المعدنية للمشروبات	149	%63	69	%29	19	%8	2.54
3	زجاجات بلاستيك	98	%41	88	%37	51	%22	2.19
4	علب وأطباق بلاستيك	110	%46	87	%37	40	%17	2.29
5	مخلفات غذائية	107	%45	88	%37	42	%18	2.27
6	العبوات الزجاجية للمشروبات الغازية	106	%45	71	%30	60	%25	2.19
7	العلب الورقية للمشروبات الغازية	75	%32	102	%43	60	%25	2.06
8	مخلفات مواد البناء	81	%34	90	%38	66	%28	2.06
9	أكواب وملاعق وشوك بلاستيك	49	%21	65	%27	123	%52	1.68
10	مخلفات سيارات	99	%42	85	%36	53	%22	2.19
11	صحف ومجلات	52	%22	95	%40	90	%38	1.83
12	مخلفات مبيدات وأسمده	52	%22	77	%32	108	%46	1.76

رابعاً : عوامل الجذب السياحي في مدينة إب من وجهة نظر المبحوثين

تتمتع مدينة إب بالعديد من عوامل الجذب السياحي من وجهة نظر المبحوثين الذين شملتهم الدراسة ، وأن عوامل الجذب السياحي تمثل قوى دافعة للتنمية السياحية في هذه المدينة ، وتتمثل أهم هذه العوامل كما هو مبين في الجدول (4) في توفر أنماط سياحية متعددة من مناظر خلابة وجبال ووديان وسهول وشلالات وعيون ماء حيث بلغت نسبتها (82%) بصفة كثيرة جداً و (16%) بصفة متوفرة وبمتوسط حسابي (1.54) ، يليها فقرة توفر الجو المعتدل طوال أيام السنة والتي ذكرها (67%) من المبحوثين وبمتوسط حسابي (2.62) ثم تلتها الفقرة توفر التراث التاريخي والثقافي للمدينة والتي ذكرها (52%) من المبحوثين وبمتوسط حسابي (2.48) ويليها توفر الأسعار المناسبة لأغلب السياح والتي ذكرها (43%) من المبحوثين وبمتوسط حسابي (2.25) في حين هناك نسب متدنية ظهرت بالفقرات المتعلقة بالخدمات كما هو في الفقرة المتضمنة توفر الخدمات التي تلبي رغبات السائح كما كانت بنسبة (40%) غير متوفرة وخدمات الترويح من مدن الألعاب والمتنزهات ومهرجانات ترويحية غير متوفرة بنسبة (73%) وكذلك الخدمات الأخرى وهذا يستدعي إلى دراسة شاملة في هذا الموضوع لمعالجة هذه المشاكل في جانب الخدمات وتوفرها وجودتها لأنها تلعب دوراً كبيراً في زيادة الطلب السياحي وتكرار الزيارات من قبل السائحين وزيادة فترة إقامتهم في المناطق السياحية بشكل عام .

جدول (4)

عوامل الجذب السياحي في مدينة إب من وجهة نظر المبحوثين

م	عوامل الجذب	درجة توفرها: متوفرة كثيراً: عدد	متوفرة كثيراً: %	متوفر: عدد	متوفر: %	غير متوفر: عدد	غير متوفر: %	المتوسط الحسابي
1	توفر أنماط سياحية متعددة من مناظر خلابة وجبال ووديان وسهول وشلالات وعيون ماء .	195	%82	39	%16	3	%2	1.54
2	توفر الأمن والحماية للسائحين .	57	%24	144	%61	36	%15	2.8

3	التراث التاريخي والثقافي للمدينة .	123	%52	107	%45	7	%3	2.48
4	توفر خدمات البنية التحتية من طرق واتصالات وماء وكهرباء وغيرها .	43	%18	138	%28	56	%24	1.94
5	الجو معتدل طوال أيام السنة .	159	%67	67	%28	11	%5	2.62
6	الأسعار مناسبة لأغلب السياح .	101	%43	95	%40	41	%17	2.25
7	التنوع في خدمات الإيواء السياحي من فنادق وشقق فندقية ومطاعم متنوعة .	51	%22	123	%52	63	%27	1.94
8	توفر الخدمات التي تلبي رغبات السائح .	20	%8	122	%51	95	%40	1.68
9	وجود صناعات وحرف تقليدية كمنتجات سياحية .	46	%19	111	%47	80	%34	1.85
10	توفر خدمات الترويح (مدن العاب ،	16	%7	47	%20	174	%73	1.33

	منتزهات ، صالة العاب ، مهرجانات ترويحية) .							
11	**تكامل الخدمات وجودتها في داخل معظم المشاريع السياحية في مدينة إب .**	**9**	**%4**	**77**	**%32**	**151**	**%64**	**1.40**
12	**كثرة وتنوع الأنشطة والمهرجانات والفعاليات السياحية مما يشوق السائح .**	**20**	**%9**	**69**	**%29**	**148**	**%62**	**1.45**
13	**مواكبة المشروعات السياحية لتقنية العصر .**	**11**	**%5**	**59**	**%25**	**167**	**%70**	**1.34**

خامساً : المعوقات التي تواجه السياحة في مدينة إب :

هناك العديد من المعوقات التي تواجه السياحة وتنميتها في مدينة إب ، وتتمثل أهم هذه المعوقات من وجهة نظر المبحوثين الذين شملتهم الدراسة والموضحة في الجدول (5) ما يلي : البيئة غير النظيفة تؤثر على النشاط السياحي والتي ذكرها أغلب المبحوثين نحو (84%) بصفة أوافق بشدة و (13%) بصفة أوافق وبمتوسط حسابي (2.81) ، وتليها الفقرة البيئة السياحية الغير متعافية تساهم في انخفاض الطلب السياحي والتي بلغت نسبتها (83%) وبمتوسط حسابي (2.79) ويليه الفقرة التخطيط التنموي لكافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والداعمة للنشاطات السياحية لا تأخذ بنظر الاعتبار حماية البيئة من التلوث عند قيام مشاريعها التنموية ، حيث بلغت نسبتها (71%)وبمتوسط حسابي (2.67) ، وتشكل مثل هذه المعوقات والمعوقات الأخرى الواردة في نفس الجدول تحديات جدية للتنمية السياحية في مدينة إب ، وينبغي العمل على مواجهتها من خلال

الجهود والبرامج المشتركة بين جميع الأطراف المهتمة والمستفيدة من الأنشطة والمشروعات السياحية في مدينة إب .

جدول (5)

المعوقات التي تواجه السياحة في مدينة إب

م	المعـــوقـــات	درجة الموافقة						المتوسط الحسابي
		أوافق بشدة		أوافق		لا أوافق		
		عدد	%	عدد	%	عدد	%	
1	معظم المشاريع السياحية صغيرة الحجم .	152	%64	82	%34	3	%2	2.62
2	العشوائية في توزيع المنشآت السياحية .	153	%65	69	%29	15	%6	2.58
3	عدم تكامل الخدمات داخل المشروع الواحد في بعض المشاريع والمناطق السياحية .	143	%60	85	%36	9	%4	2.56
4	تشابه كبير من المشروعات السياحية وعدم التجديد في أفكارها .	129	%54	95	%40	14	%6	2.49
5	نقص اكتمال البنية التحتية لبعض المنشآت السياحية .	140	%59	85	%36	12	%5	2.54
6	قلة الانشطة والمهرجانات الترويحية .	148	%62	75	%32	14	%6	2.56
7	عدم وجود كوادر بحثية ومؤهلة ومتخصصة في مجال السياحة .	151	%64	63	%27	23	%9	2.54
8	عدم وجود الصناعات المدعمة والمكملة للأنشطة	127	%54	95	%40	15	%6	2.47

	الترويحية .							
9	موسمية السياحة مما يزيد من حجم المخاطرة التي يواجهها رأس المال المستثمر .	95	%40	98	%41	44	%19	2.21
10	قلة الطرق التي تربط مدينة إب بالمناطق الأخرى في الجمهورية .	50	%21	90	%38	97	%41	1.80
11	غياب الدور الإعلامي للتعريف بالسياحة والدعاية لها .	127	%54	77	%32	33	%14	2.39
12	السياحة لا تعامل كصناعة من حيث دعم الدولة لها .	110	%46	85	%36	42	%18	2.28
13	السير على طريق استنزاف البيئة السياحية مثل (قطع الأشجار ، هدر المياه ، الرعي الجائر ، والإكثار من استعمال الطاقة المولدة للغازت الضارة وإلقاء النفايات وصيد الطيور) .	139	%59	72	%30	26	%11	2.47
14	البيئة غير النظيفة تؤثر على النشاط السياحي .	199	%84	32	%13	6	%3	2.81
15	البيئة السياحية النظيفة المتعافية السليمة تساهم في زيادة الطلب السياحي .	196	%83	34	%14	7	%3	2.79
16	يؤخذ بنظر الاعتبار إحداث التوازن بين	140	%59	83	%35	14	%6	2.53

	تحقيق التنمية السياحية والمحافظة على البيئة .							
17	التخطيط التنموي لكافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والداعمة للنشاطات السياحية لا تأخذ بنظر الاعتبار حماية البيئة من التلوث عند قيام مشاريعها التنموية .	168	%71	60	%25	9	%4	2.67

<u>المبحث الرابع : الاستنتاجات والتوصيات :</u>

أولا : الاستنتاجات :

1. تبين وجود مستويات عالية نسبياً من المعلومات بين المبحوثين عن أهم الجوانب المتعلقة بالتلوث البيئي في مدينة إب ، إذ أن أغلبية المبحوثين يعرفون اغلب المعلومات المتعلقة بهذه الجوانب بدرجة عالية أو بدرجة جزئية وبالرغم من ذلك فقد تبين أيضاً أن هناك بعض المعلومات التي لاتعرفها نسب ليست بالقليلة من المبحوثين ومن أمثلة هذه المعلومات : أن المبيدات الزراعية والحشرية تبقى أكثر من 20 عام وتتبخر من التربة إلى الهواء ويحدث بالتالي التلوث الهوائي حيث بلغت نسبة المبحوثين في ذلك 46% من مجموع العينة وكذلك الغازات المنبعثة جراء إحراق النفايات تسبب أمراض (الكوليرا ، الإسهال ، والتايفوئيد ، والزحار، والتهاب الكبد والعيون) بلغت نسبتهما 34% من مجموع العينة .

ومن الواضح أن وسائل الإعلام الجماهيرية تلعب دوراً مهماً في توفير المعلومات للمبحوثين عن التلوث البيئي حيث اتضح أن البرامج التلفزيونية والكتب العلمية والنشرات البيئية قد لعبت الدور الأهم في هذا المجال وتشير هذه النتيجة إلى أهمية التركيز على هذه الوسائل في ضوء اهتمام المواطن بها في مدينة إب في توصيل المعلومات البيئية لأفراد المجتمع وحثهم على

التصرف والتعامل مع المكونات المختلفة للنظام البيئي بطريقة تتسم بالصداقة والعقلانية وبما يؤدي إلى استدامة هذه المكونات .

2. تبين وجود درجات عالية نسبياً من التلوث البيئي ممثلاً بانتشار النفايات في مدينة إب وذلك من وجهة نظر المبحوثين الذين شملتهم الدراسة ، كما أتضح أن أكثر هذه النفايات انتشاراً هي الأكياس البلاستيكية والعلب المعدنية للمشروبات ويليها علب وأطباق بلاستيكية ، وتشير هذه النتائج إلى وضوح الحاجة إلى بذل المزيد من الجهود التي يمكن أن تقوم بها البلدية لازالت المخلفات والنفايات المسببة للتلوث ، هذا بالإضافة إلى الحاجة الملحة إلى تنظيم حملات إعلامية مكثفة لتوعية المواطنين والزائرين لهذه المواقع بأهمية التخلص السليم من المخلفات والنفايات المختلفة .

3. تتمتع مدينة إب بالعديد من عوامل الجذب السياحي من وجهة نظر المبحوثين الذين شملتهم الدراسة ، وتتمثل أهم هذه العوامل :

- مناظر خلابة وجبال ووديان وسهول وشلالات وعيون ماء .
- الجو معتدل طوال أيام السنة .
- توفر التراث التاريخي والثقافي للمدينة .
- توفر الأمن والحماية للسائحين .
- الأسعار المناسبة لأغلب السياح .

وتعتبر هذه العوامل قوى دافعة للتنمية السياحية في مدينة إب فيما لو أحسن استغلالها ،وينبغي التركيز عليها في محتوى الحملات الإعلامية التي تستهدف نوعية المواطنين والزائرين لهذه المنطقة بأهمية صيانة الموارد الطبيعية والسياحية بالمنطقة والتعامل العقلاني معها والحفظ على استدامتها .

4. تبين وجود العديد من المعوقات التي تواجه التنمية المستدامة للسياحة في مدينة إب وتتمثل أهمها في:

- البيئة في إب غير نظيفة وبذلك تؤثر على النشاط السياحي .
- البيئة في إب غير متعافية تساهم في انخفاض الطلب السياحي .
- التخطيط التنموي لكافة القطاعات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية والداعمة للنشاطات السياحية لا تأخذ بنظر الاعتبار حماية البيئة من التلوث عند قيام مشاريعها التنموية .
- العشوائية في توزيع المنشآت السياحية .
- تشابه كثير من المشروعات السياحية وعدم التجديد في أفكارها .
- عدم اكتمال البنية التحتية من (طرق ، مياه ، كهرباء ،وغيرها) .
- عدم وجود كوادر بحثية ومؤهلة ومتخصصة في مجال السياحة .

- غياب الدور الإعلامي للتعريف بالسياحة والدعاية لها .
- الاستمرار في استنزاف البيئة .
- قلة الأنشطة والمهرجانات السياحية .

ثانياً : التوصيات :

بناءً على النتائج التي توصلت إليها الدراسة نوصي بما يلي :

1. التركيز على وسائل الإعلام الجماهيري كقنوات ومنافذ اتصالية فعالة في توصيل المعلومات البيئية لأفراد المجتمع وحثهم على التصرف والتعامل مع المكونات المختلفة للنظام البيئي بطريقة تتسم بالصداقة والحكمة وبما يؤدي إلى استدامة هذه المكونات .
2. قيام البلدية بإزالة المخلفات والنفايات المسببة للتلوث في المدينة .
3. توعية السياح والزائرين للمناطق السياحية بالتخلص من النفايات والمخلفات المختلفة وعدم تركها في المناطق السياحية .
4. القيام بحملات نظافة تقوم بها المؤسسات التربوية بمشاركة الطلبة في تنظيف المدينة وتوفير المستلزمات اللازمة لذلك من قبل الجهات المعنية بالنظافة .
5. إدخال التوعية البيئية كمقرر منفصل في التربية كجزء من المقررات الدراسية لطلاب المدارس بمراحلها المختلفة .
6. الاهتمام بعوامل الجذب السياحي في مدينة إب والتركيز عليها إعلامياً .
7. إنشاء صرف صحي بالمدينة لمنع تلوث الآبار.
8. إحاطة المدينة بحزام أخضر والإكثار من المسطحات الخضراء تعويضاً لما يجري من الزحف العمراني على المناطق الخضراء .
9. إنشاء مصنع لتحويل القمامة إلى سماد عضوي .
10. فرض عقوبات وغرامات على كل من يقوم بأي مخالفة بيئية وكذلك مكافئة من يلتزم بالسلوك الصديق للبيئة
11. تقليل استخدام الأكياس البلاستيكية في المحلات التجارية والتحول التدريجي إلى استخدام الأكياس الورقية والمصنوعة من القماش .
12. منع استعمال آلة التنبيه المركبات السيارات في المناطق المزدحمة .
13. إعادة تخطيط شوارع المدينة بالاتجاه الذي يحقق أسلوب الطريق وحيد الاتجاه .
14. إعداد الدراسات الخاصة بالتلوث البيئي في إب مع توفير المستلزمات لذلك والاهتمام الموضوعي بهذه الدراسات والاستفادة منها في الميدان .

15. تشجيع وتكريم ذوي الاختصاص من الأساتذة والخبراء في تصعيد نتاجهم العلمي في مجال التلوث البيئي وتكريس الحوافز المادية والمعنوية لذلك .

المصادر العربية والأجنبية :

1. الحمد ، رشيد وصابريني ، محمد سعيد ، البيئة ومشكلاتها ،سلة عالم المعرفة (22) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ،1979 ، ص11– ص23 .
2. هولي ، أم ، وآخرون ، الإنسان والبيئة ، ترجمة وتلخيص عصام عبد اللطيف ، الموسوعة الصغيرة ، العدد (39) ، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ،1979، ص10 .
3. Martn C .G : DEVELOPMENT and problems of pollution in iraq . semainar on in dustcrial devdlopment and environment pollution . Iraqi federation of in dustrios . non . 1976 . p .2 .
4. كمونه ، حيدر عبد الرزاق ، أهمية حماية البيئة من التلوث ، مجلة الصناعة ، العدد (4) ، وزارة الصناعة والمعادن ، بغداد ،1978 ،ص73 .
5. الحمد ، رشيد ، مصدر سابق ، ص21 .
6. عبد المقصود ، زين الدين ، البيئة والإنسان ، دراسة مشكلات الإنسان مع البيئة ، ط 1 ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، 1990 م ، ص 25 .
7. عبد المقصود ، نفس المصدر ، ص21 – ص26 والحمد ، رشيد ، مصدر سابق ، ص27 – ص28 .
8. صالح ، عبد الرزاق مرتضى وأحمد ، حازم صبري ، أسس الثقافة الصحية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، مؤسسة المعاهد الفنية ، بغداد ، 1982 ، ص10 .
9. المصدر نفسه ، ص11 .
10. منظمة الصحة العالمية ، صحتنا من سلامة كوكبنا ، تقرير اللجنة التابعة لمنظمة الصحة العالمية حول الصحة والبيئة ، المكتب الإقليمي لشرق المتوسط ، الإسكندرية ، ص6 – ص7 .
11. صالح ، عبد الرزاق ، مصدر سابق ، ص8 .
12. Lopes . A . D . causes of death : An A assessment of global patterns of mortality Around 1985 world Health statisties quarterly .vol . 43, 1990 p. 91 .
13. طلبة ، مصطفى كمال ، إنقاذ كوكبنا ... التحديات والأمل ، ط2،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،1995 ، ص24 .
14. منظمة الصحة العالمية ، صحتنا من سلامة كوكبنا ، مصدر سابق ، ص27 – ص28 .
15. سهيل ، موسى زناد ، سباق التسلح ونظرية الشتاء النووي ، الموسوعة الصغيرة ، العدد (317) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990، ص21 .
16. Needelman. H .L . the long . tern Effeels of Exposure to low Doses of Lead in childhood new England journal of medieine vol . 322, 1990, p .83 .

17. مولود ، بهرام خضر (وآخرون) ، علم البيئة ، وزارة التعليم والبحث العلمي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، 1992 ، ص39 ـ ص43 .
18. العزة ، شحاذة محمود ، حماية البيئة الإنسانية (أضواء وتطلعات) ، عدد خاص من نشرة الأبحاث السياحية ، وزارة السياحة والآثار ، المملكة الأردنية الهاشمية ، 1980 ، ص9 .
19. Andrews . William A and others : aguide to the study of environment . London . hall . Inc . 1972, p . 4 .
20. النقاش ، محمد حسن ، تقنيات التخطيط للسيطرة على التلوث البيئي ، مجلة الثوابت ، العدد (49) ، مطابع اليمن الحديثة للطبعة ، صنعاء ،2007 ، ص145 .
21. لافون ، روبرت ، التلوث ، ترجمة نادية القباني ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، 1977 ، ص27 وعبد المقصود ، زين الدين ، مصدر سبق ، ص189 .
22. H . M.Dix ، التلوث البيئي ، ترجمة د. كوركيس عبد أل ، جمعة البصرة ، 1988 ، ص14 .
23. العمر ، مثنى عبد الرزاق ، التلوث البيئي ، ط1 ، دار وائل للطباعة والنشر ، عمان ، 2000 ،ص19.
24. رشيد ، عبد الصامت ناجي ، الأسس التخطيطية لتوقع الصناعات الملوثة وغير الملوثة للبيئة في المدن العراقية ، رسالة ماجستير ، مركز التخطيط الحضري الإقليمي ، جامعة بغداد 1982 ، ص92 .
25. العمر ، مثنى ، عبد الرزاق ، مصدر سابق ، ص19 .
26. نفس المصدر ، ص20 .
27. النقاش ، محمد حسن ، التنمية السياحية ، ط1، اليمني للطباعة ، إب ، 2010 ، ص109 ـ ص113 .
28. النقاش ، محمد حسن ، تقنيات التخطيط ، مصدر سابق ، ص1 .
29. عبد المقصود ، زين الدين ، مصدر سابق ، ص187 .
30. النقاش محمد حسن ، مصدر سابق ، ص1 .
31. رشيد ، عبد الصاحب ناجي ، مصدر سابق ، ص18 .
32. عبد المقصود ، زين الدين ، مصدر سابق , ص187 .
33. عبد المقصود ، زين الدين ، نفس المصدر ، ص202 .
34. نفس المصدر ، ص200 .
35. التميمي ، كنعان عمران (وآخرون) ، أساسيات المعرفة البيئية ، دائرة حماية وتحسين البيئة ، بغداد ،2001 ، ص36 .
36. عبد الجواد ، أحمد عبد الوهاب ، النفايات الخطرة ، ط1 ، سلسلة دائرة المعارف البيئية ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1992 ، ص59 ، والتلوث بالمبيدات الكيماوية ، نشرة المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية ، العدد العشرون ، أمانة المنظمة ، ابريل ، 1989 ، ص23 .
37. النقاش ، محمد حسن ، تقنيات التخطيط ، ص156 ـ ص157 .
38. عبد الجواد ، أحمد عبد الوهاب ، ص21 ـ ص22 ، ويونج ، جون . أ . ، الاستفادة من النفايات ، ترجمة شويكار زكي ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1994 ، ص14 ـ ص17 .
39. العزة ، شحاذه محمود ، مصدر سابق ، ص20 .
40. العمر ، مثنى عبد الرزاق ، مصدر سابق ، ص173 ـ ص 174 .

41. لطيف ، باسل عبد الجبار ، تلوث البيئة والسيطرة عليه ، دار الحكمة ، بغداد ، 1990 ، ص144 ـ ص155 .
42. عبد المقصود ، زين الدين ، مصدر سابق ، ص244 .
43. أحمد ، أحمد شهاب ، ومهدي ، علي صالح ، الأسمدة الكيماوية وأثرها البيئي ، دائرة حماية وتحسين البيئة ، بغداد ، 2001 ، ص8 .
44. النقاش ، محمد حسن ، تقنيات التخطيط ، مصدر سابق ، ص56

الجمهورية اليمنية
جامعة إب
كلية التجارة والعلوم الادارية
قسم السياحة وإدارة الفنادق

استمارة استبيان

موضوع البحث (التلوث البيئي وأثره على البيئة السياحية في مدينة إب)

عزيزي المواطن / عزيزتي المواطنة : يعتزم الباحث إجراء دراسة ميدانية الغرض منها دراسة التلوث البيئي وأثره على البيئي وأثره على البيئة السياحية في مدينة إب ، ولذا نرجو الإجابة عن جميع أسئلة الاستمارة بصورة دقيقة وصحيحة لان مساهمتك في الإجابة هام وضروري في إنجاح هذا البحث مع العلم أن كافة البيانات التي سترد في هذه الاستمارة ستبقى سرية ولا تستخدم إلا لأغراض علمية بحتة .

مع خالص الشكر والتقدير

الباحث :
د/ محمد حسن النقاش
رئيس قسم السياحة وإدارة الفنادق
كلية التجارة والعلوم الإدارية ـ جامعة إب

ضع علامة (/) في الحقل المناسب الذي تختاره وباعتماد معلوماتك الخاصة

م	أولاً : أهم العوامل المتعلقة بتلوث البيئة السياحية في إب .	أعرف تماما	اعرف إلى حد ما	لا أعرف
1	يعد موضوع التلوث البيئي من المواضيع المهمة التي شغلت فكر واهتمام العلماء والباحثين .			
2	الإنسان سبب التلوث وضحيته .			
3	المركبات والدراجات النارية من أهم مصادر التلوث في الهواء.			
4	عوادم (دخان) المركبات والدراجات النارية تسبب مرض السرطان .			
5	الغازات والجسيمات الناتجة من الصناعات التي تعرض الإنسان لخطر الاختناق.			
6	الغازات المنبعثة من جراء إحراق النفايات تسبب أمراض (الكوليرا ، الإسهال ، التايفوئيد ، الزحار، التهاب العيون ..).			
7	إن المبيدات الزراعية والحشرية تبقى أكثر من (20) عام وتتبخر من التربة إلى الهواء ويحدث بالتالي التلوث الهوائي .			
8	ملوثات الهواء تسبب أمراض منها (أمراض الجهاز التنفسي ، الزكام ، السعال ، الجهاز العصبي ، أمراض القلب ، تهيج العيون ، سرطان الرئة ، سرطان الجلد) وغيرها من الأمراض .			
9	التلوث الهوائي يؤثر على أنسجة أوراق النباتات والأشجار والمادة الخضراء بها مما يؤدي إلى ذبول وموت النباتات أو بطئ عملية نموها .			
10	الصناعات أخطر مسببات التلوث للماء لأن أغلب الصناعات تحتاج إلى الماء كمادة أولية ، أو استخدامه لأغراض التبريد أو غسل المواد أو تخفيفها ، وان نفايات الصناعات السامة تعود مباشرة من التربة إلى المياه الجوفية .			
11	تسرب المياه من المجاري الصحية أو من خزانات المياه القذرة يساهم في تلوث المياه الجوفية .			
12	ما يطرح الإنسان من أوساخ ودهون ومنظفات وأملاح ذائبة ومواد عالقة كذلك فضلات الفنادق والمستشفيات والمدارس والكليات والسجون وغيرها من الأبنية العامة ، بالإضافة إلى مياه الأمطار ، تسبب تلوث التربة وبالتالي تلوث المياه الجوفية .			
13	تتعرض المياه الجوفية للتلوث نتيجةً استخدام			

	الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية بشكل عشوائي .			
14	استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية بكميات كبيرة يؤدي إلى زيادة التدهور في خصوبة التربة وربما يؤدي إلى التصحر .			
15	إن ملوثات الماء تسبب أمراض (التايفوئيد ، الديزنتري ، التهاب الكبد ، شلل الأطفال ، أمراض السرطان) وغير ذلك من الأمراض) .			
ثانيا : اعتمادك على مصادر المعلومات عن تلوث البيئة السياحية في مدينة إب .		دائماً	أحيناً	نادراً
1	البرامج التلفزيونية			
2	الصحف والمجلات			
3	البرامج الإذاعية			
4	الكتب العلمية			
5	الانترنت			
6	الندوات والمحاضرات			
7	النشرات البيئية			

ثالثا : في ضوء معلوماتك بنوع النفايات ودرجة انتشارها في المناطق السياحية المختلفة في مدينة إب		كثيرة	متوسطة	قليلة
1	أكياس بلاستيك			
2	العلب المعدنية للمشروبات			
3	زجاجات بلاستيك			
4	علب وأطباق بلاستيك			
5	مخلفات غذائية			
6	العبوات الزجاجية للمشروبات الغازية			
7	العلب الورقية للمشروبات الغازية			
8	مخلفات مواد البناء			
9	أكواب وملاعق وشوك بلاستيك			
10	مخلفات سيارات			
11	صحف ومجلات			
12	مخلفات مبيدات وأسمده			
رابعا : عوامل الجذب السياحي من وجهة نظرك في مدينة إب .		متوفر كثيرا	متوفر	غير متوفر
1	توفر أنماط سياحية متعددة من مناظر خلابة وجبال ووديان وسهول وشلالات وعيون ماء .			
2	توفر الأمن والحماية للسائحين .			

3	التراث التاريخي والثقافي للمدينة .			
4	توفر خدمات البنية التحتية من طرق واتصالات وماء وكهرباء وغيرها .			
5	الجو معتدل طوال أيام السنة .			
6	الأسعار مناسبة لأغلب السياح .			
7	التنوع في خدمات الإيواء السياحي من فنادق وشقق فندقية ومطاعم متنوعة .			
8	توفر الخدمات التي تلبي رغبات السائح .			
9	وجود صناعات وحرف تقليدية كمنتجات سياحية .			
10	توفر خدمات الترويح (مدن العاب ، منتزهات ، صالة العاب ، مهرجانات ترويحية)			
11	تكامل الخدمات وجودتها في داخل معظم المشاريع السياحية في مدينة إب .			
12	كثرة وتنوع الأنشطة والمهرجانات والفعاليات السياحية مما يشوق السائح .			
13	مواكبة المشروعات السياحية لتقنية العصر .			
خامسا : المعوقات التي تواجه السياحة في مدينة إب .		أوافق بشدة	أوافق	لا أوافق
1	معظم المشاريع السياحية صغيرة الحجم .			
2	العشوائية في توزيع المنشآت السياحية .			
3	عدم تكامل الخدمات داخل المشروع الواحد في بعض المشاريع والمناطق السياحية.			
4	تشابه كبير من المشروعات السياحية وعدم التجديد في أفكارها .			

5	نقص اكتمال البنية التحتية لبعض المنشآت السياحية .			
6	قلة الانشطة والمهرجانات الترويحية .			
7	عدم وجود كوادر بحثية ومؤهلة ومتخصصة في مجال السياحة .			
8	عدم وجود الصناعات المدعمة والمكملة للأنشطة الترويحية .			
9	موسمية السياحة مما يزيد من حجم المخاطرة التي يواجهها رأس المال المستثمر .			
10	قلة الطرق التي تربط مدينة إب بالمناطق الأخرى في الجمهورية .			
11	غياب الدور الإعلامي للتعريف بالسياحة والدعاية لها .			
12	السياحة لا تعامل كصناعة من حيث دعم الدولة لها			
13	السير على طريق استنزاف البيئة السياحية مثل (قطع الأشجار ، هدر المياه ، الرعي الجائر ، والإكثار من استعمال الطاقة المولدة للغازت الضارة وإلقاء النفايات وصيد الطيور) .			
14	البيئة غير النظيفة تؤثر على النشاط السياحي .			
15	البيئة السياحية النظيفة المتعافية السليمة تساهم في زيادة الطلب السياحي .			
16	يؤخذ بنظر الاعتبار إحداث التوازن بين تحقيق التنمية السياحية والمحافظة على البيئة .			
17	التخطيط التنموي لكافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والداعمة للنشاطات السياحية لا تأخذ بنظر الاعتبار حماية البيئة من التلوث عند قيام مشاريعها التنموية .			

نظم المعلومات المالية الالكترونية للمصارف التجارية في فلسطين : العقبات والمخاطر- دراسة ميدانية على المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم

د. عمر محمود أبو عيدة
أستاذ الاقتصاد المساعد
قسم الاقتصاد كلية العلوم الإدارية والاقتصادية
جامعة القدس المفتوحة / فرع طولكرم
فلسطين

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف إلى طبيعة المخاطر التي تهدد أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية في المصارف التجارية العاملة في فلسطين / مدينة طولكرم، وأسباب حدوثها ، وكذلك التعرف إلى إجراءات الحماية التي تتبعها المصارف التجارية للحد من هذه المخاطر والسيطرة عليها. أجري البحث على عينة قوامها 118 مفردة من العاملين في المصارف في مدينة طولكرم حيث توزعت العينة على الموظفين الذين لهم علاقة مباشرة في نظم المعلومات المالية المصرفية. اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي حيث تؤكد نتائج التحليل أن المصارف العاملة في مدينة طولكرم والتي شملت في عينة البحث قادرة على السيطرة على أسباب حدوث مخاطر نظم المعلومات المالية المصرفية وخاصة الداخلية منها بسبب إتباعها جملة من الإجراءات الإدارية والفنية والتي تعتبر قادرة على إبقاء مستوى المخاطر وحدوثها متدني جداً. كما تبين من التحليل أن المصارف تتبع إجراءات حماية صارمة وفعالة مما يعطيها الثقة الكاملة بنظم معلوماتها المصرفية ويكسبها الثقة اللازمة من قبل عملاءها . ومن أهم التوصيات التي تم اقتراحها ضرورة قيام الادارة العليا للمصارف بدعم أمن المعلومات لديها وأن تعمل على إنشاء قسم خاص بتكنولوجيا المعلومات في كافة المصارف وتوفير كادر متخصص في تكنولوجيا المعلومات.

Electronic Financial Information Systems for Commercial Banks in Palestine: Obstacles and Risks - A Field Study On The Commercial Banks Working in Tulkarm City

Abstract

The present research aimed to identify the nature of risks that threaten security of the commercial banking computerized financial information system in the banks working in Tulkarm city / Palestine and their causes , and also to identify the preventive measures taken by the banks in order to minimize the given risks and managed them probably .A sample of 118 bankers have been tested , the results revealed that the banks are well capable in managing the causes behind the occurrences of banking financial information system risks especially the internal ones as a consequence of management and technical actions are followed by the banks. Such results prove the capability of the banks in keeping the degree of risks and the possibility of it occurrence very low. The second main result of the research revealed that the banks follow very stricket and effective security measures which give absolute confidence in the computerized banking financial information system .The main recommendation of the research is that the banks must support their financial information system at its highest administration level by establishing special information technology department in all the banks and supply such department with a well - qualified and specialized man power in information technology.

المقدمة

لقد أحدث عصر العولمة وتقنية المعلومات ألحديثه نقله نوعية في التعامل التجاري فمع ازدياد حجم المعلومات التي يجب أن تخزن وتعالج ازدادت رغبة المصارف في اقتناء وتطبيق أحدث النظم والبرامج الالكترونية من خلال استخدام الحاسب الآلي لأداء العديد من الوظائف بوقت سريع وكفاءة عالية ، فكانت المصارف من أولى القطاعات التي تنبهت لأهمية هذه التقنيات ألحديثه وسعت بشتى الطرق والوسائل لاستخدام نظم المعلومات التي أحدثت تغيير شامل على البيئة المصرفية، فتحولت من استخدام النظم اليدوية إلى استخدام نظم المعلومات المحوسبة وأخذت تؤهل نفسها والعاملين ببيئتها بشكل يمكنهم من مجاراة هذه البيئة المتطورة في طابعها. وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي الهائل إلا انه يحمل في طياته العديد من المخاطر التي تهدد أمن المعلومات ونظمها الالكترونية التي قد تتمثل بالمخاطر الخارجية مثل الاختراقات، أو المخاطر الداخلية من قبل العاملين فيها لعدم توافر الخبرات الكافية، لذا فحماية هذه النظم والحفاظ عليها يشكل تحد بحد ذاته، ولا يكون ذلك ممكنا إلا من خلال تحديد العقبات والمخاطر التي تواجه النظم المالية الإلكترونية المصرفية المعمول فيها، وأسباب حدوث هذه المخاطر.

وعليه وبهدف التعرف على هذه العقبات وأسباب حدوثها واختبار نموذج البحث فلقد تم تقسيم البحث إلى المحاور الآتية:

المحور الأول: خطة البحث

المحور الثاني: الإطار النظري للبحث

المحور الثالث: الدراسات السابقة

المحور الرابع: الطريقة والإجراءات

المحور الخامس: اختبار الفرضيات ومناقشة النتائج

المحور السادس: النتائج والتوصيات

المحور الأول: خطة البحث

أولا: مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث الأساسية في العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية في المصارف التجارية وما هي الإجراءات الكفيلة بحماية هذه النظم من الاختراقات والتهديدات المحيطة بها ، فمن المعروف أن نظام المعلومات يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية: (مدخلات ، معالجات ، مخرجات) ، وإذا لم يتم ضبط هذه المكونات الثلاثة من خلال

الأدوات الرقابية المتعددة فمن الممكن أن يتعرض نظام المعلومات المالي الالكتروني للاختراق، ومن ثم سرقة أو تسرب بعض المعلومات المهمة لجهات غير مرغوب فيها، وبالتالي فقدان مخرجات النظام مصداقيتها إذا ما كانت مدخلات النظام غير صحيحة ، وهذا قد يؤثر إلى حد كبير على مصداقية النظام لدى المصارف التجارية والمتعاملين معها على حد سواء إذا ما تسربت بعض المعلومات المهمة. وتكمن مشكلة هذا البحث في المحاولة على التعرف إلى أهم المخاطر التي تهدد أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية في المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم / فلسطين و أسباب حدوثها، و كذلك إجراءات الحماية التي تتبعها المصارف للحد من المخاطر التي تهدد نظم المعلومات المالية.ووفقا لهذا الطرح فانه يمكن وضع مشكلة البحث على شكل التساؤلات الآتية:

(1) ما هي العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية في المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم؟

(2) ما هي الأسباب التي تؤدي إلى حدوث مثل هذه العقبات والمخاطر؟

(3) ما هي السبل التي يجب على المصارف التجارية أن تتبعها من اجل تخطي هذه العقبات والمخاطر؟

ثانيا: أهمية البحث

تنبع أهمية البحث وبشكل رئيسي من أهمية الأهداف التي تسعى المصارف التجارية إلى تحقيقها بواسطة إتباع نظم المعلومات المالية كما يعد تطبيق واستخدام نظم المعلومات المالية المصرفية مواكبة للتطور التكنولوجي الحاصل والممتد إلى جميع مجالات الحياة العصرية. لذا فإن إيجاد طريقة أو آلية لحماية هذه النظم من قبل المصارف والمؤسسات المستخدمة لها بشكل واسع سوف يساعد المصارف على زيادة درجة المصداقية في تعاملاتها ونيلها الثقة اللازمة لرفع قدرتها التنافسية من خلال زيادة الكفاءة، والفاعلية، والأمان الخاصة بالتعاملات المالية. كما أن الكشف عن هذه العقبات وسبل علاجها سوف يشجع مؤسسات أخرى على مسايرة التقدم التقني الحاصل في تكنولوجيا المعلومات والقيام بالاستثمار فيه وتطبيقه مما يعني بأكثر من مقياس التقدم والتطور لهذه المؤسسات ولمسيرة التنمية الاقتصادية المستدامة، وبالتالي تحقيق عوائد كبيرة تساهم في تنمية الاقتصاد الوطني في شتى المجالات. وبما أن النظام المالي يعد العمود الفقري للنشاط المصرفي فإن تقويته وتقويمه سيساهم بشكل كبير في حماية المصارف ونموها بشكل أكثر فاعلية.

ثالثا:أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق عدد من الأهداف والتي يمكن إجمالها كالآتي:

1- التعرف إلى طبيعة المخاطر التي تهدد أمن نظم المعلومات المالية المحوسبة في المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم.

2- التعرف إلى أسباب حدوث المخاطر والمشاكل التي تواجه نظم المعلومات المحوسبة المعمول بها في المصارف التجارية العاملة بمدينة طولكرم.

3- التعرف إلى إجراءات الحماية التي تتبعها المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم للحد من المخاطر التي تهدد نظم المعلومات المالية المحوسبة.

4- تقديم المقترحات والتوصيات التي من شأنها أن تساهم في إيجاد الحلول المناسبة للمخاطر وأسباب حدوثها ومعالجتها.

رابعا: فرضيات البحث

(1) لا يوجد علاقة ذات دلاله إحصائية عند مستوى دلالة=0.05 بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية المحوسبة للمصارف العاملة في مدينة طولكرم وأسباب هذه المخاطر.

(2) لا يوجد علاقة ذات دلاله احصائيه عند مستوى دلاله=0.05بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية المحوسبة و إجراءات الحماية المتبعة من قبل المصارف للحفاظ عليها .

خامسا: سؤال البحث

يمكن حصر سؤال البحث بإيجاد أجوبة للسؤال الآتي:

- **ما هي العقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية المحوسبة في المصارف التجارية العاملة بمدينة طولكرم ؟**

سادسا: منهجية البحث

في ضوء طبيعة الدارسة والبيانات المراد الحصول عليها استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يصف الظاهرة كما هي في الواقع ويعبر عنها تعبيرا كميا وكيفيا بحيث يؤدي ذلك إلى الوصول إلى فهم لعلاقات هذه الظاهرة إضافة إلى الوصول إلى استنتاجات وتعميمات تساعد في تطوير الواقع المدروس(أبو علام، 1998).

سابعا: محددات الدراسة

يتحدد هذا البحث في دراسة العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية المصرفية في المصارف العاملة بمدينة طولكرم. هذا بالإضافة إلى الصعوبات التي واجهت الباحث بالحصول على البيانات اللازمة للبحث لما تتميز به هذه المعلومات من الأهمية والخصوصية بالنسبة للمصارف على وجه التحديد.

ثامنا:مصطلحات البحث

النظام System:من المعروف بأن النظام يتكون من عدة عناصر مرتبطة مع بعضها البعض وذلك لتأدية وظيفة معينة أو عدة وظائف ، وبغض النظر إن كان ذلك النظام محوسبا أم لا ، فدوما تحكمه سياسات وإجراءات يتم إتباعها بشكل روتيني ، كما تتم مراقبة تلك الإجراءات من قبل المسؤول عن النظام للتأكد من عدم وجود أي اختراقات للسياسات الموضوعة. (طراد ، 2002 ، ص 142).

نظام المعلومات Information System: يعد نظام المعلومات المصدر الأساسي لتزويد الإدارة بالمعلومات المناسبة لعملية اتخاذ القرار الإداري. ويعرّف نظام المعلومات " بأنه مجموعة من المكونات المربوطة مع بعضها البعض بشكل منتظم من اجل إنتاج المعلومات المفيدة ، وإيصال هذه المعلومات إلى المستخدمين بالشكل الملائم ، والوقت المناسب ، من أجل مساعدتهم في أداء الوظائف الموكلة إليهم(صيام ، 2002 ،ص 57).
نظم المعلومات المالية Financial Information Systems:هو ذلك الجزء الأساسي والهام من نظام المعلومات الإداري في المؤسسة الذي يقوم بحصر وتجميع البيانات المالية من مصادر خارج وداخل المؤسسة ثم يقوم بتشغيل البيانات وتحويلها إلى معلومات ماليه مفيدة للمستخدمين من داخل أو خارج المؤسسة (الحسيني والدوري، 2003 ،ص 187).

المحور الثاني: الإطار النظري للبحث

أولا: ماهية نظام المعلومات

أصبحت معظم المؤسسات المالية وغير المالية تعتمد اعتماد واسع على استخدام نظم المعلومات المحوسبة ، حيث أثبتت الدراسات في هذا المجال أن عدداً من هذه المؤسسات قد نجح في حين قد تعرض العديد منها إلى المشاكل والمخاطر، وهذه المخاطر عزيت إلى عوامل محددة لم تأخذ بالحسبان من قبل منظمات الأعمال، والمصممين، والمستخدمين لهذه النظم. (Bruwer,1984p 63) وفي هذا السياق أشار (Robey,1979,p19) إلى

أن نظام المعلومات يمكن أن يواجه مشاكل ومخاطر متى ما كان هناك إهمال لردود فعل المستخدم والعوامل التنظيمية المحيطة. وأن معايير نجاح النظام قد تختلف من مؤسسة إلى أخرى وان هناك مميزات عامة تصف النظام ألمعلوماتي الناجح وهي الدقة، وصحة النظام، والاستقلالية، والاستخدام الشامل من قبل جميع المعنيين، إذ أن وجود هذه المميزات تدعم النظام وترفع من جودته، ومن ثم يساعد المؤسسات على رفع جودتها وكفاءتها الإجمالية (السالمي، 1999 ، ص 17). أما فشل النظام أو تعرضه للمشاكل والصعوبات يعود إلى عدم استخدامه بطريقة فعالة، وكذلك إلى مشاكل في التصميم ،والبيانات، والتكاليف، والتشغيل.(سلطان،2000 ،ص 409) أما نجاح النظام فيعني أن يكون نظام المعلومات ذو جودة عالية يقوم بتحقيق جميع الأهداف والمتطلبات للمؤسسات والمستفيدين بشكل يغطي جميع إجراءات العمل المطلوبة الحالية والمستقبلية، ويعمل بتقنية صحيحة بدون أخطاء، وأن يكون سهل الصيانة والتطوير (عيسى والنائب، 2002 ص 1).
ويواجه تطبيق نظام المعلومات الناجح مجموعة من الصعوبات، ومن أهمها: (السامرائي والزعبي، 2004 ،ص 61).

1 - التطور التكنولوجي وما يرافقه من عدم واقعية التوقعات في مستقبل التكنولوجيا.
2 - صعوبة البناء والتطوير والتعديل المستند إلى تكنولوجيا المعلومات.
3 - صعوبة التكامل بين النظم المستندة إلى تكنولوجيا المعلومات.
4 - صعوبة التنبؤ بالنتائج المستقبلية لتطبيق نظام المعلومات في المؤسسات.

مما تقدم يتضح بأن نظم المعلومات المالية كغيرها من العلوم الأخرى محكومة بنظام خاص بها ، يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية: المدخلات، والمعالجة، والمخرجات. وكأي نظام آخر تحكمه عدة سياسات وإجراءات صارمة لا يجوز تجاوزها لأي سبب كان وبغض النظر عن حوسبة النظام من عدمه فنظام المعلومات المالي يمثل ذلك الجزء الأساسي والهام من نظام المعلومات الإداري في المؤسسة الذي يقوم بحصر وتجميع البيانات المالية من مصادر خارج وداخل المؤسسة ثم يقوم بتشغيل البيانات وتحويلها إلى معلومات ماليه مفيدة للمستخدمين من داخل أو خارج المؤسسة. ومن المفاهيم التي يمكن الاستدلال بها في هذا المجال ذلك الذي قدمه ذبيان على انه "نظام فرعي للمعلومات داخل المؤسسة يتكون من مجموعه من إمكانيات أليه وبشريه مسئولة عن توفير المعلومات التي يتم الحصول عليها من تشغيل البيانات التاريخية، ومساعدة الإدارة وفئات أخرى في عملية التخطيط والرقابة واتخاذ القرارات"(ذبيان ،1986،ص 105)

ثانيا:مكونات ووظائف نظام المعلومات المالي الإلكتروني المصرفي
الجدول الآتي يوضح المكونات والوظائف الأساسية لنظام المعلومات المالي الإلكتروني المصرفي
الجدول رقم(1)مكونات ووظائف نظام المعلومات المالي الإلكتروني المصرفي

مكونات نظام المعلومات المالي الإلكتروني المصرفي	وظائف نظام المعلومات المالي الإلكتروني المصرفي
1- الأشخاص المديرين للنظام	1- تجميع المعلومات والتأكد من صحتها
2- الخطوات والإجراءات اليدوية أو الآلية	2- تصنيف هذه البيانات وترتيبها في ملفات وفقا لأسس معينه فمثلا يتم ترتيب البيانات الخاصة بحسابات العملاء وفقا لرقم العميل
3- البيانات	3- تلخيص البيانات ويتم بهذه العملية عرض البيانات المجمعة في تقرير واحد فمثلا يتم تلخيص الإيداعات في الحسابات الجارية يوميا في تقرير واحد
4- البرمجيات المستخدمة لتشغيل البيانات	4- تخزين البيانات وبهذا يتم حفظ البيانات في ملفات خاصة تمهيدا لاستخدامها في الوقت المناسب مستقبلا
5- البنية التحتية لتكنولوجيا المعلومات	

المصدر: تم إعداده من قبل الباحث

ثالثا: المخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية
تعتبر نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة من النظم التي تواجه العديد من المخاطر التي قد تؤثر على تحقيق أهداف تلك النظم، وذلك نظراً

لاعتمادها على الحاسوب، حيث تزامن التطور الكبير للحاسبات وأنظمة المعلومات مع التطور في تكنولوجيا المعلومات وسرعة انتشار هذه المعلومات واستخدامها إلكترونيا، ولقد صاحب هذا التطور في استخدام المعلومات الإلكترونية العديد من المخاطر والمشاكل التي تؤثر على أمن المعلومات سواء كانت تلك المخاطر مقصودة أم غير مقصودة . وتعتبر المخاطر المقصودة أشد خطرا على أداء و فاعلية نظم المعلومات .وتكمن خطورة مشاكل أمن المعلومات في عدة جوانب منها تقليل أداء الأنظمة الحاسوبية،أو تلفها بالكامل، مما يؤدي إلى تعطيل الخدمات الحيوية للمصرف ، أما الجانب الآخر فيشمل سرية وتكامل المعلومات حيث قد يؤدي الاطلاع والتصنت على المعلومات السرية أو تغييرها إلى خسائر مادية أو معنوية كبيرة. ويمكن تصنيف المخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية المحوسبة بشكل عام إلى أربعة أصناف رئيسة:

أ- مخاطر المدخلات

وهي المخاطر التي تتعلق بأول مرحلة من مراحل النظام وهي مرحلة إدخال البيانات إلى النظام الآلي وتتمثل تلك المخاطر في البنود الآتية:

1-الإدخال غير المتعمد (غير المقصود) لبيانات غير سليمة بواسطة الموظفين.

2-الإدخال المتعمد(المقصود)لبيانات غير سليمة بواسطة الموظفين.

3-التدمير غير المتعمد للبيانات بواسطة الموظفين.

4-التدمير المتعمد المقصود للبيانات بواسطة الموظفين.

ب- مخاطر تشغيل البيانات

وهي المخاطر التي تتعلق بالمرحلة الثانية من مراحل النظام وهي مرحلة تشغيل ومعالجة البيانات المخزنة في ذاكرة الحاسب وتتمثل تلك المخاطر في البنود الآتية:

1-الوصول غير الشرعي(غير المرخص به) للبيانات والنظام بواسطة الموظفين.

2-الوصول غير الشرعي للبيانات والنظام بواسطة أشخاص من خارج المصرف.

3-اشتراك العديد من الموظفين في نفس كلمة السر.

4- استخدام الفيروسات وإدخالها على النظام المالي والتأثير على عملية تشغيل بيانات النظام.

5-اعتراض وصول البيانات من أجهزة الخادم إلى أجهزة المستخدمين.

ج- مخاطر مخرجات الحاسب

تتعلق تلك المخاطر بمرحلة مخرجات عمليات معالجة البيانات وما يصدر عن هذه المرحلة من قوائم للحسابات أو تقارير وأشرطة ملفات ممغنطة وكيفية استلام تلك المخرجات وتتمثل تلك المخاطر في البنود الآتية:

1- طمس أو تدمير بنود معينة من المخرجات.

2-خلق مخرجات زائفة /غير صحيحة.

3-سرقة البيانات /المعلومات.

4-عمل نسخ غير مصرح بها من المخرجات.

5-الكشف غير المرخص به للبيانات عن طريق عرضها على شاشات العرض أو طباعتها.

6-طبع وتوزيع المعلومات بواسطة أشخاص غير مصرح لهم بذلك.

7-المطبوعات والمعلومات الموزعة يتم توجيهها بشكل خاطئ إلى أشخاص غير مخولين باستلام مثل هذه النسخ.

8-تسليم المستندات الحساسة إلى أشخاص لا تتوافر فيهم الناحية الأمنية بغرض تمزيقها أو التخلص منها.

د- مخاطر بيئية

وهي المخاطر التي تحدث بسبب عوامل بيئية، مثل: الأخطار المتعلقة بأعطال الكهرباء، والحريق، أو مثل التي تسببها الكوارث الطبيعية كزلازل ،والعواصف، والفيضانات، والأعاصير، وهذه المخاطر سواء كانت تلك الكوارث طبيعية أم غير طبيعية فإنها قد تؤثر على عمل النظام المالي وقد تؤدي إلى تعطل عمل التجهيزات والتسبب في توقفها لفترات طويلة مما يؤثر على أمن وسلامة نظم المعلومات المالية المحوسبة.

رابعا: أسباب حدوث المخاطر التي تهدد نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة

1- أسباب تتعلق بموظفي المصرف، نتيجة لقلة الخبرة والوعي والتدريب ومن أهمها:

- عدم توافر الخبرة اللازمة والتدريب الكافي والخلفية العلمية والمهارات المطلوبة لتنفيذ الأعمال من قبل موظفي البنك .
- عدم إلزام الموظفين بأخذ إجازتهم الدورية.
- عدم الاهتمام الكافي بفحص التاريخ الوظيفي والمهني للموظفين الجدد.
- عدم الاهتمام بدراسة المشاكل الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية لموظفي البنك.

-عدم الوعي الكافي لدى الموظفين بضرورة فحص البرامج أو الأقراص الممغنطة الجديدة عند إدخالها إلى أجهزة الكمبيوتر.

2- أسباب تتعلق بإدارة المصرف، نتيجة لعدم وجود سياسات واضحة ومكتوبة، وضعف الإجراءات والأدوات الرقابية المطبقة ومن أهمها:

- عدم كفاية وفعالية الأدوات والضوابط الرقابية المطبقة في المصرف.

-اشتراك بعض الموظفين في استخدام نفس كلمة السر.

-عدم الفصل بين المهام والوظائف المالية المتعلقة بنظم المعلومات الإلكترونية.

-عدم وجود سياسات وبرامج محددة ومكتوبة لأمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية بالمصرف.

-عدم توفر الحماية الكافية ضد مخاطر فيروسات الكمبيوتر في المصرف.

-ضعف وعدم كفاءة النظم الرقابية المطبقة على مخرجات الحاسب الآلي.

-عدم التوصيف الدقيق للهيكل الوظيفي والإداري الذي يحدد المسؤوليات والصلاحيات لكل شخص داخل الهيكل التنظيمي للمصرف.

خامسا: إجراءات حماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

1- تقوم إدارة المصرف بإصدار قرارات إدارية خاصة لتجنب مخاطر أمن المعلومات.

2- تتابع إدارة المصرف موظفي تكنولوجيا المعلومات في تنفيذ إجراءات الحماية المطلوبة.

3- تقوم إدارة المصرف بوضع قواعد خاصة لحماية أمن المعلومات ومعاقبة الموظفين المخلين بالقواعد.

4- تقوم إدارة المصرف بوضع خطة حماية شاملة ومعمقة تشمل إغلاق منافذ الاختراق، والتدقيق في الإجراءات الداخلية، والاحتفاظ بنسخة احتياطية من المعلومات يمكن الرجوع إليها وقت الحاجة.

5- تقوم إدارة المصرف بصد الاختراق عند حدوثه وإصلاح الخلل الناتج عنه.

6- تقوم إدارة المصرف بتحليل المخاطر الخاصة بأمن المعلومات مثل العائد المتوقع مقابل تكاليف الإجراءات المضادة.

المحور الثالث: الدراسات السابقة

اتضح للباحث أثناء البحث عن الدراسات السابقة أن موضوع البحث يفتقر إلى الدراسات السابقة على مستوى المصارف العاملة في فلسطين ، وعليه فإن أهم الدراسات التي تناولت موضوع البحث تتبع إلى البيئة المصرفية والتجارية العربية وكذلك إلى البيئة الأجنبية. وسوف يتم التركيز في هذا

المحور من البحث على مجموعة من الدراسات التي يمكن من خلالها تأطير مشكلة البحث وتدعيمها من جميع الجوانب.

أولا: الدراسات العربية

ففي دراسة (الكخن ،1988) تناولت الرقابة المالية في ظل الأنظمة الإلكترونية وتطبيقاتها في المصرف المركزي الأردني. هدفت الدراسة إلى تتبع الإجراءات الرقابية المتبعة في دائرة الحاسوب في المصرف المركزي الأردني ، وفي نظامه المالي الإلكتروني ، ومقارنتها بالإجراءات الرقابية التي يجب أن تتبع ، ومن أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة أن الإجراءات الرقابية المالية المتبعة في دائرة الحاسوب في المصرف المركزي الأردني وفي نظامه المالي الإلكتروني تعد كافية لتحقيق الدقة والسرعة في المعلومات المستخرجة نتيجة لمعالجة البيانات المدخلة وفقا لإجراءات رقابية واضحة ومحددة ، وأن إجراءات الرقابة على التطبيقات كافية وجيدة وتضمن دقة وصحة للمعلومات المستخرجة نتيجة معالجة البيانات المدخلة إلى النظام بشكل دقيق وجيد. كما أوصت الدراسة بضرورة الحاجة إلى استكمال بعض نواقصها ، ولا سيما انه لم يتوفر قسم تدقيق داخلي مؤهل لمتابعة هذه الإجراءات.

وفي مراجعة للأنظمة المالية التي تعتمد على استخدام الحاسوب هدفت دراسة (جاموس، 1991) إلى التعرف على نظم المعلومات المالية الآلية ، وعملية تدقيقها بالتركيز على استخدام الحاسوب بوصفه وسيلة أساسية لتنفيذ عملية التدقيق. حيث بينت الدراسة أن عملية التدقيق التي يتبعها مدققو الجهاز المركزي للرقابة المالية في سوريا لا ترتقي إلى مستوى معقول من التطور في الاستخدام. كما أكدت نتائج الدراسة عدم وجود إدارات متكاملة تختص بالحاسوب في اغلب الشركات التي شملتها عينة الدراسة، وكشفت الدراسة عن أن جميع أجهزة الحاسوب التي تمتلكها شركات عينة الدراسة متقادمة فنياً ولا تحقق الجدوى الاقتصادية منها، وبالتالي فإن استخدام النظم الالكترونية من قبل الشركات المشمولة في الدراسة يقتصر على تنفيذ عمليات حسابية بسيطة جداً كاحتساب رواتب وأجور العاملين.

وأضاف (الردايدة، 1998) دراسة بعنوان "اثر المعالجات الآلية على أنظمة المعلومات المالية - دراسة تطبيقية في دائرة الجمارك الأردنية". والذي هدف من خلالها إلى تتبع أثر المعالجات الآلية على أنظمة المعلومات المالية ، من خلال المدخلات والمعالجات والمخرجات. كما هدف كذلك إلى معرفة الأسس والضوابط المستخدمة في المعالجة الآلية للبيانات المالية في دائرة الجمارك مقارنة بالأسس والضوابط التي يجب أن تتبع، ويمكن تصنيف النتائج التي توصلت إليها الدراسة كالآتي:

(1) النتائج المتعلقة بتحقيق مدخلات نظم المعلومات المالية في بيئة المعالجة الآلية لمتطلبات التعليمات المالية وجد أن:

- هناك عدم اكتمال في عملية التعامل مع بعض المصادر بالطريقة التقليدية.
- إدخال البيانات وتسجيلها في الحسابات يحقق نسبة عالية من المصداقية بالمعلومات المستخرجة من نظم المعالجة الآلية.
- البرامج والتطبيقات المستخدمة في تنفيذ العمليات المالية ، قوية وتأخذ بالاعتبار ضرورة عدم السماح بتغيير أو إدخال بيانات مدخلة مسبقا لنظم المعالجة الآلية إلا بشروط محددة في البرنامج، وأن المراقبة على العمليات المنفذة لم تصل إلى المستوى المطلوب.
- الالتزام بالشروط العامة التي تمثل وجود بيانات واضحة وصحيحة يدل على وجود تدقيق جيد على مصادر البيانات.

(2) النتائج المتعلقة بتحقيق المعالجة الآلية للبيانات المالية لمتطلبات معايير التدقيق الدولية التي تتعلق بدراسة وتحليل النظم المالية في بيئة المعالجة الآلية وجد :

- انخفاض ملحوظ في استخدام الوسائل الرقابية.
- انخفاض ملحوظ في عملية تحديد صلاحيات التعامل مع نظام معالجة البيانات.
- وجود آلية توثيق متبعة ، إلا أن درجة المحافظة على تلك الآلية منخفضة.
- وجود عدم اكتمال لعملية تنفيذ الضوابط ، حيث وجد أن هنالك خلطاً في عملية استخدام الضوابط المناسبة لكل حالة.
- وجود درجة مقبولة تشير إلى سلامة أجهزة المعالجة الآلية واستمرارية عملها.
- وجود درجة رضا عالية من قبل أصحاب المصالح على مخرجات النظام.
- أن دائرة الجمارك تعنى بتطوير نظم المعالجة الآلية للبيانات المالية.
- وجود مشاركة فاعلة من قبل الماليين في الدائرة في تصميم أساليب المعالجة الآلية للبيانات المالية.

وفي مساهمة أخرى من (رمضان ، 1999) بعنوان " العوامل المؤثرة على نظم المعلومات المالية في الشركات الصناعية الأردنية المساهمة العامة"، هدفت الدراسة إلى قياس اثر كل من العوامل البيئية، والعوامل التنظيمية، وطرق صنع القرار على نظام المعلومات المالي الإلكترونية المستخدم في الشركات الصناعية المساهمة العامة الأردنية،وقد خلصت الدراسة إلى أن

هناك ضعف في العلاقة بين النظم الإدارية المتبعة بهذه الشركات ونظم المعلومات المالية لها وأعزت الدراسة السبب إلى عدم وعي الشركات المفحوصة بدور الإدارة في إحداث الأثر الكبير على خصائص نظم المعلومات المالية. كما تناولت دراسة (الحلو ،2000) " أثر استخدام نظم وتكنولوجيا المعلومات على الخدمات المصرفية المتكاملة في المصارف الأردنية من منظور القيادات المصرفية" والتي هدفت إلى إثبات أن المصارف التجارية في الأردن لن تستطيع الاستمرار بالعمل أو التنافس إذا لم تستخدم تكنولوجيا الحاسب الآلي والاتصالات بفاعلية في أداء أعمالها المختلفة ، كذلك سعت هذه الدراسة إلى تقديم صورة عن واقع أنظمة المعلومات والاتصالات المستخدمة في المصارف الأردنية من خلال استقصاء آراء مديري التخطيط الاستراتيجي ، ومديري التسويق ، ومديري تكنولوجيا المعلومات في هذه المصارف. وقد خلصت الدراسة إلى أن الاستثمار في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات يؤدي إلى خفض التكاليف، وزيادة أرباح المصارف، وزيادة إقبال المودعين وأعدادهم ، ورفع مستوى الخدمة المقدمة للزبائن ، وإظهارها بشكل لائق. كما أكدت الدراسة أن المصارف لا تستطيع أن تستمر بعملها وتوفير الخدمات لعملائها دون استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. وفي دراسة باللغة الانجليزية تناولت نظم المعلومات الخاص بالنظام المصرفي المصري قام (**Abu-Musa ,2001**) بمحاولة لإستكشاف واختبار المخاطر الهامة التي تهدد أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية في القطاع المصرفي بجمهورية مصر العربية، حيث تم عمل دراسة مسحية شملت جميع المصارف الرئيسة العاملة بجمهورية مصر العربية للتعرف على أراء كل من رؤساء أقسام الحاسب الآلي، ورؤساء أقسام المراجعة الداخلية، فيما يختص بالمخاطر الهامة التي تهدد أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية في المصارف التي يعملون بها. وتشير نتائج الدراسة إلى أن الإدخال غير المتعمد لبيانات غير صحيحة من قبل موظفي المصارف، والتدمير غير المتعمد للبيانات من قبل موظفي المصارف، وإدخال فيروس الكمبيوتر إلى النظام، والكوارث الطبيعية والكوارث التي هي من صنع الإنسان ، واشتراك بعض الموظفين في استخدام نفس كلمة السر، وكذلك توجيه البيانات والمعلومات إلى أشخاص غير مخول لهم بإستلامها تعد من أهم المخاطر التي تواجه أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية في المصارف المصرية.

ثانيا:الدراسات الأجنبية

من الدراسات الأجنبية التي تناولت مخاطر نظم المعلومات دراسة(Loch et al. 1992,) حيث أجرت الدراسة مسح شمل على 675 من مديري نظم

المعلومات الإدارية في الولايات المتحدة ، استهدفت استكشاف مدى إدراك مديري نظم المعلومات الإدارية فيما يتعلق بالمخاطر الأمنية التي تواجه أمن النظم المالية الإلكترونية في بيئة الحاسبات الشخصية، والحاسبات الكبيرة، وكذلك شبكة الحاسبات الإلكترونية .ولقد قام(Loch) ورفاقه بتطوير قائمة تضمنت إثنى عشر خطراً من المخاطر المحتملة التي قد تواجه أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية .ولقد أوضحت نتائج الدراسة أن الكوارث الطبيعية والأحداث غير المقصودة لموظفي المنشأة قد تم تصنيفها ضمن الثلاثة مخاطر الهامة في جميع بيئات تكنولوجيا المعلومات، كما أعطى المشاركون في الدراسة أهمية أكبر للمخاطر الداخلية مقارنة بالمخاطر الخارجية لأمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية، كما أظهرت الدراسة أن التدمير غير المتعمد للبيانات، والإدخال غير المتعمد لبيانات غير سليمة بواسطة موظفي المنشأة، وكذلك الرقابة غير الكافية على الوسائل مثل الأشرطة والأقراص الممغنطة تعد أهم ثلاثة مخاطر تواجه أمن نظم المعلومات فيما يتعلق بأجهزة الحاسب الشخصية ، و أن أهم ثلاثة مخاطر تتعلق بأجهزة الحاسب الآلي الكبيرة تتمثل في :الإدخال غير المتعمد لبيانات غير سليمة من قبل موظفي المنشأة، الكوارث الطبيعية، والتدمير غير المتعمد للبيانات بواسطة موظفي المنشأة، بينما أظهرت الدراسة أن الكوارث الطبيعية، والدخول غير المصرح به للبيانات /النظام من قبل أطراف خارجية، قراصنة المعلومات وضعف الأدوات الرقابية المادية تعد أهم ثلاثة مخاطر تهدد أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية في بيئة شبكة الحاسب الآلي. وقاما (**Ryan & Bordolo,**1997) بتقييم مخاطر أمن المعلومات في النظم المالية الإلكترونية في المنشآت التي تحولت من نظام أجهزة الحاسوب الكبيرة إلى نظام خدمة العملاء، ولقد قام الباحثان بتطوير قائمة شملت خمسة عشر من المخاطر المحتملة التي قد تهدد أمن نظم المعلومات الإلكترونية، و توزيعها على مائة وعشرين شركة من الشركات الكبيرة والمتوسطة الحجم في الولايات المتحدة، . وأشارت نتائج تلك الدراسة إلى وجود فروق جوهرية بين المنشآت التي لديها نظام أجهزة الحاسوب الكبيرة وتلك التي تطبق نظام خدمة العملاء فيما يختص بمخاطر أمن المعلومات المالية الإلكترونية ومن أهمها: التدمير غير المتعمد للبيانات بواسطة موظفي المنشأة، الإدخال غير المتعمد لبيانات خاطئة بواسطة موظفي المنشأة، التدمير المتعمد للبيانات بواسطة موظفي المنشأة، الإدخال المتعمد لبيانات خاطئة بواسطة موظفي المنشأة، الخسائر الناجمة عن عدم إعداد نسخ إضافية (Backups)، أو الرقابة على ملفات الدخول للنظام (Log Files)،أو فشل النظام وسقوط الشبكات وقد أعترف الباحثان أن قائمة المخاطر المقترحة من

قبلهم قد تضمنت بعض العناصر التي لايمكن اعتبارها ضمن مخاطر أمن نظم المعلومات بالمعنى الدقيق . وفيما يخص اختراق أمن المعلومات ساهم **(Dhillon ,1999)** بدراسة تتعلق بطبيعة الاختراقات التي حدثت في أماكن مختلفة من العالم ، حيث ناقشت الدراسة العديد من خسائر أمن المعلومات التي تنتج عن الاحتيال على أنظمة الحاسوب، وبينت الدراسة أنه يمكن تفادي تلك الخسائر إذا تبنت المنظمات نظرة أكثر واقعية في التعامل مع مثل هذه الحوادث بالإضافة إلى تبني نظرة تحكم أمنية تضع تأكيدا متساويا للتدخلات الشكلية والرسمية والتقنية لأنظمتها الإلكترونية، ومن أهم المقترحات التي أوصت بها الدراسة أنه يجب السيطرة الكاملة على نظم المعلومات من خلال منع سوء استعمال الحاسوب، كما رأت الدراسة أن ارتكاب الاحتيال على أنظمة الحاسوب من قبل المستخدمين الداخليين، المتمثلة بمشاكل التخزين، واحتيال أنظمة الحاسوب عالية التقنية يصعب منعها بشكل كامل. وفي مساهمة أخرى قدم (Siponen , 2000) تصورا لبرنامج وعي أمن المعلومات في المؤسسات، وذلك لتقليل أخطاء المستخدمين، ولتحسين فعالية سيطرة الأمن المطبقة، وقد توصل الباحث إلى أن تقنيات أو إجراءات أمن المعلومات تفقد فائدتها الحقيقية إذا تم إساءة استخدامها، أو تم تفسيرها بطريقة خاطئة أو تم تطبيقها بشكل غير صحيح من قبل المستخدمين. كما تناولت دراسة (Whitman ,2003) التهديدات التي تواجه أمن المعلومات وهدفت إلى التعرف إلى درجة خطورة هذه التهديدات، وعدد مرات حدوثها (شهريا)، حيث قام الباحث بعمل تقييم لعدد من الأبحاث والمقالات في مجال أمن المعلومات، وحصر التهديدات التي تواجه أمن المعلومات.حيث قام الباحث بعمل دراسة مسحية شملت ألف موظف أغلبهم من مدراء نظم المعلومات، والمدراء و المشرفين. وأوضحت الدراسة أن التهديد حقيقي، وخطورته عالية، وأن الأنظمة المعرضة للتهديد يصعب حمايتها، وركزت الدراسة على أن الإدارة يجب أن تكون مطلعة أكثر على تهديدات أمن المعلومات، ويجب أن يزداد وعيها في كل المجالات، وأن مستوى فهمهم العام لأمن المعلومات متأصل من خلال علاقتها مع البيئة التي تعمل بها.

من خلال هذا السرد لهذه المجموعة من الدراسات السابقة يتضح بأن نظم المعلومات المالية والمحاسبية والإدارية المحوسبة تتعرض إلى مجموعة من المخاطر على جميع المستويات الإدارية، والتنظيمية، والفنية، والتطبيقية وغيرها، وهذا يعطي مشكلة البحث الحالي أهمية إضافية إذ أنها تحاول التعرف إلى هذه المخاطر وأسباب حدوثها وتقديم المقترحات التي من شأنها أن تساهم في إيجاد الحلول لمثل هذه المخاطر والتي سوف تكون في غاية

الأهمية التطبيقية من وجهة نظر المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم في فلسطين.

المحور الرابع: الطريقة والإجراءات

يتناول هذا المحور الطريقة والإجراءات التي اتبعها الباحث في تحديد مجتمع البحث والعينة وشرح الخطوات والإجراءات العلمية التي اتبعها الباحث في بناء أداة البحث ووصفها، ثم شرح مخطط تصميم الدراسة ومتغيراتها، والإشارة إلى أنواع الاختبارات الإحصائية التي استخدمت في البحث.

اولا: مجتمع البحث والعينة

تكون مجتمع البحث من موظفي المصارف التجارية في مدينة طولكرم والبالغ عددهم 160 موظف بحسب التقرير السنوي لسلطة النقد الفلسطينية(سلطة النقد الفلسطينية ،2011) والذي لهم علاقة مباشرة في نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية كمستخدمين ومدراء ورؤساء أقسام ومراقبين وغيرهم. ويمكن حساب عينة البحث بناءً على المعادلة الآتية:

$$n = \frac{\left(\frac{z}{d}\right)^2 \times (0.50)^2}{1 + \frac{1}{N}\left[\left(\frac{z}{d}\right)^2 \times (0.50)^2 - 1\right]}$$

حيث:

(N) تمثل حجم المجتمع

(Z) تمثل الدرجة المعيارية المقابلة لمستوى الدلالة 0.95 وتساوي 1.96

(d) تمثل نسبة الخطأ

وبتطبيق هذه المعادلة على مجتمع الدراسة والبالغ 160 موظف، فإن حجم العينة المطلوب هو 113 مفردة، ولكن العينة التي اختبرت أعلى من حجم العينة المفترض مما يعطي مصداقية أكبر للبحث. فقط تم توزيع 125 استبانة تم إعدادها من قبل الباحث بهدف جمع البيانات اللازمة والوصول إلى حجم العينة المطلوب، استجاب جميعهم، وتم استبعاد (7) استبانات من التحليل لعدم صلاحيتها، وبذلك يكون عدد أفراد العينة التي أجري عليها التحليل (118) مفردة وتعتبر هذه العينة فوق الحد المطلوب مما يعطي الدراسة المزيد من الصدق والثبات،وكان توزيع هذه العينة تبعا لمتغيرات الدراسة المستقلة كما في الجدول الآتي:

الجدول (2)
توزيع عينة الدراسة تبعاً للمتغيرات المستقلة

1- المستوى التعليمي	التكرار	النسبة المئوية(%)
دبلوم	14	%11.9
بكالوريوس	87	%73.7
ماجستير	17	%14.4
المجموع العام	118	%100
2- المسمى الوظيفي	التكرار	النسبة المئوية(%)
مدير	8	%6.8
مراقب عام	8	%6.8
رئيس قسم	16	%13.6
مراجع نظم معلومات	9	%7.6
محاسب	53	%44.9
موظف / تسهيلات ،صندوق، خدمة عملاء	24	%20.3
المجموع العام	118	%100
3- سنوات الخبرة	التكرار	النسبة المئوية(%)
اقل من 3سنوات	34	%28.8
من 3-6سنوات	61	%51.7
من 7-10سنوات	9	%7.6
من 15فاكثر	14	%11.9

المجموع العام	118	%100
4- نوع المصرف	التكرار	النسبة المئوية(%)
تجاري	98	%83.1
إسلامي(تجاري)	20	%16.9
متخصص	0	0
المجموع العام	118	%100
5- النظام المالي في المصرف	التكرار	النسبة المئوية(%)
آلي كامل	32	%27.1
مزدوج(يدوي والآلي)	86	%72.9
المجموع العام	118	%100
6- عدد المتخصصين في نظم المعلومات	التكرار	النسبة المئوية(%)
من 1-5	102	%86.4
من 6-10	16	%13.6
المجموع العام	118	%100

7. أهم المخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

الجدول رقم (3) يوضح المخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية وتكراراتها:

جدول(3)
يوضح فقرات تحديد تكرار كل خطر حسب ما حدث لكل بنك والنسب المئوية لكل فقرة من فقرات أهم المخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

الفقرات	لا تحدث		مرة يوميا		مرة أسبوعيا		مرة شهريا		مرة سنويا	
	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
إدخال بيانات غير سليمة بواسطة الموظفين بشكل متعمد/غير متعمد	48	40.7 %	35	29.7 %	9	%7.6	26	%22	-	-
إتلاف البيانات بواسطة الموظفين بشكل متعمد/غير متعمد	96	81.4 %	5	%4.2	8	%6.8	-	-	9	7.6 %
الوصول غير المسموح فيه للبيانات بواسطة الموظفين	92	%78	17	14.4 %	-	-	4	%3.4	5	4.2 %
الوصول غير المسموح فيه للبيانات بواسطة أشخاص من خارج المصرف	109	92.4 %	4	%3.4	5	%4.2	-	-	-	-
اشتراك العديد من الموظفين في نفس كلمة السر	84	71.2 %	26	%22	4	%3.4	-	-	4	3.4 %
دخول فيروسات على النظام والتأثير على عملية تشغيل النظام	74	62.7 %	44	37.3 %	-	-	-	-	-	-
تعرض البيانات للاختراق أثناء انتقالها من أجهزة الخودام إلى أجهزة المستخدمين	109	92.4 %	4	%3.4	-	-	5	%4.2	-	-
تغيير بنود معينه من المدخلات	82	69.5 %	18	15.3 %	4	%3.4	-	-	14	11.9 %
خلق مخرجات زائفة غير صحيح	93	78.8 %	16	13.6 %	4	%3.4	-	-	5	4.2 %
تسرب البيانات	110	93.2 %	8	%6.8	-	-	-	-	-	-
عمل نسخ غير مصرح بها للمخرجات	100	84.7 %	13	%11	-	-	-	-	5	4.2 %

الكشف غير المرخص به عن البيانات إما بعرضها على الشاشات أو طباعتها على الورق	90	76.3 %	19	16.1 %	4	%3.4	5	%4.2	-	-
طبع وتوزيع المعلومات بواسطة أشخاص غير مصرح لهم بذلك	109	92.4 %	4	%3.4	-	-	-	-	5	4.2 %
المعلومات الموزعة يتم توجيها إلى أشخاص غير مخولين باستلام النسخة	101	85.6 %	8	%6.8	-	-	9	%7.6	-	-
تسليم المستندات الحساسة إلى أشخاص لا تتوافر فيهم الناحية الأمنية بغرض تمزيقها أو التخلص منه	100	84.7 %	9	%7.6	4	%3.4	-	-	5	4.2 %

ثانيا: أداة البحث

تكونت أداة البحث من استبانة أعدها الباحث وتحتوي على (24 فقرة) وقد تكون سلم الإجابة على كل فقرة من خمس إجابات (حسب مقياس ليكرت الخماسي) موزعة كما يلي :

موافق بشدة 5 درجات
موافق 4 درجات
متردد 3 درجات
غير موافق درجتين
غير موافق بشدة درجة واحدة

البعد	عدد الفقرات
مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة	(1-12) 12 فقرة
مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة	(1-12) 12 فقرة
الدرجة الكلية	(1-24) 24 فقرة

وبذلك تكون أعلى درجة في المقياس = 5 × 24 = 120 درجة
وتكون اقل درجة في المقياس = 1 × 24 = 24 درجة

ثالثا:أسلوب وأداة جمع المعلومات

من أجل تحقيق أهداف البحث قام الباحث بتصميم وتوزيع استبانه،أعدت خصيصا لهذا الغرض. وشملت الاستبانة على قائمه تضم مجموعه من المخاطر التي تهدد نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة، وقائمة تضم أسباب حدوثها وقائمة بإجراءات الحماية .

رابعا: ثبات أداة البحث

استخدم الباحث معامل الثبات كرونباخ ألفا وقد بلغ معامل الثبات للمجالات كما يلي:

المجال	معامل الثبات
مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة	0.96
مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة	0.97
الدرجة الكلية	0.96

خامسا: إجراءات البحث

تم إجراء البحث وفق خطوات علمية منظمة كي يخرج هذا البحث وفق ما تم الاستجابة له وهذه الخطوات هي:

1. وضع الاستبيان بصورة منظمة ومرئية.
2. دراسة مجتمع البحث وأخذ تحديد العينة التي تمثل موضوع البحث وتنطبق عليها شروط البحث.
3. توزيع الاستبيان وأخذ الاستجابات عليها من عينة البحث.
4. جمع الاستبيانات من أفراد العينة وفرزها وتصنيفها وإدخالها إلى الحاسوب بشكل رموز.
5. إدخال استجابات أفراد العينة إلى الحاسوب
6. عولجت البيانات إحصائياً عن طريق حزمة البرامج الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS) (Statistical package for social science).
7. الوصول إلى النتائج ونقدها ومناقشتها.

سادسا: منهج وتصميم البحث

تم استخدام الاستبيان وتوزيعه على عينة البحث، وتم أخذ استجاباتهم لهذه الإستبانات، وأجري التحليل الإحصائي لهذه المعلومات بعد فرزها وتصنيفها، وتضمنت الدراسة عدداً من المتغيرات:

1. **المتغيرات المستقلة:**

- ❖المستوى التعليمي: 1. دبلوم 2. بكالوريوس 3. ماجستير 4. دكتوراه
- ❖المسمى الوظيفي: 1. مدير 2. مراقب عام 3. رئيس قسم 4. مراجع نظم معلومات 5. محاسب 6. موظف (صندوق، تسهيلات، خدمة عملاء)
- ❖سنوات الخبرة: 1. أقل من 3 سنوات 2. 3-6 سنوات 3. 7-10 سنوات 4. 11-15 سنة 5. 15 فأكثر
- ❖نوع المصرف: 1. تجاري 2. متخصص 3. إسلامي
- ❖النظام المالي في المصرف: 1. يدوي 2. آلي كامل 3. مزدوج (اليدوي والآلي)
- ❖ عدد المتخصصون في نظم المعلومات:

1. 1-5 2. 6-10 3. 11-15 4. أكثر من 20

2. **المتغير التابع:** العقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية.

سابعا: المعالجات الإحصائية

من أجل معالجة البيانات تم استخدام البرنامج الإحصائي للعلوم الاجتماعية (spss) وذلك باستخدام المعالجات الإحصائية التالية:

1. المتوسطات الحسابية، والانحراف المعياري، والنسب المئوية.
2. معامل الارتباط بيرسون.

المحور الخامس: اختبار الفرضيات ومناقشة النتائج

هدف البحث إلى التعرف على العقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية المصرفية المحوسبة إضافة إلى تحديد اثر متغيرات كل من المستوى التعليمي – المسمى الوظيفي – سنوات الخبرة – نوع المصرف – النظام المالي في المصرف – عدد المتخصصين في نظم المعلومات, وبعد عملية جمع المعلومات عولجت إحصائيا باستخدام حزمة البرامج الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS) (Statistical package for social science):

أولا : النتائج المتعلقة بالسؤال الأول والذي نصه :

ما هي العقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية ؟

للإجابة عن السؤال استخدمت المتوسطات الحسابية، والانحراف المعياري، والنسب المئوية لكل فقرة ولكل مجال، والدرجة الكلية للإستبانة حيث تبين الجداول رقم (4)،(5)،(6) نتائج التحليل.
من أجل تفسير النتائج اعتمدت النسب المئوية كما يلي:

درجة الأهمية	**النسب المئوية**
درجة قليلة جدا	اقل من 50%
درجة قليلة	50%-59.9%
درجة متوسطة	60%-69.9%
درجة كبيرة	70%-79.9%
درجة كبيرة جدا	80%فأكثر

(1) مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

جدول رقم (4)

المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري والنسب المئوية ودرجة الأهمية لمجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

الرتبة	الرقم بالاستبانة	مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية	المتوسطات الحسابية	الانحراف المعياري	%	درجة الأهمية
1	1	أسباب تتعلق بالموظفين العاملين بالمصرف	3.50	1.47	70	كبيرة
2	7	أسباب تتعلق بإدارة المصرف	3.32	1.51	66.4	متوسطة
3	2	عدم توفرا لخبره اللازمة والتدريب الكافي	3.30	1.28	66	متوسطة
4	5	عدم الاهتمام بدراسة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للموظفين	3.20	1.40	64	متوسطة
5	3	عدم إلزام الموظفين بأخذ إجازاتهم الدورية	3.02	1.54	60.4	متوسطة

6	6	قلة الوعي الكافي للموظفين لضرورة فحص البرامج والأقراص الممغنطة قبل إدخالها إلى أجهزة الكمبيوتر للحد من اثر الفيروسات على النظام	3.01	1.46	60.20	متوسطة
7	4	عدم الاهتمام بفحص التاريخ الوظيفي والمهني للموظفين الجدد	3.01	1.50	60.20	متوسطة
8	12	عدم التوصيف الدقيق للهيكل الوظيفي الإداري الذي يحدد المسؤوليات والواجبات لكل شخص داخل المصرف	2.80	1.46	56	قليلة
9	10	عدم توفر الحماية الكافية ضد مخاطر الفيروسات في المصرف	2.70	1.46	54.00	قليلة
10	8	عدم وجود سياسات واضحة ومكتوبة لأمن نظم المعلومات	2.70	1.31	54.00	قليلة
11	9	عدم كفاية وفعالية الأدوات والضوابط الرقابية المطبقة في المصرف	2.67	1.31	53.40	قليلة
12	11	ضعف وعدم كفاءة النظم الرقابية المطبقة على مخرجات الحاسب الآلي	2.64	1.46	52.80	قليلة
		الدرجة الكلية	2.98	1.19	59.6	قليلة

يتضح من خلال الجدول رقم (4) أن درجة الأهمية كانت (كبيرة) على الفقرة رقم (1)، حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى (73.40%) , و كانت درجة الأهمية (متوسطة) على الفقرات رقم (7 , 2 , 5 ,6، 3، 4)، حيث تراوحت النسبة المئوية للاستجابة ما بين (60.2% - 67.2 %) , وكانت درجة الأهمية (قليلة) على الفقرات رقم (12 , 8 , 10 , 9 , 11)، حيث تراوحت النسبة المئوية للاستجابة ما بين (52.8 - 58.8 %).

أما بالنسبة للدرجة الكلية لمجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية فلقد كانت درجة الأهمية (**قليلة**) حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى(59.6%). وهذه النتائج تؤكد أن المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم قادرة على السيطرة على أسباب حدوث مخاطر نظم المعلومات الإلكترونية، وخاصة الداخلية منها بسبب إتباعها جملة من الإجراءات الإدارية والفنية والتي تعتبر قادرة على إبقاء مستوى المخاطر وحدوثها متدني جداً.

(2) مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

جدول رقم (5)

المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري والنسب المئوية ودرجة الأهمية لمجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

الرتبة	الرقم بالاستبانة	مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية	المتوسطات الحسابية	الانحراف المعياري	%	درجة الأهمية
1	5	تقوم إدارة المصرف بوضع خطة حماية شاملة ومعمقة تشمل إغلاق منافذ الاختراق، والتدقيق في الإجراءات الداخلية والاحتفاظ بنسخة احتياطية من المعلومات يمكن الرجوع إليها وقت الحاجة	4.12	1.21	82.40	كبيرة جدا

2	1	تقوم إدارة المصرف بإصدار قرارات إدارية خاصة لتجنب مخاطر أمن المعلومات.	3.99	1.22	79.80	كبيرة
3	11	تقوم إدارة المصرف بوضع سياسات خاصة بأمن المعلومات تشمل اختيار التقنية المناسبة والإجراءات اللازمة لجعل هذه التقنية فعالة	3.99	1.34	79.80	كبيرة
4	10	تقوم إدارة المصرف بتحديث طرق الحماية حسب التغيرات الحاصلة في بيئة التكنولوجيا.	3.97	1.29	79.40	كبيرة
5	3	تتابع إدارة المصرف موظفي تكنولوجيا المعلومات في تنفيذ إجراءات الحماية المطلوبة	3.89	1.18	77.80	كبيرة
6	6	تطبيق إدارة المصرف أهداف حماية أمن المعلومات مثل الخصوصية، وتجنب تغيير البيانات غير المصرح به، وتوفر البيانات في الوقت المحدد.	3.86	1.19	77.20	كبيرة
7	12	تقوم إدارة المصرف بتحليل المخاطر الخاصة بأمن المعلومات مثل العائد المتوقع مقابل تكاليف الإجراءات المضادة	3.86	1.33	77.20	كبيرة
8	8	تقوم إدارة المصرف بصد الاختراق عند حدوثه وإصلاح الخلل	3.84	1.33	76.80	كبيرة

		الناتج عنه				
9	4	تقوم إدارة المصرف بوضع قواعد خاصة بحماية أمن المعلومات، ومعاقبة الموظفين المخلين بهذه القواعد	3.80	1.37	76.00	كبيرة
10	2	تتعهد إدارة المصرف العليا بتطبيق أمن المعلومات	3.76	1.17	75.20	كبيرة
11	9	تقوم إدارة المصرف باكتشاف حوادث الاختراق من خلال التقارير، وتحديد ووصف نوع الاختراق.	3.73	1.27	74.60	كبيرة
12	7	تستفيد إدارة المصرف من خبرة المصارف العالمية في مجال امن المعلومات	3.40	1.34	68.00	متوسطة
		الدرجة الكلية	3.85	1.08	77.00	كبيرة

يتضح من خلال الجدول رقم (5) أن درجة الأهمية كانت (كبيرة جدا) على الفقرة رقم (5) حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى (82.40%) , وكانت درجة الأهمية (كبيرة) على الفقرات رقم (1 , 10 , 11 , 3 , 6 , 8 , 12 , 2 , 4 , 9) حيث تراوحت النسبة المئوية للاستجابة ما بين (74.6 %-79.8%) , و كانت درجة الأهمية (متوسطة) على الفقرة رقم (7) حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى (68%).

أما بالنسبة للدرجة الكلية لمجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية فلقد كانت درجة الأهمية (كبيرة) حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى(77%). وهذه النتائج تؤكد إتباع المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم إلى إجراءات حماية صارمة وفعالة مما يعطيها الثقة الكاملة بنظم معلوماتها الإلكتروني ويكسبها الثقة اللازمة من قبل عملاءها والمتعاملين معها.

(3) الدرجة الكلية

جدول رقم (6)

المتوسطات الحسابية والانحراف المعياري والنسب المئوية ودرجة الأهمية للعقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية

الرتبة	العقبات والمخاطر وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية	المتوسطات الحسابية	الانحراف المعياري	%	درجة الأهمية
1	مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية الإلكترونية	3.85	1.08	77.00	كبيرة
2	مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية	3.02	1.19	60.40	متوسطة
	الدرجة الكلية	3.44	0.99	68.00	متوسطة

يتضح من خلال الجدول رقم (6) أن درجة الأهمية كانت (كبيرة) على مجال إجراءات الحماية المتبعة لحماية نظم المعلومات المالية، حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى (77%) , وكانت درجة الأهمية (متوسطة) على مجال أسباب مخاطر نظم المعلومات المالية، حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى (60.4%).

أما بالنسبة للدرجة الكلية للعقبات والمخاطر، وإجراءات الحماية التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية فلقد كانت درجة الأهمية (متوسطة) حيث وصلت النسبة المئوية للاستجابة إلى(68%). وهذه النتائج تتوافق مع التحليل السابق لفقرات الاستبيان والذي يظهر قدرة المصارف التجارية على السيطرة على المخاطر التي تتعرض لها نظم معلوماتها الإلكترونية بسبب تحكمها بأسباب حدوث مثل هذه المخاطر.

ثانيا : النتائج المتعلقة بفرضيات البحث

(1) **النتائج المتعلقة بالفرضية الأولى والتي نصها:**

لا توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر.

من أجل فحص الفرضية تم استخدام علاقة الارتباط بيرسون بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر حيث كانت النتائج كما يبينها الجدول رقم (7).

جدول(7)

نتائج اختبار معامل الارتباط بيرسون بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر

العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة *أسباب المخاطر	علاقة الارتباط	مستوى الدلالة	حجم العينة
	**0.863	0.000	118

** دالة عند المستوى ($\alpha = 0.01$)

يوضح الجدول رقم (7) أن علاقة الارتباط بيرسون قد كانت (**0.863) وهي دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة أي انه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر.

وبذلك نرفض الفرضية الصفرية ونأخذ بالفرض البديل على انه توجد فروق ذات دلالة إحصائية , ويتضح من خلال الفرضية أن علاقة الارتباط بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر علاقة ارتباط طرديه قوية حيث انه كلما زادت العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم زادت أسباب المخاطر.

(2) النتائج المتعلقة بالفرضية الثانية والتي نصها:

لا توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية و إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها.

من أجل فحص الفرضية تم استخدام علاقة الارتباط بيرسون بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر حيث كانت النتائج كما يبينها الجدول رقم (8).

جدول(8)

نتائج اختبار معامل الارتباط بيرسون بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية و إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها

العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة * إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها	علاقة الارتباط	مستوى الدلالة	حجم العينة
	0.831	0.000	118

** دالة عند المستوى (α = 0.01)

يوضح الجدول رقم (8) أن علاقة الارتباط بيرسون قد كانت (0.831**) وهي دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة أي انه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية و إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها.

وبذلك نرفض الفرضية الصفرية ونأخذ بالفرض البديل على انه توجد فروق ذات دلالة إحصائية , ويتضح من خلال الفرضية أن علاقة الارتباط بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية و إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها علاقة ارتباط طرديه قوية جداً حيث انه كلما زادت العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم زادت إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها، وهذا يتوافق مع مساعي المصارف للحفاظ على بيئة مالية أمنه.

المحور السادس: النتائج والتوصيات

أولا: النتائج

يمكن تلخيص نتائج البحث كالآتي:

- تؤكد نتائج التحليل أن المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم قادرة على السيطرة على أسباب حدوث مخاطر نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية وخاصة الداخلية منها بسبب إتباعها جملة من الإجراءات الإدارية، والفنية، والتي تعتبر قادرة على إبقاء مستوى المخاطر وحدوثها متدني جداً.
- تؤكد النتائج إتباع المصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم إجراءات حماية صارمة وفعالة مما يعطيها الثقة الكاملة بنطم معلوماتها الإلكتروني المصرفي، ويكسبها الثقة اللازمة من قبل عملاءها، والمتعاملين معها.
- تؤكد النتائج قدرة المصارف العاملة في مدينة طولكرم على السيطرة على المخاطر التي تتعرض لها نظم المعلومات المصرفية بسبب تحكمها بأسباب حدوث مثل هذه المخاطر.
- هناك علاقة ارتباط طرديه قوية بين نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم وأسباب المخاطر حيث انه كلما زادت العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية زادت أسباب المخاطر.
- هناك علاقة ارتباط طرديه قوية جداً بين العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية و إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها، حيث انه كلما زادت العقبات والمخاطر التي تواجه نظم المعلومات المالية الإلكترونية للمصارف التجارية العاملة في مدينة طولكرم زادت إجراءات حماية المعلومات المتبعة للحفاظ عليها.
- إن أسباب مخاطر نظم المعلومات ذات الأهمية الأكبر والتي حصلت على اكبر استجابة هي مخاطر تتعلق بالموظفين العاملين في المصرف، أما الأسباب الأخرى التي تتعلق بإدارة المصرف، وعدم توافر الخبرة لدى العاملين حصلت على استجابة متوسطة.
- إن من أهم إجراءات الحماية المتبعة هي قيام المصارف بإتباع خطة شامله ومعمقة تشمل إغلاق منافذ الاختراق، والتدقيق، والإجراءات الداخلة، والاحتفاظ بنسخه احتياطيه من المعلومات، يمكن الرجوع إليها وقت الحاجة حيث كانت درجة الاستجابة عاليه.

● هناك أهمية كبيرة لإجراءات الحماية التي تتبعها المصارف التجارية بشأن نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية الخاصة بها وهذا يتوافق وخصوصية البيئة المصرفية.

ثانياً: التوصيات

في ضوء النتائج السابقة فإن الباحث يقترح التوصيات الآتية:

■ من الضروري أن تدعم الادارة العليا للمصارف التجارية أمن المعلومات لديها وأن تعمل على إنشاء قسم خاص بتكنولوجيا المعلومات في كافة المصارف، وتوفير كادر متخصص في تكنولوجيا المعلومات، بحيث يكون له مندوبون في الفروع ذوي خبرة وكفاءة عالية لأجل العمل على حماية أمن نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية لدى المصارف.

■متابعة التطور التكنولوجي الخاص بنظم المعلومات، وإكساب العاملين المهارات والخبرات الحديثة من خلال التدريب المتواصل في مجال أمن المعلومات و حمايتها.

■ ضرورة وضع إجراءات تضمن استمرارية عمل و جاهزية نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية، للعمل في حالة الأزمات من خلال استخدام تجهيزات منيعة، بحيث تستطيع اكتشاف المخاطر قبل حدوثها والحد من وقوعها.

■ ضرورة العمل على تعمية أو تشفير المعلومات عند الحفظ، والنقل، والتخزين على مختلف الوسائط كي لا يتمكن أحد من اختراقها.

■ وضع ضوابط أمن، ورقابة للمعلومات المتداولة بكافة أشكالها، سواء كانت ورقية، أم اتصالات سلكية، ولاسلكية، والإنترنت، والعمل على سن التشريعات اللازمة لأمن المعلومات الإلكترونية والنظم والشبكات المعلوماتية.

■ مراجعة نظم المعلومات المالية الإلكترونية المصرفية وأمنها من فترة إلى أخرى بما يتواكب مع المستجدات والتطورات التكنولوجية في هذا المجال.

▬

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

1- أبو علام, رجاء" مناهج البحث العلمي" عمان , دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة, (1998)

2- ألحديثي، عماد صالح نعمة ،(1993)، "تقييم أنظمة الرقابة الداخلية للمؤسسات التي تستخدم الحاسوب ، دراسة ميدانية على المؤسسات المالية والمصرفية في المملكة الأردنية الهاشمية" ، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ، عمان.

3- الحسني، فلاح حسين، و الدوري، مؤيد عبد الرحمن،(2003)،" إدارة البنوك: مدخل كمي واستراتيجي معاصر"، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

4- الحلو، برهان صباح ،(2000)" اثر استخدام نظم وتكنولوجيا المعلومات على الخدمات المصرفية المتكاملة في المصارف الأردنية من منظور القيادات المصرفية" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة آل البيت ، الأردن.

5- الردايدة، مراد خالد مصلح ،(1998)،" اثر المعالجات الآلية على أنظمة المعلومات المالية ، دراسة تطبيقية في دائرة الجمارك الأردنية"،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت ، عما ن.

6- رمضان، عبد الهادي حامد ،(1999)، "العوامل المؤثرة على نظم المعلومات المالية في الشركات الصناعية الأردنية المساهمة العامة" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان.

7- السالمي،علاء عبد الرازق,(1999)،"نظم المعلومات والذكاء الاصطناعي" الطبعة الأولى، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان.

السامرائي، إيمان و الزعبي، هيثم،(2004)،" نظم المعلومات الإدارية" ، الطبعة الأولى، دار صفا للنشر والتوزيع ، عمان.

8- السرحان ،بكر احمد عبد الله ،(1995) "العلاقة بين التكنولوجيا والهيكل التنظيمي ، دراسة ميدانية في الشركات الصناعية المساهمة العامة الأردنية" ، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ، عمان.

9- سلطان، إبراهيم،(2000)،" نظام المعلومات الإدارية: مدخل النظم"، الدار الجامعية، القاهرة.

10- سلطة النقد الفلسطينية،(2012)،" التقرير السنوي،2011 " دائرة الأبحاث والسياسات النقدية، رام الله، فلسطين.

11- صيام، وليد،(2002)،" الميزة التنافسية للمصارف في عمان بعد تحديثها وإدخال نظام التداول الإلكتروني" ،معهد الدراسات التطبيقية، الجامعة الأردنية،عمان.

12- طراد، إسماعيل،(2002)،" العولمة وانعكاساتها على إمكانيات تطوير القطاع المالي والمصرفي العربي وتحقيق الميزة التنافسية- دراسة تحليلية"، منشورات جامعة عين شمس ، القاهرة.

13- العيسى، عادل موسى محمد ،(2000)، "دور نظم المعلومات في اتخاذ القرارات الإدارية في وزارة التربية والتعليم" ، رسالة ماجستير غير منشورة، الأكاديمية العربية للعلوم المالية والمصرفية ، عما ن.

14- عيسى، غسان، و النائب، إبراهيم،(2002)، " نحو بناء نظم معلومات معيارية ناجحة، مجلة الإدارة للعلوم التطبيقية، المجلد 1، العدد 1 ، جامعة العلوم التطبيقية الأهلية، عمان، الأردن.

15- الكخن ،دلال خليل ،(1888)،" الرقابة المالية في ظل الأنظمة الإلكترونية وتطبيقاتها في المصرف المركزي الأردني" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان.

16- ياسر، جاموس (1991)،" مراجعة الأنظمة المالية التي تعتمد على استخدام الحاسوب" ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب ، سوريا.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1- Abu-Musa, Ahmad A. (2001), "Evaluating The Security of Computerized Accounting Information Systems: An Empirical Study on Egyptian Banking Industry", PhD. Thesis, Aberdeen University, UK.

2- Abu-Musa, Ahmad A. (2004), "Important Threats to Computerized Accounting Information Systems: An empirical Study on Saudi Organizations" Pubic Administration, A Professional Quarterly Journal Published by The Institute of Public Administration Riyadh, Saudi Arabia, (Vol. 44, No. 3), pp. 1-65.

3- Bruwer.P.J.S,(1984),"A Descriptive Model of Success for Computer Based Information System Performance", Information & Management Journal, No 7.

4- Dhillon, G. (1999), "Managing and controlling computer misuse", Information Management & Computer Security, (Vol. 7, Number 4), PP.171-175.

5- Loch, Karen D., Houston H. Carr and Merrill E. Warkentin (1992), "Threats to Information Systems: Today's Reality, Yesterday's Understanding", MIS Quarterly, (June), pp. 173 - 186.

6- Robey d.,(1979),"User Attitude and Management System Use", Academy of Management Journal, Vol 22 , No 3.

7- Ryan, S. D. and B. Bordoloi (1997), "Evaluating Security Threats in Mainframe and Client / Server Environments", Information & Management, (Vol. 32, Iss. 3), pp. 137 - 142.

8- Siponen, M. T. (2000), "A conceptual Foundation for Organizational Information Security Awareness", Information Management and Computer Security, Bradford, (Vol. 8, Iss. 8), PP. 31- 44.

9- Whitman Michael E. (2003), "Enemy at the Gate: Threats to Information Security", Communication of the ACM, (Vol. 46, Iss.

Gender, Self, and the Other in Sharon Doubiago's *South America Mi Hija*

Abdullah H. Kurraz.
Al-Azhar University – Gaza. Palestine

Gender, Self, and the Other in Sharon Doubiago's *South America Mi Hija*

Abdullah H. Kurraz.
Al-Azhar University – Gaza. Palestine

Abstract

This paper explores the poetic feminist discourse of the South American poetess Sharon Doubiago's epic *South America Mi Hija* and how she engenders and maintains her gender's visions and beliefs in resistant masculine societies that still engulf the whole human world. She poetically defends herself and her gender refusing to submit to the standing patriarchal paradigm. She portrays herself as a modern spokesperson of her gender and its vulnerability to victimization. Doubiago also tries to cast her challenge against the dominant patriarchal power. Further, this paper sheds light on the poetess's optimism in winning the battle in the light of modern feminist analysis, providing relevant representations of her poetic discourse. It elucidates how the poetess publicizes her feminist and gender thoughts despite the domination of the masculine power. As a result, as a intimate feminist poetess, Doubiago succeeds in identification with her psyche and other similar selves that can assimilate with her soul and vision. In a broader sense, the focal hypothesis of this paper revolves around conceptualizing feminist poetics and gender in an appreciative receptionist way.

Keywords: feminism, gender, masculinity, critical feminist discourse.

الجندر، والذات، والآخر في "بلدي الهيجاء أميركا الجنوبية" للشاعرة شارون دوبياقو.

د. عبد الله حسين كراز.
أستاذ مساعد
جامعة الأزهر – غزة. فلسطين

ملخص بالعربية

تبحث هذه الورقة في الخطاب الشعري النسوي للشاعرة الأمريكية الجنوبية "شارون دوبياقو" في ملحمتها *"بلدي الهيجاء أميركا الجنوبية"* وفي كيف تولد الشاعرة و تحافظ على نسغ رؤى وأفكار جندرها في المجتمعات ذكورية السيادة والتي لا تزال تهيمن على العالم الإنساني . تدافع الشاعرة في شعرها عن نفسها و جنسها رافضةً الخضوع لأنموذج الأبوية المستدامة. كما وتصور نفسها على أنها الناطق الحداثي باسم جنسها حول تعرضه للإيذاء والاحتيال. وتحاول الشاعرة أيضاً أن تعمم تحديها ضد السلطة الأبوية المهيمنة. كذلك، تلقي هذه الورقة الضوء على تفاؤل الشاعرة في كسب المعركة في ضوء التحليل النسوي الحديث، موفرةً دلالات ذات صلة من خطابها الشعري. وتشرح الورقة كيف تعمم الشاعرة أفكارها النسوية والجندرية رغم هيمنة السلطة الذكورية ونتيجة لذلك، وكونها شاعرة نسوية حميمية فإن "دوبياقو" تنجح في التماهي مع نفسها الباطنية ومع أنفس مماثلة لها ممن يمكن أن يتماهن مع روحها ورؤيتها. وبمعنى أرحب، تحوم الفرضية المحورية لهذا البحث حول المفاهيم المتعلقة بالشعرية النسوية والجندر بطريقة استيعابية تذوقية.

كلمات مفتاحية: النسوية، الجندر، الذكورية، الخطاب النسوي الناقد.

Gender, Self, and the Other in Sharon Doubiago's *South America Mi Hija*

Sharon Doubiago engenders a powerful exploration of the mother-daughter relationship, deriving from the Demeter and Persephone myth. Also, she engages in a related feminist discourse exploring man-woman relationships relying on her own understanding of female/feminine, as the self, and male/masculine, as the other. There are three main tracks that feminism works on: the critique of the established views of the self, the reclamation" of women's selfhood, and the "reconceptualization" of the self to incorporate women's experiences (Meyers, 2000). Doubiago masters such feminine knowledge and manifests it in *South America Mi Hija* (1992) . Julie Ellison (1990) regards the gendered self as the "locus of conversation among the many languages" of the mind and of the society, such as divination, desire, family, friendship, politics, and economy (p.223). Alicia Ostriker (2001) describes Doubiago's *South America Mi Hija* as "global in reach, formally experimental," for it foregrounds for a sincere experimental travel feminist discourse suitable to be a guide to every woman everywhere in our globe (p.257).

Besides, Irving Howe (1992) emphasizes the importance of the self in studying literature, since the self implies "an acceptance of the sufficiency of the human condition so that divinities, myths, and miracles slip into obsolescence" (p.252). It is a universal discourse that enables the poetess to go deep into the momentum of female-male exchange and mutual feelings and perspectives towards each other. Doubiago is aware of the two basic human types, male and female, thus, the way the relationship between women and

men is structured is a "basic model for human relations" (Eisler, 1987:168). Moreover, Jeanne Hong Zhang (2004) comments on women's poetry in the light of the twentieth century new critical schools saying that any feminist-based poetry is constituted by “female-authored poems that deal with gender-based themes, experience and psychology in a distinctive language usage” (p.16).

In *South America Mi Hija,* Doubiago travels with her daughter to Colombia, Peru

and Ecuador so that she can address her self, the other, and her daughter. We read the poetess's sufferings during such a journey where she and her daughter encounter thieves, beggars, and deviated people. Both of them visit different places and ruins where there are manifestations of a long history of human sacrifice, conquest, and revolution. The poetess aspires to deeply and freely communicate with the self and the other and debate about "gender war." It is traditional to blame "hormones" for the inability to communicate with the same gender in any society. In this sense, M. Lewis and J. Brooks-Gunn (1989) define gender as the "single most salient individual variable in the socialization process" that affects how people think of themselves and how others respond to them. In addition, both writers emphasize the role of language in the construction of the self, viewing language as a "discursive action" (p.162).

Furthermore, Doubiago experiences a lot of historical places and different people where she gets influenced by what she sees and then delivers this lengthy poem, all of which sustains her self-knowledge and self-discovery. In this sense, Doubiago's poetic discourse is the "medium for the commonality of thought" that allows the readers to understand the "feminine knowledge" in social and textual affairs (Ellison, 1990:88). The poetess mentions a lot of

goddesses' names and mythical figures, such as Isis, Ishtar, Europa, Demeter, and Persephone These mythical names are masterfully employed by the poetess to signify a variety of themes and issues such as gender relations and tensions, familial and social ties, seduction, betrayal, birth, death, nature, and femininity. Her landscape seems to be cosmopolitan without time to serve as a "point of departure" for most of her poems in this volume (Ullman, 1993:189). This collection of poems is enriched with names, facts places, quotes, and symbols, all of which serve as a powerful source for Doubiago's knowledge and to sustain her vision as a female figure.

In addition, Doubiago testifies in a plain language that man carries "both/the male and the female/ in his genital sacks" (1992:271). Whereas woman, our other first, carries ova, then a fetus in the uterus, then a child at her breasts. This testament allows the poetess to reflect her interior identity, as female, derived from women's "biological nature," which is manifest in the "genitalia" (Meyers, 2000). Catherine R Stimpson (1993) points to the poetess's poetics in privileging heterosexuality that is changed with "archaism and nostalgia," to redeem the sexualities of the "grubby, steely, killing" women in the process of regenerating life cycle (p.264). In this sense, Doubiago mythologizes sexuality, as it is a wide appeal across a modem spectrum of today's ideologies. Accordingly, the poetess seems conscious of the differences among women, too. Her consciousness is shown clearly when she travels through "Third World" countries, where women cannot escape the gaps among woman that class, race, and culture have established.

Throughout this personal travel biography, Doubiago expresses her feelings towards the conflicting positions between the male and female, extending this discourse to

include the conflicting relationships between mother and daughter, nation and nation, man and nature, man and woman, and the self and the other. Doubiago's feminist discourse emphasizes crucial features of selfhood such as "inter-subjectivity, heterogeneity, and social construction" (Meyers, 2000). Besides, she adopts a powerful didactic discourse in an attempt to convey a clear message to her audience about such issues. In this sense, Doris Lynch (2000) implies that Doubiago has the strong intention to present "a vital, feminist, and extremely sensitive self," which *South America Mi Hija* keeps showing in an aesthetic and influential way (p.277). Zhang maintains that such feminist writings are similar to a "web of inter-related metaphors from graveyards to snow, scissors to paradoxical images of motherhood and life itself," and this technique is employed by Doubiago in most of her poems in *South America Mi Hija* (2004:162).

Doubiago is fully aware of the tenderness and vulnerability of her daughter and her innocence as well. Accordingly, she tries to answer her daughter's question "what is a Virgin?" in a careful and responsible way:

> But here at culture's altar
> where she
> is buried alive
> here where she is forever veiled from the world
> that dies for need of Her
> here, where all the past uses of that word
> Virgin
> fall on her as stone
> though I defined it without judgment or anger
> my daughter, O Virgin undone
> understands
> Are there any good men, Mom?
> (1992:189)

Here, this stanza reminds me of an ancient habit, where the fathers, before the dawn of our religions, used to bury their female infants alive. They claimed that females were the source of shame to their fathers. Yet who is responsible for these cultural and social habits? Is it the imperfect familial raising? I think it is something behind the poetess's control that she cannot tell or decide. Then the word "virgin" falls like a stone on the poetess's daughter's head because she does not know what a "virgin" is or what the society's attitude towards virgins is in such a modem world. The last three lines of the previous quote work as a didactic discourse to tell us readers that mothers are the advocate of their virgin daughters, and they should defend their innocence, chastity, femininity, and virginity as well. The last question resonates with the main question that the daughter raises and opens into sub-questions regarding cultural, religious, social, and political perspectives towards female position in society. Women and men feel in the same way "they need exercise for their faculties and a field for their efforts," argues Virginia Woolf (1989), she adds that women are victims of religious, cultural and social rigid restraints and maltreatments (p.101). Doubiago maintains and practices her creative faculties despite such constraints.

Doubiago's poetic journey allows us to explore her strong feelings such as her grief and compassion for the man whom she lost. This event is a tragic one in the poetess's life and intensifies her worry and grief. Ullman regards such an event as an opening into another major themes such as the yearning men and women have for one another and the impossibility of "satisfying that yearning" (1993:191). The theme is manifested in the poetess's

response to her daughter:

> Nothing will appease her fury and
> her three day-and-night orgy
> of crying, her grief
> for being born (1992:125)

This situation reflects the daughter's identification with her mother's psyche in lamenting the loss of her man. This signifies the common gender quality they share with each other, the gender identity that the poetess frequently invokes in her poems. In this sense, Doubiago seems to universalize the theme of her gender identity when she addresses her daughter in a didactic way, using phrases such as "universal culture of sexism," "reactionary psychology," "core relationship," and "masculine imbalance." This tone of didactic discourse draws Ullman's attention, noticing that the resulting "diffusion of consciousness" of the poetess is obvious in most of her poems, allowing her to diversify
and interweave her gender motifs and themes (1993:195). We see the mythical and the personal references fused into one multi-layered ballad of *South America Mi Hija*.
In another place, Doubiago searches for suitable words to frame her gender identity and subjectivity as the self against the male gender identity as the other. Her words represent a means of explaining and preventing the tragedies of her gender identity in an influential mythopoetic way. -For her, this process is the mechanism in which men "deny their mothers... to find/themselves/ to develop/ technology/ to make/ war" (1992:95). Meanwhile, Ostriker views different stances where Doubiago celebrates "a marriage of opposites" (2001:258)**.** It is the continuous gender conflict, as we will see. Also, the poetess notices that women deny "the feminine" in

themselves to keep their fathers. The poetess directs her quest in mythic terms linking her journey with Persephone's abduction "into the abyss" after being raped by Pluto. Doubiago portrays South America like Persephone, who represents her daughter suffering under patriarchy, "The Third World/ screams, it drops/ it pisses, it hisses, it/ sinks" (1992:100).

Doubiago embraces the whole landscape of South America and identifies it with her "self' and her daughter embodying the promise of the future in which the "gender balance/ of nature" will be resorted. In this regard, Doubiago's mastery of universal mythologies allows her to find universal significance and objective correlative for her personal stress. Such mythopoetics makes our understanding of the poetess's psychosexual equations easier, she admits that "all patriarchies/long for the father" who are the females' source of pleasure and prosperity. But Doubiago, armed with numerous mythical images and signifiers of Aphrodite and Demeter, keeps questing for the self, creating a kind of "revolution of the human beyond gender identity." Doubiago plainly intensifies the moment of being identified in gender where "each woman is a new goddess/ from which each man launched a new war/ the war of gender" (Ibid:230). In this poetic context, the self is hidden in the psyche of the individuals, and it appears only in their inner world.The quest for the self engages Doubiago's mind to locate the meaning of her gender identity and publicize it. In this sense, Howe gives another definition of the self, "a construct of mind, a hypothesis of being, so socially formed" (1992:249).

South America Mi Hija is characterized by the use of a set of binary oppositions and differences, such as the conflict between stasis and dynamic mobility, isolation and engagement, where the poetess touches her daughter's

"powerful flesh" and realizes that all civilizations have fallen down because of the terror of "flesh, women, nature, death, Eros, soul, the unknown, the unnamed, the unsaved inconsequential self." It is the tensest moment of the whole collection when the poetess refers to things that stand in the way of the possibility of rebirth for the self. While in the early poems the self is imaged in terms of its own possibilities of transformation, where "men are unable to love in the universal culture of sexism! deeper, more ingrained than racism" (Doubiago, 1992:14), in the later poems like "Psyche," the self is more often seen as trapped within a closed cycle where the "Psyche will hide from even the self... in her cocoon/on her butterfly wings" (Ibid:261). The poetess moves in a circular space back and forth, but she seems to move more often towards the starting point where her identity can be more sustained and recognized and her psyche "travels/ life after life my life, station! After station to be tried" (Ibid:138). Doubiago's poems record the self in the world where this self -as a female figure- can change, develop, transform, and be reborn. These possibilities of the self are intimately and inextricably bound up with those possibilities of the world where the "feminine part of Earth" is motivated by feelings of distinguished identity and belonging. These mature, distinguished qualities enable the poetess to stand on the opposite space of the male as the other.

Besides, the poetic discourse that the poetess follows shows us that the other should be understood according to the "spiritual discipline," which, I think, privileges the male authority as the only dominant power in the society. For Doubiago, this discipline engenders "self-betrayal" and "self-hatred" on the part of the females, where women know "complicity/at the core of the self/ with the patriarchy" (Ibid:266). In these words, there is a

confession that women take roles in engendering such equation of male- female relationship and submit peacefully-- or by intimidation-- to the other gender. This notion of submission of the self to the other is clear when the poetess touches the stone and sees "Isis/still searching for the phallus/through patriarchies/of an times all places" (Ibid:277).

Doubiago's metaphoric signs of fragmentation and reification-- the abstraction of the self as an individual-- are based on social, political, cultural, and historical facts. Such signs and allusions include the myths of Demeter and Persephone, Third World countries, Buddhism, Confucianism, the Sidewinder, Adam and Eve, and masochism. Other images that denote such metaphors include "culture's altar," "Marx," "Earth," and "Nature." It is Doubiago's consciousness of the other, the man, in terms of gender conflict and identity. According to the poetess, the man in the poem is finally defined by carrying both "the male and the female/ in his genital sacks." But the definition of the women shows her even more alienated, objectified, and dehumanized. While the man/male is the masculine figure who longs for woman to "find the answer/ the riddle of the Sphinx," the woman is the "feminine part of the earth" who should revolt and be motivated by feelings of love. Thus, women do not exist in the gender space unless men need and will them to. This notion of masculinity and femininity reflects the poetess's awareness of gender imbalance and the pains it causes to her gender in a dominant masculine milieu. She addresses her daughter, "O girl/we are the lost feminine/the world searches for/the feminine/the world dies for" (Ibid:94). Here, there is a hint to social and cultural injustices that deny women's right to be reborn, empowered, and recognized as an inextricable half in society. So, the poet

declares a revolution against such injustices telling us that her question is "To be / or not to be," because her culture hates women and the feminine, and this is unfair and "stupid." These significances reflect the poetess's dual consciousness of the self as both subject and object. As a result, Doubiago shows the characteristics of the literature of the oppressed classes in society.

South America Mi Hija, as a feminist epic lengthy poem, is vivid and dynamic; it moves from one space into another in a persuasive way so that we can understand that the poetess means to raise questions about her freedom of action, opinion as long as "Poetry depends on intellectual freedom" (Woolf, 1989:117). In this sense, Ellison says that such dual consciousness is characteristic of "revolutionary" literature, since it shows the "dialectical perception" of self as both subject and object (1990:132). Yet, does this dialectical consciousness of the self as object and subject reflect the poetess's particular social context? I think the poetess seems unable to develop a consciousness of herself in relation to other women. There is no collective identity and discourse; instead it is a subjective feminine discourse despite the many personas and objective correlatives she creates. This poetic device raises the question of how one woman can account objectively for herself and other women in terms of gender war and the injustices they encounter in society. In this regard, can the poetess also be objective and factual in her perception, free from myths and personas?

I think she does not show much of her objectivity in this poem, rather it is the dominant subjectivity that directs her discourse. In a poem like "Mamapacha the Loving Mother of Men," there is a suppressed hysteria where the poetess mixes surrealism, objectivity, and subjectivity. The images of the poem are predominating images of civil

war, betrayal, earthquakes, race, and bleeding:

> The earth quakes and the people float
> […]
> watch out, the Indian warned me, for those men with knives
> the people cry, parade in the Square of Weeping
> their black Jesus, Lord of the earthquakes.
> (Doubiago, 1992:196)

Then she shifts her poetic discourse to a new scene of her own images of hemorrhage where her blood was "pouring out of my vaginala hemorrhage can't stop/ the blood of a lost civilization, a flood," the blood that comes from inside woman, any woman (Ibid:197). These images suggest the poetess's emotional dissociation from the horrific images of killing and dying to the terrible detail of the hemorrhage image. These images also signify the poetess's sense of depersonalization, the splitting of herself on one hand, and the separation of society from itself. I think such dissociation reflects her worries about her gender identity and the ingratitude of her patriarchal society for women. Throughout the poem and being trapped inside her subjective vision, the poetess sees herself caught between nature and society, biology and intellect, Demeter and Persephone, Isis and Osiris, self definition and the expectations of others, as between two mirrors. This image of mirror occupies a relevant space in the poetess's discourse where she looks at herself, and she becomes blind exposing her inability to live her gender's problems and troubles.

Seemingly, the closer the women come to Macchu Picchu, the deeper Doubiago focuses on herself, presenting her personal memories and other cultural motifs. She tells us that Macchu Picchu is a woman's city and "American city

of Sapplo ... a nation! Of female warriors" (Ibid:208). So, it is her self-awareness of womanhood that gives her the impetus to present herself and other women as vital partners in the game of "gender war." She is fully conscious of this war, where she plays her feminine roles that vary from "the rough banality of the divine" (Stimpson, 1993:262). Hence, Doubiago witnesses and reports the pains, woes, helplessness, and sufferings of her gender. In this lengthy poem, the poetess shows a large sense of self that enables her to remember and witness the tiny detail of feminine microcosm in the sphere of the large universe, "I'm broken so badly, I'm every creature/ever trapped in matter and thought, civilization/calcified as rock" (1992:283). The self here is the poetess's "lens of scrutiny" with which she investigates the psychological states of her gender, and it is helpful for the study of anxiety, the condition that grows in "acuteness" as awareness of self increases (Howe, 1992:251). Also, Lynch pinpoints that Doubiago masters the feminine discourse where she holds in a hand her gender identity and in the other her national identity; both are fused in her lengthy epic in *South America Mi Hija*, where she offers her readers imaginative poems full of metaphor, poems that "thrum with a pulsing feminine sensibility" (2000:281).

Moreover, gender is the central dominant theme of this poem, and it is sustained by the many allusions and references Doubiago mentions ranging from myths, heroes, heroines, nature, herself, and her daughter. This theme is the focus of the feminist discourse in literature nowadays. This discourse attempts to "integrate social and political determinations with an analysis of the psychic ordering of gender" (Ellison, 1990:222). The poetess's poetic moral revolves around the words "gender,"

"hegemony," and patriarchy that she inserts in her lengthy poem. Her feminist discourse is centered on her "womb" and "vaginal space" where she bears the microcosm of her gender:

> I wait
> for the words to rise
> out of my rising flesh
> I can near the words
> babbling in the creek of my womb
> calling through vaginal space. (Doubiago, 1992:31)

Here, Doubiago creates her own theory about the nature of the relations between sex, which distinguishes females from males; and gender, which distinguishes the feminine from the masculine according to social and cultural roles (Tyson, 1999:84). Doubiago is aware of the profound relation between sex and gender, and she knows that the bodies and sexualities of women and men are different. Her poetry in *South America Mi Hija* belongs to a feminist school that "universalizes, stabilizes, and carnalizes" the interplay between the two words: men and women. For the poetess, sexuality means erotic desire, seduction, and gratification; besides, it is a means of procreation and generation. She mentions that men, our fathers, carry sperm that determine the sex of the infant. To the best of my knowledge there are two kinds of sperm: the male which has short life span, twenty four hours, and the female which has longer life span, up to seventy two hours. This suggests that the poetess is aware of this fact and sustains that females are capable of surviving hardships and troubles.

Therefore, Doubiago is aware of her feminist role in society, and this awareness is reflected in her thematic and

rhetorical ways of her discourse. On the level of gender subjectivity and identity femaleness unites women, while maleness unites men in the domain of heterosexuality. Mother, as the self in the gender war, occupies the main space of Doubiago's discourse. Also, she expresses her erotic feelings as a mother to her daughter passionately and didactically in "Earth Lagos Present:"

> .. .entered a strange stream, a sexual
> stream, the ecstasy of time and place
> like mountain, like seas at the risen continents
> I could hear time, a mechanic sound
> I could feel creation, my self in place
> for the first time (Doubiago, 1992:127-28)

In this context, Ostriker views strong feminist discourse and consciousness about the common feminist issues in every society, implying that Doubiago's lengthy poem is characterized by "its amplitude and tempo," offering clear feminist views of the beauty and poverty, squalor, cruelty and mystery "out the window," all of which alternate with "inside" meditations on mother-daughter, mother-son, male-female love and betrayal--biological, psychic, mythic (2001:260). Zhang views a wide and courageous step into "an aesthetic stream," whether "semantic" or "syntactic" (2004:16).

Moreover, for Doubiago, the personal is the political, the religious, the cultural, and the universal. This is why *South America Mi Hija* seems to lament in detail the "interlocking of patriarchal psychology," when family structure, state, and faith are examined. Obviously, Doubiago uses the pronoun "I" numerously expressing a striking feature for her own self and subjectivity throughout the poem. In this regard, Meyers (2000) views

the self as a subject of "enunciation," when the speaker uses the pronoun 1. For Howe, the self "attains the dignity of a noun" to register an "enhancement of authority" (1992:250). It is Doubiago's own way in referring to herself and her gender revealing her "sexed/gendered identity" freely and consciously.

No doubt, Doubiago's "historiography" tells us that women have neither accepted nor celebrated their bodies and sexuality, but they have imprisoned them in social, cultural, and psychological "cells" (Stimpson, 1993:266). Doubiago's feelings of misogyny are mentioned in different poems in her collection. She tells us that because some women have power, men have fought them, reduced them to objects and nothingness. In her poem "Mother," the poetess touches the stone and knows the male, knowing his identity, "must see his mother/female/must objectify her/woman" (Doubiago, 1992:265). Then she touches the stone and knows "the hatred of woman/is the hatred of nature" (Ibid:267). Also, she addresses her daughter in "Gender," telling her that male rejects "women/his mother and will identify himself... objectifying you/his first act of self' (Ibid:271). Commenting on this issue, Ostriker tells us that Doubiago employs a convention that "the male-female conspiracy to keep history mad has become impossible to sustain" which is a recurrent and agonizing motif throughout *South America Mi Hija* (2001:260).

For Doubiago, the war against women is civilization's war since women connect us to nature:

> The flesh and blood from which we come
> Mama
> first Virgin
> Unknown. Unconquerable
> female body, maker

of our death as well as our life, why
her, why we hate
Nature.
(1992:281)

Such hatred of both women and nature and the destruction of civilization are man-made a apocalypse" (Stimpson, 1992:266). It is Doubiago's sight and insight that see men write and act out patriarchal scripts, and rule women. They, men, also reduce female creativity to the figure of Isis, the goddess who must find and bind the fragments of a dismembered male body together:

Earth will explode
consciousness is a created
creative event
a bucket full of water
as we are creating it
We are not separate
but psyche will hide
from even the self (1992:261)

This is why she chose to travel with her daughter, not with her son. The mother-daughter relationship is crucial to the identity of each one of them because". .. the daughter is the core of the mother." This relationship is based on the fact that giving birth to a daughter, mothers give rebirth to themselves. It is, I think, universal fact and tradition.

Thematically, Doubiago also searches for the core of being, of framing her self, of defining her gender in the hegemonic patriarchal ideologies. She is aware of this system where all natural, human, and sacred activities are "organically' connected, establishing relations that "puns and words with double/treble meanings convey" (Stimpson, 1993:268). Woolf stresses that women and

men are different in a variety of ways; their nerves which feed their brains are different. It is right whenever it comes to writing poetry or fiction for they have different genes, mentalities, capabilities, attitudes, social norms, habits, desires, hopes, expectations and dreams (1989:99). Yet, Woolf cries to "Lock up your libraries … [and] to set upon the freedom of … mind," so she defies the patriarchal powers that enable men to be the superiors in any human society and calls women to decide upon their own paths (Ibid:111).

Later, Doubiago hopes to revolt with other women to change the dominant structures of gender within the self, family, and society. This gender revolution will end with the collapse of all other structures of domination and submission. The poetess also aspires to subvert the "male monopoly of positions of economic, political, and social power" (Tyson, 1999:84). This is ostensible in the poem "Amazon" where the poetess admits hysterically the dominance of the male 'masculinity" over women femininity through the sufferings, hate, heartbreak, labor, and birth on the part of women. Doubiago, however, does not surrender to such a system; she calls for reclaiming the female powers that the "patriarchs have removed from the public life" (Stimpson, 1993:270). She continues mentioning myths, legends, and feminine-nature images sustaining her popular consciousness in the arena of gender war. Replacing the refrain "out the window' with another one "I touch the stone," Doubiago emphasizes her gender unity against the patriarchal dominant society:

> The son as Time, evolutionary
> Savior, the sun the male
> bounded to the mother
> to the sister
> to daughter

to woman
to Earth (1992:284)

This replacement asserts Doubiago's feminist vision of female's originality and capability of always being the center of the creation in the world. In brief, Doubiago presents her self-discovery as a woman and a mother emphasizing her perspectives of the gendered self and other. She also shows self-awareness and consciousness of her gender war in the dominant patriarchal societies. Her gender themes about the self and the other are conveyed plainly and extensivelyy. Yet, Woolf states that masculine-hegemonic beliefs and practices challenged women creativeness and voices:

> Since her pin money, which depended on the goodwill of her father, was only enough to keep her clothed, she was debarred from such alleviations as came even to Keats or Tennyson or Carlyle, all poor men, from a walking tour, a little journey to France, from the separate lodging which, even if it were miserable enough, sheltered them from the claims and tyrannies of their families. Such material difficulties were formidable; but much worse were the immaterial. The indifference of the world which Keats and Flaubert and other men of genius have found so hard to bear was in her case not indifference but hostility. (1989:52)

This means that women have to challenge the rooted power of men in order to set up a place for their own creativity and voices. Women also have to decentralize the

male authority to construct a unity for gender coherent self and authorial discourse. Woolf offers a cry to engender and strengthen feminist consciousness against the dominant masculine identity and authority.

References

Doubiago, Sharon. (1992). *South America Mi Hija*. Pittsburgh: U of Pittsburgh P.

Eisler, Riane. (1987). *The Chalice and the Blade: Our History, Our Future.* New York: Harper and Row.

Ellison, Julie. (1990). *Delicate subjects: Romanticism, Gender, and the Ethics of Understanding*. Ithaca: Cornell UP.

Howe, Irving.(1992). "The Self in Literature." *The Construction of the Self.* Ed. George Levine. Rutgers UP, pp. 249-66.

Lewis, M. and Brooks-Gunn, J. (1989). *Social Cognition and the Acquisition of Self.* New York: Plenum.

Lynch, Doris. (2000). "Body and Soul." *Library Journal*. Vol. 125, pp. 276-283.

Meyers, Diana. (2000). "Self Understanding and Theory of Mind." *Stanford Encyclopedia of Philosophy.* Retrieved August 30, 2011 from http://Plato.standford.edu/entries/feminism-self/#A.

Ostriker, Alicia. (2001). "Beyond Confession: The Poetics of Postmodern Witness." *American Poetry Review*. Vol. 30, pp. 256-262.

Stimpson, Catherine R. (1993). "Demeter in South America." *Parnassus: Poetry in Review.* Vol. 17/18, pp. 258-71.

Tyson, Luis. (1999). *Critical Theory Today: A User-Friendly Guide.* New York: Garland

Publishing, Inc.
Ullman, Leslie. (1993). "Betrayal and Boundaries: A Question of Balance." *Kenyon Review*. Vo1. 15, pp. 182-96.
Woolf, Virginia. (1989). *A Room of One's Own*. New York: Harcourt Brace.
Zhang, Jeanne Hong. (2004). *The Invention of a Discourse: Women's Poetry*. Leiden: CNWS Publications.

Journal of
Averroes University
in Holland

A quarterly periodical arbiter scientific journal

Correspondence

Lorsweg 4, 3771 GH, Barneveld
The Netherlands
Website www.averroesuniversity.org
E-mail ibnrushdmag@averroesuniversity.org
NL242123028B01 Tax record - KvK 08189752 Registration number in the Netherlands

All published works are evaluated by experts of their own field of science and art.

Account number: Account number 489607721 :ABN AMRO

DE HEER T.A.A. AL ALOUSI H/O

AVERROES UNIVERSITY IN HOLLAND

LORSWEG4

3771GH

BARNEVELD

BIC ABNANL2A

IBAN NL35ABNA0489607721

The price of an issue is €10,00 or its equivalent in US dollar.

Annual contribution	**Individuals**	**Organizations**
Anuual	60	80
Two years	110	150
Three years	160	200

Sixth Issue June 2012

Journal of Averroes University in Holland

Issue 6 Price €10,00

